وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الموصل

الأدب العربي
في العصر العباسي

تأليف
الدكتور ناظم رشيد
كلية الآداب - جامعة الموصل

١٤١٠ هجرية - ١٩٨٩ ميلادية

نشر وطبع وتوزيع :
مديرية دار الكتب للطباعة والنشر
شارع ابن الاثير - الموصل
الجمهورية العراقية
هاتف ٧٦٣٢٣١
٧٦٣٢٣٥
تلكس ٨٠٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

اللهمَّ منك نستلهمُ الهداية والرشاد ، والتوفيق والسداد . ونستمدُّ منك العصمة من الزلل ، والصون من الخطل . إنَّك على ما تشاء قدير ، وبالاجابة جدير ، وبعد :

فإنَّ الحقبة التي حكم فيها بنو العباس من ابهى العصور والأيام في تاريخ امتنا المجيدة ، زهت فيها المدنية ، وارتقت الحضارة ، وعمَّت الغضارةُ ، وسمتْ العلومُ ، ونمت الآدابُ ، وبلغ العطاءُ الفكري منزلة منيعة ، ووصل الانفتاح العقلي مكانةً رفيعة . وكانت الثمرة جنيُّةً طيبةً غزيرةً ، وحسبنا دليلًا ما وصل الينا من اسماء العلماء والادباء الابرار ، والذخيرة الكبيرة من الكتب والاسفار .

انَّ الأدب العباسي واسع وكبير ، ولا يمكن للمرء أن يستقصيه في دروس قليلة وساعات محدودة . ولكن ما لا يُدرك جلُه لا يتركُ كلُه ؛ لذلك تناول هذا الكتاب المتواضع خلاصة هذا الادب وزبدته من خلال الفنون الأدبية وسير أعلام الشعراء والكتاب الذين ارتأت المناهج الجامعية اقرارها وتدريسها لأبنائنا الطلبة .

يقوم الكتاب على قسمين كبيرين ، الأول يتناول الأدب ـ شعراً ونثراً ـ من قيام الدولة العباسية سنة ثنتين وثلاثين ومئة للهجرة الى سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة للهجرة . وهي السنة التي جاء فيها البويهيون الى بغداد وقضوا على هيبة الخليفة وجرَّدوه من سلطته الدنيوية . والقسم الثاني ينتهي بانتهاء الدولة العباسية سنة ستٍ وخمسين وستِ مئة للهجرة . وهي السنة التي احتلَّ فيها الغزاة من جيش هولاكو بغداد .

لقد حاولنا جهدنا أنْ نُقدم المادة بأسلوبٍ مكثفٍ ومفيد ، مستعينين باختيارات أدبية رفيعة تجتمع حولها القلوب ، وتطمئن لها النفوس . ومبعدين كلَّ ما هو مزرٍ ومشين ، ومُكدِّر للخواطر .

وإنِّي لأجد في نفسي من واجب الوفاء أن أقدِّم أجمل الشكر وأجزله الى عمادة كلية الآداب ، والى قسم اللغة العربية ـ رئاسة وأساتذة ـ لما أبدوه من تشجيع وحفاوة في تأليف هذا الكتاب .

وفّق الله الطيبين ، وعزّز مكانة المخلصينَ ، وسدّد خطاهم لما فيه خير البلاد ، انه نعمِ المولى ونعمِ النصير .

الدكتور
ناظم رشيد
كلية الاداب – جامعة الموصل

قيام الدولة العباسية :

ضعفت الـدولة الأموية في أعوامها الاخيرة . وأصبحت لا تقوى على الوقوف أمام القوى المناوئة لها . وكان لفريق من العرب الحانقين على بني أمية ، ومن الكارهين لحكمهم من غير العرب ، الدورُ الكبيرُ في انهيارها . وزوال سلطتها . وانقضاء عهدها . الى جانب الاضطراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي في عهد آخر خلفائها مروان بن محمد .

كان بنو العباس ، وهم فرعٌ من بني هاشم ، يرون أنَّ الخلافة حقُّهم المسلوب ، وتراثهم المنهوب . فأخـذوا يطالبون بها . واستطاعوا بذكائهم وفطنةِ رجالهم أن يستغلُّوا الكراهية على بني أمية للوصول الى هدفهم المنشود وتمكَّنوا بدهائهم وكياستهم أن يستميلوا العلويين الذين كانوا يطالبون بالخلافة أيضاً ويرون أنفسهم أحقَّ من غيرهم بالحكم . وقدروا أن يقنعوا كبار رجالهم بأن دعوتهم تهدفُ الى احقاق الحقِّ وتسليم الأمر الى « الرضا من آل بيت محمد » . وكلمة الرضا ليست محددة .

وكان في خراسان اثنا عشر داعياً يعملون على هدم كيان بني امية ، واقامة سلطان هاشمي ، وهم على اتصال بالمركز في الكوفة . وكان الموجِّه للدعوة في باديء الأمر أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي اضطر أن يلجأ الى بني عمِّه من آل العباس الذين يُقيمون في « الحُميمة » من أرض فلسطين جنوب البحر الميت . وكان محمد بن علي بن عبد الله بن العباس اكبر رجال آل العباس آنذاك . فالتقيا . واتفقا على العمل سوية لازالة حكم الأمويين وتسلُّم السلطة منهم . واقامة دولة جديدة . ولما احـسَّ أبو هاشم بدنوِّ أجله ولم يكن له عقب أوصى لمحمد بن علي بن عبد الله بالامامة من بعده . وأعلم خاصَّته بهذا الأمر . وكان هذا في سنة ٨٧ أو ٩٨ للهجرة . وهكذا أصبح محمد بن علي الشخصية الأولى من بني العباس تتولَّى زعامة الحركة المضادَّة لبني أمية وتشرف على ادارة الفئة المعارضة للحكم في دمشق . وآثر أن تبقى الدعوة سريَّة . واختار سبعين رجلاً يأتمرون بأمر الدعاة الاثني عشر(١) . يعملون في الخفاء على نشر الدعوة العباسية . وكانوا

---

(١) انهم اختاروا هذا العدد ليضفوا الشرعية على دعوتهم ، فقد جاء في قوله تعالى (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا) ثم قال في آية أخرى (وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا) ، وان رسول الله صلى الله عليه وسلم وافاه ليلة العقبة سبعون رجلا من الأوس والخزرج فبايعوه ، فجعل منهم اثني عشر نقيبا (أخبار الدولة العباسية ص ٢٦٥) .

يجوبون البلاد متظاهرين بالاتجار، أو طلب العلم، أو التطبيب، أو السياحة، وهم يبثون أفكارهم بين الناس، ويكثرون مآزريهم ومؤيديهم في الثورة على بني أمية وازاحتهم عن الحكم وابعادهم عن السلطة.

اتخذ محمد بن علي (وهو والد ابراهيم الإمام، وأبي العباس السفّاح، وأبي جعفر المنصور) مكانين لنشر الدعوة، أحدهما في الكوفة، والثاني في خراسان، وزاد الإقبال على هذه الدعوة ولا سيما في خراسان التي أصبحت آنذاك مركزاً بارزاً لقيادة المعارضة والتمرُّد على سلطة بني أمية.

ولما توفي محمد بن علي سنة ١٢٥ للهجرة تولّى الأمر من بعده ابنه ابراهيم وصار هو الامام. وسار على درب ابيه في العمل السري تحضيراً للاجهاز على الدولة الأموية، واعتمد على رجل ذكي هو أبو سَلَمة الخلاّل، وجعله كبيراً للدعاة في الكوفة. أما خراسان فجعل عليها أبا مُسلم الخُراسانيّ الذي أصبح فيما بعد القائد للجيوش الزاحفة على معاقل الامويين. وكان أبو مسلم «شديد الاخلاص للعباسيين، مسرفاً في خدمتهم، كثير الدهاء، واسع الحيلة، خبيراً بما يقتضي عمله من الحزم والقسوة، فلا تعرف الرحمة قلبه، ولا يتناول الأمور الا بالحزم والبأس الشديد»(٢)

ولما اشتدّ أزر العباسيين، وأصبحت دعوتهم ذات قاعدة قويّة قادرة على تحمل أعباء الثورة، طلب ابراهيم الامام من داعيه أبي مسلم الخراساني أن يعلن الدعوة صراحة وجهراً بين الخلائق، فاستجاب له، وكان ذلك سنة ١٢٨ للهجرة، ولبس السواد الذي اتخذه العباسيون شعاراً لهم تيُمنا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي دخل مكة فاتحاً تحت رايةٍ سوداء.

وقد أحسَّ نصر بن سيّار عامل الأمويين في خراسان بالخطر، واستصرخ الخليفة، وصوَّر في أبيات من نظمه الحالة المأساوية التي تنتظر الأمويين اذا لم يهبُّوا لإخماد الجذوة المتّقدة التي ستحرقهم وتحيلهم الى هباءٍ منثور(٣):

---

(٢) عصر المأمون ١: ٨٤.

(٣) ديوان نصر بن سيار الكناني ص ٤٠، عيون الاخبار ١: ١٢٨، مروج الذهب ٢: ٢٤٠، الفخري ص ١٤٤.

أرى خَلَل الرَّمادِ وميضَ جمرٍ ويوشكُ أن يكونَ لهُ ضرامُ
فإنَّ النارَ بالعُديْنِ تُذْكى وإنَّ الحربَ أولُها الكلامُ
فإن لم يُطفِها عقلاءُ قومٍ يكونُ وَقودها جُثثٌ وهامُ
فقلتُ من التعجبِ : ليت شِعري أأيقاظٌ أميَّةُ أم نيامُ ؟ !

لم تنفع هذه الصرخة . فإنَّ نار الحرب اتَّقدت وامتدَّ أوارها الى أماكن كثيرة وواسعة . حيث استولى أبو مُسلم على مُدن خراسان وقتل نصر بن سيَّار وهو شيخ كبير ابن خمس وثمانين . سنة ١٣١ للهجرة(٤)

ولما شعر الخليفة مروان بن محمد بالخطر الذي ينتظره بعث جنداً ليقبضوا على ابراهيم الامام . حيث أدركوه وهو بالحُميمة واستقدموه الى الخليفة . ولما علم أن مصيره الى الهلاك كتب الى أبي مُسلم الخراساني رسالةً قال فيها : « أما بعد فإن رأيتموني قتيلاً أو ميتاً فلا يثنينَّكم ذلكَ عن القيام بالحقِّ . فوالذي آمن به المؤمنونَ ، وكفرَ به الكافرون ليتمنَّ الله أمرَكم . وليعزَّنَ دعوتكم . وليظهرَنَّ حقَّكم . وليقتلُنَّ جبابرة بني أمية بأسيافكم . وليقومنَّ رجلٌ من إخوتي خليفة مطاعاً وإماماً متبوعاً » .(٥)

حُبس ابراهيم الامام . وتُوفي في السجن . وقيل إن الخليفة مروان بن محمد دسَّ اليه السمَّ في إناء لبن . وكانت وفاته سنة ١٣٢ للهجرة ورثاه الشاعر ابراهيم بن هرمة بعدة قصائد(٦) وقد كتب قبل وفاته الى اخيه أبي العباس عبد الله السفَّاح أن يتولى قيادة الحركة . وأن يتوجَّه الى الكوفة .

سار أبو العباس واخوته وأهله الى الكوفة . وكان أبو سلمة الخلَّال الذي لقَّبوه « وزير آل محمد » يُديرُ الأمور في هذه المدينة ويتولَّى تنظيم شؤون الثورة .
ووردَ أمرٌ من أبي العباس السفَّاح الى أبي مسلم الخراساني بالتحرك نحو العراق . وحينما سمع الخليفة مروان بهذا النبأ طلب من عامله على العراق ابن هُبيرة ملاقاة الجيش الزاحف . ولكن هذا الطلب جاء بعد فوات الأوان . فانَّ جيش العباسيين اتَّجه الى الكوفة ودخلها ، وفيها أعلن عن خلع مروان

---

(٤) تاريخ الطبري ٧ ، ٤٠٤ .
(٥) أخبار الدولة العباسية ص ٢٩٣ .
(٦) أخبار الدولة العباسية ص ٤٠٥ — ٤٠٩ .

وأتّجهت الجيوش العباسية لمتابعة حرب الخليفة مروان بن محمد بقيادة عبد الله بن علي عم السفّاح . فالتقت به على نهر الزاب شمالي العراق ، وهزمته وجيشه هزيمةً ساحقة . وفرَّ مروان الى مصر ، ولقي حتفه في بُوصير من مدن الصعيد على يد الجنود التي بقيت تلاحقه أواخر سنة ١٣٢ للهجرة .

ولم يطمئن أبو العباس السفّاح الى مقامه في الكوفة ، دار العلويين من قديم ، فتحوّل عنها الى معسكر الخراسانيين ، ثم فارقه الى الحيرة ، وأخذ في بناء الهاشمية لتكون مقر سلطانه ، وأغرى ابا مسلم بأبي سَلمة الخلّال ، فدسَّ اليه من قتله ، لأن أبا سلمة كانت نيّتُه معقودةً على استبعاد العباسيين ، حتى إنه أخفى أمر أبي العباس السفّاح وأهله حين قدموا الى الكوفة بل عزلهم عزلاً تاماً عن جند خرسان(٧) .

ظفر العباسيون واتباعهم بالحكم بعد فتكهم بالبيت الأموي ، وقد شارك فريق من الشعراء في حرب بني أمية وتأليب الناس عليهم واستئصال شأفتهم ، منهم سُديف بن ميمون . قال ابن الطقطقا عن الخليفة أبي العباس السفاح : « كان في بعض أيامه جالساً في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفّاح ، فدخلَ عليه سُديف الشاعر ، فأنشده :

لا يغرَّنْكَ ما تَرىَ مِن رجالٍ إنَّ تحتَ الضلوعِ داءً دويّا

فضعِ السَّيفَ وارفعِ السَّوط حتى لاترى فوقَ ظهرِها أمويّا

فالتفت سليمان وقال : قتلتني ياشيخ ! ودخلَ السفّاح ، وأُخِذَ سليمان فقتل »(٨) وبالغ بنو العباس في تعقُّبِ الأمويين وقتلهم واستصفاء أموالهم ، سخطاً عليهم ، وانتقاماً منهم ، وكان هذا العمل الصارم دافعاً لعبد الرحمن الداخل حفيد هشام بن عبد الملك الى الهرب واللجوء الى الأندلس واقامة دولة أُموية جديدة هناك .

ولابدَّ من الاشارة هنا الى مسألةِ هويّة الدولة العباسية ، أهي عربية أم أعجمية ؟ قال الجاحظ : « إن دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان أُموية عربية(٩) » ، وقال المسعودي في معرض حديثه عن قيام الدولة العباسية وزوال

---

(٧) ينظر تاريخ الطبري ٧ ، ٤٢٩ .

(٨) الفخري ص ١٥١ .

(٩) البيان والتبيين ٣ ، ٣٦٦

الدولة الأموية : « سقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها ، وذهبت مراتبها[10] » .
إن هذين القولين وأمثالهما فيهما شيء من التهويل ، ونترك الجواب عليهما للدكتور عبد العزيز الدوري في حديثه عن نشأة الدولة العباسية بعد عرضه لأقوال السابقين : ولعل هذه الاقوال صحيحة في أساسها ، لكنها متطرفة على ما أرى . فمن المبالغة أن نقول بأن سلطان العرب ينتهي بسقوط الأمويين . فالخلفاء العباسيون كانوا عرباً هاشميين ، وكانوا يعتزون بنسبهم ، ويعتبرونه أكبر مناقبهم ، ومع انهم قربوا الفرس ، إلاّ أنهم سيطروا عليهم فنكّلوا بهم حين شعروا بتعاظم نفوذهم ، كما فعل أبو العباس السفّاح بأبي سلمة الخلاّل ، والمنصور بأبي مسلم الخراساني ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل . وقد أعطيت بعض المناصب الهامة كالوزارة الى الفرس ، ولكن عدداً كبيراً من الولاة والقواد كانوا عرباً في العصر العباسي الأول ، وانّ كثيراً من اصحاب المناصب في الدولة الجديدة كانوا عرباً[11] .

نظام الادارة :

لم يتخلَ العباسيون كلياً عن الأنظمة الادارية المعمول بها في دولة بني أُمية بل أخذوها وطوّروها وزادوا عليها بعد اختلاطهم بأمم أخرى ، وتمازجهم مع أجناس كثيرة غير عربية . فمن الأمور البارزة التي أوجدوها وجعلوها ركيزة قوية في ادارة الدولة هو نظام الوزارة ، وأعطوا الوزير صلاحيات واسعةً في الاشراف على الشؤون العامة في الجهاز الاداري . وكان أول وزير لهم حفص بن سليمان الذي عرف بأبي سلمة الخلاّل .

وهناك وظائف أخرى عُنوا بها ، منها وظيفة الحاجب التي تتولّى أمر الدخول على الخليفة ، ووظيفة الكاتب الذي يتولّى أُمور الكتابة عن الخليفة ، وكانت لهذه الوظيفة تقاليد وآداب يُتقنها العاملون فيها . أما القُضاة فكانوا عُدولاً ، يمتازون بالأمانة والنزاهة والصدق . ينظرون في أمور الناس ومشكلاتهم الدينية والدنيوية . وكانت كلمتهم مسموعةً عند الخلفاء وأُولي الشأن في الدولة . وأعطى الخلفاء الأوائل

---

(١٠) مروج الذهب (طبعة باريس) ٨ : ٢٩٢
(١١) العصر العباسي الأول ص ٤٦

عناية فائقة بالجيش، وعينوا له قُوَّاداً ماهرين في التدريب والتعبئة والقتال، فهو الوسيلة الوحيدة لحماية الدولة وحفظ كيانها ومحاربة المتمردين أو الخارجين عليها، وقد أطنب الطبري في وصف جيش أبي جعفر المنصور وحسن تنظيمه واختيار قواده.

ونظَّمَ العباسيون سجلاتِ الدواوين، ورتَّبوها ترتيباً دقيقاً. ووزَّعُوها حسب الاختصاصات، ووكَّلوا عليها موظفين ماهرين، عُرفوا بأصحاب الدواوين، مثل الخراج والخاتم والنفقات والصدقات والبريد والجند والإقطاع والمصادرة والشكاوى والضرائب وأشركوا غير العرب في هذه الوظائف واستفادوا من خبراتهم وإمكاناتهم في الأعمال الادارية والفنية.

ورتَّبَ العباسيون أيضاً الأمور المالية كي يجابهوا متطلبات الدولة الجديدة، فأحدثوا ضرائب جديدةً تُضاف الى الضرائب السابقة التي كان الأمويون يتقاضونها مثل ضريبة المصائد والسفن، وضريبة أخماس المعادن، وضرائب المواريث والتركات.

بناء بغداد :

تركَّزتْ قواعد الدولة العباسية، وثبتتْ أركانُها، بعد تولّي أبي جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦ للهجرة. وهو يُعد المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي أصبحت بعد فترة قصيرة ذات شأن خطير ودور كبير في ادارة رقعة شاسعة من العالم الاسلامي ترفرفُ عليها رايةُ القوةِ والعظمةِ، وتظلِّلُها معالم الحضارة والمدنية. وفي عهد هذا الخليفة أُنشئت بغداد بعد اختيارٍ دقيقٍ، واستشارةٍ موفقةٍ بالمهندسين والعارفين بالاماكن الجيدة والمواقع الرصينة الصالحة للاتصال بأطراف الدولة المترامية الأطراف من كلِّ الجهات.

وضع الخليفة المنصور أولَ لَبِنَةٍ المدينة الجديدة بيده سنة ١٤٥ للهجرة قائلاً: «بسمِ اللهِ، والحمد للهِ، الأرضُ للهِ يورثها مَنْ يشاء من عبادهِ والعاقبةُ للمتقين[١٢]». وظلَّ البناءُ قائماً بها حتى سنة ١٤٩ للهجرة، وجعلها مدورةً، وبنى

---

(١٢) الفخري ص ١٦٣.

قصره في وسطها ، وأخذتْ تنمو يوماً بعد آخر حتى « أصبحتْ أهمَ مدينةٍ في العالم العربي ، إذ بُنيتْ بها مئاتُ المساجد وعشرات القصور الفخمة ، وتكاثر بها التجار والصنّاع . وكان لكلِّ طائفةٍ منهم شارعٌ خاص أو سوق خاصة ، فهذا سوق العطارين ، وذاك سوق البزازين ، وهذا سوق الصيارفة مستبدلي النقود ، وذاك سوق الورّاقين ، وهذا سوق بائعي الحُلي والطرف المعدنية ، وذاك سوق الرقيق المكتظ بالجواري من كلِّ جنس ، وأمَّها المغنون والمغنيات ، ونزلها الأدباء والعلماء من كلِّ صنف وعلى كل لونٍ . فزخرت بالحياة ، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزَّهات وميادين اللعب بالصولجان وغيره ، كما تزينها القوارب التي كانت تتلألأ على صفحات دجلة بأشكالها المتنوعة(١٣) »

وكانت بغداد في بادىء أمرها تضمُ الجانب الغربي الذي يُعرف بالكرخ ، ولما ضاقت بسكانها تطلَّع المنصور الى الجانب الشرقي لنهر دجلة ، وبنى فيها قصراً لابنه المهدي ، وثكنات للجيش تتخللها الأشجار والبساتين ، وأخذتْ تنمو وتتسع حتى أصبحتْ لاتقل جمالاً وتنسيقاً عن الجانب الآخر وسميت بالرُصافة ، ووصل المنصور بين الشطرين بعده جسور(١٤) ، يُذكِّرنا بواحدٍ منها عليُ بن الجهم في قوله(١٥) :

عيونُ المها بينَ الرُصافةِ والجسرِ جلبنَ الهوى من حيثُ أدري ولا أدري
أعدنَ ليَ الشوقَ القديمَ ولم أكنْ سلوتُ ولكنْ زدنَ جمراً على جمرِ

وقد أشاد الكثيرون بجمال بغداد ، وبهاء مناظرها ، وروعة مبانيها . قال الجاحظ : « لم أرَ مدينةً قطُ أرفع سمكاً ، ولا أجود استدارةً ، ولا أوسعَ أبواباً ، ولا أبهى عقوداً ، ولا أحكم سوراً وفصيلاً من مدينة المنصور ... وأنشد :

ياحبَّذا بغدادُ من بلدةٍ يا ليتني أوطنتُ بغدادا
لم ترغبني من مثلها بلدة أطيبَ إصداراً وإيرادا
إن ردَّني اللهُ إلى أهلها لم أتزوَّدْ للنَّوى زادا(١٦) »

---

(١٣) تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ص ١٧

(١٤) بغداد مدينة السلام ص ٥٥ ، تاريخ بغداد ١ ، ١١٥ .

(١٥) ديوان علي بن الجهم ص ٢٥٢ .

(١٦) بغداد مدينة السلام ص ٦٤ .

ونالت بغداد ثناءً عطراً من المؤرخين، والرحّالة، والبلدانيين، وكتّاب التراجم، وأجمعوا على القول: « إنها أمُّ الدنيا، وسيِّدة البلاد، وجنَّةُ الأرض، ومجمعُ المحاسن والطيبات، ومعدنُ الظرائفِ واللطائفِ. ليس لها نظيرٌ في مشارق الأرْضِ ومغاربها، سعةً وكبراً وعمارةً، وكثرة مياه، وصحة هواء. ولأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكُوَر. وانتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرَها جميعُ أهل الآفاق على أوطانهم. فليس من أهل بلدٍ الاّ ولهم فيها محلَّة وَمتْجَر. فاجتمعَ بها ما ليس في مدينة في الدنيا. ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمان: دجلة والفرات. فتأتيهاالتجارات والمير براً وبحراً بأيسر السعي، حتى تكامل بها كلُّ مَتْجر يحمل من المشرق والمغرب. حتى كأنما سيقتْ إليها خيرات الأرض، وجُمعت فيها ذخائرُ الدنيا، وتكاملت بها بركاتُ العالم(١٧) ».

وقد أجاد أحد الشعراء في ذكر فضائلها من قصيدة(١٨):

فالقومُ منها في روضةٍ أُنُفٍ ... أشرفَ غِبَّ القطارِ زاهرُها
من غُرَّة العيش في بُلَهْنِيَةٍ ... لو أنَّ دنيا يدومُ غابرُها
دارُ ملوكٍ قرَّتْ أسرّتُها ... فيها وقرَّتْ بهم منابرُها
أهلُ القِرى والنَّدَى، وأنديةٌ ... لمجدٍ إذا عُدَّتْ مفاخرُها

ومن طريف ما يروى أن الرشيد كان بالرَّقة. وكان يستحسنها ويستطيبها، فيقيم بها، وطال المقام بها مرَّة، فقالت زبيدةُ للشعراء: مَنْ وصف مدينة السلام وطيبَها في أبياتٍ يشوِّق أميرَ المؤمنين إليها أغنيتُه، فقال في ذلك جماعةٌ، منهم منصور النمريّ قال أبياتاً أوَّلها:

ماذا ببغداد مِنْ طيبِ الأفانين ... ومِن منازِه للدُّنيا وللدِّين
تُحيي الرِّياحُ بها المرضى اذا نَسَمتْ ... وجوَّشَتْ بينَ أغصانِ الرِّياحين(١٩)

---

(١٧) صور مطرفة من حضارة بغداد في العصر العباسي ص ٥.
(١٨) بغداد مدينة السلام ص ٩٠.
(١٩) جوشت: سارت.

فوقعت أبيات النمري من بين جميع ما قالوا في قلب الرشيد بحيث أسرع في الانحدار الى بغداد. فوهبتْ زبيدةُ للنمري جوهرةً، ثم دسَّتْ اليه من اشتراها بثلاث مئة ألف درهم(٢٠).

ان بغداد، حاضرة الخلفاء العباسيين، بقيت أغنيةً في فم الشعراء، وقد أحسن أبو سعد محمد بن علي بن محمد بن خلف النيرماني في قوله(٢١):

فقد طفتَ في شرقِ البلادِ وغربِها　　وسيَّرتُ رحْلي بينها وركابيا
فلم أرَ فيها مثلَ بغدادَ منزلاً　　ولم أرَ فيها مثلَ دجلةَ واديا
ولا مثلَ أهليها أرقَّ شمائلاً　　وأعذبَ ألفاظاً وأحلى معانيا

ثقافة العصر:

ان تقارب الامم واختلاطها وامتزاجها تؤدي دائماً الى تبادل الآراء والأفكار والخبرات، وتساعد على تطوير الحياة الفكرية ورقيها وتقدمها. وقد فتحت الدولة العباسية منذ أيامها الأولى الأبواب لجميع الأقوام والأجناس بالاشتراك في عملية تطوير الفكر وتنشيطه، متخذةً اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، والتراث العربي القديم، أساساً في التعبير والتدوين ونقل المعرفة. ولا بدّ من الاشارة هنا إلى أهم الروافد التي اتحدت وانصهرت في كيان عربي إسلامي موحد بلغ القمة في العصر العباسي الأول الذي عُرف عند الدارسين بالعصر الذهبي.

استقى العباسيون الثقافة من عدّة أوعية، وطلبوها من منافذ كثيرة، أضافوها إلى الثقافة الاسلامية. فإنهم أخذوا من الثقافة اليونانية شيئاً كثيراً، وكان ذلك عن طريق المدن التي كثر فيها عنصر الروم، أمثال جُنْديسابور القريبة من البصرة، وحرّان والرُّها ونصيبين وأنطاكية والإسكندرية. ويعد الخليفة المنصور الرائد الأول في طلب العلوم والمعارف، وهو أول خليفة تُرجمت له الكتب من اللغات الأُخرى. وممن لمع اسمه في عهده بترجمة كتب الطب اليوناني أبو يحيى البطريق (ت ١٨٠ هـ) إذ عُني بنقل طائفة من كتب أبقراط وجالينوس(٢٢). واقتفى أثر أبي

(٢٠) ينظر طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٦، وتاريخ بغداد ١ : ٥٠.

(٢١) تاريخ بغداد ١ : ٥٢، فوات الوفيات ٢ : ٧٥.

(٢٢) عيون الأنباء ٢ : ١٧٤.

جعفر المنصور الخليفةُ المشهور هارون الرشيد الذي أنشأ دارَ الحكمةِ وجعلَ فيها طائفةً من المترجمين . ومن أشهرهم يوحنا بن ماسويه ، وجبريل بن بختيشوع .(٢٣)

وبلغت خلافة المأمون القمة في البحث عن المعرفة واجتذاب المترجمين وإيوائهم والانفاق عليهم قال عنه صاعد بن أحمد الأندلسي (٢٤) : « لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمدٍ المهدي بن أبي جعفر المنصور تمّمَ ما بدأ به جدُّه المنصور . فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه ، بفضل همّته الشريفة . وقوّة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صلته بما لديهم من كُتب الفلاسفة . فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطون ، وأرسطو طاليس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وأقليدس ، وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستخار مهرة التراجمة . وكلّفهم إحكام ترجمتها . فترجمتْ له على غاية ما أمكن . ثم حَضَّ الناسَ على قراءتها . ورغّبهمً في تعليمها . فنفقت سوقُ العلم في زمانِه ، وقامتْ دولةُ الحكمة في عصره ، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من احضائه لمنتحليها واختصاصه لمقلّديها . فكان يخلو بهم ، ويأنسُ بمناظرتهم ، ويلتذُّ بمذاكرتهم ، فينالون عنده المنزلة الرفيعة والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلّمين وأهل اللغة والاخبار والمعرفة بالشعر والنسب ، فاتقنَ جماعةٌ من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيراً من أجزاء الفلسفة ، وسنُّوا لمن بعدهم منهاج الطب ومهّدوا أصول الأدب حتى كادت الدولة العباسية تُضاهي الدولة الروميّة أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها » . وهكذا كان المأمون جاداً في معرفة ماعند اليونان من علوم ، وقد أفلح في مسعاه حينما أرسل رجالاً للبحث عن الذخائر القيمة وقد « جاؤوه بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثما طيقي والطب » (٢٥)

إنَّ الخلفاء العباسيين اتجهوا الى الناحية العلمية وكرّسوا جهودهم لها ، لأنها تغذّي العقل . أما الناحيةِ الأدبية التي تغذّي العاطفة فهي مرتبطة بالبيئة التي تنبتُ فيها ، فانَّ الأدب ظل المجتمع . ولكلِّ بيئةٍ تقاليدُها وأذواقُها . ولذلك لانجد كتاباً في الأدب نقل الى العربية من اليونانية على وفرة ماكان لليونانيين من ذلك (٢٦) .

---

(٢٣) عيون الأنباء ٢ ، ٤٢ ، ١٢٣ .

(٢٤) طبقات الأمم ص ٦٤ .

(٢٥) الفهرست ص ٣٤٠ . الارثماطيقي ، الحساب .

(٢٦) معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٣١ .

وشاركت الأمم غير العربية التي دخلت الاسلام وتعلّمت اللغة العربية ، في الحركة الثقافية . وقام فريقٌ ممن أصولهم غير عربية بترجمة الكتب ، ذكر ابن النديم مجموعةً منهم أمثال عبدالله بن المقفع ، والحسن بن سهل ، وأحمد بن يحيى البلاذري ، وجبلة بن سالم ، واسحاق بن يزيد ، وموسى بن عيسى(٢٧) . واقبل فريق آخر على التأليف والتصنيف ونظم الشعر ، واكتسب بعضهم شهرةً كبيرةً في العلم والأدب والغناءِ أمثال حماد الراوية ، وبشار بن برد ، وأبي نواس ، وسيبويه ، والكسائي ، والفرّاء ، وابن درستويه ، وابراهيم الموصلي ، وابنه اسحاق(٢٨) .

واتصل العرب بالثقافة الهندية ونقلوا منها ولاسيما في الرياضيات والفلك والطب ، وقد ذكر ابنُ النديم اثنين من الذين نقلوا العلوم مباشرة من الهندية الى العربية ، وهما مَنْكة الهندي وابنُ دهن الهندي(٢٩) . ومن الكتب التي تُرجمت على يديهما كتاب علاجات الحُبالى ، وكتاب أسماء عقاقير الهند ، وكتاب أجناس الحيات وسمومها ، وكتاب التوهُم في الامراض والعلل(٣٠) . وعرفَ الهنود علم العروض ، ووضعوا للشعر بحوراً وأوزاناً ، وكانت لهم في البلاغة نظرات صائبة ، كما كانت لهم جهودٌ مثمرةٌ في مجال الفلسفة . عكفَ البيروني على دراستها في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة) . وتذوّق العرب قصص الهنود ، فقاموا بترجمة روائعه ، مثل كليلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وهو هندي الأصل ألفه الفيلسوف بَيْدبا للملكِ دبشليم . وترجموا ألف ليلة وليلة وأصله هندي(٣١) وان كان للعرب فيه زيادات كثيرة عن أصله ، وكذلك قصة السندباد الكبير والصغير ، وقصة هبوط آدم ، وملك الهند القتّال . ونقلوا أيضاً بعض الحكم والأمثال وتقبلوها بقبول حسن وحرصوا على الافادة منها .

---

(٢٧) الفهرست ص ٣٤١ .

(٢٨) ينظر ضحى الاسلام ١ ، ١٩٠ .

(٢٩) الفهرست ص ٣٤٢ .

(٣٠) الفهرست ص ٤٢١ .

(٣١) يرى المسعودي أن للكتاب أكثر من اصل ليقول ، ومن الكتب المنقولة الينا والمترجمة عن الفارسية والهندية والرومية كتاب هزار افسانة .. والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة (مروج الذهب ٢ ، ٢٥١) وينظر كتاب الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة ص ٣٠ .

وتجدر الاشارة هنا الى أن المؤرخ ابن خلدون جعل جلّ العلماء من الأعاجم، وقال: «لم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلّا الأعاجم»(٣٢). وذهب الدكتور شوقي صنيف الى القول إن "جمهور العلماء والكتاب والشعراء منهم "(٣٣)». ونحن لاننكر جهود الأعاجم في الترجمة والتأليف ولكن هذا لايعنى أنّهم الوحيدون الذين قاموا بحفظ العلم وتدوينه وأن جمهور المفكرين منهم. واذا كان هذا الأمر سديداً فاين نضع الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبا عمرو بن العلاء، والأصمعي، والمفضل الضبي وهشام بن محمد الكلبي، والإمام مالك بن أنس، وأبا العباس المبرد، وأبا تمام، والبحتري وابن نُباتة السعدي، والعباس بن الأحنف، وابن المعتز، والمتنبي، وأبا فراس الحمداني وابا العلاء المعري لقد عاش الجميع عرباً وغير عرب تحت مظلة الاسلام وحركته القوية وسيادة الروح العربية الاسلامية، فتفجرت طاقاتهم العلمية والأدبية بها.

عوامل ازدهار الشعر:

الشعر فن جميل من فنون الأدب، ترتاحُ له النفوس وتبتهجُ وقد لقيتْ صناعتهُ عنايةً فائقةً ورعايةً بالغةً منذ عصر ماقبل الإسلام، وبقيت تنمو وتزدهر الى أنْ وصلتْ إلى صورةٍ مُثلى متألقة تجذبُ الناظر وتبهره في العصر العباسي. وقد ساعدتْ عوامل كثيرة في هذا النمو والازدهار. ولعلَّ من أهمها حبّ الخلفاء للشعر. وتقديرهم للشعراء. وتشجيعهم للنظم والإنشاد. واغداق الاموال بسخاء على القادمين عليهم. والمتصلين بهم والمنتسبين إليهم. والمنشدين بين أيديهم. ويجب ان لاننسى أنّ أغلب الخلفاء العباسيين كانوا متثقفين ثقافةً عاليةً. ولبعضهم مشاركة طيبة في نظم الشعر وتدبيج النثر. ولكثير منهم آراء سديدة. ومناقدات ذكية. ومناقشات دقيقة. ومحاورات ظريفة. ومناظرات لطيفة روتها كتبُ التراجم والسيِر والآداب.

إنّ عيون الشعر العربي وغرره أنشدتْ في مجالس الخلفاء والوزراء والولاة والقواد. وكانت العطايا تنهال على الشعراء المجيدين. والشواهد على ذلك كثيرةٌ. فهذا ابراهيم بن علي بن هَرْمة يدخل على المنصور ويُنشده قصيدة مدحية ينال بها منه عشرة آلاف درهم.(٣٤) وقال المؤمّل بن أُميل: قدمت على المهدي. وهو إذ ذاكَ

(٣٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤.

(٣٣) تاريخ الادب العربي، العصر العباسي الاول ص ٩١.

(٣٤) جمع الجواهر ص ١٠٢.

ولي عهد أبيه . فامتدحته فأمر لي بعشرين ألف درهم (٣٥) وذكر إسحاق بن إبراهيم الموصليّ انَّ الخليفة الهادي طلب منه أن يُنشِدَه شعراً يطربُ له . فأنشده :

وإنّي لــتــعروني لذكراكِ نَــفْــضَــةٌ كما انتفضَ العصفورُ بلّلَهُ القَطْرُ
فياحبُها زدني جوًى كلَّ ليلةٍ ويا ســلوةَ الأيامِ موعدكِ الــحــشرُ
هجرتكِ حتى قيل لايعرفُ الهوى وزرتكِ حتى قيلَ ليس به صبرُ

فاستطابه جداً وأعطاه سبعَ بِدَرٍ(٣٦). وقال الأصمعيُّ: « كنت عند الرشيد ، فدخل عليه إسحاق بن ابراهيم الموصلي ، فقال : أنشدني من شعرك ، فأنشدَهُ :

وآمرةٍ بالبُخل قلتُ لها اقصري فليس إلى ما تأمرين سبيلُ
أرى الناس خُلّانَ الجواد ولا أرى بــخــيلاً لــه في الــعالمــيــنَ خــلــيــلُ
ومن خيرِ حالاتِ الفتى لو علمته اذا نالَ شيئاً أنْ يكون منيلُ
فــعالــي فــعالُ الــمكــثرِيــنَ تــجــمُّلاً ومالــي كــمــا تــعــلــمــيــنَ قــلــيــلُ
وكيف أخافُ الفقر أو أُحرمُ الغنى ورأيُ أميرِ المؤمــنــيــنَ جــمــيــلُ ؟

فقال الرشيد : يافضلُ ، أعطِه عشرين ألف درهم ، ثم قال : لله أبيات تأتينا بها ياإسحاق ما أتقن أصولها ، وأبين فصولها ، وأقل فضولها . فقال: والله ياأميرَ المؤمنين: لاقبلتُ منها دِرهماً واحداً قال : ولم ؟ قال : لأنَّ كلامَكَ ، والله ، خيرٌ من شعري . فقال : يافضلُ ، ادفعْ إليه أربعين ألفاً . قال الأصمعيُّ : فعلمتُ أنه أصيد لدراهم الملوك مني(٣٧) » .

لقد أصبحت مجالس الخلفاء مُنتدى الأُدباء ، ومُلتقى الظرفاء ، يأتونها من كل مكانٍ طلباً للمال والجاه ، أو التمتع بملذات الحياة أو المشاهدة ورؤية معالم الحضارة في ظلِّ الدولة الجديدة .

---

(٣٥) جمع الجواهر ص ١٠٤ .
(٣٦) مختصر التاريخ ص ١٢١ . والأبيات الشعرية لأبي صخر الهذلي (الاغاني ٢٤ ، ١٢٢)
البدر : جمع بدرة ، وهي كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم .
(٣٧) زهر الآداب ٢ : ١٠١٤ .

إنَّ الحضارةَ دخلت كلَّ جانب من جوانب الحياة آنذاك ، في النظم والتقاليد ، وفي مجالس الطرب والغناء ، وفي بناء الدور والقصور ، وفي استخدام وسائل جديدة في الأطعمة والألبسة والفرش والأثاث وأدوات الزينة والترف ، كل هذه الأمور قادت الشعراء الى النظم في موضوعات جديدة لم تكن مألوفةً أو معروفةً من قبلُ ، اضافة الى مظاهر الطبيعة الخلابة من أنهار وأشجار وأزهار وأثمار وأطيار ... فإنّها فسحت للشعراء ، ولا سيما شعراء الوصف ، المجال الرحب لتقديم قصائد ومقطوعات رائعة ، مصاغةً بأسلوبٍ جذاب ، متدفق من خيال خصب وقريحة معطاءة

ومن عوامل ازدهار الأدب الحريةُ الواسعةُ التي وجدَها الشعراء في ساحة النظم ، فإنَّهم أطلقوا عنان خيالهم في كلّ شيءٍ دون خوفٍ أو وجلٍ أو استحياء ، معبرينَ عن عواطفهم ومشاعرهم بما يُملي عليهمُ الجو الذي كانوا يعيشون فيه .

وهذه الحرية ـ وان دفعت الشعراء الى الاكثار من النظم ـ أدّتْ الى ظهور تياراتٍ شعريةٍ بعيدةٍ عن الخلق العربي الأصيل والتربية الاسلامية النقيّة . ومَنْ يرجع الى المصادر الأدبية يجد شعراً جماً في المجون والدعوة الى التحلل والانسياق وراء اللذّة والمتعة والقصف في مجالس الجواري والغلمان ، اضافة الى تيار الشعوبية الذي كاد يعبثُ بالمجتمع العباسي لولا وقوفُ الخلفاءِ وشرفاء القوم بوجهها جميعاً ومحاربتها وابطال دعواتها .

ان العصر العباسي زاخر بعطائه الفكري ، وسوف نحاول أنْ نُظهرَ جوانبه المشرقة التي تُعد مفخرةً للاجيال السابقة واللاحقة .

العصر العباسي الأول

١٣٢ ـ ٣٣٤ هـ

شَهِدَتْ الحياةُ الأدبية في العصر العباسيّ تقدماً ملحوظاً ، ولاسيما بعد التوسُّع الحضاريّ وانتشار الثقافة الاسلامية في أوساط واسعةٍ من المجتمع ، وانفتاح الخَلق على عوالم جديدةٍ من المعرفة .

وكان الشعرُ ـ وهو ديوان العرب ـ العصبَ النابضَ في قلب المجتمع العباسي ، والمرآة الصادقة التي انعكست عليها صورُ الحياة وأحداثها ، والدفترَ الأمينَ الذي قُيِّدتْ فيه أفكارُ الناس وأخيلتُهم ومشاعرُهم وأحاسيسُهم .

وقد كثر نظم الشعر في هذا العصر وازداد عدد الشعراء زيادةً لانجد لها نظيراً في أي عصر آخر(٣٨) . أما الفنونُ الشعريّةُ فتكاد تكون نفسها ، وانْ دخلها التطوير بحكم الحياة الجديدة ، فنلقى المديحَ والفخر والهجاء والرثاء ، كما نلقى الغزلَ والخمريات والوصف والطرد والشكوى والعتاب والاستعطاف ... وقد استجدَّتْ جوانبُ جديدةٌ لها صلة بالموضوعات السابقة ، أو أنها توليد لها وتجديد .

الموضوعات الشعرية :

المديح :

يَعدُّ المديحُ من أبرز الفنون الشعريّة منذُ عصر ماقبل الإسلام ، وهو يشكّلُ القسمَ الأوفى في نتاج الشعراء ، وقد نشأ في بادىء الأمر إعجاباً بالفضائل العربية مثل ، السماحة ، والكرمِ ، والحلمِ ، والمروءةِ ، والعفّة ، والاباءِ ، والشممِ ، والعدلِ ، والقوّة ، والشجاعة ، وما الى ذلك من الصفات الحميدة ، ثم أضيف اليها صفات أخرى مستمدّة من القيم والمُثل الاسلامية ، مثل : التقوى ، والورع ، والتواضع ، والوقارِ ، وخفض الجناح ، وظلَّتْ هذه الفضائلُ والمحامدُ تردُ في شعر المديح في عصر بني امية ، وان تحوّل فريقٌ من الشعراء في مديحهم لخدمة أغراضهم الخاصة وفريق آخر لخدمة أحزابهم السياسية وترويج ماعند هذه الأحزاب من مبادىء وأفكار .

---

(٣٨) ينظر في الادب العباسي للدكتور علي الزبيدي ص ٢٢ ـ ٢٣ .

ولما جاء العباسيون فتحوا الأبواب على مصاريعها للشعراء المداحين ليدخلوها، مدافعين عنهم، ورادّين الخصوم، فجاؤوا مسرعين زرافاتٍ ووحدانا، يتغنّون بعظمتهم وقوّة سلطانهم، ويُضفون عليهم تلك الفضائل التي توارثوها عن السلف. وقد طربَ الخلفاء لهم، واستأنسوا بهم وخلعوا عليهم، وحضوهم بالأموال. من ذلك مايُروى أن «الربيع حاجب المنصور قال: قلت يوماً للمنصور: انّ الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامُهم، ونفدَتْ نفقتُهم. قال: اخرجْ إليهم فاقرأ عليهم السلام، وقل لهم: مَنْ مدحني منكم فلا يصفني بالأسد، فانما هو كلب من الكلاب، ولا بالحية، فانما هي دُويبة تأكل الترابَ، ولا بالجبَل فانما هو حجر أصم، ولا بالبحر فانَّما هو غُطامِط(٣٩) لجب، ومن ليس في شعره هذا فليدخلْ ومن كان في شعره فلينصرفْ. فانصرفوا كُلّهم الاّ ابراهيم بن هَرْمة، فانَّه قال له: أنا (٣٩)

ياربيع، فأدخِلْني. فأدخله، فلما مَثُلَ بين يديه. قال المنصور ياربيعُ، قد علمت أنه لايُجيبك أحد غيره، هاتِ ياابن هرمة، فأنشده قصيدتَهُ التي يقول فيها:

له لحظات عن حفافَيْ سريره   إذا كرُّها فيها عذابٌ ونائلُ
لهم طينةٌ بيضاءُ من آل هاشمٍ   إذا اسودَّ من كومِ الترابِ القبائلُ
إذا ما أبى شيئاً مَضى كالذي أبى   وإنْ قال إنّي فاعلٌ فهو فاعلُ

فقال: حسبُك، هاهنا بلغت، هذا عين الشعر، قد أمرتُ لك بخمسة آلاف درهم» .(٤٠). ومما يُروى أيضاً أن حماد عجرد دخل على أبي جعفر المنصور بعد موت أبي العبّاس أخيه فأنشدَهُ:

أتوكَ بعد أبي العبّاس إذ بانا   يا أكرمَ الناسِ أعراقاً وعيدانا
لو مَجَّ عُودٌ على قومٍ عُصارتَه   لَمَجَّ عودُكَ فينا الشُّهدَ والبانا

فأمر له بخمسة آلاف درهم(٤١). ويُكيلُ الشاعرُ الحسين بنُ مُطير الأسديّ الفضائلَ والمحامد للخليفة المهدي ويجعله عظيماً ماجداً أديباً قائداً بطلاً، فيقول:(٤٢)

---

(٣٩) غطامط: عظيم الامواج

(٤٠) العقد الفريد ١: ٣٢٠. وينظر ديوان ابراهيم بن هرمه ص ١٦٦

(٤١) العقد الفريد ١: ٣١٦.

(٤٢) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ٣٣.

فتىً هو من غيرِ التخلّق ماجدٌ — ومن غيرِ تأديب الرجال أديبُ
علا خَلْقُه خلقَ الرجال وخُلْقُه — اذا ضاق أخلاق الرجال رحيبُ
إذا شاهدَ القواد سار أمامهم — جرى على ما يستقون وثوبُ
وإنْ غابَ عنهم شاهدتهم مهابة — بها يقهرُ الأعداد حين يغيبُ
يعفُّ ويستحي اذا كان خالياً — كما عفَّ واستحيا بحيثُ رقيبُ

وهكذا تَقبُل الخلفاء هذه النعوت، واستحسنوها، وعدُّوها جزءاً من مآثرهم التي ورثوها عن آبائهم، وحبّذوا أنْ تشيعَ بين الناس، وأن تدوَّن في بطون الكتب. وإذا رجعنا الى القصائد المدحية في هذا العصر، ودقَّقنا النظر في شكلها نجد بعضاً منها لازال يهتدى بالموروث القديم في الوقوف على الأطلال، وذكر عهود الهوى، ووصف معاناة الرحلة، ومثال على ذلك قصيدة علي بن الجهم في مدح الخليفة المعتصم، منها قوله(٤٣):

قفوا حَيُّوا الدِّيارَ فإنَّ حَقّاً — علينا أنْ نحيي بالسَّلام
حرامٌ أنْ تخطّاها المطايا — ولم نذرفْ مِن الدَّمع السجام

وبعد وصف متاعب السفر، ومكابدة الناقة لمشقة الطريق، يتخلَّصُ الى المدح، مبيناً شجاعة الخليفة وشهامته وقدرته على توفير الأمن وتثبيت عُرى الإسلام:

وأنتَ خليفةُ اللهِ المعلّى — على الخلفاء بالنِّعمِ العظامِ
ليهنكَ يأبا اسحاقَ مُلْكٌ — يجلُّ عن المفاخرِ والمسامي(٤٤)
لسيفكَ دانت الدنيا وشُدَّتْ — عُرى الإسلام من بعدِ انفصام

ومما يلاحظ أن هذا النظام في بناء القصيدة ولاسيما المقدمة الطللية قد أصابه شيء من التجديد، سواء من الناحية الموضوعية أم من الناحية الفنية، فهي من الناحية الموضوعية لم تعد أوعية تسكب فيها الدموع حسرة على المنازل الدائرة وعهود الحب الضائعة فحسب، بل تحولت أيضاً عند بعضهم الى منابر يُعلنون من فوقها

(٤٣) ديوان علي بن الجهم ص ٩.
(٤٤) أبو اسحاق، كنية المعتصم.

اراءهم في الحياة ، سائرين في نفس الطريق التي مهّدها بعض الشعراء الأمويين قبلهم من أمثال ذي الرمّة والقطامي والعَجاج ، فما يُصيبها من الإقفار والتغير يصيب الكائنات كلها ، فلا داعي للحزن ، ولامجال للأسف ، لأنّ كلّ شيء مصيره الى بلى وفناء . غير أنها لم تتحول على كل حال الى قالب فلسفي ، إنما هي نظرات جزئية توصلوا إليها وبثوها فيها . ونجتزيء بهذه الأبيات التي استهل بها بشار أرجوزته البائية في مدح عُقبَة بن سَلْم ، فانه ضمنها فنوناً من هذه المعاني التي أشرنا اليها ، يقول(٤٥)

يادارُ بين الفَرْع والجِنابِ عَفَا عليها عُقَبُ الأحقابِ
قد ذهبتْ والعيشُ للذّهابْ لما عرفناها على الخَرابِ
ناديتُ هل أسمع من جوابِ ومابدار الحي من كرّاب(٤٦)
إلا مطايا المرجل الصخّاب وملعب الأحبابِ والأحبابِ(٤٧)
فانقلبتْ والدهرُ ذو انقلابْ ماأقربَ العامرَ من الخراب

فهو لايكتفي بتجديد موقع المنزل ، ولابتعداد بعض بقاياه ، ولا بسؤاله له واستعجامه عليه ، بل يذهب أيضاً الى أن ما أفناه هو تعاقب الأيام والليالي عليه ، كما يخرج الحديث عن دثوره وتغير آثاره بالحديث عن الدهر والحياة ، فاذا كان قد بلي فإنّ الحياة نفسها مصيرها الى الفناء والزوال ، واذا كان قد تغير فالأيام لاتدوم على حال بل تتبدّل من حال الى حال »(٤٨)

وهناك شعراء أهملوا وصف الاطلال والناقة والرحلة ، واستعاضوا عنها بالغزل كما نرى في مديح مروان بن أبي حفصة لمعن بن زائدة ، والخليفة المهدي الذي يقول فيه القصيدة التي مطلعها :(٤٩) :

طرقَتْك زائرةٌ فحيِّ خيالها بيضاءُ تَخْلِطُ بالحياء دلالها
قادتْ فؤادك فاستقادَ ومِثْلُها قادَ القلوب الى الصبا فأمالها

---

(٤٥) ديوان بشار بن برد ١ : ١٤٠ .
(٤٦) من كراب : من أحد .
(٤٧) الصخاب : كثير الغليان .
(٤٨) مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص ٢٦ .
(٤٩) ديوان مروان بن أبي حفصة ص ٩٦ .

ومنهم من لم يلتفت الى الطلول ولا الى جمال الحبيبة والتغزل بها ، بل جعل الخمرة فاتحةً لقصيدته المدحية ، وهذا اللون من الافتتاحية نجده عند شعراء كثيرين أمثال على بن جَبلة الملقب بالعَكوك(٥٠) ، وأشجع السلمي(٥١) ، وعبد الله بن عبد الحميد اللاحقي(٥٢) ، ومحمد بن وهيب الحميري(٥٣) ، ومسلم بن الوليد الذي يقول في احدى قصائده في مدح الخليفة هارون الرشيد :(٥٤)

هات اسقني طالَ بيَ الحبسُ ... مِن قَهْوةٍ بائعُها وَكْسُ
رقيبَةُ الدارِ رصافيَّةٌ ... أغلى بها الشَّماسُ والقَسُّ
كأنَّها في الكأسِ ياقوتةٌ ... وهي إذا ما مُزِجَتْ وَرْسُ
في مجلسٍ للقصفِ ريحانُهُ ... عِينُ المها والبَقَرُ اللُّعْسُ

ومنهم من تحدث عن حالته أو عن وضعه النفسي ، أو عن شيء يُقلقه ويزعجه . من ذلك مثلاً قول منصور النمري في مطلع قصيدة يمدح بها الخليفة هارون الرشيد :(٥٥)

يازائريْنا من الخيام ... حيّاكما الله بالسّلام
لم تطرقاني وبي حَراكٌ ... الى حلال ولا حرام
هيهات للّهو والتصابي ... وللغواني وللمدام
أقْصَرَ جهلي وثابَ حلمي ... ونَهْنَهَ الشّيبُ من عُرامي
لله حبي وتربُ حِبّي ... ليلة أعياهما مرامي

(٥٠) شعر على بن جبلة الملقب بالعكوك ص ١١٢ .
(٥١) أخبار الشعراء المحدثين ص ١١٢ . وينظر أشجع السلمي ، حياته وشعره ص ٢٥٥ .
(٥٢) أخبار الشعراء المحدثين ص ٩٦ .
(٥٣) الاغاني ١٩ ، ٧٤ ـ ٩٩ .
(٥٤) شرح ديوان صريع الغواني ص ٢٧٩ .
(٥٥) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٧ .

إنَّ التألم والشكاية من الضعف والهزال ، وهجوم الكبر ، واشتعال الرأس بالشيب ، والجزع من الحياة ، ولوم الدهر يردُ بكثرة في مقدمات القصائد كما نلاحظ مثلاً عند مروان أبي حفصة ، وأبي الشيص ، والحسين بن مطير ، وابن مناذر ، والعكوك ، ومنصور النمري(٥٦) ، ومن جميل ماجاء في هذا اللون قولُ أشجع السلمي ، وهو يصف آلامه التي أضحت ترافقُه بعد أن ذهب ماءُ شبابه ، وخارت قواه واعتلى الشيبُ مفرقه ، في مطلعٌ قصيدة يمدح بها الفضل بن الربيع(٥٧)

غلبَ الرُّقادُ على جفونِ المُسعد ... وغرقْتُ في سَهرٍ وليل سَرْمَدِ
قد جدّ بي سهرٌ فلم أرقد له ... والنومُ ... في جفون الرُّقَّدِ
ولطالما سَهِرَتْ بحبِّي أعين ... أهْدي السهادَ لها ولما أسْهَدِ
أيام أرعى في رياض بطالةٍ ... وردَ الصبا منها الذي لم يورد
لهوٌ يساعدُهُ الشَّبابُ ولم أجدْ ... بعد الشَّبيبةِ في الهوى من مُسْعِدِ
ماالدهرُ إلّا الناشئانِ تَوالِيا ... يومٌ يروحُ لنا ويومٌ يغتدي
فالأمسُ ليس براجع لكَ عهدُهُ ... واليومُ ليس بمدركٍ مافي الغَدِ

ومن المقدمات التي استهوت عدداً من الشعراء العباسيين ، وصف الطبيعة وما فيها من مباهج سواء كانت صامتة أم متحركة ، ويكاد أبو تمام الطائي يكون من المبرزين الاوائل فيه ، من ذلك قوله في وصف الربيع في مقدمة قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم(٥٨)

ياصاحبي تقصَّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تُصوَّرُ
تريا نهاراً مشمساً قد شابَه ... زهرُ الرُّبَى فكانما هو مقمرُ
دُنيا معاشٍ للورى حتى إذا ... جُلِيَ الربيعُ فانما هي منظرُ
أضحتْ تصوغُ بطونُها لظهورها ... نَوْراً تكادُ له القلوبُ تنوَّرُ

بهذا الأسلوب الرائع الممتع يسترسل الشاعر في وصف الربيع ، ويُقدّمُ لوحة جميلة للطبيعة الزاهية الضاحكة التي تملأ القلوب بهجةً ومسرةً ، ويزاوج بين هذا البهاء والصفاء والعطاء للطبيعة وبين كرم الخليفة وجوده .

---

(٥٦) طبقات الشعراء لابن المعتز ، الصفحات ٤٦ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٧٤ ، ٢٤٥ .
(٥٧) أخبار الشعراء المحدثين ص ٩٥ .
(٥٨) ديوان أبي تمام ٢ : ١٩٤ .

نستشف من الشواهد السابقة أن الأسلوب في القصيدة المدحية أصبح يتراوح بين الجزالة والسهولة، والقوة والليونة، يضاف الى ذلك أن الأوزان أصبحت طويلها وقصيرها ــ قوالب لهذا الفن «مع ان قصائد المديح بالذات كان أساسها في العصر الجاهلي والإسلامي أيضاً الجزالة والفخامة وقوة أسر الألفاظ وطول البحر الشعري، ليتلاءم مع جزالة الألفاظ وفخامة التعبير، حتى إننا لو نظرنا في قصائد المديح قبل القرن الثاني لوجدنا غالبيتها في بحري الطويل والبسيط لانهما يحققان الغاية المبتغاة من شعر المديح»(٥٩)

ومما يلاحظ في موضوع المديح في العصر العباسي المبالغة المفرطة التي تصل أحياناً الى حدّ مُستهجن، مثل قول الحسين بن مُطير الأسديّ. فقد رفع المهدي فيه عن البشر، وكاد ينزله بمنزلة الخالق، فهو أطهر الناس، وأولاهم بالتقديس وأوسعهم كرماً، بل من نوره تتغيّرُ الألوان، ومن تلألؤ وجهه يتألّقُ وجهُ الأرض ومن يده تدبُّ الحياةُ في الأعواد اليابسة:(٦٠)

لو يُعبدُ الناسُ يامهديُّ أفضلهم ... ماكان في الناس إلّا أنت معبودُ
أضحتْ يمينكَ من جودٍ مصوّرَةً ... لابل يمينك منها صُوِّرَ الجودُ
لو أنّ من نوره مثقالَ خردلةٍ ... في السود طرّاً إذنْ لابيضّت السُّودُ
مِن حسنِ وجهك تضحي الأرضُ مشرقةً ... ومن بنانِكَ يجري الماءُ في العُودِ(٦١)

ومن المبالغة أيضاً قول أبي نواس في هارون الرشيد:(٦٢)

وأخفتَ أهلَ الشركِ حتى إنّه ... لتخافُكَ النُطَفُ التي لم تُخْلَقِ

وقوله:(٦٣)

كيفَ لايُدنيكَ من أملٍ ... مَنْ رسولُ اللهِ مِنْ نَفَرِهْ

(٥٩) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٣٧٢.
(٦٠) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ٤٨ وينظر الشعراء من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ص ٢٩٧.
(٦١) في البيت إقواء.
(٦٢) ديوان أبي نواس ص ٤٠١.
(٦٣) ديوان أبي نواس ص ٤٣٠.

وقد علّق المبردُ على هذا البيت بقوله : « وهو لعمري كلامٌ مستهجنٌ موضوعٌ في غير موضعه ، لأنّ حقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنْ يُضافَ إليهِ ولا يضاف الى غيره »(٦٤) وثمة ألوانٌ جديدةٌ في المديح ، استحسن الشعراء النظم فيها ، منها مدح المدن ، وبيان محاسنها ، وتعداد فضائلها ومآثرها ، وما فيها من ساحات وأبنية وجوامع ورُبى وأنهار وبساتين ... وقد حظيتْ الكوفةُ وبغدادُ والبصرةُ بكثيرٍ من هذا الشعر ، ولاسيما بغداد ، لأنها أمّ الدنيا ، وموطنُ الملكِ ، ومحطُ الأنظارِ ، ومأوى الشعراء والأدباء . ولا عجبَ اذا قال عمارة بن عقيل في مدحها :(٦٥)

أعاينتَ في طولٍ من الأرضِ والعَرْضِ ... كبغداد داراً إنّها جنّةُ الارض
صفا العيشُ في بغدادَ واخضرَّ عودُهُ ... وعيشُ سواها غيرُ صافٍ ولا غَضِّ

وشاع بين العباد والزهاد والمتصوفة مديحُ الله سبحانه وتعالى ، مستغنين به عن مدح العباد(٦٦) ، فإنهم وجدوه خير ناصر لهم ومعين على حوادث الدهر وصروفه ، وانه يغنيهم من الوقوف على أبواب الخلفاء ، واراقة ماء الوجه على موائد الأغنياء . مثل قول عبدالخالق بن عبدالواحد الانصاري :(٦٧)

امتدحتُ الغنيَّ عن مدح النا ... سِ بصدقِ المديحِ والإحكامِ
بكلامٍ أشادَ إعظامهُ النا ... سُ وقالوا : قُلْ ياصدوق الكلامِ
فرجوتُ النجاةَ من كبوة النا ... رِ وفوزاً بالدارِ دارِ المقامِ
ربِّ إنّي ظلمتُ نفسي فأفرط ... تُ وأنتَ الغفورُ للظّلّامِ
فاعفُ عنّي يامالكَ العفوِ واغفرْ ... لي ركوبي هَوْلَ الذنوبِ العظامِ
كَذَبَ العاذلونَ باللهِ ، ما للـ ... ـهِ ندٌ ومالهُ من مُسامِ

أمّا المديح النبوي في هذا العصر فكان نادراً جداً ، وقد وقفتُ على قصيدة طويلة للامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠ هـ) مطلعها :(٦٨)

---

(٦٤) الكامل ٢ : ١٧ .
(٦٥) تاريخ بغداد ٤ : ٦٨ ، بغداد مدينة السلام ص ٤٠ .
(٦٦) ينظر التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ٤٨٢ ــ ٥١٢ .
(٦٧) الورقة ص ٩٠ .
(٦٨) السمو الروحي في الأدب الصوفي ص ٤٢٦ .

ياسيدَ السّياداتِ جئتُكَ قاصداً ... أرجو رضاكَ واحتمي بحِماكا

ذكر فيها سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وصفاته ومعجزاته . ويبدو واضحاً ان المتأخرين قد تأثروا بها . خاصّةً الإمام البوصيري الذي اشتهر بنظم المدائح النبوية في القرن السابع للهجرة .

وتجدر الإشارة إلى ان شعر المديح حوى حكماً وأمثالاً كثيرة . أطلقها الشعراء ترسيخاً لأقوالهم وتوطيداً لتعليلاتهم ، وقد اشتهر بها أبو تمام ، وبلغت القمة عند أبي الطيب المتنبي مِن بعدُ . من ذلك قول أبي تمام من قصيدة مدح بها أحمد بن أبي دؤاد :(٦٩)

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاوَرَتْ ... ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقال في قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني :

وليس يُجلّي الكرْبَ رُمحٌ مُسَدَّدٌ ... إذا هو لم يُؤنَسْ برأيٍ مُسَدَّدِ

الهجاء :

الهجاءُ فنّ أدبي قديم رافق المديح منذ عصر ما قبل الإسلام ، وكان أول أمره يدور على التعيير بوضاعة النسب والبخلِ ، والفقر ، والقعود عن الغزو ، والتقصير في حماية الجار ، والعجز عن أخذ الثأر ، والانهزام في الحرب ، والاستسلام للأعداء ، واستساغة الظلم (٧٠). ولما أطلّ الإسلام واشرق نورُه على الناس قبّح الهجاء ، وعدّه إثماً ، فقد رُوي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : « من قال في الإسلام هجاءً مقذعاً فلسانه هَدْرٌ » .(٧١) ولذلك فَتَرَ هذا الفن في عصر صدر الإسلام ، ولكنه نما وزاد شررُه في العصر الأموي ، وأخذ يتناول المثالب والمعايب . واحترفه شعراء

(٦٩) ديوان أبي تمام ١ ، ٢٩٧ .
(٧٠) الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ص ٨٢ .
(٧١) العمدة ٢ ، ١٧ لم أجد الحديث في الكتب الستة ولا في غيرها من الكتب ، ينظر ، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي لونسنك

النقائض احترافاً ، وأصبحت القبائل « تحتشدُ في المِرْبَد وفي الكُناسة حول الشعراء يستمعون منهم إلى ما ينشدونه في الهجاء ، وكأنهم وجدوا في ذلك لهواً لهم وتسلية » .(٧٢) وقلَّ الإقبال عليها ، أي النقائض ، في العصر العباسي الأَول ، وأصبحت مقتصرةً على شعراء قلائل مثل ابن ميَّادة ، والحكم الخُضَري ، وعبدالرحمن بن جُهيم الأسدي .(٧٣)

إنّ حجم الهجاء في العصر العباسي الأول كبير ، وقد تنوعتْ موضوعاته ، واختلفتْ اتجاهاته ، والكثير منه كان شخصياً يدفعه الحقْد والغضبُ والحسدُ والانتقامُ . من ذلك مثلاً أنَّ بشار بن بُرد هجا العباس بن محمد بن العباس ، والي الجريرة لأخيه المنصور ؛ لأنه بخُلَ عليه ولم يُسعفه بالمال :(٧٤)

ظِلُّ اليسارِ على العباسِ ممدودُ وقلبُـه أبداً بالبخـلِ معـقودُ
إنَّ الكريمَ ليخفي عنكَ عسرتَهُ حتى تراهُ غنياً وهو مجهودُ
ولـلـبخيـلِ على أموالـهِ عِـلَـلٌ زرقُ العيونِ عليها أوجه سودُ
إذا تكرهتَ أنْ تعطي القليلَ ولم تقدرْ على سعةٍ لم يظهرِ الجودُ
بثَّ النوالَ ولا تمنعكَ قلتُه فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

فهو لم يكتفِ بتعنيفه على الشحّ وحجب المال عن المقبلين عليه ، بل ينصحه بإعانه الفقراء والمحتاجين وإن كانت الإعانة قليلة ، فهي تكسبه حمداً وشكراً .

ويلاحظ أحياناً في الهجاء الشخصي روح الاستخفاف والتهوين والتحقير ، فالقاريء لشعر حمّاد عجرد في بشار بن برد يلمس ذلك ، يقول مثلاً :(٧٥)

وأعـمى يـشـبـهُ الـقِرْدَ إذا ما عـمـي الـقِرْدُ
دنـيءٌ لـم يَرُحْ يوماً إلى مـجدٍ ولـم يَـغْدُ
ولـم يـحـضرْ مـعَ الـحُـضَّا رِ في خـيرٍ ولـم يَـبْدُ
ولـم يُـخْـشَ لـه ذمٌ ولـم يُرْجَ لـه حـمدُ
هو الـكـلـبُ إذا ما ما تَ لـم يوجدْ لـه فـقدُ

---

(٧٢) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ١٧٨ .
(٧٣) الأغاني ٢ ، ٢٦٢ ، ٣٣٣ .
(٧٤) ديوانه ٣ ، ١٢٧ .
(٧٥) الأغاني ١٤ ، ٣٢٩ .

فلما سمع بشار هذا الشعر بكى ، فقال له قائل : أتبكي من هجاء حمّاد ؟ فقال ، واللهِ ما أبكي من هجائه ، ولكن أبكي لأنه يراني ولا أراه ، فيصفني ولا أصفه .

إنَّ روحَ السخرية المريرة المتأتية من الكراهية المقيتة ، والحسد ، وهو داء قاتل كما يقال تؤذي كثيراً ، وتؤدّي إلى عواقب وخيمة ، ولعل أصدق مثالٍ على ذلكَ قصيدة أبان اللاحقي في هجاء جار له اسمه محمد بن خالد بن عمار الثقفي تَزوج من فتاة اسمها عمَّارة بنت عبدالرحمن الثقفي طمعاً ، وكانت كثيرة المال . قال :

لما رأيــــتُ الـــبزَّ والـــشَّارَهْ ... والفَرْشَ قد ضاقت به الحارَهْ
والــلّوزَ والـــسُّكَرَ يُرمى بـــه ... مِن فوقِ ذي الدار وذي الدارَهْ
وأحـضروا الملـهـين لـم يـتركوا ... طـــبلاً ولا صاحـــبَ زُمارَهْ
قــلـتُ : لماذا ؟ قـيــلَ : أعـجوبةٌ ... مـــحـــمدٌ زَوَّجَ عـــمَّارَهْ
لا غـــمَّرَ اللهُ بـــها بـيـتــهُ ... ولا رأته مُـدركاً ثـارَهْ

وثمة أبيات يحرض فيها على التخلي عنه والنجاة منه بالهرب . وقد أفلح ـ كما يبدو ـ بهذه الفتنة . يقول الصولي : فلما سمعتْ عمّارةُ هذه بشعره هربتْ » .(٧٦) وشبيه بهذا ـ وإنْ اختلفت صورة المرأة ـ ما جرى لحماد عجرد ، فإن مطيع بن إياس هجاه بهذه الأبيات مُستنفراً خليلته « ظَبية الوادي » على تركهِ :

ألا ياظـــبـــيـــةَ الوادي ... وذاتَ الـــجـــســـدِ الرادِ
وزيـــــنَ الـــمـــصرِ والدَّارِ ... وزيـــنَ الـــحـــيِّ والـــنادي
وذاتَ المـــبـــســـم الـــعَذْبِ ... وذاتَ المـــيـــسَـــم الـــبادي
أما باللهِ تـــســـتـــحـــيـــيــ ... ـــنَ مـــن خُـــلَّةِ حَـــمَّادِ
فـــحـــمادٌ فـــتىً لـــيـــس ... بذي عِزٍ فـــتـــنـــتـــقادي
فـــتوبـــي واتـــقـــي اللهَ ... وبـــتـّـــي حَـــبْـــلَ جَرَّادِ

---

(٧٦) أخبار الشعراء المحدثين ص ٢٤ ، الأغاني ٢٣ : ١٦٤ .

قيل أخذها حكم الوادي فغنّى بها ، فلم يبق بالكوفة سقّاءٌ ولا طحّان ولا مكارٍ إلا غنّى فيها .. وحينما علم حماد بالخبر قال له : قتلتني قتلك الله .(٧٧)

ويأخذ الهجاء أحياناً طابع المزاح والظرف ، من ذلك بيتان قالهما الحسين بن الضحّاك في مغنيةٍ كان قد عبث بها مرةً ، فصاحت عليه واستخفت به . فأراد ان يَضحك الجالسين عليها ، ويجعلها موضعَ سخريتهم فقال :(٧٨)

لــها في وجــهــها عُــكَــنُ وثــنْــتا وجــهــها ذَقَــنُ
وأســنــانٌ كــريــشِ الــبــط بــيــنَ أصــولــهــا عُــفَــنُ

وبكت الجارية لذلك بكاء مرّاً ، وشاع البيتان ، فكسدت من أجلهما ، وكانت إذا حضرتْ في موضعٍ أنشدوا البيتين فتُجنّ ، ثم هربتْ من سرَّ من رأى فما عُرِفَ لها بعد ذلك خبرٌ . والواقع انَّ في هذين البيتين هجاءً قاسياً ، ولاسيما انها جارية مغنية جُلُ عملها في مجالس الطربِ واللهو .

ومن العجب أنَّ بعض الشعراء سلّطوا هجاءَهم على أنفسهم ، وعلى الناس من حولهم ، أقارب كانوا ، أو زوجات ، أو بنات ، أو آباء ، أو أصدقاء ، أو قضاة ، أو علماء ، أو وزراء ، أو خلفاء ، أو مُتديّنين ، أو مُقينين ، إما تعابثاً وتظرفاً جرياً وراء النادرة المسلية ، والنكتة البارعة ، أو انتقاماً لأنفسهم ، وإيلاماً لمنافسيهم .(٧٩) فهذا أبو دُلامة يهجو نفسه ليضحك المهدي بقوله :(٨٠)

ألا أبــلــغْ إلــيــكَ أبا دُلامة فليس من الكرام ولا كرامهْ
إذا لَــبِــسَ الــعــمامةَ كان قِرداً وخــنزيراً إذا نزعَ الــعِــمامــهْ
جــمــعــتَ دمامةً وجــمــعــتَ لؤماً كذاكَ الــلؤمُ تــتــبــعُــهُ الدَّمامــهْ

---

(٧٧) الأغاني ١٣ : ٢٨٢ .
(٧٨) الأغاني ٧ : ٢٢٤ ، الحسين بن الضحاك ، حياته وشعره ص ١٩٧ .
(٧٩) ينظر الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ص ٢٢٨ ـ ٢٥٢ .
(٨٠) طبقات الشعراء ص ٥٧ ، الأغاني ١٠ : ٢٥٨ ، جمع الجواهر ص ١١١ .

ونلاحظ ابن أبي الزوائد يهجو زوجته لأنه ملّها وأبغضها .(٨١) ونرى مطيع بن إياس هاجياً أباه ، متهكماً به ، ومحتقراً له .(٨٢) ونجد بشاراً بن برد يهجو يعقوب بن داود وزير المهدي متهماً إياه بالغرور والكبر .(٨٣) ويجترىءُ على الخليفة نفسه ،

ولا يتورّعُ عن هجائه بأقذع الألفاظ وأشنع السباب متهماً له بالفجور والغفلة(٨٤) . وكان أبو نعامة محمد بن الدقيقي خبيث اللسان ، استفرغ شعره في الهجاء ، وله قصيدة مزدوجة باسم « السنيَّة » ذكر فيها جميع رؤساء الدولة في أيام المتوكل من أهل سُرَّ منْ رأى وبغداد ورماهم بالقبائح .(٨٥) وقد أخفى عدد من الشعراء الذين هجوا الخلفاء أسماءهم خشية العقاب والبطش، ومثال على ذلك الأبيات الآتية التي نظمها أحد الشعراء المجهولين في هجاء الأمين ، لأنه بايع لابنه الصغير موسى :(٨٦)

أضاعَ الخلافة غشُّ الوزيرِ ... وفسقُ الإمام وجهلُ المشيرِ
ففضلُ وزيرٌ ، وبكرٌ مشيرٌ ... يريدان ما فيه حتفُ الأميرِ
وما ذاكَ إلا طريقٌ غرورٌ ... وشرُّ المسالكِ طُرْقُ الغرورِ
وأعجبُ من ذا وذا أننا ... نبايعُ للطفلِ فينا الصَّغيرِ

إن سهولة الألفاظ وبساطة التعبير والميل إلى الشعبية يغلب على فن الهجاء في هذا العصر إضافة إلى انه انماز بمقطوعات أو قصائد ليست طويلة منظومة في بحور قصيرة أو مجزوءة .

وكان للنشاط الشعوبي في العصر العباسي الأول دورٌ كبيرٌ في بروز نوع من الهجاء عند عدد من الشعراء ، تعصّبُوا على العرب ، وتطاولوا عليهم ، وتغنوا بمجدهم الساساني ، وكان على رأسهم الشاعر الأعمى بشار بن برد بن يرجوخ الذي تنكّر لنعمة العرب وغضَّ من شأنهم وحطَّ من قدرهم بأسلوب ساخر حتى عُدَّ أخطر شاعر

---

(٨١) الأغاني ١٤ : ١٦٨ .

(٨٢) الأغاني ١٣ : ٣٢٣ .

(٨٣) ديوانه ٣ : ٩٢ .

(٨٤) الأغاني ٣ : ٢٤٣ .

(٨٥) معجم الشعراء ص ٣٩٥ .

(٨٦) تاريخ الطبري ١٠ : ١٤٣ .

أوقد نار الشعوبية . وهناك شعراء آخرون شاركوا في هذا الهجاء الخبيث ، منهم أبو نواس ، وأبان اللاحقي ، وأبو عبدالرحمن الهيثم بن عدي ، وعلي بن خليل ، وابراهيم بن ممشاذ ، وسنتحدث عن شعرهم في فقرة لاحقة .

الرثاء :

الرثاء فن أدبي يُعَبِّرُ عن الألم والتوجع والتأسف ، وهو باصطلاح أهل اللغة بكاءُ الميت ، وتعدادُ حسناته ، وتمجيدُ صفاته ومناقبه بالشعر والنثر ، وقد عُرِفَ الرثاءُ منذ عصر ما قبل الإسلام « إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبّنين لهم مُثنين على خِصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وان ذلك مصيرٌ محتوم » . (٨٧)

والرثاء من الموضوعات القريبة إلى النفس ، وهو يُشكِّلُ ديواناً كبيراً في أدبنا العربي ، وكان للشعراء العباسيين نصيبٌ وافرٌ فيه ؛ إذ نجدهم قد رثوا خلفاءَهم وولاتهم ووزراءَهم وقوادهم ، ورثوا مدنهم التي نزلت بها الكوارث ، ورثوا حيواناتهم المستأنسة ، وطيورهم الصادحة ، حتى رثى بعضهم شبابه ونفسه وعضواً ذهبَ من جسده ... إنهم جادوا بدموع غزيرة على كلّ شيء عزيز عندهم وأثير لديهم بمقطوعاتٍ وقصائدَ مستقلّة قائمة بذاتها .

لقد حظي الخلفاء بقسطٍ من شعر الرثاء ، وأول خليفة بكاه الشعراء هو أبو العباس السفّاح ، وكان أبو دُلامة نديمه المحبوب ؛ لذلك كثر نحيبه عليه ، وأبَّنهُ بقصائد كثيرة ، أثنى فيها على سياسته وأخلاقه وصفاته ، وذكر خسارة الأمة برحيله ، من ذلك قوله :(٨٨)

---

(٨٧) الرثاء للدكتور شوقي ضيف ص ٧ .

(٨٨) جمع الجواهر ص ١٠٨ .

ويلي عليكَ وويلٌ أهلي كلِّهمْ وَيْلاً وهولاً في الحياةِ طويلاً
فلتبكينَّ لكَ النساءُ بِعَبرةٍ ولـيـبـكـيـنَّ لـكَ الرِّجالُ عويلاً
ماتَ الندى إذ مِتَّ ياابنَ محمدٍ فجعلته لكَ في التراب عديلاً
إنْ أجملوا في الصبرِ عنكَ فلم يكنْ صبري ولا جَلَدي عليكَ جميلاً
يـجدونَ منكَ خلائقاً وأنا امرؤٌ لو عِشْتُ دهري ما وجدت بديلاً

وهذا سَلْمُ الخاسر يذرف الدموعَ الساخنةَ على الخليفة المهدي ويشيدُ بمساعيه الحميدة إبّانَ حكمه :(٨٩)

وباكـيةٍ على المـهديّ عـبرَى كأنَّ بـهـا وما جُـنَّـتْ جـنـونا
لئن بليَ الخليفةُ بعدَ عشرٍ (٩٠) لـقد أبـقى مـسـاعـيَ ما بـلـينا
سلامُ اللهِ غُدْوَةَ كـلِّ يومٍ على المهديِّ حين ثَوى رهينا

وكان أبو نواس وفياً للخليفة محمد الأمينَ ؛ لأنه تنعَّمَ في أيامه ، وحظي بلطفه وإحسانه ، وحينما قضى نحبه رثاهُ بشعرٍ صادقٍ منبعثٍ من قلب حزين مرزوء ، مثل قوله :(٩١)

طوى الموتُ مابيني وبينَ محمدٍ وليس لما تطوي المنيَّةُ ناشرُ
وكنتُ عليه أحذرُ الموتَ وحدَهُ فلم يبقَ لي شيءٌ عليه أُحاذرُ
لَئِن عُمِّرتْ دورٌ بمَنْ لا أودُّه فقد عُمِّرَتْ ممَّنْ أُحبُّ المقابرُ

طواه الموت وأبعده عنه ، وكان حذراً عليه . وقد احتفلتْ به المقابر لأنه عظيم وكريم ومن أُسرة نبيلة ، وهذه صورة لطيفة صاغتها مخيلة هذا الشاعر الذي كان صاحباً وسميراً للخليفة الأمين .

ومن الشعر الجيد في رثاء القوّاد قصيدة الحسين بن مُطير الأسديّ في مَعْن بن زائدة الذي اشتهر بجوده وشجاعته ، منها قوله :(٩٢)

---

(٨٩) الرثاء للدكتور شوقي ضيف ص ٥٩ .
(٩٠) بعد عشر : يشير إلى انه ولي الخلافة مدة عشر سنوات .
(٩١) ديوانه ص ٥٨١ .
(٩٢) شعر الحسين بن مطير الأسدي ص ٦٠ .

فيا قبرَ مَعْنٍ أنتَ أولُ حُفرةٍ ... من الأرضِ ... كارم مضجعاً
ويا قبرَ مَعْنٍ، كيف واريتَ جودَهُ؟ ... وقد كان منه البحرُ مترعا
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميِّتٌ ... ولو كان حياً ... حتى تصدّعا

قال أبو هلال العسكري مُعلّقاً على هذه القصيدة: «إنها أرثى ... في الجاهلية والاسلام»(٩٣). وقال ابن الأثير إنها «أعجبُ ما سمعتُ في هذا الباب» ... ، ووصفها ابن خلكان بأنها «من المراثي النادرة»(٩٥). ومن يُمعن النظر ... يجد شيئاً جديداً «يخرج عن سنن الشعراء العرب في الرثاء من الدعاء للميت ... بالسُقيا والعجب للحفرة التي ضمّت الميت وقد كان كالبحر جوداً والجبل ... الكرم مات بموته وانقطع الخير عن الناس بعد ذهابه».(٩٦) وشارك مروان بن أبي حفصة في رثاء مَعْن بن زائدة، وتعدُّ قصيدته اللامية من القصائد الجيدة في باب الرثاء، إذ صوَّر فيها حزنه عليه، ووَجْدَ أهل العراقِ والشامِ ونجدٍ به ... بموته البطولة والشجاعة والبأس والجود والتقوى والإخلاص للعرب و... مطلعها :(٩٧)

مَضَى لسبيلهِ مَعْنٌ وأبقَى ... مكارمَ لن تبيدَ ولن تُنالا

ومنها :

وأظلمتِ العراقُ وأورثتْها ... مصيبتُه المجلّلةُ اختلالا
وظلَّ الشَّامُ يرجفُ جانباهُ ... لركنِ العزِّ حين وَهى فمالا
وكادتْ مِن تِهامةَ كلُّ أرضٍ ... ومن نجدٍ تزولُ غداةَ زالا
فما شَهِدَ الوقائعَ منكَ أمضى ... وأكرمُ محتداً وأشدُّ بالا
سيذكُركَ الخليفةُ غيرَ قالٍ ... إذا هو في الأمورِ بَلا الرِّجالا

ولا ينسى وقائعك اللواتي ... على أعدائهِ جُعِلتْ وبالا
ومعتركاً شَهِدتْ به حِفاظاً ... وقد كَرِهتْ فوارسهُ النِزالا

(٩٣) ديوان المعاني ٢ : ١٧٦ .

(٩٤) الجامع الكبير ص ٩٥ .

(٩٥) وفيات الأعيان ٥ : ٢٥٤ .

(٩٦) شعر الحسين بن مطير الاسدي ص ١٤ .

(٩٧) شعر مروان بن أبي حفصة ص ٧٩ .

ومن القواد الذين رثاهم الشعراء بقصائد عامرة ، محمد بن حُميد الطائي الذي قاتل بابك الخرمي في خلافة المأمون ، واستشهد في احدى المعارك بعد أن أثخن الجراح في الاعداء ونال منهم كثيراً بسيفه البتّار . وكانت قصائد أبي تمام الطائي في رثائه من أجود القصائد وأوفقها في بيان فروسيّة هذا القائد وشهامته وجلده على مصاولة الخصوم ، ونضاله وصموده في محاربة الخارجين على دولة بني العباس ، من ذلك قصيدته التي يقول في مطلعها(٩٨) :

كذا فليجلّ الخَطْبُ وليفدح الأمرُ   فليس لعينٍ لم يفضْ ماؤها عذرُ

ومنها :

فتىً ماتَ بين الضَّربِ والطعنِ ميتةً   تقومُ مقامَ النَّصرِ اذْ فاتَهُ النَّصرُ

وما مات حتىً ماتَ مَضْرِبُ سيفِهِ   من الضَّرب واعتلَّتْ عليه القنا السُّمْرُ
ونفسٌ تَعافُ العارَ حتى كأنَّهُ   هو الكفرُ يومَ الرَّوعِ أو دونه الكفرُ
فأثبتَ في مستنقع الموتِ رِجْلَهُ   وقال لها من تحت أخمصكِ الحشْرُ(٩٩)
غدا غدوةً والحمدُ نسجُ ردائهِ   فلم ينصرفْ إلاّ وأكفانُه الأجرُ
تردَّي ثيابَ الموتِ حمراً فما أتى   لها الليلُ إلاّ وهي من سندسٍ خضرُ

هذا البطل المغوار والمقاتل الجسور لم تفتر عزيمتُه ولم يفر من الحرب ، بل بقي يضارب ويجالد بكفاءة عالية ومقدرة فائقة الى ان وقع شهيداً وأمسى من أهل الجنة الذين « يلبسون ثياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ واستبرقٍ »(١٠٠)

وللشعراء العباسيين شعر شجيٌّ مؤثر في أبنائهم واخوانهم وزوجاتهم وأقربائهم ، فمن الذين بكوا أبناءهم بشار بن برد ، إذ فجع بموت ابنه الصغير محمد الذي كان كالغصن اليانع يتأمل فيه الخير والعون في حياته(١٠١) :

---

(٩٨) ديوانه ٤ : ٧٩ .

(٩٩) الاخمص : باطن القدم

(١٠٠) سورة الكهف ، الآية ٣١

(١٠١) ديوانه ١ : ٣٥٤

أجارَتَا لاتــجزعــي وأنــيــبــي أتاني من الموتِ المطلّ نصيبي
بُنَيَّ على رغمي وسخطي رزئتُهُ وبُدِّلَ أحجاراً وجالَ قليبِ(١٠٢)
وكان كريحانِ الـغـصونِ تـخالُـهُ ذَوى بعدَ إشراقٍ يَسُرُّ وطيبِ
دعتـه المـنايا فاستـجابَ لـصوتـها فللهِ من داعٍ دعا ومجيبِ !
وقد كنتُ أرجو أنْ يكونَ محمدٌ لنا كافياً من فارسٍ وخطيبِ

ومن جيد الشعر في رثاء الزوجات ، وأشجاه ، وأشده تأثيراً وإثارةً ، قول محمد بن عبد الملك الزيّات في زوجته التي ماتت وتركت ولداً صغيراً لايصبرَ على فراقها(١٠٣) :

ألا مَنْ رأى الطفلَ المفارقَ أمـهُ بُـعَـيْدَ الـكَرَى عيـناهُ تـبـتدرانِ
رأى كلَّ أمٍ وابنَها غيرَ أمِّهِ يبيتانِ تحتَ الليلِ ينتجيانِ
وباتَ وحيداً في الفراشِ تُجنُّهُ بلابـلُ قـلـبٍ دائـم الـخـفـقانِ
فلا تلحياني إنْ بكيتُ فإنَّما أداوي بـــهذا الدمـــع ماتريانِ

ومن الشعراء الذين اشتهروا بهذا اللون من الرثاء الحزين ، ديكُ الجن الذي قتلَ زوجته إثر وشاية كاذبة ، وبقي يبكي عليها بشعرٍ صادقٍ يُعبِّرُ فيه عن مأساته فيها وندمه على الضحية التي ذهبت غدراً وظلماً . قال فيها بعد الندم :(١٠٤)

أشفقتُ أن يُدْلِي الزَّمانُ بغدرِهِ أو أُبتلَى بعد الوصالِ بهجرِهِ
قمرٌ أنا استخرجتُهُ من دَجْنِهِ لـبـلـيَّـتـي وجـلوتُـهُ مـن خدرِهِ
فـقـتـلـتـهُ وبــه عـلـيَّ كرامةٌ ملءِ الحشا وله الفؤادُ بأسرِهِ
عهدي به مَيْتًا كأحسنِ نائمٍ والحزنُ يسفحُ عبرتي في نحرِهِ
لو كان يدري المَيْتُ ماذا بعدَهُ بالحيِّ حلَّ مكانَهُ في قبرِهِ
غُصَصٌ تكادُ تفيظُ منها نفسُهُ وتكادُ تُخرجُ قلبَهُ من صدرِهِ

وكذلك اشتهر أبو حيّة النميري في بكاء زوجته والنواح عليها حتى استفرغ جزءاً كبيراً من شعره في رثائها . قال ابن المعتز : « وكان أبو حيَّة تزوج ابنة عم له ، فتوفيت عنه ، وكاد يخرجُ عليها من الدنيا ، وأشعارهُ الجيادُ كلها فيها وفي وصفها في

(١٠٢) الجال : الجانب . القليب في الاصل : البئر ، والمراد هنا القبر .
(١٠٣) ديوانه ص ٩٧ .
(١٠٤) ديوانه ص ٩٢ .

حياتها ، ومراثيها بعد مماتها ، وما رأيتُ ذكياً ولا عاقلاً ولا كاتباً ظريفاً إلّا وهو يتمثل من شعر النميري بشي»(١٠٥) وللأصدقاء نصيب طيب من الرثاء. يفيض بالوفاء ، ومن بديع ماقيل في هذا اللون قصيدة لابي العتاهية في رثاء صديق له يدعى علياً :(١٠٦)

أخٌ ، طالما سرّني ذكرُهُ — فقد صرتُ أشجى لدى فكرِه
وقد كنتُ أغدو الى قصره — فقد صرتُ أغدو الى قبرِه
وبُدّلَ بالبُسطِ فَرْشَ الثرى — وريحَ ثرى الأرضِ من عطرِه
أخو سَفرٍ مالهُ أوْبَةٌ — غريبٌ ، وإنْ كانَ في مصرِه

ومن الضروب الجديدة في فنِ الرثاءِ في العصر العباسي بكاء المدن التي أصابها الدمار والخراب ، وذهب سكانُها الأبرياء ضحايا . ومن أجود ماقيل في هذا اللون قصائد ومقطوعات عمرو بن عبدالملك الوراق العنزي(١٠٧) وقصيدة أبي يعقوب اسحاق بن حسان الخريمي في رثاء بغداد بعد الفتنة بين الأمين والمأمون ، وقصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة بعد ثورة الزنج . ان قصيدة الخريمي التي تصور كارثة بغداد بلغت ١٣٥ بيتاً ، وهي سجلّ حافلٌ لحادثة داميةٍ مروعةٍ ، منها قوله(١٠٨) :

فإنّها أصبحتْ خلايا من الـ — انسانِ قد أدميتْ محاجرها
قفراً خلاءً تعوي الكلابُ بها — ينكرُ منها الرسومَ زائرُها
وأصبحَ البؤسُ ما يفارقُها — إلفاً لها والسرورُ هاجرُها

أما ابن الرومي فإنه صوّرَ مأساةَ البصرة في قصيدة تجاوزت ثمانين بيتاً(١٠٩) ، وهي أيضاً سجل لفاجعة كبيرة حلّت بهذه المدينة العريقة وسنذكرها في ترجمته .

ومن الألوان الجديدة التي ظهرت في العصر العباسي مراثي الطيور الصادحة والحيوانات الأليفة التي اقتناها الناس آنذاك واعتنوا بتربيتها في بيوتهم أو في

---

(١٠٥) طبقات الشعراء ص ١٤٩ .

(١٠٦) ديوانه ص ٢٠٦ .

(١٠٧) ينظر تاريخ الطبري ٨ ، ٤٥٩ – ٤٧٠ .

(١٠٨) ديوانه ص ٢٧ .

(١٠٩) تنظر دراسات في النص الشعري ، العصر العباسي ص١٥٢ – ١٦٩ .

محلات خاصة بها(١١٠) فأبو نواس - مثلاً - رثى كلب صيدٍ لسعته حيّة فمات في أرجوزة بَيْنَ فيها حزنه وأساه لفقد سيد الكلاب الذي أغناه عن وسائل الصيد، مطلعها(١١١):

يابؤسَ كلبي سَيِّدَ الكلابِ قد كانَ أغناني عن العُقابِ

وبرز القاسم بن يوسف بهذا النمط من الرثاء. يقول أبو الفرج الأصبهاني:

«إنه شاعر مليح الشعر. قد جعل وكدَهَ في مدح البهائم ومراثيها فاستغرق أكثر شعره في ذلك»(١١٢). وأورد له الصولي قصائد كثيرة في هذا الغرض، منها قصيدة طويلة في رثاء قُمري أولها(١١٣):

هـل لامرئٍ مـن أمانِ مـن ريـبِ هذا الزّمانِ

ومنها:

فالقلبُ فيه كلومٌ من لاعجِ الأحزانِ
وفي الحشا لاذعاتٌ كمشعلِ النيرانِ
والمقلتانِ سجومٌ دمعاهُما تكفانِ
كانَ المطوّقُ أنساً للأهلِ والجيرانِ

ولابن العلاف قصيدة مشهورة متداولة في رثاءِ هرٍ تناقلتها كتب الأدب والتاريخ(١١٤). وهي من روائع الشعر في هذا الغرض. مطلعها(١١٥):

ياهرُّ فارقتنا ولم تَعُدِ وكنت منّا بمنزلِ الولدِ
وكيفَ ننفكُّ عن هواكَ وقد كنتَ لنا عُدّةً من العُدَدِ

---

(١١٠) ينظر «ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي» بحث للدكتور طه محسن في مجلة آداب الرافدين، العدد السابع ١٩٧٦.

(١١١) ديوانه ص ٦٤٣

(١١٢) الأغاني ٢٣ : ١١٨.

(١١٣) أخبار الشعراء المحدثين ص ١٩٢.

(١١٤) وصل الينا منها ٥٧ بيتا. وهي في الأصل ٦٥ بيتا كما ذكر ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة ٣ : ٢٢٠)

(١١٥) شعر ابن العلاف ص ٣٢.

بهذا الأسلوب السهل المأنوس يسترسل في رثائه لهذا الحيوان الذي ألفه وأحبه. وقد اختلف الدراسون فيها، فمنهم من قال: انها في هرّة حقيقةً. وقيل: انه أراد بها رثاء عبدالله ابن المعتز. وقد كنّى عنه بالهر خوفاً من الخليفة المقتدر الذي قتل ابن المعتز. كما قيل: انه كنّى بالهر عن المحسن بن أبي الحسن بن الفرات الوزير أيام محنته لأنه لم يستطع أن يرثيه علانية خشية من الخليفة المقتدر. الى غير ذلك من الأقوال ... وقد علّق الصفدي على هذه القصيدة بعد أن أورد جزءاً كبيراً منها بقوله: « وأنا شديدُ التعجُّب ممَّنْ يزعمُ أن هذه القصيدة رُثيَ بها غير هر »(١١٦)

وهناك مراثٍ تبدو لنا غريبة، وهي من مستجدات العصر العباسي. فمثلاً نجد لمحمد بن يسير مرثيةً في بستانٍ عاثتْ فيه شاةٌ أفلتت لأحد جيرانه(١١٧). ولأحمد بن أبي كريمة قصيدةً في رثاء قميصٍ أغار عليه فأر فقرضه(١١٨). ولإسحاق الموصلي مرثيةٌ في خَمَّارة.(١١٩) ولعبد الصمد بن المعذّل قصيدةً في رثاء طُفيلي مات على المائدة بعد أن بلع لقمةً حارةً جداً.(١٢٠). ولمحمود بن الحسين المعروف بكشاجم قصيدة في رثاء قدحٍ انكسر له (١٢١).

ان شعراء العصر العباسي لم يتحرَّجوا من رثاء أيّ شيء، مهما كان قدرهُ أو منزلته، مادام هو وثيق الصلة بنفوسهم. وكانوا صريحين في تصوير أحاسيسهم ومشاعرهم، وصادقين في تعابيرهم. قلما تشوبها الصنعةُ أو التكلّف.

الغزل :

الغزل من الفنون الشعرية الجميلة المحببة الى النفس، يصوّر أشواق المحبين ولواعجهم. وهو شبيه بالنسيب والتشبيب من غير كثير تمييز أو عظيم اختلاف. ومن يتصفّح ديوان الغزل العربي يجده كبيراً وواسعاً. تغنّى الشعراء من خلاله بالمرأة منذ عصر ماقبل الاسلام، وقد جعله فريقٌ منهم استهلالاً لمدائحهم وأهاجيهم وحماسياتهم، وخصص له فريقٌ آخر قصائد ومقطوعات.

---

(١١٦) نكت الهميان ص ١٣٩ - ١٤٢.

(١١٧) الأغاني ١٤ : ٢٠.

(١١٨) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٤٤٢.

(١١٩) ديوانه ص ٢٠١.

(١٢٠) شعره ص ١٦٥.

(١٢١) ديوانه ص ١٣٠.

وارتقى الغزل في عصر بني أمية، وزاد الاقبال عليه، ولحق الشعراء المرأة، ووصفوا معاناتهم في حُبها، وقد اختصَّ بعضهم بواحدةٍ عاشَ لها وقضى وهو يحبها، فسموا بالغزليين العذريين، أو شعراء مدرسة «الغزل العفيف» وعلى رأسهم جميل بن مَعْمَر. وعاش بعضهم الآخر يتصيّدُ الجمالَ في كلّ مكان، ويتبع الحسنَ أينما حلَّ وارتحلَ للعبث واللذّة، فسموا بالغزليين الماجنين، أو شعراء مدرسة «الغزل الحسي» وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة. وبقي التياران يسيران في العصر العباسي جنباً الى جنب مع اختلاف في الكمية والنوعية.

ويمثل التيار الأول، أي العفيف، مجموعة من الشعراء، من أشهرهم ابن ميّادة(١٢٢)، وأبو حيَّة النميري(١٢٣)، والحسين بن مُطير الأسدي(١٢٤)، وابن رُهَيمة(١٢٥). وهؤلاء الأربعة من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. ومما يستحسن لابن ميّادة قوله(١٢٦):

سلِ الله صبراً واعترفْ بفراقِ ... عسى بعدَ بينٍ أنْ يكونَ تلاقِ
ألا ليتني قبلَ الفراقِ وبعدَهُ ... سقاني بكأسِ المنيّةِ ساقِ

ويُعَدُّ العباسُ بن الأحنف ابرز شعراء الغزل العفيف والعشق الشريف في العصر العباسي. وقد قصر جلَّ شعره على صاحبته «فوز». ولاحظ أبو الفرج الاصبهاني هذه الظاهرة فقال: «كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً، من شعراء الدولة العباسية، وله مذهب حسنٌ، ولديباجة شعره رونقٌ، ولمعانيه عذوبةٌ ولطفٌ. ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء، ولا يتصرَّف في شيء من هذه المعاني»(١٢٧). ان شعر العباس بن الأحنف يمتاز بالعفّة والودّ والصفاء والنقاء، وهو رقيق مؤثر يتجاوبُ مع النفس الإنسانية في كل زمان وإنْ قال فيه الدكتور طه حسين: «لم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بني أمية، ولم يبلغ إجاده العابثين من

---

(١٢٢) طبقات الشعراء ص ١٠٦، الأغاني ٢: ٢٦١.
(١٢٣) طبقات الشعراء ص ١٤٣، الأغاني ١٦: ٢٠٧.
(١٢٤) طبقات الشعراء ص ١١٤، الأغاني ١٦: ١٧.
(١٢٥) الأغاني ٤: ٤٠٥.
(١٢٦) طبقات الشعراء ص ١٠٩.
(١٢٧) الأغاني ٨: ٣٥٢.

شعراء بني العباس ؛ وإنما جاء فاتراً قلما يترك في النفس أثرا قوياً . لأن الفن الذي أراد أنْ يختصَّ به كان قد انقضى عصره ، وانتهتْ الأسباب التي أوجدته ومكّنت الناس من اتقانه والاجادة فيه »(١٢٨)، وتابعه في هذا الرأي الدكتور عزالدين اسماعيل فقال : « ومهما يكن من أمر . فان هذا الشاعر العباسي قد انقطع للغزل ، شأنه شأن العذريين وشأن عمر بن أبي ربيعة . وأن نَفَسَهُ الشعري كان أقرب اليهم . وان كنّا ــ فيما طالعنا له من شعر ــ لانجد فيه حرارة العُذريين وصدقهم ، ولا خفّة ظل عمر بن أبي ربيعة . بنفس الدرجة »(١٢٩) .

كان العباس بن الأحنف مخلصاً في رسم صوره الجميلة للحب العفيف . وحسبكَ ما قالته الدكتورة عاتكة الخزرجي : « ولستُ أكاتمكَ الحقيقةَ من أنّي مؤمنةٌ كلَّ الايمانِ بأن الشاعر يملي علينا من تجربةٍ حقيقةٍ عاشها . ولعلَّ أروعَ لوحة عرض لنا العباس فيها حكاية هواه المعذب تلك التي يحلو له أن يعرضها علينا بين الحين والحين لنراه فيها الظمآن القريب من النبع المحروم من الورْد »(١٣٠) ومن جميل شعره مناجاته للقَطا التي وجدت صداها في كل أذن ووقعها في كل قلب :(١٣١)

بكيتُ إلى سربِ القَطا حين مرَّ بي ... فقلتُ ومثلي بالبكاءِ جديرُ
أسربَ القَطا هل من مُعيرٍ جناحَهُ ... لعلّي إلى مَنْ قد هويتُ أطيرُ

إنَّ روحه معلقةٌ بفوز . لايحيدُ عنها . فهي الوحيدة التي ملكت فؤادَهُ دون الفتيات :(١٣٢)

ماأسمج الناس في عيني وأقبحهم ... اذا نظرتُ فلم أبصرْكِ في الناسِ
حتى متى كبدي حرى مُعطَشَةٌ ... ولا يلينُ لشيءٍ قلبُكِ القاسي

ويلاحظ أنه بالغ في البيت الاول . وهذا من طبائع المحبين وأساليبهم حين يصفون جمال المحبوبة ومفاتنها . وهاهو ذا يقول :(١٣٣)

---

(١٢٨) حديث الأربعاء ١ : ٢٩٤
(١٢٩) في الأدب العباسي، الرؤية والفن ، ص ٢٩٤ .
(١٣٠) العباس بن الاحنف ص ٥٢
(١٣١) الديوان ص ١٩٨ .
(١٣٢) الديوان ص ١٨١ .
(١٣٣) الديوان ص ٢٥٧ .

تمّتْ وتمّ الحسنُ في وجهها فكلُّ حُسْنٍ ما خلاها مُحالْ
للناسِ في الشّهرِ هلالٌ ولي في وجهها كلَّ صباحٍ هلالْ[133]

ومن الشعراء الذين عرفوا بالغزل العفيف عُكّاشة بن عبد الصمد البصري الذي أحبَّ فتاةً تُدعى « نُعَيم » ، وهي جارية لبعض الهاشميين . وشاءت الصدف أنّ شخصاً اشتراها من مولاتها ورحل بها الى بغداد « فعظم أسفُه وحزنُه عليها ، واستُهيم بها طول عمره . فاستحالتْ صورتُه وطبعُه وخلقُه الى أن فرَّق الدهر بينهما . فكان اكثر وكده وشغله أن يقول فيها الشعر وينوح به عليها ويبكي(134) » . وقد وصل به الحال الى التمني في الموت ليستريح من الهموم والاحزان التي اتعبته وهدَّته(135) :

نُعيم هل بكيتِ كما بكيت وهل بعْدي وفيتِ كما وفيتُ ؟
ألا يا ليتَ شعري كيف بَعدي أصطبارُكِ اذ نأيتِ واذ نأيتُ ؟
فكم مِن عَبْرةٍ ذَرَفَتْ فلما خشيتُ عيونَ أهلي واستحيتُ
نهضت بها مكاتمةً فلما خلوتُ ذرفتُها حتى اشتفيتُ
وقلتُ لصحبي لما رماني هواكِ بدائِه حتى انطويتُ
أراني من هموم النفس مَيْتاً ولم أرَ في نُعيم ما نَوَيتُ
فليتَ الموتَ عجَّل قبضَ روحي جهاراً فاسترحتُ وأين ليتُ ؟ !

ومن شعراء الكوفة القلائل في نظم الشعر العفيف عليُّ بن أُدَيم الجُعفي . فقد تغزَّلَ بفتاة اسمها « مَنْهلة » ، وهام بها ، وشاع أمرهما بين الناس، حتى وضع أحدهم كتاباً فيهما بعنوان « علي بن أُديم ومنهلة(136) » . وقد أشار أبو الفرج الأصبهاني إلى خبرهما فقال : « كان بالكوفة رجلٌ من بني أسد يُقالُ له عليُّ بنُ أديم ، فهويَ جارية لبعض نساء بني عبس. فباعتْها لرَجُلٍ من بني هاشم. فخرج بها عن الكوفة. فمات علي بن أديم جزعاً عليها بعد ثلاثة أيام من خروجها. وبلغها خبرُه فماتت بعدهُ. فعمل أهل الكوفة لهما أخباراً هي مشهورة عندهم... وقالوا: آخر منْ ماتَ من العشق عليُّ بن أديم الجُعْفي(137) . ومن شعره قوله.(138)

---

(134) الاغاني ٣ : ٢٦٠ .

(135) الاغاني ٣ : ٢٦٢ .

(136) الفهرست ص ٤٢٦ .

(137) الأغاني ١٥ : ٢٦٧ .

(138) الأغاني ١٥ : ٢٦٧ ، معجم الشعراء ص ١٣٥ .

صاحوا الرحيل وحثّني صحبي ... قالوا الرّواحَ فطيرُوا لُبّي
واشتقتُ شوقاً كادَ يقتلني ... والنّفسُ مشرفةٌ على نَحبِ
لم يلقَ عندَ البينِ ذو كَلَفٍ ... يوماً كما لاقيتُ من كَرْبِ
لا صبرَ لي عند الفراقِ على ... فَقْدِ الحبيبِ ولوعةِ الحبِّ

ويمكن أن نضيف الى مَنْ سبق من الشعراء الغزلين المعروفين بالعفّة ، المؤمل بن جميل الملقب بقتيل الهوى(١٣٩) . وأبا العتاهية الذي غلب عليه الشوق والهيام حين وقع في حب عُتبة(١٤٠) . وعلي بن الجهم الذي أقام على الوجد والهوى والحنين والشوق وفياً مخلصاً(١٤١) .

اما اللون الثاني من الغزل فهو الحسيُّ والمكشوف . وكان شعراؤه اكثر عددا من اللون الاول اي الغزل العفيف او العذريّ . وقد خرجوا عن كل عرفٍ وخلق وذوق سليم . وانغمسوا في الملذات . وانهمكوا في تصيد الجواري والقيان والاماء الفاجرات . وجاهروا بفسوقهم وانحلالهم وآثامهم . وراحوا يجوبون في دور اللهو والعبث والقصف والغناء دون رادع من خلق او زاجرٍ من دين . وللزندقة والشعوبية دورٌ كبيرٌ في شيوع مثل هذا الغزل . وساعد عليه ايضا تطور الحياة الحضارية وتعدد الملاهي وتقطّع الروابط الاجتماعية وتفسخها . وذيوع المذاهب والاراء الاباحية التي نشط قسم من الموالي على نشرها(١٤٢) ومن شعراء هذا التيار حماد عجرد . ولعل اخف شعر له في هذا المجال قوله في جارية تدعى جوهراً(١٤٣) .

انـــي لأهوى جوهراً ... ويحبُّ قلبي قلبها
واحبُّ من حبي لها ... من ودها وأحبّها
واحبُّ جارية لها ... تُخفي وتكتم ذنبها

ومن الثلة المتهتكة المتحللة مطيع بن اياس . فليس من جارية رآها الا وكلف بها وسعى اليها . ومن شعره الذي يسمح المقام بذكره قوله في جارية(١٤٤) :

---

(١٣٩) معجم الشعراء ص ٢٩٩ .

(١٤٠) ستأتي ترجمته مفصلة في هذا الكتاب .

(١٤١) لتنظر مقدمة ديوانه ص ٣ - ٤٧ .

(١٤٢) ينظر : الشعراء من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ص ٢٨٢ . واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٠٤ . ٥٠٢ .

(١٤٣) الاغاني ١٤ : ٣٤١ .

(١٤٤) الاغاني ١٣ : ٢٩٢ .

إنَّ قلبي قد تصابى بعدما كان انابا
ورماة الحب منه بسهام فأصابا
قد دهاه شادنٌ يلبسُ في الجيد سِخاباً(١٤٥)
فهو بدرٌ في نقابٍ فاذا القى النقابا
قلتُ شمسٌ يوم دجنٍ حسرت عنها السحابا

وثمة شعراء اخرون نظموا مثل هذا الشعر . منهم اسماعيل بن عمار الاسدي(١٤٦) ، والمؤمل بن اميل المحاربي(١٤٧) . وبشار بن برد(١٤٨) ، وعمرو الخاركي(١٤٩) ، والفضل بن عبدالصمد الرقاشي(١٥٠) . وابن الخياط(١٥١) ...

ولم يقف بعض الشعراء في غزلهم عند المرأة . بل تجاوزوها الى الغلمان والغلاميات (وهنّ فتيات في زيّ غلمان) وكلاهما بدعةٌ خطيرة ، وانحراف مقرف ، وخلقٌ شائن . ان الغزل بالمذكر تسرب الى المجتمع العباسي من الفرس كما يرى يوسف حسين بكار في قوله : « ان العامل الاساس في ظهور الميل الى الغلمان هم الفرس الذين نقلوها الى العرب . وساعد عليها عوامل اخرى اذت في مجموعها الى ظهور الغزل بالمذكر كأيّ فنٍ من فنون الشعر الاخرى(١٥٢) . ويخالفه في الرأي محمد النويهي . فيرى الخطأ والظلم معاً في أن يعزى هذا الانحلالُ الخلقيُّ الى أمةٍ واحدةٍ هي الفرس وإنما يعزوه الى كل الأمم التي جمعتها الحضارة الاسلامية . لأنَّ الانحطاط إنما نشأ عن اختلاط هذه الأجناس بأديانها المختلفة وعاداتها ومقاييسها ونظمها المتباينة .(١٥٣)

---

(١٤٥) السخاب : القلادة من قرنفل .
(١٤٦) الأغاني ١١ : ٣٦٤ .
(١٤٧) نهاية الأرب ٢ : ٢٩٦ .
(١٤٨) الأغاني ٣ : ١٣٥
(١٤٩) الورقة ص ٥٩ .
(١٥٠) طبقات الشعراء ص ٢٢٦ .
(١٥١) الاغاني ٢٠ : ١ ـ ١٢ .
(١٥٢) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ص ١٩٩ .
(١٥٣) نفسية أبي نواس ص ٨٨ .

إن هذا الداء المقيت ، أو المرض الاجتماعي ، الذي انتقل الى المجتمع العباسي سواءاً أكان من الفرس أم من غيرهم ، سرى في فئة كبيرة من الشعراء آنذاك ، ومن أبرزهم أبو نواس(١٥٤) ، والحسين بن الضحاك(١٥٥) ، ووالبة بن الحباب(١٥٦) الذي يقول فيه الدكتور شوقي حنيف : « إنه هو الذي يتحمَّل وِزْرَ إفساد أبي نواس ، بل هو في رأينا الذي يتحمَّلُ وِزرَ العصر كلّه وماشاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال خنقاً(١٥٧) »وفي رأينا قبر شعر هؤلاء الخلعاء خير من نشره واشاعته ، ولذلك أعرضنا عن ايراد أمثلة من شعرهم ، واكتفينا بالاشارة الى مواضع تراجمهم في كتاب الأغاني الذي يُعَدُّ أكبر مصدرٍ لأخبارهم وأشعارهم .

الوصف :

الشعراءُ فنَّانون مبدعونَ يرسمونَ بالكلمات مايرون ، ويُصوِّرون مايشاهدونَ ، ويصفونَ مايحسون به ؛ ومن هنا كثر نتاجهم الشعريُّ في غرض الوصف ، حتى قال ابن رشيق : « الشعر إلاَّ أقلّه راجعٌ الى باب الوصف ، ولاسبيل الى حصره واستقصائه »(١٥٨) . وقد خصَّه الدارسونَ القدامى والمحدثون بعنايتهم ورعايتهم ، وأفردوا له أبواباً في مؤلفاتهم واختياراتهم .

إنَّ الشعر العربي زاخرٌ بأوصاف كثيرة منتزعة من البيئة ابتداءً من عصر ما قبل الاسلام . وقد أعطتنا دولة بني العباس ألواناً مختلفة من هذه الاوصاف منها قديمة امتدتْ اليها يدَ الحضارة بالتهذيب والتطوير ، ومنها مبتكرة أوجدتها المدنية الجديدة التي تضافرتْ أمم كثيرة وأجناس مختلفة على خلقها . فإذا وصفَ ـ مثلاً ـ الشاعر الجاهلي رحلةً في مضارب الصحراء ، فإنَّ بشار بن برد وصفَ في قصيدةٍ رحلة الخليفة الهادي من البصرة الى بغداد في نهر الفرات(١٥٩) ، وتناول أبو نواس نزهةً للخليفة الأمين في سفينةٍ جميلة الصنع تمخرُ عُبابَ الماء في نهر دجلة(١٦٠) .

---

(١٥٤) الأغاني ٢ : ٦١ ولكل من ابن منظور وأبي هفان كتاب مفرد في أخباره .

(١٥٥) الأغاني ٢ : ١٤٦ . وراجع كتاب (الحسين بن الضحاك) للدكتور شوقي رياض .

(١٥٦) الأغاني ١٨ : ١٠٠ .

(١٥٧) العصر العباسي الأول ص ٧٣ .

(١٥٨) العمدة ٢ : ٢٩٢ .

(١٥٩) ديوانه ٢ : ٢٨٢ .

(١٦٠) ديوانه ص ٤١٤ .

سـخَّرَ اللهُ للأمـيـن مـطايا لم تُسخَّرْ لصاحبِ المحرابِ(١٦١)
فاذا ما ركابـــهُ سِرْنَ برّاً سارَ في الماءِ راكباً ليثَ غابِ
أسداً باسـطاً ذراعيـه ، يـعدو أهْرَتَ الشِّدْقِ ، كالحَ الأنيابِ(١٦٢)
لايـعانيـهِ بالـلـجامِ ، ولا السّو طِ ، ولا غمزِ رجلهِ في الرّكابِ
عجبَ الناسُ إذ رأوه على صو رة لـيـثٍ يـمرُّ مرَّ الـسَّحابِ

ولم تكن السفن والقوارب فقط تثير إعجاب الشعراء ، بل الجسور المقامة على دجلة أيضاً ، يقول علي بن الفرج :(١٦٣)

أيا حبذا جسرٌ على متنِ دجلةٍ بإتـقانِ تأسـيسٍ وحُسْنٍ ورونـقِ
جـمالٌ وفـخرٌ لـلـعراقِ ونُزهةٌ وسلوةُ مَنْ أضناهُ فرطُ التشوُّقِ

وأقبل الشعراء العباسيون على الطبيعة الجميلة إقبالاً كبيراً . فلم يتركوا شيئاً فيها إلّا وصفوه ، سواء كان في الأرض أم في السماء ، من رياض ومروج وبساتين ، وأزهار وأشجار وأثمار ودور وقصور وقبـاب ، ومآكل ومشارب ، وسحب وأمطار ، ونجوم وأفلاك... من ذلك قول مروان بن أبي حفصة يصف حديقةً وهبها له المهدي ، ويذكر نخلَها وشجرَها :(١٦٤)

نواضرَ غُلباً قد تدانتْ رؤوسُها من النَّبتِ حتى مايطيرُ غُرابُها(١٦٥)
ترى الباسقاتِ العُمَّ فيها كأنَّها ظعائنُ مضروبٌ عليها قِبابُها(١٦٦)
ترى بابَها سهلاً لكلِّ مُدفَّعٍ إذا أينعتْ نخلٌ فأُغلقَ بابُها(١٦٧)
يكونُ لنا مانجتني من ثمارِها ربيعاً إذا الآفاقُ قلَّ سحابُها

ووصفوا القصور وما فيها من فُرش وأثاث ، وما يحيط بها من حدائق غناء ، تُغرِّدُ فيها الطيور ، وتجري فيها الظباء والغزلان مثل قول أبي عيينه بن محمد بن أبي عُيينه : في وصف قصر بالبصرة(١٦٨) :

---

(١٦١) المطايا : اراد بها السفن التي يطلق عليهاالحراقات،صاحب المحراب: سليمان بن داود .
(١٦٢) أهرت الشدق : واسعة .
(١٦٣) تاريخ بغداد ١ : ١١٦ .
(١٦٤) شعر مروان بن أبي حفصة ص ٢٥ .
(١٦٥) النواضر : الخضراء الشديدة الخضرة ، الغلب : العظيمة الملتفة .
(١٦٦) العم : جمع عميمة ، وهي النخلة الطويلة .
(١٦٧) المدفع : الفقير .
(١٦٨) ديوانه ص ٣٦ . وينظر الأغاني ٢٠ : ٩٠ .

وسربٍ من الغزلانِ يرتعن حولَهُ   كما انسلَّ منظومٌ من الدُرِّ من سلكِ
ووَرقاءَ تحكي الموصليَّ اذا شَدَتْ   بتغريدها أحببْ بها وبِمَنْ تحكي !
فيا طيبَ ذاكَ القصرِ قصراً ونزهةً   بأفيحَ سهلٍ غيرِ وعرٍ ولا ضَنْكِ

وكان للثمار الموجودة في الحدائق والبساتين نصيبٌ من شعر الوصف . ومن طريف ماجاء في وصف التفّاح قول بشار بن بُرد(١٦٩) :

وتفاحةٍ من خالصِ التِّبرِ نصفُها   ومِن جُلّنارٍ نصفُها وشقائقِ
كأنَّ الهوى قد ردَّ بعد تفرُّقٍ   لها خدَّ معشوقٍ الى خدِّ عاشقِ

ومن بديع وصف العنبِ الرازقيِّ قول ابن الرومي(١٧٠) :

كأنَّ الرّازقيَّ وقد تناهى   وباهَتْ بالعناقيدِ الكرومُ
قواريرُ بماءِ الورد ملأى   تَشِفُّ ولؤلؤٌ فيها يعومُ
وتحسبُهُ من الشَّهدِ المصفَّى   اذا اختلفَتْ عليكَ الطُعومُ
فكلُّ مُجَمَّعٍ منه ثُريّا   وكلُّ مُفرَّقٍ منه نجومُ

وكانت قصور الخلفاء والأُسر الغنية حافلةً . الى جانب الطعوم اللذيذة والفواكه الشهية ، بوسائل اللهو واللعب التي كانوا يقضون بها أوقات فراغهم . من ذلك لعبة الشطرنج . وقد أحسن المأمون في وصفها وتشبيهها بمعركة حربية حامية بين عسكرين(١٧١) :

أرضٌ مربعةٌ حمراءُ من أدمِ   مابين إلفينِ معروفينِ بالكرمِ
تذاكرا الحربَ فاحتالا لها حِيَلاً   من غير أنْ يأثما فيها بسفكِ دمِ
هذا يغيرُ على هذا ، وذاكَ على   هذا يغيرُ ، وعينُ الحزمِ لم تنمِ
فانظرْ إلى فطنٍ جالتْ بمعركةٍ   في عسكرينِ بلا طبلٍ ولا علمِ

ومن وسائل اللهو التي أخذتْ جانباً كبيراً من شعر الوصف خارج الدور والقصور . الصيد والطرد . وكان الخليفة المهدي من أشهر الخلفاء عناية بالصقور والبزاة وكلاب الصيد . ومن طريف مايروى عنه أنه خرج مع ابن عم أبيه عليّ بن

---

(١٦٩) نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢٠٥ . وهذان البيتان ليسا في الموجود من الديوان

(١٧٠) نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٢٢٨ ، ولم ترد هذه الأبيات في الديوان المطبوع

(١٧١) المستطرف ٢ ، ٢٥٩ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٢٨ ، وتنسب الابيات الى علي بن الجهم ينظر ديوانه ص ١٧٩ .

سليمان إلى الصيد فسنح لهما قطيعٌ من ظِباء . فأرسلت الكلابُ وأجريت الخيلُ فرمى المهديُ ظبياً بسهم فصرَعه . ورمى علي بن سليمان فأصاب بعضَ الكلاب فقتله فقال أبو دُلامة :

قد رمى المهديُ ظبياً شكّ بالسهم فؤادَهْ
وعليُّ بن سليمان رمى كلباً فصادَهْ
فهنيئاً لهما كلُّ امرئٍ يأكلُ زادَهْ

فضحك المهدي حتى كاد أنْ يسقطَ عن سرجه . وقال : صدقَ والله أبو دُلامة . وأمر له بجائزة سنية (١٧٢).

ونظر الشعراء الى الأنواء الجوية . ووصفوها بقصائد ومقطوعات . فهذا أبو عُبادة البحتري يُجيد بلغةٍ رقيقةٍ عذبةٍ وصفَ السحاب والبرق . ويرسمهما رسماً دقيقاً يدلّ على خيالٍ خصب ينفذُ في دقائق الأشياء فيبرزها ويظهرها بأبهى حلّةٍ وأجمل منظر (١٧٣) :

ذات ارتجازٍ كحنين الرّعدِ مجرورةُ الذيلِ صدوقُ الوعدِ
مسفوحةُ الدّمعِ لغيرِ وجدِ لها نسيم كنسيم الوَرْدِ
ورنّةٌ مثلُ زئيرِ الاسْدِ ولمعُ برقٍ كسيوفِ الهندِ
جاءت بها ريحُ الصَبا مِن نجدِ فانتثرتْ مثلَ انتثارِ العقْدِ
فراحتِ الأرضُ بعيشٍ رغد مِن وشي أنوارِ الرُّبى في بُرد

ونلاحظ ابراهيم بن هَرْمة يصفُ في قصيدة رائعة النجوم والكواكب وكأنّه عالم جليل من علماء الفلك . يتناول فيها هيئاتها الخلاّبة . وألوانها الجذّابة . وحركاتها الدقيقة المنتظمة (١٧٤) .

وشاركَ الشعراءُ مشاركة كبيرة في وصف الخمرة وأدواتها وسُقاتها ومجالسها وما يتردّدُ في هذه المجالس من أصواتٍ للمغنيين والمغنيات الى جانب الآلات الموسيقية . وسنوضّحُ هذا الوصف لاحقاً في حديثنا عن الخمريات .

---

(١٧٢) الأغاني ١ : ٢٥٨ .

(١٧٣) ديوانه ١ : ٥٦٧ .

(١٧٤) ينظر ديوان ابراهيم بن هرمة ص ١١٤ .

أما المعاركُ والحروبُ فقد تناولها عددٌ من الشعراء بالوصف . فمثلاً نجد بشار بن برد يصوِّرُ معركةً ثار فيها الغبار ولمعتْ فيها السيوفُ حتى خُيِّلَ اليه أنها نجوم تتساقط في الليل(١٧٥) :

كأنَّ مثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسنا وأسيافنا ليلٌ تهاوى كواكبُه

واشتهر مسلم بن الوليد بوصف الحرب وتصوير شجاعة الفرسان وقوّتهم واقدامهم ، وقد تأثر به المتنبي فيما بعد . مثل قوله(١٧٦) :

يَغْشَى الوغى ، وشهابُ الحربِ في يدهِ يَرْمي الفوارسَ والأبطالَ بالشُّعَلِ
يفترُّ عندَ افترارِ الحرب مُبتسماً اذا تغيرَ وجهُ الفارسِ البطلِ

وبرز أبو تمام في وصف حروب الروم والمسلمين ونظم قصائد جيدة رسم فيها صوراً باهرةً للجيش العباسي المظفر والى جانبه القتلى والجرحى والأسرى للأعداء . انظر الى هذه الأبيات التي وصفَ فيها شجاعةَ المقاتلين ومهارتهم وهم مُتحصِّنون بسيوفهم ودروعهم ومُنقضُّون على الخصوم كالأسود :(١٧٧)

تخذوا الحديدَ من الحديدِ مَعاقلاً سكّانها الأرواحُ والأجسام(١٧٨)
مسترسلين الى الحتوفِ كأنّما بين الحتوفِ وبينهم أرحامُ
آسادُ موتٍ مُخْدِراتٌ مالها إلاّ الصوارمَ والقنا آجامُ

إنَّ فنّ الوصف الذي ذكرنا طرفاً منه متعدّد الجوانب الى حدٍ بعيد ، ويمكن للقارىء ، اذا أراد التوسّع ، أنْ يرى صوراً كثيرة في الدواوين الشعرية والكتب الأدبية مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون الكاتب . وغرائب التشبيهات لعلي بن ظافر الأزدي . والمحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسري الرفّاء . والتحف والهدايا للخالديين . وديوان المعاني لأبي هلال العسكري ...

---

(١٧٥) ديوانه ١ : ٣٠٦ .

(١٧٦) ديوانه ص ٩ .

(١٧٧) ديوانه ٣ : ١٥٦ .

(١٧٨) أي جعلوا سيوفهم معاقل من سيوف غيرهم .

الزهدُ والتصوُّف :

زَهدَ في الشيء وعنه . رغبَ عنه وتركه . ومنه زَهدَ في الدنيا . أي تخلّى عنها للعبادة . فهو زاهد . وقد أوجز أبو سليمان الدارانيُّ (ت ٢١٥ هـ) ماقيل في معنى الزهد : « اختلفوا علينا في الزهد بالعراق . فمنهم من قال : الزهد في تركِ لقاء الناس ومنهم من قال في ترك الشهواتِ . ومنهم من قال في تركِ الشّبع . وكلامُهم قريبٌ بعضهُ من بعضٍ . وأنا أذهبُ الى أنَّ الزهدَ في تركِ مايشغلكَ عن الله »(١٧٩)

إنَّ ظاهرة الزهد ليست جديدة أو طارئة على العصر العباسي . فإنَّ الصحابة والتابعين كانوا زهّاداً . وكان كثيرٌ من القُصّاص والوعّاظ ينشدون في العصر الاموي أشعاراً فيها بوادر للزهد وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب عن متاع الدنيا الفاني . مثل مالك بن دينار والحسن البصريّ .(١٨٠) .وحينما جاء عهدُ بني العباس أخذ الزهدُ مساراً مستقلاً . وأصبح الشعرُ الذي يُنظم فيه فناً قائماً بذاته . يواجه تيارَ الزندقةِ والإباحيةِ والفسادِ والعبثِ والمجونِ . ويسعى لإصلاح النفوس المريضَة وملئها بنور الهدى واليقين .

واذا كان الزهد اتجاهاً سلوكياً مضمونه التقشُّفُ والإعراضُ عن الدنيا بالتزام العبادات وأدائها كاملة لبلوغ الجنة والنجاة من النار . فإنَّ التصوفَ نزعةٌ تتخذُ المجاهدةَ والرياضة الروحية . وتتجاوز الظاهر الشرعي بالتعمقِ في الباطن والوصول الى الكشف(١٨١) . ولا نخوض في هذا المكان ـ كما فعل كثيرٌ من الدارسين ـ في حقيقة التصوف ونشأته . أهو اسلامي خالصٌ أم متأثرٌ بالهندية كما يرى جولدزيهر(١٨٢) . أو المسيحية كما يري فون كريمر(١٨٣) . وغيره من المستشرقين أمثال بروكلمان(١٨٤) . ونيكلسون(١٨٥) . ولكن حَسبنا ما قاله ألفرِد جيوم :

---

(١٧٩) حلية الأولياء ٩ : ٢٥٨ .

(١٨٠) يرى نيكلسون أن الحسن البصري مؤسس مدرسة الزهد والتصوف في البصرة . وأنه يعد في نظر الصوفية واحداً منهم ، لأنه ينزع الى حياة روحية خالصة في عبادته غير قانع بمجرد الصور الشكلية في أدائها (ينظر كتابه : في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢) .

(١٨١) التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الأول ص ١٦٩ .

(١٨٢) العقيدة والشريعة ص ١٤١ .

(١٨٣) الحضارة الاسلامية ص ١٢٠ .

(١٨٤) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٣٥ .

(١٨٥) في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢ .

« وتساؤلنا الى أي حدٍّ كان المتصوّفة متأثرين بعوامل ودوافع خارجة عن الاسلام أمر لا أهمية له . فالمؤكد أنَّ الاسلام نفسه بعقيدتِه وصومه وذكره كان أساس حياتهم »(١٨٦).

إنَّ شعراء الزهد والتصوف كثيرون ومَن يرجع الى الكتب التي اهتمت بأخبارهم يجد عشرات الأسماء . وسنكتفي بذكر البارزين منهم . مثل عبدالله بن المبارك الذي نصح العباد بالتزام الخُلقِ القويم والطريقِ المستقيم ، ودعاهم الى نبذ الآثام واجتنابها . والتزودِ بزاد التقوى والالتجاء الى الله الحي القيوم كقوله(١٨٧) :

يا طالبَ العلمِ بادِرِ الورَعا وهاجِرِ النَّومَ واهجرِ الشِّبَعا
يا أيُّها الناسُ أنتمُ عشبٌ يحصدهُ الموتُ كلما طلعا
لا يحصدُ المرءُ عند فاقتِهِ إلاّ الذي في حياتِهِ زرعا

ولمحمد بن كُناسة شعرٌ في الزهد ، سلكَ فيه مسلك الوعظ والنصح الدين والدعوة الى القيم الخُلقية الرفيعة التي أوصى بها الدين الحنيف ، وسار على هديها السلفُ الصالح . وكان مترفعاً عن الدنايا بعيداً عن كل مايخزي ويشين ، وقد صرَّح بذلك في شعره(١٨٨) :

سألقى المنايا . لم أخالطْ دنيَّةً ولم تَسْرِ بي الى المخزيات قَلُوصُ

ومن المتواضعين الزهاد محمود الوراق الذي أكثرَ من النظم في الزهد . دعا فيه الى طاعة الله ولزوم أوامره ونواهيه . والتوكّل عليه . والثقة به ، والرضا بقضائه . والتحصُّن بالصبر والقناعة . مثل قوله(١٨٩) :

مَنْ كانَ ذا مالٍ كثيرٍ ولم يقنعْ فذاكَ الموسرُ المعسرُ
وكلُّ مَنْ كانَ قنوعاً وإنْ كانَ مُقِلّاً فهو المكثرُ
الفقرُ في غنى النفسِ وفيها الغنى وفي غنى النفسِ الغِنى الأكبرُ

---

(١٨٦) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٨٥ .

(١٨٧) شعره ، المقطوعة ٢٢ .

(١٨٨) الأغاني ١٣ : ٢٤٠ . وينظر : محمد بن كناسة الأسدي ، حياته وشعره ، مجلة آداب الرافدين ، العدد ٦ لسنة ١٩٧٥ ، المقطوعة ١٦ .

(١٨٩) ديوانه ص ٥٧ .

واشتهر الامام أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي بشعر الزهد والوعظ ، وقد روت له المصادر أقوالاً وأشعاراً تدعو الى التربية الإسلامية ، والتمسك بحبلِ الله المتين ، والسير في درب البِر والتقوى والعمل الصالح مثل قوله(١٩٠) :

يامَــنْ تــعزَّزَ بالدنــيا وزيــنــتــها   الدهرُ يأتي على المبني والباني
ومَنْ يكنْ عِزُّهُ الدُّنيا وزينتها   فــعزُّهُ عــن قــلــيــلٍ زائــلٌ فانــي
واعلمْ بأنَّ كنوزَ الأرضِ من ذهبٍ   فاجعلْ كنوزَكَ مِنْ برٍ وايمان

ومن النساء المشهورات بالعبادة والصوم والاستغراق في الذات العليّة ، رابعة العدوية ، وهي لاتقلُ شهرةً عن كبار الزهاد والمتصوفة آنذاك أمثال ابراهيم بن أدهم ، وسفيان الثوري ، وشفيق البلخي ، ومعروف الكرخي ، وبِشْر بن الحارث الحافي ، والحارث المحاسبي .. ومن شعر رابعة العدوية الذي يتجلّى فيه الحبُ الإلهي الأبيات الآتية(١٩١) :

أحــبُّــك حُــبــيــنِ : حُــبَ الــهوى   وحُــبــاً لأنَّــــك أهــــلٌ لذاكا!
فأمّا الذي هو حُــــبُ الــــهوى   فَــشُــغْــلــي بذكرك عــمَــنْ سواكا!
وأما الذي أنــــت أهــــلٌ لــــه   فكشْفُك للحُجب حتى أراكا!
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاكَ لي   ولكنْ لكَ الحمدُ في ذا وذاكا

وهناك شعراء تيقَّظوا من غفلتهم ، وثابوا الى رشدهم ، وتابوا ، وأنابــوا الى الله ونظموا شعراً زهدياً ، أمثال آدم بن عبد العزيز ، ومحمد بن يسير ، وصالح بن عبد القدوس ، ويوسف بن القاسم ، ولقيط بن بكير المحاربي ، وأبي نواس ، وسعيد بن وهب ، وأبي العتاهية ... ولعلَّ هذا الأخير أكثرهم نظماً في الزهد ، حتى ليؤلف وحده ديواناً كاملاً ، وسنتحدَّثُ بالتفصيل عن حقيقته في ترجمته ، ولا بأس من ايراد هذا الشاهد من شعره(١٩٢) :

---

(١٩٠) شعره ص ٢٠٢ .

(١٩١) قوت القلوب ٢: ٨٤ ، احياء العلوم ٤ : ٢٦٧ . وينظر الشعر الصوفي حتى أفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي ص ١٢٨ .

(١٩٢) ديوانه ص ٢١٥ .

الى اللهِ فارغْب لا الى ذا ولا ذاكا   فإنَّكَ عبدُ اللهِ ، واللهُ مولاكا
وإنْ شئتَ أنْ تحيا سليماً من الأذى   فكُنْ لشرار الناسِ ماعشْتَ ترّاكا

ونلاحظ أبا نواس ، ذلك العابث الماجن ، يندمُ في أُخريات حياته على مااقترف من إثم ، وينظم شعراً زهديا يرجو فيه عفو الله وغفرانه ، مثل قوله وهو يتضرع(١٩٣) :

يارب : إنْ عظمتْ ذنوبي كثرة   فلقد علمتُ بأنّ عفوك أعظمُ
إنْ كان لايرجوك إلاّ محسنٌ   فبمنْ يلوذُ ، ويستجير المجرمُ
أدعوك ـ ربِّ ـ كما أمرت تضرُّعا   فإذا رددْتَ يدي فمن ذا يرحمُ
مالي إليك وسيلةٌ إلاّ الرّجا   وجميلُ عفوك ثم أنّى مسلمُ

وتجدرُ الاشارة هنا الى أن هناك مجموعة من الشعراء عرفوا بعقلاء المجانين ، أمثال عليان وبهلول وعباس وسعدون ... تميَّز شعرهُم بصدق العواطف وحرارة المشاعر تجاه المحبوب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، يلهجون بذكره ويأنسون بمناجاته . مثل قول عباس :(١٩٤)

يا حبيب القلوب من لي سواكا؟   ارحــم اليــوم مذنــبا قد أتاكا
أنــت سُؤلي ومــنيــتي وسروري   قد أبى القلبُ أنْ يحبَّ سواكا
يامُــناي وســيّدي واعــتمادي   طال شوقي متى يكون لقاكا؟
ليس سؤلي من الجنان نعيما   غــيرَ أنــي أُريدُها لأراكا

المجون :

جاء في اللغة : أنّ الماجن هو « الذي يرتكبُ المقابح المردية والفضائح المخزية ، ولا يمضُّهُ عذلُ عاذلهِ ولا تقريعُ من يُقرِّعه »(١٩٥) . إن الماجن يخلع ثوب الحياء ويفعل ما يشاء من الأعمال المنكرة التي لاتبيحُها الأديان السماوية ولا تقبلُ بها المجتمعات الفاضلة .

---

(١٩٣) ديوانه ص ٦١٨
(١٩٤) عقلاء المجانين ص ١٣٥ ، حلية الأولياء ١٠ : ١٤٥ .
(١٩٥) لسان العرب ١٣ : ٤ .

لقد اتَّسمَ جانبٌ من المجتمع العباسي بالمجون والاستهتار بالقيم الخلقية النبيلة، وكان وراء انتشاره الزنادقة، والشعوبيون الحاقدون، والمتحللون من الدين والعرف والتقاليد. وساعد على شيوعه أيضاً كثرة الجواري المتهتكات اللواتي اشتهرن « بأفعالهنَّ الرديئة، وأخلاقهنَّ السيئة »(١٩٦). وكذلك الغلمان الذين عُرفوا بالفساد وانحطاط الأخلاق. وقد عزا الدكتور طه حسين انتشار العبث والمجون إلى الفرس وحضارتهم(١٩٧). ورأى الدكتور محمد مصطفى هدارة ان الفرس مدوا تيار المجون بأسباب القوة. وان الحياة التي عاشوها قد أنتجتْ أنواعاً من الأدب المكشوف، تداولتها أيدي المترجمين العرب فكان لها تأثير خطيرٌ في إشاعة الإباحة والمجون في المجتمع الاسلامي.(١٩٨) أما الدكتور محمد نبيه حجّاب فيعزو الخلاعة والمجون إلى انتشار الحانات ومجالس الشراب التي تضم الفجّار والمجّان من الزنادقة المارقين وأكثرهم من فسقة الموالي الذين خلعوا حشمة الوقار.

ونحن لاننكر ما ذكره الباحثون في أمر المجون وانتشاره. ولكننا نرى السبب الأقوى هو الحرية المطلقة التي رآها الناس آنذاك، وخاصة الناقمين على مبادىء السماء، والكارهين للشرائع التي أرادت أن يكون الانسان سامياً في أخلاقه وطبائعه وتصرفاته. ونؤيد ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف ان الدولة العباسية كانت مسؤولة عن انتشار موجة المجون، لأنها لم تقف بوجه الفساد ولم تتخذ للماجنين ديواناً لمحاسبتهم كما فعلت مع الزنادقة(٢٠٠).

جاهر الكثيرون بالمجون وارتكاب المحارم. ولا يمكن حصرهم وإحصاؤهم في هذا المكان، ومن يرجع إلى الدراسات والمصادر ولاسيما الأغاني يجد أسماءهم وتفصيلاً عن سيرهم، ويقف على أدبهم الذي يعكس صورةً صادقةً عن حياتهم الداعرة الفاسدة الشاذّة. ولعل من أكثرهم شهرةً في هذا المجال أبا دُلامة. وأبا نواس، ومطيع بن إياس والحسين بن الضحّاك، والحمّادين الثلاثة. ومسلم بن الوليد، ويحيى بن زياد، ووالبة بن الحُباب، وأبان اللاحقي، والفضل بن عبدالصمد الرقاشي،

---

(١٩٦) الموشى ص ١١٧، وينظر: الجواري والشعر في العصر العباسي الأول ص ١٠٤.

(١٩٧) حديث الاربعاء ٢ : ٨٢.

(١٩٨) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٠٥.

(١٩٩) معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٦٩.

(٢٠٠)العصر العباسي الأول ص ٢٨٣.

والخاركي الذي أفسدَ جيلًا برمَّته كما يقول أبو نواس : « ما مجنتُ ، ولا خلعتُ العذارَ ، حتى عاشرتُ الخاركي ، فجاهر بذلك ولم يحتشم ، فامتثلنا نحن على ما أتى به وسلكنا مسلكه ، ونحن ومن يذهب معنا عيالٌ عليه »(٢٠١)

إنَّ العُصبة الماجنة اتخذتْ في أدبها أُسلوب التصريح لاالتلميح ، يقول أحدهم وهو مطيع بن إياس :(٢٠٢)

اخـــلـــعْ عذارَكَ في الـــهوى   واشربْ مـــعـــتَّـــقَةَ الدِّنانِ
وصِــلِ الــقـبـيـحَ مُـجاهراً   فالــعـيـشُ في وصــلِ الـقِـيانِ
لايـــلـــهـيـنَّــكَ غـيرُ ما   تَـهْوَى فإنَّ الـــعـــمرَ فانِ

وكانت مجالس المجّان في غاية الخلاعة والتهتك والرذيلة ، وقد روى حمزة الأصبهاني شعراً لعشرة من اولئك الماجنين ، كان يستضيف كل منهم الآخرين عنده ، ويُغريهم بلون أو أكثر من ألوان المجون ليقبلوا ضيافته(٢٠٣) . وكان الرقّاشي من دعاتهم البارزين ، قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « وكان مع تقدّمه في الشعر ماجناً خليعاً ، متهاوناً في مروءته ودينه ، وقصيدته التي يوصي فيها بالخلاعة والمجون مشهورة ، سائرة في الناس ، متبذلة في أيدي الخاصة والعامة »(٢٠٤) .

إنَّ المجانة والخلاعة والتهتك وركوب المعاصي حالة طبيعة لأناس تمرَّدوا على دينهم واستخفوا بكلِّ القيم والتقاليد ، وباعوا أنفسهم للشيطان كما قال والبة بن الحباب :(٢٠٥)

حـــتى إذا ما انـــتـــشـــيـــنا   وهزَّنا إبـــلـــيـــسُ
رأيـــتَ أعـــجـــبَ شـــيءٍ   مـــنَّا ونـــحـــنُ جـــلوسُ
هذا يُـــقـــبِّـــلُ هذا   وذاك هذا يـــبـــوسُ

---

(٢٠١) طبقات الشعراء ص ٢٠٦ .
(٢٠٢) شعراء عباسيون ص ٧٦ .
(٢٠٣) ينظر ديوان أبي نواس بتحقيق ايفالد فاجنر ص ٤٢ . والتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢١١ .
(٢٠٤) الأغاني ١٦ : ٢٤٦ .
(٢٠٥) طبقات الشعراء ص ٨٩ .

إن هذا اللون من الأدب في غاية الكثرة ، ولكن لانبيح لأنفسنا الانشغال به ، لأنه بعيد عن التربية الصحيحة التي نتوخاها لأبنائنا السائرين نحو العلى والمجد . ويكفي ما ذكرناه في الصفحات السابقة للاستدلال على تلك الفئة الضالة التي كانت تعمل على هدم مثلنا وقيمنا السامية .

الشعوبية والزندقة :

عاش الفرس بجوار العرب من الجانب الشرقي ولاسيما العراق منذ أزمان بعيدة ، ولكنهم ـ حسبما تذكر الكتب التأريخية ـ كانوا يناصبون العرب العداء ، ويشمخون عليهم ، ويدّعون أنهم أرفع منهم مقاماً ، وأسمى مكاناً ، وأقوى سلطاناً ، وأرسى بنياناً . واتهموهم بأنهم غلاظ الأكباد ، قساة القلوب . وليس رد النعمان بن المنذر ملك الحيرة على كسرى حين أراد النيل من العرب ومكانتهم بخاف على الدارسين .(٢٠٦) لقد حاول كسرى ـ غير مرة ـ ان ينكّل بالعرب ، ويستبيح ديارهم ، ويثلم عِزّتهم ، ويهين كرامتهم ، وما قصيدة لقيط بن يعمر الايادي العينية المشهورة التي حذّرَ فيها قومه من غدر هذا الملك إلاّ دليلٌ على ذلك(٢٠٧) . إن العرب لم يقبلوا الإهانة ولم يناموا على ضيم وقد عبّر الأعشى بقصيدة رائعة في يوم ذي قار عن ذلك(٢٠٨) .

وحينما قامت دولة الراشدين العادلة ، وهَوَتْ دولة الأكاسرة ، جمع الأشرار حطب حقدهم ولؤمهم ـ ولاسيما فريق من الفرس ـ ليشعلوه بوجه المسلمين وأئمتهم ، منهم أبو لؤلؤة الفارسي الذي طعن الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب بسكين أودت بحياته ، وزازويه الفارسي الذي اشترك مع ابن سبأ في مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، والتآمر على مقتل الخليفة علي ابن أبي طالب وإن ظهر ذلك على يد الخوارج .

---

(٢٠٦) العقد الفريد ٢ : ٦ .

(٢٠٧) ديوان لقيط بن يعمر ص ٣٠ ـ ٥١ .

(٢٠٨) ديوان الأعشى ص ٣٠٨ ـ ٣١١ .

وما كادت تقوم دولة بني أمية في الشام حتى بدأ الغادرون بمحاربتها وعرقلة نشاطها والتآمر عليها وعلى العرب الذين كان لهم الفضل في حمل لغة القرآن إلى آفاق بعيدة وهداية الضالين وتخليص الشعوب المضطهدة من العبودية والقهر والاستغلال. وعمد عددٌ من الشعراء إلى التغني بمجد الفرس القديم، والتعصب على العرب، والتطاول عليهم، والنيل منهم، كاسماعيل بن يسار وابنه ابراهيم، وموسى شهوات(٢٠٩).

وشارك الفرس بني هاشم في إزالة الدولة الأموية واقامة الدولة العباسية، وعاونوهم في ارساء قواعدها وتثبيت أسسها، ولم يكتفوا بالنعمة التي صاروا عليها، بل أخذهم الغرور وتطاولوا على العرب. وكان بشار بن برد من أبرز رجالهم في عصبيته للفرس واذكاء نار الشعوبية(٢١٠) والمتصفح لديوانه يلمح ذلك ولاسيما في قصيدته التي يقول في أولها(٢١١):

خليلي، لا أنامُ على اقتسارِ ولا آبى على مولًى وجارِ
سأخبرُ فاخرَ الأعراب عنّي وعنه حين تأذنُ بالفخارِ
أحين كُسيتَ بعد العُري، خزاً ونادمتَ الكرامَ على العُقارِ
تفاخرُ يا ابنَ راعيةٍ وراعٍ بني الأحرارِ حسْبُكَ مِن خسارِ

إنّ التعريض بالعرب، والتجني عليهم، والتقليل من شأنهم، والاستهزاء بهم، لم يكن اعتباطاً، وانما هو جزء من مخطط تآمري تعاقد الشعوبيون وموقف مضاد من العرب في غابرهم وماضيهم، وكان بشار بن برد ابنهم البار، وربيبهم المخلص وداعيتهم الأول، وجنديهم المتمرس بين شعرائهم في العصر العباسي الأول. وكان مصرعه جزاء بذاءته ومجوسيته واستخفافه باقدار الناس.

---

(٢٠٩) الأغاني ٣ : ٢٥١.

(٢١٠) نسبة غير قياسية إلى الشعوب، وهم فريق من الناس لايرون للعرب فضلاً عليهم، بل يبالغون في ذلك فيذهبون إلى تنقصهم والحط من قدرهم (البيان والتبيين ٣ : ٥ حاشية ٤).

(٢١١) ديوانه ٣ : ٢٢٩. وينظر: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٣٦.

ومن الشعراء الذين صبُّوا جام غضبهم على العرب ، وسلقوهم بألسنة حداد الشاعر المشهور أبو نواس الذي استطاع بذكائه ولباقته وبديهته الحاضرة ان ينفذ إلى البلاط العباسي ويبث سموم شعوبيته في مجالس الخلفاء والوزراء وسراة القوم الذين اصطفوه وجعلوه نديمهم .

لقد تغنَّى أبو نواس بأمجاد الفرس وحضارتهم ، وتياهى بمقام الأكاسرة وتراثهم ، واتخذ من هذا التغني منفذاً لطعن العرب والزراية بهم ومسخ صورة آبائهم المشرقة المتمثلة في البطولة والشهامة والإباء والسخاء ، مثل قوله(٢١٢) :

أرضٌ تبنّى بها كسرى دساكره ... فما بها من بني الرَّعناء إنسان
وما بها من هشيم العُرْبِ عرفجةٌ ... ولا بها من غذاء العربِ خُطبانُ(٢١٣)
لـكـن بـهـا جـلَّـنارٌ قد تَـفرَّعَـهُ ... آسٌ وكـلـلـه وَرْدٌ وسوسانُ

ولم يكن تهكم أبي نواس المرير بالواقفين على الأطلال ـ كما قال الدكتور طه حسين ـ مذهباً شعوبياً فحسب ، وانما هو مذهب سياسي أيضاً ، يذمُّ القديم ـ لا لأنه قديم ـ بل لانه قديم ولأنه عربي ، ويمدحُ الحديث ـ لا لأنه حديث ـ بل لأنه حديث ولأنه فارسي ، فهو إذنْ مذهبُ تفضيل الفرس على العرب ، مذهبُ الشعوبية المشهور(٢١٤) .

وثمة شعراء آخرون رفعوا لواء الشعوبية في المجتمع العباسي وتحمَّسُوا لها مثل أبان اللاحقي وأبي عبدالرحمن الهيثم بن عدي ، وعلى بن خليل ، وابراهيم بن ممشاذ المعروف بالمتوكّلي .

إنَّ الصيحات العدائية للعرب ، والتشهير بهم ، والطعن بمآثرهم رُدَّتْ على أعقابها بأقلام الغيارى من الكتاب والشعراء مثل أبي عثمان الجاحظ الذي استنكر « العصبية التي هلكَ بها عالَمَ بعد عالَم ، والحميَّة التي لاتُبقي ديناً إلاّ أفسدَتْه ، ولا دُنياً إلا أهلكتها ، وهو ما صارتْ إليه العجم من مذهب الشعوبية »(٢١٥) . وفند

---

(٢١٢) ديوانه ص ١٢٧

(٢١٣) العرفجة : واحدة العرفج وهو شجر ينبت في البادية . الخطبان : حبات الحنظل

(٢١٤) حديث الأربعاء ٢ : ٩٠ . وينظر : حياة الشعر في البصرة للدكتور أحمد كمال زكي ص ٢١٩ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص ٩٩ ـ ١١٦ .

(٢١٥) رسائل الجاحظ ٢ : ٢٠ . وينظر البيان والتبيين ٣ : ٥ هامش ١ .

الجاحظ مزاعم الشعوبية في كتابه البيان والتبيين وتعقبهم في البخلاء والحيوان والمحاسن والأضداد كما تعقبهم في غير ذلك من الكتب الكثيرة التي ضاعت ولم يبق منها سوى أسمائها تنطق بمضمونها. مثل كتاب الصُرحاء والهُجناء، والعرب والموالي، والعرب والعجم. وثمة علماء كثيرون وشعراء من غير العرب كانوا يفضلون العرب على العجم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم منهم، أي من العرب. مثل الباخرزي (ت ٤٦٧ هـ). (٢١٦)

وكان لفريق من الفرس – إلى جانب الشعر الذي قرضوه في الفخر بأصولهم والإزراء بالعرب – دور بارز في تشويه موروثنا الحضاري والفكري والعبث بهما وافسادهما. ونسج الروايات وانتحالها. أمثال حماد الراوية، وجنّاد بن واصل الكوفي، وخلف الأحمر(٢١٧). وذهب فريق ثانٍ إلى أبعد من ذلك، فألف الكتب في معايب العرب ومثالبهم أمثال يونس بن أبي فروة، وعلان بن الحسن الشعوبي الوراق، وأبي عبيدة مَعْمر بن المثنّى، والهيثم بن عدي(٢١٨)... واندفع فريق ثالث لتلفيق الأُحاديث في فضل الفرس ودورهم في الاسلام، ناسبين إياها إلى الصحابة والتابعين. ذكر الطبري أن عبدالكريم بن أبي العوجاء لما أيقن انه مقتول قال: «أما والله لئن قتلتموني، لقد وضعت أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام. والله لقد فطرتكم في يوم صومكم، وصومتكم في يوم فطرتكم»(٢١٩). إن الشعوبيين والحاقدين أخذوا لهم مواقع خطيرة في مختلف سبل المعرفة. وكان طريق دراسة الحديث الذي ولجوه مجالاً للدس على الرسول الكريم، يمثلهم أحمد بن بشير الذي يقول عنه الخطيب البغدادي إنه «كان رأساً في الشعوبية، استاذاً يخاصم فيها»(٢٢٠).

ان هذه الأفعال المريبة كان القصد منها «تفسيخ الدولة العربية الاسلامية، وتصديع كيانها، وتدمير كل أخلاقها ومثلها وقيمها، ونسف الاسلام، وهو عمادها وقوامها، وبنسفه تتحطّم قواعدها ودعائمها، وتنهدم قلاعها وحصونها، ويتهيأ لهم ان يحيوا تراثهم الثقافي والديني، ويعيدوا مجدهم السياسي على أنقاضها»(٢٢١).

---

(٢١٦) ينظر: الصراع الأدبي بين العرب والعجم ص ١١٩ – ١٢٣.

(٢١٧) لنظر اخبارهم في: الحيوان ٤: ٤٤٧، معجم الأدباء ٣: ٢٥، ٤: ١٧٩.

(٢١٨) ينظر: الحيوان ٤: ٤٤٨ أمالي المرتضى ١: ١٣٢، مروج الذهب ٤: ٣٦، الفهرست ص ١٥٥، ١٥٣.

(٢١٩) تاريخ الطبري ٩: ٢٨٩.

(٢٢٠) تاريخ بغداد ٤: ٤٨.

(٢٢١) الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ص ٢٢٠.

وكانت الزندقة تعمل إلى جانب الشعوبية على هدم المجتمع وتشويه قيمة ومثله ، وقد اتهم الكثيرون بترويجها ، منهم مَنْ سلم من العقاب والقتل أمثال مطيع بن اياس ، ووالبة بن الحباب ، ويحيى بن زياد الحارثي ... ومنهم من قتل امثال : ابن المقفع ، وبشار بن برد ، وصالح بن عبدالقدوس ، وعبدالكريم بن أبي العوجاء ، وحماد عجرد .... وقد أورد الشريف المرتضى في فصل خاص شيئاً كثيراً عن أخبارهم وأشعارهم .(٢٢٢) فالزندقة موقف مضاد من العرب في حاضرهم بعد حملهم رسالة الاسلام ورفعهم راية الجهاد في سبيله .

الخمريات :

فنٌ أدبيّ ليس بجديدٍ على الشعر العربي في العصر العباسي . وإنّما هو قديم ابتدأ به شعراءُ ما قبل الإسلام ، ويُعدُّ الأعشى أبرزهم وأكثرهم إطالةً في وصف الخمرة .(٢٢٣) ولما جاء الإسلام أمر بتحريمها وحدّ شاربيها ؛ لذلكَ قلّتْ معاقرتُها إلاّ من نفرٍ قليل جداً مثل أبي محجن الثقفي الذي لم يسلم من الحدّ عدة مرات .(٢٢٤) وفي عصر بني أمية قرع كؤوسها عددٌ من الشعراء أمثال النابغة الشيباني(٢٢٥) ، والقطامي(٢٢٦) ، والأخطل(٢٢٧) ، والوليد بن يزيد(٢٢٨) ...

ولما أقبلَ العصر العباسي بترفهِ ولهوهِ ومجونهِ وانفتاحهِ على أقوام كثيرة ولاسيما الفرس والروم ، شاعت الخمرة ، وتوسّعتْ مجالسها ، وكثرتْ حاناتها وأنديتها ، وزاد الأقبال عليها ، وتوفّرَ الشعراء على وصفها بصورةٍ لم تحدث من قبلُ . ويبدو أنَّ الحرية والتساهل كانتا وراء هذا الإقبال . ولم يكن الخلفاء بمعزل عنها ، فإنّ أكثرهم شربها . ويقال إن المنصور تناول النبيذ مرّةً واحدةً بعد أن زَيَّنَها له أحدَ

---

(٢٢٢) أمالي المرتضى ١ : ١٣٧ ـ ١٤١ .

(٢٢٣) ينظر : تطور الخمريات في الشعر العربي ص ٢٤ ، وأساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة ص ١٥ .

(٢٢٤) الأغاني ١٩ : ١ .

(٢٢٥) ديوانه ص ٨٣ .

(٢٢٦) ديوانه ص ٧٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥١ ، ٢٩١ .

(٢٢٧) الأخطل الكبير ، حياته وشخصيته وقيمته الفنية ص ١١٤ ـ ١٣٠ .

(٢٢٨) الأغاني ٧ : ١٩ .

الأطباء « فشربه في اليوم الأول فاستطابه . فعادَ له في اليوم الثاني ، وزادَ منه فخدره ، ثم عاوده في اليوم الثالث فأبطأ عن صلاة الظهر والعصر والعشاء . فلما كان من غدٍ دعا بما عنده من الشراب فهراقه ، ثم قال : ما ينبغي لمثلي أنْ يشربَ شيئاً يشغله »(٢٢٩) .

إنَّ أول شاعر خصّص شعره لوصف الخمرة هو أبو الهندي غالب بن عبدالقدوس . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « وقد أدركَ الدولتين ، دولة بني أمية ، ودولة ولد العباس ، وكان جزلَ الشعر ، حسنَ الألفاظ ، لطيفَ المعاني ... واستفرغَ شعره بصفةِ الخمر ، وهو أولُ من وصفها من شعراء الإسلام ، فجعل وصفها وَكْدَهُ وقَصْدَه »(٢٣٠) . وكان يحب الخمرة ، ويبكي لفراقها ، ويحنُ إليها حنين الفطيم إلى الرضاع . فها هو ذا يقول بعد أن أبطأ عن شربها مدّة :(٢٣١)

أديرا عليَّ الكأسَ إنّي فقدتُها كما فقد المفطومُ درَّ المراضعِ
حليفُ مدامٍ فارقَ الراحَ روحُهُ فظلَّ عليها مُستهلَّ المدامعِ

وإذا قال أبو الهندي(٢٣٢) :

اجعلوا إنْ متُّ يوماً كفني ورقَ الكَرْمِ وقبري مَعْصَرةْ
وادفنوني وادفنوا الراحَ معي واجعلوا الأقداحَ حول المقبرةْ

فقد سبقه إليه أبو محجن الثقفي(٢٣٣) :

إذا متُّ فادفنّي إلى أصل كَرْمةٍ تُرَوِّي عِظامي بعد موتي عروقُها

ولا تدفنَنّي في الفَلاةِ فإنّني أخافُ إذا ما متُّ أن لا أذوقُها(٢٣٤)

---

(٢٢٩) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ١٠١ .

(٢٣٠) الأغاني ٢٠ ، ٣٢٩ .

(٢٣١) ديوانه ص ٤٤ ، الأغاني ٢٠ ، ٣٢٣ .

(٢٣٢) ديوانه ص ٣٢ .

(٢٣٣) الأغاني ١٩ : ٧ .

(٢٣٤) أذوقُها مرفوعة باعتبار (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن أو ضمير مقدّر محذوف ، وجملة أذوقها خبر . تنظر : خزانة الأدب ٣ : ٥٥ ط بولاق .

وقد استقى أبو نواس كثيراً من المعاني في وصف الخمرة من أبي الهندي . حدَّث فضل اليزيدي : « انه سمع إسحاق الموصلي يوماً يقول . وأنشد شعراً لأبي الهندي في صفة الخمر . فاستحسنه وقرَّظه . فذُكِرَ عنده أبو نواس . فقال : ومِنْ أين أخذ أبو نواس معانيه إلاّ من هذه الطبقة ؟ وأنا أُوجدكم سَلْخَهُ هذه المعاني كلَّها من شعره . فجعلَ ينشدُ بيتاً من شعر أبي الهندي ، ثم يستخرج المعنى والموضع الذي سرقه الحسن فيه حتى أتى على الأبيات كلها واستخرجها من شعره »(٢٣٥) .

ومن شعراء الخمرة المشهورين قبل أبي نواس . على بن الخليل(٢٣٦) . وعُكَّاشة العَمِّي(٢٣٧) . وابن ميَّادة(٢٣٨) . وابن هرمة(٢٣٩) ... ومهما قيل عن هؤلاء . فإن شعر الخمرة تطوَّرَ تطوّراً كبيراً على يد أبي نواس ، حتى عُدَّ زعيم شعراء الخمرة(٢٤٠) . وبقي شعره على مرّ العصور في صدر الدراسات التي تحدثت عن الخمريات . لما له من بريق أخَّاذ . وأريحية غلاَّبة متأتية من قوّة الطبع إلى جانب بساطة الأسلوب وحلاوة اللفظ ورشاقة الوزن(٢٤١) .

لقد عشق أبو نواس الخمرة عشقاً عنيفاً قوياً . ووصل شعوره نحوها إلى درجة التقديس . وقد أشار إلى هذه الحقيقة الدكتور طه حسين حين توقَّف أمام مقطوعته(٢٤٢) :

أثْنِ على الخمرِ بآلائها ... وسَمِّها أحسنَ أسمائها
لاتجعلِ الماءَ لها قاهراً ... ولا تُسلِّطْها على مائها
كرخيَّةٌ قد عُتِّقَتْ حِقبةً ... حتى مَضى أكثرُ أجزائها
فلم يكدْ يُدركُ خمَّارُها ... منها سوى آخرِ حوبائها
دارت فأحييتْ غيرَ مذمومةٍ ... نفوسَ حَسْراها وأنضائها
والخمرُ قد يشربُها معشرٌ ... ليسوا إذا عُدُّوا بأكفائها

(٢٣٥) **الأغاني ٢٠ : ٢٢٩ .**
(٢٣٦) **الأغاني ١٤ : ١٧٤ .**
(٢٣٧) **الأغاني ٣ : ٢٥٧ .**
(٢٣٨) **الحيوان ٢ : ٢٢٧ . البيان والتبيين ٢ : ٢٤٥ ، ٢٥٠ .**
(٢٣٩) **ديوانه ص ٢٢٤ .**
(٢٤٠) **ينظر : أبو نواس زعيم شعراء الخمرة ص ٢٢ ـ ٨٥ .**
(٢٤١) **ينظر : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٤٢٧ . الشعر وطوابعه الشعبية ص ٨٥ .**
(٢٤٢) **حديث الأربعاء ٢ : ٨٧ . وينظر ديوان أبي نواس ص ١٣ .**

إنّ شعر الخمرة في العصر العباسي يشكّل ديواناً كبيراً يتناول وصفها وما يتصل بها من ندامى وسقاة وكؤوس ومجون ... وفي هذا الشعر جانب جديد يمكن أنْ يطلق عليه ـ كما يقول الدكتور هدّارة(٢٤٣) ـ اسم أدب الديارات ، ويقصد به الشعر الذي كان يتردّدُ حول مجالس الشراب في الأديرة التي كانت منتشرة في العراق والشام ومصر . وقد عُرف جماعةٌ من الشعراء بالذهاب إلى هذه الأديرة أمثال أبي نواس ، والحسين بن الضحّاك ، وعمرو الوراق ،ومطيع بن إياس ، وأبي الشبل البُرجمي ، ومحمد بن عبدالرحمن الكوفي المعروف بالثرواني ، وبكر بن خارجة الكوفي ، ومحمد بن أبي أمية ، واسحاق الموصلي ، وخالد الكاتب الذي يقول في دير (سَمالُو) الذي يقع بباب الشماسية شرقي بغداد :(٢٤٤) :

يامـنزلَ الـقَـصْـفِ في سَـمالُو ... مالـيَ عـن طِـيـبِـكَ انـتـقالُ
واهاً لأيامِـــكَ الـخوالـــي ... والـعـيـشُ صافٍ بـهـا زلالُ
تـلـكَ حـياةُ الـنُـفوس حَـقّـاً ... وكـلُ ما دونَـهـا مُـحالُ

وهكذا أصبحت الأديرة « مقصداً وهدفاً لطلاب اللذة والمتعة ، وأصحاب اللهو والمجون ، وإذا بالشعراء والأدباء وغيرهم من مُغرمي موائد الشراب ومجالسه ، يقطعون المسافات للوصول إلى هذا الدير ، أو ذاك ، لما شُهر به من نبيذ حسنٍ ، وخمرة جيدة ، وطيب معشر سكانه ، والقيمين عليه ، وإذا بهذه الديارات تدخل الأدب العربي عن طريق الشعر خاصة بأبيات ومقاطع وحتى بقصائد كاملة ، تُمجدها ويذكر الشعراء فيها أيامهم الجميلة ، ولياليهم السعيدة الحلوة التي قضوها فيها ، ثم يتمنون العودة إليها ، أو يتواعدون على اللقاء في الدير الفلاني ، وقد تنشأ علاقة صداقة ومودة خالصة بين المُجان وطلاب المتعة وبين المسؤولين عن هذه الديارات »(٢٤٥) .

إن رواد الديـارات كـانوا « يتنافسون فيما يظهرون هنالك من زيهم ، ويباهون بما يعدُونة لقصفهم »(٢٤٦) ، وقد عدّ الدكتور يوسف خليف شعر الديارات لوحة من لوحات مدرسة الأدب المكشوف ، صوّر فيها الشعراء الجانب اللاهي من

---

(٢٤٣) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٤٩٧ .
(٢٤٤) ديوان خالد الكاتب ص ٥٢٢ . وانظر : الديارات للشابشتي ص ١٤ .
(٢٤٥) الأندية الأدبية في العصر العباسي ص ١٧٨ .
(٢٤٦) الديارات ص ٤٦ .

حياتهم ، فوصفوا مجالس الشراب ، وتغزّلوا بالفتيان والفتيات الذين كانوا يقومون على أمر الأديرة ويقدمون الخمر لروادها(٢٤٧) . وقد صدق ما قاله جحظة في دير الزّنْد وَرْد القريب من بغداد(٢٤٨) :

سقياً ورعياً لديرِ الزّنْد ورد وما يحوي ويجمعُ مِن راحٍ وريحانِ
ديرٌ تدورُ به الأقداحُ مترعةً من كفِّ ساقٍ مريضِ الطرفِ وسنانِ
والعودُ يتبعهُ نايٌ يوافِقُه والشدو يحكمُه غصنٌ من البانِ

الشعر الفكاهي :

الفكاهةُ : المِزاحُ ، والفَكِهُ : الذي يُحدِّثُ أصحابَه ويُضحكهم . وقد وجدت الفكاهة مجالاً رحباً في أوساط المجتمع العباسي ، وبعدما أخذ هذا المجتمع بأسباب التحضُّرِ والتطوُّرِ . وأصبحت تُطلب كثيراً في المجالس والمحافل ، ولاسيما من الخلفاء والوزراء وسُراة القوم ، إذ جعلوها وسيلة للترفيه والإضحاك والتسلية ، أو لترويض الفكر ، كما قال الرشيد : النوادر تشحذ الأذهان ، وتفتق الآذان(٢٤٩) . وكان طبيعياً في وسط الحياة اللاهية حيناً والصاخبة أحياناً انْ تنزعَ النفوسُ المكدودةُ إلى أساليب الفكاهة التي تسري الهمَّ ، وتشرحُ الصدرَ ، وتفتحُ مغاليقَ القلوب ، وهل وراءَ ذلك بُغية لنفس ؟ لاغرو ان كانت روحَ المجالس وزينة المحافل ، ولا جرم ان كان الخلفاء يقبلون عليها ويعقدون لها مجالس السحر(٢٥٠) .

والفكاهةُ عادةً تتطلَّبُ الذكاءَ والنباهةَ واللباقة وسرعة البديهة ، وكان بعض الشعراء قادرين على إتيانها في المكان الملائم والزمان المناسب . وقد رأينا أبيات أبي دُلامة حينما خرج للصيد مع الخليفة المهدي الذي أصاب ظبياً فصادَهُ وعلى بن سليمان أصاب كلباً فقتله .

---

(٢٤٧) حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة ص ٦٣٠ .

(٢٤٨) جحظة البرمكي الأديب الشاعر ص ٢٧٠ .

(٢٤٩) ثمرات الأوراق ص ١٨٧ .

(٢٥٠) ينظر : معالي الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ٩٦ .

وكان البخلاء موضع التندُّر في المجالس . وقد عقد الجاحظ فصلاً في كتابه « البخلاء » لنوادرهم . وفي دواوين الشعراء شيء كثير عنهم ، ولاسيما في ديوان أبي نواس . فله أكثر من مقطوعة في التهكُّم بهم ، مثل قوله في رجل يدعى سعيداً :(٢٥٢)

رغيفُ سعيدٍ عنده عِدْلُ نفسه   يُقَلِّبه طوراً . وطوراً يلاعِبُهْ
ويُخرجُه من كُمِّهِ فيشمُّه   ويجلسه في حجره ويخاطِبُهْ
وانْ جاءَه المسكينُ يطلبُ فضلَهُ   فقد ثكلَتْهُ أُمُّهُ وأقارِبُهْ
يكُرُّ عليه السَّوطَ مِن كلِّ جانبٍ   وتُكسَرُ رجلاهُ ويُنتَفُ شارِبُهْ

وقوله في آخر يدعى الفضل(٢٥٣) :

رأيتُ الفضلَ مكتئباً   يُناغي الخبزَ والسَّمكا
فقطَّبَ حينَ أبصرني   ونكَّسَ رأسَهُ وبكى
فلما أنْ حلفتُ له   بأني صائمٌ ضحكا

وتندَّرَ الشعراء كثيراً بأولئك الذين لم يحسنوا تنظيمَ لحاهم وتنظيفها ، من مثل قول مروان بن أبي حفصة في لحية شيخ يسمَّى رباحاً(٢٥٤) :

لقد كانتْ مجالسُنا فِساحاً   فضيَّقها بلحيتهِ رباحُ
مُبعثرةُ الأسافلِ والأعالي   لها في كلِّ زاويةٍ جناحُ

ولابن الرومي باعٌ طويل في هذا اللون من الشعر فله فيه صورٌ مضحكة مثل قوله :(٢٥٥)

ولحيةٍ يحملُها مائقٌ   مثلِ الشِّراعينِ اذا أشرعا
تقودُه الريحُ بها صاغراً   قوداً عنيفاً يُتعبُ الأخدعا
فان عدا والريحُ في وجههِ   لم ينبعثْ في مشيهِ إصْبَعا
لو غاصَ في البحرِ بها غوصةً   صادَ بها حيتانه أجمعا

---

(٢٥١) ينظر : كتاب البخلاء ص ٤٠٧ – ٤٤٢ .
(٢٥٢) ديوانه ص ٥٢٤ .
(٢٥٣) ديوانه ص ٥٢٥ .
(٢٥٤) شعره ص ٣٨ .
(٢٥٥) ديوانه ٤ : ١٥٥٠ .

فلحيةُ هذا الرجلِ الأحمق بجانبيها المستعرضين كشراعين . ولكنهما لا يساعدانه مع الريح على التنقُّل كما يساعدُ الشراعان السفينة . بل هما يثقلانه حين تُقابله الريح . فلا يستطيع التحركَ بل إنَّ هذه اللحية المريضة أشبه ماتكون ـ في عين ابن الرومي ـ بشبكةٍ كبيرةٍ . وأولى بصاحبها أن لايعترض بها الناس في الطريق بل يسقط بها في البحر ليصيدَ حيتانه التي يعزُّ على الشباكِ صيدها(٢٥٦)

والنوادر أحياناً تكون لاذعة وساخرة . ومثال على ذلك ما حدَّث به أحمدُ بن خالد . قال(٢٥٧) « كنا يوماً بدار صالح بن علي من عبد القيس ببغداد . ومعنا جماعةٌ من أصحابنا . فسقط على كُنَينةٍ (٢٥٨) في سطحه ديكٌ طار من دار دِعبلٍ . فلما رأيناه قلنا هذا صيدُنا . فأخذناه . فقال صالح : مانصنعُ به ؟ قلنا : نذبحُهُ . فذبحناهُ . وشويناهُ . وخرج دعبل فسألَ عن الديكِ فعرف أنَّه سقط في دار صالح . فطلبه منا . فجحدناهُ . وشربنا يومنا . فلما كان من الغد خرج دعبل فصلَّى الغداة . ثم جلس على المسجد . وكان ذلكَ المسجدُ مجمعَ الناس . يجتمعُ فيه جماعةٌ من العلماء . وينتابهم الناس فجلس دِعبل على المسجد وقال :

أسر المؤذنَ صالحٌ وضيوفُهُ   أسرَ الكميِّ هفا خِلالَ الماقطِ(٢٥٩)
بعثوا عليه بنيهمُ وبناتِهم   مابينَ ناتِفةٍ وآخر سامط
يتنازعون كأنَّهمْ قد أوثقوا   خاقانَ أو هزَموا كتائبَ ناعِطِ(٢٦٠)
نهشوهُ فانتُزِعتْ له أسنانُهمْ   وتهشَّمتْ أقفاؤهمْ بالحائِطِ

وقال : فكتبها الناسُ عنه ومضوا فقال لي أبي وقد رجع الى البيت : ويحكم . ضاقت عليكم المآكل . فلم تجدوا شيئاً تأكلونه سوى ديكِ دِعبل ؟ ثم أنشدنا الشعرَ . وقال لي : لا تدع ديكاً ولا دجاجةً تقدرُ عليه الاَّ اشتريته . وبعثت به الى دعبل والاَّ وقعنا في لسانه . ففعلتُ ذلك » .

---

(٢٥٦) الشعر وطوابعه الشعبية ص١٠٢ .

(٢٥٧) الأغاني ٢٠ : ١٢٨ . وينظر ديوان دعبل ص٩٩ .

(٢٥٨) كنينة : تصفير الكُنة . وهي الحائط . أو السقيفة تشرع فوق باب الدار .

(٢٥٩) المؤذن : أراد به الديك هفا : سقط . الماقط : المضيق في الحرب .

(٢٦٠) خاقان : اسم لكل خقنه الترك أي ملكوه عليهم . ناعط : قبيلة من همدان

ويسلك التعابث أحياناً عند بعض الشعراء طريق الاساءة ، وهو أمر خطير يؤدي الى زرع الفتنة ، وتفكُّك الروابط وزوال المحبّة . وهذا مانجده عند عبد الصمد بن المعذّل في كثير من شعره ، مثل قوله في أعور عشق عوراء(٢٦١)

هي عوراءُ باليمين وهذا أعورٌ باليسار وافق شنّا
بين شخصيهما ضرير إذا ما قعدتْ عن شماله تتغنّى

وقوله في أبان اللاحقي :(٢٦٢)

صحفتْ أمّك إذ سمّتك بالمهد أبانا
قد علمنا ما ارادت لم تردْ إلاّ أتانا
صيّرتْ باء مكانَ التاء والله عيانا
قطع الله وشيكاً من مسمّيك اللسانا

إنَّ هذا الشعر وأمثاله لايرقى الى المستوى الذي شاهدناه في الأغراض الاخرى ، إذ يخلو من الجمال ، وتبدو عليه السطحية والضعف ؛ لأنه في الغالب منظوم على عجل أو ارتجالاً .

الشعر التعليمي :

فنٌ أدبيٌ جديد ، اقتحم الشعراءُ بابه في العصر العباسي ، تسهيلاً لحفظ العلوم واستظهار المعارف ولاسيما بعد الاقبال على التعلّم والرغبة الشديدة في طلب المعرفة . وهو في الغالب يفتقر الى العاطفة والخيال ويخاطب العقل . ويتميز بطول النفس الشعري واعتماده الرجز وتنوع القافية .

ويُعدُ أبان بن عبدالحميد اللاحقي فارسَ الشعراء في هذا اللون من النظم . فله مزدوجةٌ في خمسة آلاف بيتٍ تقريباً كما يقول ابن المعتز(٢٦٣) . استفرغ فيها كتاب كليلة ودمنة . وقد نقل الصولي منها بضعةً وسبعين بيتاً . جاء فيها(٢٦٤) :

---

(٢٦١) شعره ص ١٩٣ .

(٢٦٢) الأغاني ١٣ : ٢٢٧ .

(٢٦٣) طبقات الشعراء ص ٢٤١ .

(٢٦٤) أخبار الشعراء المحدثين ص ٤٦ ، وينظر الاغاني ٢٣ : ١٥٥

وربـــما كان هلاكَ الـــشَّـــجرِ في حسنِ الغُصنِ وطيبِ الثمرِ
وذنبُ الـطاووس فـهو زينـه كذاك أحـياناً وفـيـه حَـيْـنـه
وباذلُ النُصح لمن لم يشكُره كطارحٍ في سَبَخٍ ما يبذره
لاخيرَ للعاقل في ذي المنظرِ إنْ هو لم يحمدْهُ عند المخبرِ
وليس في الصديق ذي الصَّفاء خيرٌ إذا لم يكُ ذا وفاءِ

وله أيضاً مزد وجة طويلةٌ شرح فيها أحكام الصوم والزكاة ، أولها :(٢٦٥)

هذا كتابُ الصُومِ وهو جامعُ لـكـلِّ ما قامـتْ بـه الـشَّرائـعُ
مِـن ذلـك الـمُـنزَل في الـقرآنِ فضلاً على مَنْ كان ذا بيانِ
ومـنــه ماجاء عـن الـنـبـيِّ من عـهدِهِ الـمـتَّـبـع الـمرضيِّ
صـلَّى الالـهُ وعـلـيـه سَـلَّـما كـما هَدَى اللّه بـه وعـلَّـما

وسلك ابنه حمدان بن ابان هذا المسلك . ونظم مزدوجةً في وصف الحبّ وأهله . منها(٢٦٦)

يأأيُّـها الـناسُ فـعُوا وصيـتـي واسـتـمـعوا
ففـي صفاتي عجبُ وفـي كـتـابـي أدب
قـصـيدتـي مـقوَّمةٌ ألـفاظُـها مـنـظَّـمةْ
فـيـها هوى العشـاق ومـنـيةُ الـمـشـتاق

وفي علم الحيوان نظم بِشْرُ بن المُعْتَمِر قصيدتين فيهما غرائب وفرائد كما قال الجاحظ .(٢٦٧) وفي تاريخ الطب نظم اسحاق بن حنين قصيدة(٢٦٨) . وفي علم الفلك نظم محمد بن ابراهيم الفزاري مزدوجة طويلة تقع مع تفسيرها في عشرة مجلدات، كما يقول ياقوت الحموي . أولها(٢٦٩)

الـحـمد للّه الـعَـلـي الأعـظـم ذي الفَضْلِ والمجد الكبيرِ الأكرم
الواحدِ الفردِ الجوادِ المنعم
الـخالـقِ الـسَّبْعَ الـعُـلَى طـباقا والشمسَ يجلو ضوؤها الإغساقا
والبدرَ يملأ نورُهُ الآفاقا

(٢٦٥) أخبار الشعراء المحدثين ص ٥١ .

(٢٦٦) أخبار الشعراء المحدثين ص ٥٨ .

(٢٦٧) الحيوان ٦ ، ٢٨٤ .

(٢٦٨) شعراء النصرانية بعد الاسلام ص ٢٤٩ .

وشاركَ الشعراءُ في تدوين التاريخ شعراً . ولعل أحداً لم يسبق علي بن الجهم ، فهو الذي فتح هذا الباب ونظم مزدوجةً في أكثر من ثلاثمئة بيت ، تناول فيها بدء الخليقة وتاريخ الانبياء ، كما حكى تاريخ الاسلام منذ بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم حتى خلافة المستعين . منها قوله(٢٧٠)

ثم أزالَ الظُّلمة الضّياءُ ... وعاودتْ جِدّتَها الاشياءُ
ودانتِ الشُّعوبُ والأحياءُ ... وجاءَ ماليس به خفاءُ
أتاهمُ المنتجبُ الاواهُ ... محمدٌ صلّى عليه اللهُ

وبعد علي بن الجهم جاء ابن المعتز في نظم تاريخ الخلفاء . إذ نجد له مزدوجةً طويلةً في سيرة الخليفة المعتضد وأحداث عصره تقع في أربعمئة وتسعة عشر بيتاً . أولها :(٢٧١)

باسم الإلهِ الملكِ الرحمنِ ... ذي العِزِّ والقُدرة والسُّلطانِ
الحمدُ لله على آلائِهِ ... أحمدُهُ والحمدُ من نعمائِهِ
أبدعَ خَلْقاً لم يكن فكانا ... وأظهر الحُجَّة والبيانا
وأرسلَ الرُّسْلَ بحقٍّ ساطعِ ... قاهرِ كلِّ باطلٍ وقامعِ

ويعلق الدكتور طه حسين على هذه المزدوجة ، ومزدوجة أخرى لابن المعتز امتدت نحو مائة وعشرين بيتاً في ذم الصبوح وحمد الغبوق(٢٧٢) . فيقول : « لن أبالغ ولن أغلو حين أوصي بقراءة هاتين القصيدتين . لا لأنَّ واحدة منهما تذمُّ الصبوحَ وتحمد الغبوق . ولا لأن الأخرى تتناول حوادث تاريخية قد نجدها في سهولة في الكتب التاريخية بل لأن في قراءة هذا النوع ماقد يبعث شعراءنا على محاكاة هذا الشعر . وأؤكد لكم أن هذه المحاكاة تعودُ بشيء كثير على الشعر في هذا العصر . فأجمل مافيه أنه بريءٌ كلَّ البراءة من التكلُّف . لم يبحث عن لفظ غريب . ولم يتكلّف معنى غريباً . إنما هو يأخذ الأشياء التي حوله . فيعبر عنها

---

(٢٦٩) معجم الأدباء ٦ : ٢٦٨
(٢٧٠) ديوانه ص ٢٤٢ .
(٢٧١) ديوانه ١ : ٥١٩ .
(٢٧٢) الغبوق : الشرب آخر النهار مقابل الصبوح . تنظر المزدوجة في ديوان ابن المعتز ٢ : ٥٣٨ وأخبار أولاد الخلفاء ٢٥١ .

بالالفاظ التي تدور على ألسنة الناس جمعياً»(٣٧٣). أما الدكتور عزالدين اسماعيل فيقول: «وقد كان من الممكن ان يتطور هذا اللون من الفن الشعري الى نوع من الشعر الملحمي، ففيه نَفَس غير يسير منه، ولكن ما يؤسف له أنه تطور في اتجاه آخر لاينتمي في كثير أو قليل الى الفن الأدبي، وذلك عندما راح المشتغلون بفروع العلم المختلفة ينظمون المادة العلمية في أراجيز مزدوجة من هذا الطراز، تكون بمثابة متون يحفظها الآخذون في تحصيل هذه العلوم».(٣٧٤). لقد كان التعلّم آنذاك يعتمد كثيراً على الحفظ والشرح، حفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والمتون اللغوية، والقصائد الشعرية الجيدة، وكل المعارف المتصلة بعلوم اللغة العربية وآدابها ... ولذلك كثر هذا اللون من النظم بأسلوب سهل ميسور، ولم يتجاوز الغاية التعليمية، ولم يتطور في إتجاه آخر. وتناول الشعر التعليمي الوعظ والارشادَ والتهذيبَ، وكذلك الحكم والأمثال كما تلاحظ في أُرجوزة أبي العتاهية المعروفة بـ (ذات الأمثال) التي نيفت على أربعة آلاف مثل كما يقول أبو الفرج الأصبهاني(٣٧٥) منها قوله:

ما أطولَ الليلَ على مَنْ لم يَنمْ	لـكـلِّ مايؤذي وان قـلَّ ألـمْ
ما انتفَع المرءُ بـمـثلِ عـقـلـهِ	وخـيرُ ذُخرِ المرءِ حُسْنُ فِعْلِهِ
إن الـفـسـاد ضِدُّهُ الـصـلاحُ	ورُبَّ جِدٍّ جرّهُ الـمِزاحُ
إنَّ الـشُّـبـاب والـفراغَ والـجِدَه	مـفـسدةٌ للمرءِ أيُّ مـفـسدَةْ

وظلَّ الشعر التعليمي قائماً، وزاد الاقبال على نظمه بمرور الايام، حتى أصبحنا نرى في العصور اللاحقة كثيراً من المنظومات في الفقه والطب والمنطق والحساب والتاريخ والنحو والصرف والبلاغة والخط ..

(٣٧٣) من حديث الشعر والنثر ص ١٦٩.
(٣٧٤) في الأدب العباسي، الرؤية والفن ص ٤٠٨.
(٣٧٥) الاغاني ٤، ٣٦. وقد وصل الينا من هذه الأرجوزة ثلاث مئة وعشرون بيتاً (ينظر ابو العتاهية أشعاره وأخباره ص ٤٤٤ ـ ٤٦٥).

التجديد في المعاني والأفكار

اتسعت الثقافة في العصر العباسي، وكثرت منافذها، وتمدّدت ألوانها، وقد ظهر أثر ذلك جلياً في الحياه الفكرية. والشعرُ جانبٌ من هذه الحياة، اذ نراه يزدحم بالمعاني والأفكار، والصور والأخيلة. ومن يراجع دواوين الشعراء والمجاميع الأدبية يجدُ تلك الحقيقةَ واضحةً للعيان.

لقد غاص الشعراء في بحر الأفكار، وتعمقّوا في أغواره، واستنبطوا لآليَّ جديدة، ودرراً ثمينةً تعجب الناظر وتُبهر السامع، لما فيها من دقّةٍ وروعةٍ وبهاء...

إنّ الصور الشعرية التي نلمسُ فيها الجدّةَ والطرافة كثيرة في رياض الأدب العباسي. فمن أزاهير تلك الرياض الأبيات الآتية لبشار بن برد التي أعجبَ بها أبو عمرو بن العلاء وعدّ بشاراً من أفضل الشعراء لتجديده وابداعه فيها، قال(٢٧٦):

لم يطلْ ليلي ولكن لم أنَمْ ... ونَفَى عنّي الكرى طيفٌ ألَمْ
واذا قلتُ لها جُودي لنا ... خَرجتْ بالصمتِ عن لا ونَعَمْ
نَفّسي ياعبدُ عنّي واعلمي ... أنّني ياعبدُ من لحمٍ ودَمْ
إنّ في بُرديَّ جسماً ناحلاً ... لو توكّأتِ عليه لانهدمْ
ختمَ الحبُّ لها في عُنُقي ... موضعَ الخاتمِ من أهلِ الذّمَمْ

ولعلّ أبا عمرو بن العلاء استساغ البيت الأخير، لأنه حقاً صورة فريدة وتشبيه نادر اضافة الى أنّ لغة الأبيات سهلة وأسلوبها مأنوس يتعاطفُ مع القلب.

ومن الشعر الجميل المتناهي في الرقّةِ والسلاسة قولُ دِعبل الخزاعي:(٢٧٧)

أينَ الشبابُ، وأيةً سَلكا؟ ... لا، أينَ يُطلبُ؟ ضَلَّ، بل هَلَكا
لاتعجبي ياسَلْمَ من رَجُلٍ ... ضحكَ المشيبُ برأسِهِ فبكى
ياسَلْمُ ما بالشّيبِ مَنْقَصَةٌ ... لاسُوقةً يُبقي ولا مَلِكا
ياليتَ شعري كيفَ نومُكُما ... ياصاحبيَّ اذا دمي سُفِكا
لاتأخذا بظلامتي أحداً ... قلبي وطرفي في دمي اشتركا

---

(٢٧٦) الأغاني ٣: ١٥٠، ١٥١.

(٢٧٧) ديوانه ص ١١٧.

والبيت الثاني هو الذي أوصل دعبلاً بالرشيد . فقد غنّى ابنُ جامع المقطوعةَ التي تضمُ هذا البيت بين يدي الرشيد « فطربَ . وسألَ عن قائل الشعر . فقيل له : دِعبل بن علي . وهو غلامٌ نشأ من خُزاعة . فأمرَ باحضار عشرة آلاف درهم وخِلعة من ثيابه . فأحضَر ذلكَ . فدفعه مع مركب من مراكبِه الى خادم من خاصّته . وقال له : اذهبْ بهذا الى خُزاعة فاسأل عن دِعبل بن علي . فاذا دُلِلْتَ عليه فاعطه هذا . وقلْ له : ليحضرْ ان شاءَ . وانْ لم يُحب ذلكَ فدعه . وأمر للمغني بجائزة . فسار الغلام الى دعبل . وأعطاه الجائزة . وأشار عليه بالمسير اليه . فلما دخل عليه وسلَّم أمره بالجلوس فجلس . واستنشده الشعر فأنشده اياه فاستحسنه وأمره بملازمته وأجرى عليه رزقاً سنياً »(٢٧٨)

وبرز مسلم بن الوليد في ابتداع المعاني . وكثيراً ماذكره المأمون في مجالسه وفضله على غيره من الشعراء . ومن شعره الذي أُعجبَ بِه النقادُ والقرّاءُ البيت الآتي :(٢٧٩)

تجودُ بالنَّفسِ اذ ضَنَّ الجواد بها والجودُ بالنَّفسِ أقصى غايةِ الجود

وكذلك اشتهر أبو تمام بفتقِ أكمام الفِكرة وتزيينها باللفظ الجميل والجرس . الرقيق . مثل قوله في فضل الحاسد على المحسود(٢٨٠) :

واذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طويتْ أتاحَ لها لسانَ حسود
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتْ ماكانَ يُعرفُ طيبُ عرْفِ العُود

وبلغ ابن الرومي مرتبة عالية في التجويد باللفظ والعبارة . والتعمق في المعاني . وابتداعِ الصور الجديدة . مثل قوله في الغزل(٢٨١)

نظرتْ فأقصدتِ الفؤاد بسهمها ثم انثنتْ نحوي فكدتُ أهيمُ
ويلاهُ إنْ نظرتْ وانْ هي أعرضتْ وقعُ السهامِ ونزعهنَّ أليمُ

ومما يستحسن في هذا المجال بيتان لعبد الله بن محمد بن سالم المعروف بابن الخياط . قال أبو الفرج الاصبهاني :(٢٨٢) « دخل على المهدي فمدحه . فأمر له بخمسين الف درهم . فقال يمدحه :

---

(٢٧٨) الأغاني ٢٠ : ١٧٩ .
(٢٧٩) ديوانه ص ١٦٤ .
(٢٨٠) ديوانه ١ : ٣٩٧ .
(٢٨١) ديوانه ٦ : ٢٢٩٧
(٢٨٢) الاغاني ٢٠ : ١ .

أخذتُ بكفي كفَّهُ ابتغي الغِنى ولم أدرِ أنَّ الجودَ من كفِّهِ يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغِنى أفدتُ وأعداني فأتلفتُ ماعندي

فبلغ المهدي خبرُه . فأضعفَ جائزته ، وأمرَ بحملها اليه في منزلة » .

ان خيال الشاعر في العصر العباسي حلَّق في آفاق بعيدة . بعدما شاهد ماصنعته يد الحضارة ، وما أوجدته الحياة الجديدة من ألوان الترف والنعيم لم تكن معروفة سابقاً ، الى جانب الطبيعة الجميلة المكتسية بالألوان الزاهية . كما نرى مثلاً في قول أبي تمام يمدح أبا سعيد الثغري ويذكر بعض حملاته على الأعداء(٢٨٣)

غادرتَ أرضهمُ بخيلك في الوغى وكأنَّ أمنعها لها مضمارُ
وأقمتَ فيها وادعاً متمهِّلاً حتى ظننا أنَّها لكَ دارُ
وأرى الرِّياضَ حواملاً ومطافلاً مُذْ كنتَ فيها والسَّحابُ عِشارُ
أيامُنا مصقولةٌ أطرافُها بكَ والليالي كلُّها أسحارُ
تندى عفاتُكَ للعفاةِ وتغتدي رُفقاً الى زوارِكَ الزوارُ
هممي معلقةٌ عليكَ رقابُها مغلولةٌ إنَّ الوفاءَ إسارُ

وانظر الى صورة الخمرة عند العكوَّك(٢٨٤)

كأنَّ يدَ النَّديم تدير منها شعاعاً لايحيطُ عليه كأسُ

وقريب من هذا المعنى قول ابن المعتز(٢٨٥) :

تخفي الزُجاجةَ لونُها وكأنَّها في الكفِّ قائمةٌ بغيرِ إناءِ

ولاحظ هذه اللوحة الشعرية الملونة المتحركة التي قدَّمها ديكُ الجن في أبياته الجميلة الرقيقة لوصف الديك :(٢٨٦) :

أما ترى راهبَ الأسحارِ قدهتفا وحثَّ تغريده لما علا الشَّعَفا
أوفى بصبغ أبي قابوسَ مفرِقُهُ كدرَّةِ التَّاجِ لَمَّا أنْ علا شَرَفا(٢٨٧)
مشنَّفٌ بعقيقٍ فوقَ مذبحِهِ هل كنتَ في غير أذْنٍ تعرفُ الشَّنفا

---

(٢٨٣) ديوانه ٢ : ١٨١ .

(٢٨٤) شعره ص ٧٩ .

(١٨٥) شعره ٢ : ١٨ .

(٢٨٦) ديوانه ص ١٧٧ .

(٢٨٧) جاء في ديوان المعاني ٢ : ١٣٧ (وقوله صبغ أبي قابوس ، يعني شقائق النعمان) .

لما أراحتْ رعاةُ الليلِ عازبةً من الكواكب كانت ترتعي السُدَفا
هزَّ اللواء على ماكان من سِنَةٍ فارتجَّ ، ثم علا ، واهتزَّ ، ثم هَفا
ثمَّ استمرَّ كما غنّى من طربٍ مُرّيخ شَرْبٍ على تغريده وضفا(٢٨٨)
اذا استهلَّ استهلّتْ فوقه خُضلٌ كالحيِّ صيحَ صباحاً فيه فاختلفا

ومن صور ابن الرومي البديعة الزاهية قوله في وصف قوس السحاب(٢٨٩) :
يُطرِّزها قوسُ السَّحابِ بحمرةٍ على أخضرٍ في أصفرٍ وسط مُبيضِّ
كأذيالِ خَوْدٍ أقبلتْ في غلائلٍ مصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضِ

ومن الشعراء من أضفى على شعره أداةً منطقية اكتسبها من الثقافة التي تلقاها . أو من مشاهداته وتجاربه الخاصة ، يريد بها اقناع السامعين بما جادت به قريحته . مثل قول أبي تمام في الهرم(٢٩٠)

لاتنكري منه تخديداً تجلّلَهُ فالسَّيفُ لا يزدرى إنْ كانَ ذا شُطَبِ

ومن ابتداعات ابن الرومي التي لم يُسْبَقْ اليها قوله(٢٩١)
كلُّ امريءٍ مدحَ امرءاً لنوالِهِ فأطالَ فيه فقد أرادَ هجاءَهُ
لو لم يقدِّرْ فيه بُعْدَ المُسْتَقى عند الورود لما أطالَ رشاءَهُ

واستعان الشعراء في هذا العصر بالتجسيد والتضخيم ، والمبالغة والتهويل ، وهذه الأمور - وان لم تكن من مستحدثات هذا العصر - أصبحتْ سمةً بارزةً اتكأ عليها الشعراءُ في كثير من الأحيان ، ولا سيما في المديح والغزل . ويبدو أن المتلقّين كانوا يرتاحون لها ويهشون لسماعها . مثل قول منصور النمري في الخليفة هارون الرشيد(٢٩٢)

إنَّ المكارمَ والمعروفَ أوديةٌ أحلَّكَ اللهُ منها حيثُ تَتَّسِعُ
اذا رفعتَ امرءاً فاللهُ يرفعُهُ ومَن وضعتَ مِن الأقوامِ متَّضِعُ

---

(٢٨٨) المريخ : الشديد المرح . الشرب : القوم الشاربون . ضفا : استطال مستمراً .
(٢٨٩) ديوانه ٤ : ١٤١٩ .
(٢٩٠) ديوانه ١ : ١١١ .
(٢٩١) ديوان ١ : ١١١ .
(٢٩٢) الأغاني ١٣ : ١٤٧ .

وقول بشار بن برد في الفخر(٢٩٣)

إذا ماغضبنا غضبةً مضريّةً ... هتكنا حجابَ الشمسِ أو تمطرَ الدّما

وقوله في الغزل(٢٩٤):

سلبتِ عظامي لحمها فتركتِها ... عواري في أجلادِها تتكسّرُ

وأخليتِ منها مُخّها فتركتِها ... أنابيبَ في أجوافِها الريحُ تصفرُ

خُذي بيدي ثم ارفعي الثوبَ فانظري ... ضَنَى جسدي لكنّني أتستّرُ

وإلى جانب المبالغة يلاحظ القاريءُ حرص كثير من الشعراء على المحسنات اللفظية والمعنوية، اذ عدُّوها من مراتب التجديد والابداع، وقد جاءت في شعرهم أحياناً مقبولة، لها وقع حسن في النفس. وأحياناً مرذولة لا جمال فيها ولا بهاء وبعيدة عن الذوق السليم. فمن الصور اللطيفة التي تبدو فيها الصنعة محببة قول الحسين بن مُطير الأسدي(٢٩٥):

بيضاءُ تسحبُ من قيامٍ فَرْعَها ... وتغيبُ فيه وهو جَثْلٌ أسحمُ

فكأنها منه نهارٌ مُشْرِقٌ ... وكأنّه ليلٌ عليها مُظلمُ

وقول بشار بن برد في عذوبة صوت الحبيبة:(٢٩٦)

وكأنّ رجعَ حديثِها ... قطعُ الرّياضِ كُسينَ زَهْرا

وهذه أبيات لأبي تمام تتداعى فيها المعاني وتتزاحم الصور يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري ويذكر خروجه للقاء العدو(٢٩٧)

لقد أنصعت والشتاءُ له وجـ ... ـه يراه الكماةُ جهماً قطوبا

طاعنا منحر الشمال متيحاً ... لبلاد العدو موتاً جنوبا(٢٩٨)

في ليالٍ تكاد تُبقي بخدّ الشمس ... من ريحهنّ الليل شحوبا

---

(٢٩٣) ديوان شعر بشار بن برد ص ١٩٩.

(٢٩٤) نفسه ص ١١٤.

(٢٩٥) شعره ص ٧٢.

(٢٩٦) ديوان شعر بشار بن برد ص ١١٨.

(٢٩٧) ديوانه ١: ١٦٥.

(٢٩٨) المعنى أنه يغزو بلاد العدو وهم في ناحية الشمال فيجيئهم بموت من ناحية الجنوب.

فضربتَ الشتاءَ في أخدعَيهِ ضربةً غادرتَهُ عَوْداً ركوبا(٢٩٩)
لو أصخنا من بعدِها لسمعنا لقلوبِ الأيام منكَ وجيبا(٣٠٠)

انّ غالبية الشعراء العباسيين كانوا مولعين بالتجديد الى جانب الاعتماد على الموروث . وهذا التجديد يعود الى التطور الاجتماعي الكبير الذي شمل جوانب الحياة المختلفة آنذاك . وكذلك التطور الفكري الذي أدى الى ثراء العقل وفتح الأبواب الكثيرة للخلق والابداع .

الألفاظ والأساليب

قطع العلمُ والأدبُ في العصر العباسي شوطاً كبيراً في ساحة الرقي والتقدُّم والازدهار . وازداد عدد الدارسين والناهلين من معين المعرفة . تلك المعرفة النابعة من أصول قديمة أو اتيةٍ من منافذَ جديدةٍ . ومَنْ يلاحظ في ألفاظ هؤلاء الدارسين وأساليبهم يجدها تتراوح بين القوة والجزالة من جهة والسهولة والليونة من جهة أخرى .

كانت صلةُ كثيرٍ من الشعراء قويةً بالشعر القديم . فبشار بن برد مثلاً كان يجاري امريءِ القيس(٣٠١) . ويتعمد محاكاة الأساليب القديمة . ولا عجَبَ حين قال الأصمعي : « بشار خاتمة الشعراء . والله لولا أيامه تأخَّرتْ لفضَّلته على كثير منهم » . وأبو نواس قال عن نفسه : « ماظنكم برجلٍ لم يقل الشعر حتى رَوَى دواوين ستين إمراة من العرب . منهم الخنساء وليلى . فما ظنكم بالرجال ؟(٣٠٢) » . وكان محمد بن مُناذر « ينحو نحو عَدِي بن زيد في شعره . ويميل اليه . ويقدمه » . وعُرِفَ عن أبي تمام بروايته للقديم من الاشعار ، حتى انَّ الحسن بن رجاء قال : « مارأيتُ أحداً قطُّ أعلمَ بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام »(٣٠٣) .

---

(٢٩٩) الأخدعان : عرقان في العنق . عوداً : جملاً مسناً . ركوبا : مذللاً .

(٣٠٠) الاصاخة : إمالة الأذن للسمع . الوجيب : صوت حركة القلب

(٣٠١) الأغاني ٢ : ١٩٦ .

(٣٠٢) الاغاني ٢ : ١٤٢ .

(٣٠٣) أخبار أبي تمام ص ١١٨ .

إن فئة كبيرة من شعراء العصر العباسي الأول كان شعرهم يجاري الأقدمين تارةً . والمحدثين تارةً أخرى . ومن أشهرهم بشار بن برد . وأبو نواس . ومروان بن أبي حفصة . ومسلم بن الوليد . وأبو الشيص . ودعبل الخزاعيُّ . والحسين بن مُطير الأسديُّ . وعمارة بن عقيل . وكلثوم بن عمرو العتّابي . وأبو تمام . وعبدالملك بن عبدالرحيم الحارثي ... فمن النماذج الرصينة القوية قول أبي نواس من قصيدة يمدحُ بها الخليفة هارون الرشيد(٣٠٤)

أنا اليـــك من الصَّليتِ فداسمٍ   طلع النُّجادَ بنا وجيفُ الأنيقِ(٣٠٥)
يتبعنَ مائرةَ المِلاطِ . كأنَّمـــا   ترنو بعيني مقلتٍ لـم تغرقِ(٣٠٦)
خنساءَ ترعى جؤذراً بخميلةٍ   وبها اليه صبابةٌ كالأولقِ(٣٠٧)
حتى اذا وجدَتْهُ لم ترَ عندَهُ   الاَّ مـــجرُّ إهابـــهِ المتمـزِّقِ

في هذه الأبيات يصف الشاعر حنين الابل واشتياقها الى أعطانها . ويشبهها ببقرة وحشية ترنو الى ابنها في خميلة . وليس لها سواه . لأن كلَّ أولادها تموت أو لأنها ولدته ولم تلد بعده . فلما ذهبت اليه وجدته قتيلاً فأوعلتْ عليه . وأرزمتْ له فهو يشبه هذا بهذا . وهذه الصورة التي رسمها النواسي تشبه أختاً لها عند الخنساء في رثاء أخيها صخر في رائتيها المشهورة . ومن النماذج السهلة الميسورة الخفيفة على الأسماع قول مروان بن أبي حفصة في مُقدمة قصيدة يمدح بها الخليفة المهدي(٣٠٨)

طرقـتـــك زائرةً فـحـــيِّ خـيـالـهـا   بـيـضاءُ تـخـلـطُ بالـحـياء دلالـها
قادتْ فؤادك فاســتـقاد ومـثـلـهـا   قاد القلوب الى الصبا فأمالها

---

(٣٠٤) ديوانه ص ٤٠٠

(٣٠٥) الصليت وداسم ، اسما موضعين . النجاد : مفردة النجد ، وهو ماأشرف من الأرض . الوجيف ، نوع من السير السريع .

(٣٠٩) المائرة:المضطربة الملاط ، جانبا السنام . المقلت المرأة لايعيش لها ولد .

(٣٠٧) الأولق : المجنون .

(٣٠٨) شعره ص ٩٦ .

ومنها في المديح :

أحيا أميرَ المؤمنين محمدٌ ... سُنَنَ النبيِّ حرامَها وحلالَها
ملكٌ تفرَّعَ نبعةً من هاشمٍ ... مدَّ الإلهُ على الأنامِ ظلالَها
جبلٌ لأُمتِّه تلوذُ بركنهِ ... رَدَى جبالَ عدوِّها فأزالَها

وهناك فئةٌ أخرى من الشعراء سلكتْ طريقاً سهلاً ميسوراً . يسميهم نجيب محمد البهبيتي أنصار المدرسة الشعبية(٣٠٩) . وهم كثيرون وعلى رأسهم أبو العتاهية ، والعباس بن الأحنف ، وربيعة الرقّي . وقد سار شعرهم بين محبي الأدب « ووجد الناس فيه مراحاً من كدّ القريحة ، وإعمال الذهن ، ومهرباً من النَّصبِ الذي يلقونه في قراءة غيرهم من الشعراء »(٣١٠) وحسبنا من شعر هذه المدرسة قول ربيعة الرقّي متغزلاً بفتاة تُدعى غُنمة(٣١١)

حمامةُ بلِّغي عنّي سلاما ... حبيباً لاأُطيقُ له كلاما
وقولي للتي غضبتْ علينا ... علامَ ، وفيمَ ياسكني علاما

ومنها :

وإنَّ جميعَ أهلكِ عنَّفوني ... ولاموني ، ولم أُطق الملاما
كرامُ الناسِ قبلي قد أحبوا ... كرائمهمْ وأحببنَ الكِراما
جميلٌ والكُثيِّرُ قد أحبَّا ... وعُروةُ مِنْ هوىً لاقى حِماما
هم سَنُّوا الهوى والحبُّ قبلي ... وما ألفي لهم في الناسِ ذاما
فيا « غنَّامُ » يابَصَري وسمعي ... حسيسُ هواكِ أورثني سَقاما
لقد أقصدتِ ـ حينَ رميتِ ـ قلبي ... بسهمِ الحبِّ ، إنَّ له سِهاما

بهذه الرقة والعذوبة يسترسل الشاعر في قصيدة طويلة ، طالباً من الحبيبة أن يلين قلبها ، وتعطف عليه ، وتميل اليه ، وتُنجيه من لوعة الغرام ودواعي الشوق والهيام .

ان اغلب الشعراء ، سواء كانوا من أنصار الأوائل أم من أنصار المدرسة الشعبية ، تأثروا بالعصر الجديد ومعطياته ، ومن هنا تعصَّبَ اللغويون لأدب ماقبل الاسلام

---

(٣٠٩) ينظر تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٨٢ .

(٣١٠) نفسه ص ٤٠٩ .

(٣١١) شعره ص ٨٨ .

والعصر الإسلامي والأموي . وقد تساهل الأصمعي حين ختم الشعر بابن هَرْمة وابن ميَّادة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين ادركوا الدولة العباسية(٣١٢)

لقد تسرَّبت كثير من الالفاظ والافكار الى الساحة الأدبية من الاقوام الذين امتزجوا بالعرب وتصاهروا مع الكثيرين منهم . ومن يراجع الكتب التي عُنيت بالألفاظ الدخيلة مثل « المعرب » لأبي منصور الجواليقي . و « شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » لشهاب الدين الخفاجي يجد ألفاظاً كثيرةً أصبحت مألوفة الاستعمال في الشعر والنثر . مثل : الفالوذج . والديباج . والطيلسان . والخوان . والطشت . والابريق . والمهرجان . والنيروز . والمارستان . والدسكرة . والقولنج . . والترياق . والهيولى . والاسطرلاب . والقيراط ... ومن أكثر الشعراء استخداماً للألفاظ غير العربية أصلاً أبو نواس . وكان أحياناً يأتي بها على وجه التظرُّف والتملُّح كما يقول الجاحظ(٣١٣) . كذلك وَفدتْ الى العربية بعض ألفاظ التبجيل مثل الحضرة والجناب . والادارية مثل صاحب الشرطة وصاحب الستار ...

وشاع استعمال الألفاظ المركبة مع لا النافية في حالة التعريف كاللانهاية . واللاضرورة . واللاارادة ... وكذلك صياغة الأسماء من الحروف والضمائر مثل الكمية والكيفية والماهية والهوية ... كما أدخلت الألف والنون قبل ياء المتكلم مثل نفساني وروحاني ... وهذه وتلك من خواص اللغة الآرية كما يقولون(٣١٤)

وضمن بعض الشعراء ألفاظ المتكلمين والفلاسفة في شعرهم مثل : الحركة والسكون والروح والجسد والكل والبعض والجوهر والعرض والجزء والقليل والأقل ... وقد استشهد الجاحظ في هذا المجال بشعر أبي نواس في جنان جارية آل عبدالوهاب الثقفي :(٣١٥)

---

(٣١٢) الأغاني ٤ ، ٢٧٢ .

(٣١٣) البيان والتبيين ١ ، ١٤١ وينظر الأبيات الشعرية التي فيها ألفاظ أعجمية في كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٣١٤) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ ، ٤١ .

(٣١٥) البيان والتبيين ١ ، ١٤١ وينظر ديوان أبي نواس ص ٢٢٢ .

وذاتِ خدٍّ مورَّد فتّانةِ المتجرِّدْ(٣١٦)
تأمّلُ العينُ منها محاسناً ليس تنفدْ
فبعضُها قد تناهى وبعضها يتولّدْ
والحسنُ في كلِّ عضوٍ منها معادٌ مردَّدْ

ولأبي نواس أيضاً(٣١٧)

ياعاقدَ القلبِ مني هلّا تذكرتَ حلّا
تركتَ مني قليلا من القليلِ أقلّا
يكادُ لا يتجزّا أقلّ في اللفظِ من « لا »

وهكذا تجاوز الشعراءُ على المعجم الشعري الأصيل ، واستخدموا الفاظاً وتراكيب أعجمية فضلاً على المصطلحات العلمية والفقهيةُ والفلسفيّة والصوفيّة وسواها . وقد ابتعد بعض الشعراء عن السليقة مما هيأ لظهور اللحن والخروج أحياناً عن القياس الصرفي(٣١٨) . وكان علماء اللغة لهم بالمرصاد . كلما انحرفوا دلّوهم على انحرافهم . ويفيض كتاب الموشح للمرزباني في مآخذ هؤلاء العلماء عليهم .

---

(٣١٦) المتجرد ، أي بضة عند التجرد .

(٣١٧) البيان والتبيين ١ ، ١٤١ ، وانظر ، ابو نواس لابن منظور ص ١٩ حيث تجد فيه أشعارا أخرى فيها دليل على معرفته بألفاظ المتكلمين .

(٣١٨) ينظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ١٢٤ .

الأوزان والقوافي

الشعر فنٌ جميل تستهويه النفوس « مثله مثل التصوير والموسيقى والنحت ، وهو في أغلب أحواله يخاطبُ العاطفة ، ويستثيرُ المشاعر والوجدان . وهو جميلٌ في تخير ألفاظه ، جميلٌ في تركب كلماته ، جميلٌ في توالي مقاطعه وانسجامها . بحيث تتردَّدُ ويتكرَّرُ بعضها فتسمعه الآذان موسيقى ونغماً منتظماً »(٢١٩)

ان للشعر خصائص موسيقية ، تأتيه — في الغالب — من الوزن والقافية ، وقد اهتمّ بهما الدارسون القدامى . فقال ابن رشيق : « الوزن أعظم أركان حَدِّ الشعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتملٌ على القافية وجالب لها ضرورة . إلاّ أنْ تختلفَ القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن . وقد لايكون عيباً نحو المخمسات وما شاكلها »(٢٢٠)

كان الخليل بن أحمد الفراهيدي الرائد الأول في تسجيل أوزان الشعر ، اذ نظر في التراث الشعري فعرف منه خمسةَ عشرَ وزناً على نحو ماهو معروف في علم العروض ، ثم جاء أبو الحسن الأخفش فاستدرك عليه وزناً نادراً أسماهُ المتدارك . وقد ألمّ الشعراءُ العباسيون بهذه الأوزان ونظموا على تفعيلاتها ، التي تمثل الوحدات الصوتية ، وكان الميل في كثير من الأحيان الى الأوزان القصيرة والمجزوءة ، ولا سيما الذي يُغنّى به ، اذ يستدعي الرشاقة والعذوبة والنعومة والخفَّة ويلائم حياة القصور والحانات والخمائل وما فيها من نعيمٍ ولهوٍ وطربٍ وألحانٍ ... والشيء الذي نقف عنده قليلاً هو بحر المجتث الذي نظر اليه النقاد القدامى نظرة استصغار ، قال حازم القرطاجني : « أما المجتث والمقتضب فالحلاوة فيهما قليلة على طيش فيهما»(٢٢١) » . فاننا نخالف هذا الرأي ، فهو — وان كان قليلاً في أشعار المتقدمين كما يقول أبو العلاء المعري(٢٢٢) — محبب الى النفوس ، وأكثر استجابة للغناء وطواعية للموسيقى . لذلك نظم فيه الشعراء في العصر العباسي ، أمثال بشار بن برد(٢٢٣) . ومطيع

---

(٢١٩) موسيقى الشعر ص ٧ .

(٢٢٠) العمدة ١ : ١٣٤ .

(٢٢١) منهاج البلغاء ص ٢٦٨

(٢٢٢) الفصول والغايات ١ : ١٣٢

(٢٢٣) ديوان بشار ١ : ١٥٧

ابن اياس(٣٢٤) . والعباس بن الأحنف(٣٢٥) ومن جاء بعدهم . واليك هذه الأبيات من بحر المجتث من قصيدة لمطيع بن اياس :

ويلي مِمَّنْ جفاني وحبُّهُ قد براني
وطيفُهُ يلقاني وشخصُهُ غيرُ دانِ
أغرُّ كالبدرِ يُعشى بحسنهِ العينانِ
جارَيَّ : لاتعذلاني في حبِّهِ ودعاني

ومن المقتضب قول أبي نواس(٣٢٦) :

حاملُ الهوى تَعِبُ يستخفُّهُ الطَّرِبُ
إنْ بكى يحقُّ له ليس مابهِ لَعِبُ
تضحكين لاهيةً والمحبُ يَنتحِبُ ؟
تعجبينَ مِنْ سَقمي ؟ صحُتي هيَ العَجَبُ
كلَّما انقضى سببٌ منكِ عاذَ لي سَبَبُ

تصرَّف بعض الشعراء بالأوزان المعروفة ، كما استحدثوا أوزاناً أخرى تلائم الأذواق آنذاك وتنسجم مع روح العصر . وكان عبدالله بن هرون بن السُمَيْدع البصري أولَ مَنْ أقدم على ذلك . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني : « أخذ العروضَ من الخليل بن أحمد . فكان مقدَّماً فيه . وانقطع الى آل سليمان بن علي وأدَّبَ أولادهم . وكان يمدحهم كثيراً . فأكثر شعره فيهم . وهو مقلٌ جداً . وكان يقول أوزاناً من العروض غريبةً في شعره . ثم أخذَ ذلك عنه ونحا نحوه فيه رُزَين العروضي . فأتى فيه ببدائع جمَّة . وجعل أكثر شعره من هذا الجنس »(٣٢٧) . ومن شعر رُزَين العروضيّ الأبيات الآتية من قصيدة يمدح بها الحسن بن سهل وزير المأمون :(٣٢٨)

---

(٣٢٤) الأغاني ١٢ : ٢٩٢
(٣٢٥) ديوانه ص ٧٢ ، ٢٤٤
(٣٢٦) ديوانه ص ٢٢٧ .
(٣٢٧) الأغاني ٦ : ١٦٠ .
(٣٢٨) معجم الأدباء ٦ : ١٦ .

مَنْ مبلغُ الأميرِ أخي المكرماتِ   مِدْحَةً محبَّرَةً في أُلوكْ ؟(٣٢٩)
تـزدهـي كواسطةٍ في النِّظامِ   فوقَ نَـحْرِ جاريةٍ تستبيكْ
يا ابْـنَ سادةٍ زُهُرٍ كالنُّجومِ   أفلحَ الذيـن هُـمْ أنـجبوكْ

واذا دقَّقنا في وزن هذه الأبيات وجدناه عكسِ المنسرح . وهذا ليس بغريب ، اذ لجأ عدد من الشعراء الى أوزان مهملة ولَّدها الخليل بن أحمد الفراهيدي من عكس دوائر البحور ، من ذلك :(٣٣٠)

بحر المستطيل : وهو عكس الطويل ، وأجزاؤه (مفاعلين ، فعولن . مفاعيلن . فعولن) .
بحرالممتد : وهو عكس المديد ، وأجزاؤه (فاعلن . فاعلاتن . فاعلن . فاعلاتن) .
بحر المتوافر : وهو محرَّف الرمل ، وأجزاؤه (فاعلاتك . فاعلاتك . فاعلن)
بحر المتئد : وهو مقلوب المجتث ، وأجزاؤه (فاعلاتن . فاعلاتن . مستفع لن) .
بحر المطرد : وهو مقلوب التفعيلتين الأوليين من بحر المضارع ، وأجزاؤه (فاعلاتن . مفاعيلن . مفاعيلن) .
بحر المنسرد : وهو مقلوب التفعيلتين الأخيرتين من بحر المضارع أيضاً ، وأجزاؤه (مفاعيلن . مفاعيلن . فاعلاتن) .

وكان أبو العتاهية من أكثر الشعراء الذين أطلقوا أنفسهم على سجيتها لتخلق وتبتكر الأوزان التي تليق بما يقولون من الشعر . قال عنه أبو الفرج الأصبهاني « وله أوزان لاتدخل في العروض »(٣٣١) ، وقال بن قُتيبة : « وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه ربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب »(٣٣٢) واستشهد بهذه الأبيات من شعره :

عُـتْـبُ : مالـلـخـيالِ   خـبريـنـي وما لـي ؟
لا أراه أتانـي   زائراً مُذْ لـيـالـي
لو رآني صديـقـي   رقَّ لـي أو رثى لـي
أو يراني عدوي   لانَ مـن سوءِ حالـي

---

(٣٢٩) الألوك : الرسالة .
(٣٣٠) معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول ص ١٢٢ .
(٣٣١) الأغاني ٤ : ١٢ .
(٣٣٢) الشعر والشعراء ص ٦٧٦ .

والقافية كما هو معروف شريكُ الوزن في الاختصاص بالشعر ، فهو القرار الذي ينتهي اليه كل بيت ، فتحدث مع الوزن وحدة موسيقية في القصيدة(٣٣٣) . وقد جدد الشعراء العباسيون في القافية كما جددوا في الأوزان ، فاستحدثوا ماسموه باسم المزدوج والمسمط والمخمس ... أما المزدوج فالقافية فيه لاتطَّرد في الابيات ، بل تختلف من بيت الى بيت ، في حين تتحد في الشطرين المتقابلين ، كما شاهدنا في النماذج التي أوردناها في الشعر التعليمي . أما المسمَّط فهو قصائد تتألف من أدوار ، تعتمد على قطب واحد يسمَّى عمود المسمط . وكل دور يتركَّب من أربعة أشطر تَتَّفق في قافية واحدة ماعدا الشطر الأخير فانه يستقل بقافية تشابه قافية العمود التي بدأبها الشاعر . ومن أمثلتهِ مسمَّطة لأبي نواس في وصف الخمرة (٣٣٤)

سُـــلافُ دَنٍّ كـــشَـــمـــسِ دَجْـــنِ
كدمـــع جَفْـــنٍ كـــخـــمـر عَدْنِ

فاحـــتْ بريـــح كريـــح شِـــيـــح
يوم صـــبوح وغـــيـــم دجـــنِ

يـــســـقـــيـــكَ ساقٍ على اشـــتـــيـــاقِ
الـــى تـــلاقِ بمـــاء مُـــزْنِ
يامَـــنْ لـــحانـــي على زمانـــي
الـــلـــهو شانـــي فلا تـــلُـــمـــنـــي

والمخمسُ شبيه بالمسمَّط ، فهو يعتمد على الأدوار ، كلّ دور يتكون من خمسة أشطر ، الاربعة الأولى متَّحدة القافية ، والخامس قافيته ثابته وهو بمثابة اللازمة . واليكَ هنا الدور من خمسة لأبي نواس :(٣٣٥)

ماروضُ ريـــحانـــكـــم الزاهرُ وما شَذَى نـــشركـــم الـــعاطرُ
وحـــقّ وجدي . والـــهوى قاهرُ مذ غبتمُ لم يبقَ لي ناظرُ
والقلبُ لاسالٍ ولا صابرُ

(٣٣٣) أبو فراس الحمداني ، حياته وشعره ص ٢٩٢ .
(٣٣٤) ديوان أبي نواس ص ٣٤٦ .
(٣٣٥) حياة الحيوان للدميري ١ : ٩٦ .

ويطالعنا أبو العتاهية بأبيات شعرية لم نألفها من قبلُ ، فهي لاتقرأ الّا قطعة واحدة متصلة ، على الرغم من تقفية صدور الأبيات وأعجازها :(٣٣٦)

ياذا الذي في الحبّ يَلْحى أما | والله لو كُلِّفْتَ منه كما
كُلِّفْتُ من حبّ رخيمٍ ، لما | لُمتَ على الحبِ ، فذرني وما
ألقى ، فاني لستُ أدري بما | بُليتُ الا أنني بينما
أنا بباب القصرِ ـ في بعض ما | أطوفُ في قصرهم ـ اذ رمى
قلبي غزالٌ بسهام . فما | أخطأها قلبي . ولكنما
سهماهُ عينانِ له ، كلّما | أرادَ قتلي بهما سلّما

(٣٣٦) الموشح للمرزباني ص ٤٠٥ .

الشعراء :

أبو العتاهية

١٣٠ ـ ٢١١

هو أبو العتاهية اسماعيل بن القاسم بن سُوَيْد بن كَيْسان . وكُنيته أبو اسحاق. وأبو العتاهية لقبه . رُوِي أن المهدي قال له يوماً : أنت إنسانٌ متحذْلِقٌ مُعَتَّهٌ . فاستوتْ له من ذلك كنيةٌ غلبتْ عليه دون اسمهِ وكنيتهِ . وسارت له في الناس .. وقيل : كُني بأبي العتاهية لأنه كان يحبُّ الشهرة والمجونَ والتعتُّه .(٣٣٧) أما نسبه ففيه خلافٌ.قال بعض الباحثين إنَّه نبطي من موالي بني عَنزة ، وأمه من موالي بني زُهرة . وذكر آخرون أنه عربي وتبعهم في ذلك بعض المستشرقين مثل نكلسون وهوار .

مولده وسيرته :

ولد أبو العتاهية في بلدة عين التمر غربي الكوفة(٣٣٨) سنة ١٣٠ للهجرة ولا نعلم شيئاً عن حياته في هذه البلدة . وأغلب الظن أنه انتقل منها صغيراً مع أبيه الى الكوفة الذي كان يعمل حجاماً . .

نشأ في الكوفة . وتَلَقَّى علومه فيها .وكانت آنذاك مركزاً للعلم والأدب . وكان لقسم من الموالي الذين عاشوا في هذه المدية أثر كبير في انتشار المجون والخلاعة والزندقة والشعوبية . وقد ظهر فيها مجموعة من الشعراء سلكو طريق التهتك والغوابة أمثال : مطيع بن إياس . ووالبة بن الحُباب . وحماد عجرد ... وكان لأبي العتاهية نفسٌ ميَّالة للمسير في دربهم الشائن . وقد حاول أخوه زيد الذي كان يعمل بالجرار والفخار أن ينقذه من السقوط في هاوية الضلالة . فاشركه في حرفته.وكان أبو العتاهية ذكياً يتردَّدُ الى حلقات العلماء والادباء ونبغ في نظم الشعر وهو في مقتبل العمر . وكان الأحداث والمتأدبون يأتون اليه فينشدهم أشعاره . ويكتبونها على ما تكسَّر من الخزف . وبعد زمن قصير رفض هذه المهنة وتركها . وكان يقول : « أنا جذَّار القوافي . وأخي جرأر التجارة »(٣٣٩)

---

(٣٣٧)الأغاني ٤ : ٢ .

(٣٣٨) ينظر معجم البلدان ٤ : ٢٦ .

(٣٣٩) الاغاني ٤ : ٢٥

نزعت نفسُ أبي العتاهية الى مخالطة الشعراء المجّان والتردد الى محلات المغنين والقيان ، واكتسب آنذاك صديقاً أخلص له الودّ وهو المغنّي ابراهيم الموصلي . وقد اصطحبه عندما جاء الى بغداد ، ولم يفلح أبو العتاهية من هذا المجيء ، ولم تُفتحْ له أبواب البقاء . فعاد الى الكوفة بعد أن عرّج في طريقه الى الحيرة ، ووقع بصرُه على فتاة ذات حسن وجمال تسمى « سُعدى » مولاة عبد الله بن مَعْن بن زائدة ، وتولّه بها ، ونظم فيها شعراً غزلياً رقيقاً ، ولكنها أعرضت عنه ، ولم تأبه به ، وحينما علم مولاها بذلك نهاهُ عنها ، ولكنه لم يتمثل للنهي ، وهجاه هجاءً موجعاً ، فقبض عليه وضربه مئة سَوطٍ وأسكته من هذا التغزل .

جرّ أبو العتاهية أذيال الخيبة والفشل الى الكوفة ، ولم يمكث فيها طويلاً ، اذ جاءه طلب من صديقه ابراهيم الموصلي بالتوجُهِ الى بغداد . فاستجاب له ، ونظم قصيدة في مدح الخليفة المهدي نالت رضاه ، وبذلك انفتحت له أبواب الشهرة ، ونال بعدها جوائز الولاة والقواد . أحدهم عمر بن العلاء الذي وصله على قصيدة واحدة سبعين ألف درهم(٢٤٠)

وفي البلاط العباسي رأى جارية جميلة فتّانة تُسمّى « عُتبة » . فتابعها ، ولاحقها ، ونظم شعراً رقيقاً يحاول به أن ينفذ الى قلبها وينالها ، من ذلك قوله(٢٤١) :

يا عُتْبَ سَيّدتي ؛ أما لكِ دينُ ؟ حتى متى قلبي لديكِ رهينُ ؟
وأنا الذلولُ لكلِّ ما حمّلتني وأنا الشقيُّ البائسُ المسكينُ
وأنا الغداةَ لكلِّ باكٍ مُسْعِدٌ ولكلِّ صبٍّ صاحبٌ وخدينُ
لا بأس ، إنّ لذاك عندي راحةً للصبِّ أنْ يَلْقَى الحزينَ حزينُ
ياعُتْبُ ؛ أينَ أفرُّ منكِ ، أميرتي ! وعليَّ حِصنٌ من هواكِ حصينُ

لم تكن عتبة تحبه ، بل كانت تكرهه وتزدريه . وفي أول الأمر همَّ المهديُّ أن يدفع عُتبة اليه . فجزعت وقالت : « ياأمير المؤمنين . أستجيرُ في مروءتك وشرفك وما يلزمكَ من حقِ خدمتي وصحبتي أن تخرجني من دار النعمة الى بائع جرار ،

(٢٤٠) زهر الآداب ١ : ٣٢٤ .

(٢٤١) ديوانه ص ٤٥٨ .

سوقي ، دنيء النفس ، وبعد ، فانما يريد الذكر والشهرة ، وليس بعاشق »(٢٤٢) . فأعفاها ، ولمْ يمتثل أبو العتاهية لهذا القرار ، ومضى يتغزّل بها ، وضربه المهديّ مئة سَوْط لقوله :

ألا إنَّ ظبياً للخليفة صادني ومالي على ظبيِ الخليفة من عَدْوِ

وقال : أبي يتمرَّسُ ، ولحرمي يتعرَّضُ ، وبنسائي يعبث ؟ ونفاه الى الكوفة . وبقي يذكر عُتبة ويكنّي باسمها ، من ذلك قوله(٢٤٣)

قـلْ لمـن لـسـتُ أسـمّـي : بأبـي أنـتِ وأمـي
بأبـي أنـتِ لـقد أصـ ـبحتِ مـن أكـبرِ همّـي
ولـقد قـلـتُ لأهـلـي إذ أذابَ الـحـبُّ لـحـمـي
وارادوا لـي طـبـيـبـاً فاكـتـفوا مـني بـعـلـمـي
مَـنْ يـكـنْ يـجـهـلُ ماألـقى فإنَّ الـحـبُّ سُـقـمـي
إنَّ روحـي لـبـبـغدا دَ وفي الـكوفة جـسـمـي

وشفع له المهدي ، بوساطة يزيد بن منصور الحميري خال المهدي ، وعاد الى بغداد ، وبقي على حبه لعتبة . وبعد وفاة المهدي ثم الهادي ، تقدّم لطلبها ، وحاول الخليفة الرشيد أن يستميلها اليه . ولكنها أبتْ وقالت : « أنا أمتك ، وأمرك نافذ فيَّ . ماخلا أمر أبي العتاهية(٢٤٤) ... » وبكت بين يديه ، فرقَّ لها ، ورحمها ، وانصرف عنها ، ولما سمع أبو العتاهية الخبر يئس منها وعلم أنها لاتجيبه . وقال في ذلك قصيدة أولها :(٢٤٥)

قـطـعـتُ مـنـكِ حـبـائـلَ الآمال وحططتُ عن ظهرِ المطيّ رِحالي
ويئستُ أنْ أبقى لشيء نلتُ ممّا فيكِ يادنيا ، وأن يبقى لـي
فوجدتُ بَرْدَ اليأسِ بينَ جوانحي وأرحتُ مِن حلّي ومِن تَرحالي

وهكذا انتهت المحاولة الأخيرة . وانسدلَ الستارُ عليها . وقد قامَ الشكُّ حول هذا الحب الضائع . ونحن نرجّحُ أنه أحبَّ عُتبة وإنْ ذهبَ فريقٌ من الدارسين الى أنه مثّلَ دورَ المحبِّ العاشق المدلّه بالغرام كي يتحدّث الناسُ بأمره .

(٢٤٢) طبقات الشعراء ص ٢٣١ .
(٢٤٣) زهر الآداب ١ : ٢٢٧ .
(٢٤٤) مروج الذهب ٢ : ٢٥٧ .
(٢٤٥) ديوانه ص ٢٢٥ .

وبعد انصرافه عن عُتبة ، وانقطاعه عن التغزُّل بها ، بقي ملازماً لدار الخلافة ، وكانت الأموال تأتيه بسخاء ، فإن الخليفة الرشيد كان يُجري عليه كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والمعادن(٢٤٦) ، ومن بعده المأمون كان يُجري عليه عشرين ألف درهم(٢٤٧) وكان الى جانب هذا يجري الحسن بن سهل عليه ثلاثة آلاف درهم كل شهر(٢٤٨) ... فضلاً عن الهدايا والهبات الأخرى . ومع هذا الثراء والمال الكثير كان بخيلاً غاية البخل . وكان يحاول أن يدفع عن نفسه البخل والشراهة في جمع المال بطرق شتى ، وله نوادر طريفة نجدها في ترجمته في الأغاني وتاريخ بغداد ومروج الذهب .. ومن أطرفها أنه يدعو الى التمتع بالمال وانفاقه في قوله :(٢٤٩)

اذا المرءُ لم يُعتقْ منَ المالِ رقَّهُ ... تملكه المالُ الذي هو مالِكُهْ
ألا انما مالي الذي أنا مُنفقٌ ... وليس ليَ المالُ الذي أنا تارِكُهْ
اذا كنتَ ذا مالٍ فبادِرْ به الذي ... يحقُّ ، والّا استهلكتْهُ هوالِكُهْ

لقد حدث تحوُّل كبير فجأة في حياة أبي العتاهية ، اذ نراه ينقطع عن مجلس الرشيد ، ويضرب عن قول الشعر في الحبّ ، ويلبس ملابس الصوفية ، في سنة ١٨٠ للهجرة وهو في الخمسين من عمره ، ويدعوه الرشيد الى استئناف خدمته والعودة الى ماكان يصنع له من رقاق الغزل ، فيأبى ، فيأمر بحبسه والتضييق عليه ، فينظم قصيدة مطلعها(٢٥٠)

أما واللهِ إنَّ الظلمَ لومُ ... ولكنَّ المسيءَ هو الظلومُ

وفي ختامها يقول :

ألا يا أيُّها الملكُ المُرجّى ... عليه نواهضُ الدنيا تحومُ
أقلني زَلّةً لم أجرِ منها ... الى لوم ، وما مثلي ملومُ
وخلّصني تخلُّصَ يومَ بعثٍ ... اذا للناس بُرِّزَتِ الجحيمُ

رقَّ له الخليفة وأمر باطلاقه . وقضى أُخريات حياته بالزهد والتوبة والاستغفار ، والدعوة الى مكارم الأخلاق . الى أن قضى نحبه سنة ٢١١ هـ على أرجح الآراء(٢٥١)

---

(٢٤٦) الأغاني ٤ ، ٦٣ .

(٢٤٧) الأغاني ٤ : ٥٣ .

(٢٤٨) الاغاني ٤ : ٨٩ .

(٢٤٩) ديوانه ص ٣١٧ .

(٢٥٠) ديوانه ص ٣٩٨ .

(٢٥١) ينظر أبو العتاهية حياته وشعره ص ١٥٨ .

تهمة الزندقة

ذكرنا سابقاً أن الزندقة كانت حركة كبيرة في العصر العباسي ؛ لذلكَ حاربها الخليفة المهدي ومن جاء بعده . وقد اتهم عددٌ من الشعراء بهذه التهمة ، وكان أبو العتاهية واحداً منهم . ويبدو أن تهمته لعدواة شخصية ، لأن ماقيل عنه لم ينهض دليلاً قاطعاً على زندقته .

ونورد هنا أهم التهم ، قال محمد بن أبي العتاهية : « لما قال أبي في عُتبة :

كأنَّ عتّابةِ من حسنِها دُميةُ قَسٍ فتنتْ قسُّها
ياربِّ لو أنسيتينها بما في جنَّةِ الفردوسِ لم أنسها

شنَّعَ عليه منصور بن عمّار بالزندقة ، وقال : يتهاونُ بالجنَّةِ ويبتذلُ ذِكْرَها في شعره بمثل هذا التهاونِ ، وشنَّعَ عليه أيضاً قوله :

إنَّ المليكَ رآكِ أحسنَ خلقهِ ورأى جمالكْ
فحذا بقدرة نفسهِ حورَ الجِنانِ على مثالكْ

وقال : أيصوِّر الحورَ على مثالِ امرأةٍ آدميةٍ ، والله لايحتاج الى مثال ، وأوقع له هذا على ألسنةِ العامةِ ؛ فلقي منهم بلاءً »(٣٥٢)

ان التهمة واضحة ، لأنَّ الأبيات ماهي إلاّ مبالغات أدبية .

وقال أبو الفرج الأصبهاني في التهمة الثانية : « وكان قوم من أهل عصره ينسبونه الى القول بمذهب الفلاسفة ممن لا يؤمن بالبعث ، ويحتجُون بأن شعره انما هو في ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد »(٣٥٣) .

انَ من يطالع ديوان أبي العتاهية يظهر له بجلاء افتراء هؤلاء القوم لما فيه من ذكر التوحيد وذكر البعث ، والاقرار بالجنة والنار ، والوعد والوعيد .

وفي تهمة ثالثة قال أبو الفرج الأصبهاني(٣٥٤) : « قال محمد بن أحمد بن حرب: «كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد. وأن الله خلق جوهرين متضادين لا

(٣٥٢) الاغاني ٤ : ٥١ .

(٣٥٣) الاغاني ٤ : ٢ .

(٣٥٤) الأغاني ٤ : ٥ .

من شيء ، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما ... وكان يزعم أنَّ الله سيردُّ كلَّ شيء الى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً » . وهذا القول يوافق ماقاله ابن المعتز عن أبي العتاهية : « والذي يصحُّ لي أنه كان ثنوياً »(٢٥٥) . ويبدو أنه نظر الى أرجوزته التي تقول فيها(٢٥٦)

لكل شيء معدنٌ وجوهرُ ... وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبرُ
وكل شيء لاحقٌ بجوهره ... أصغره متصلٌ بأكبره
الخيرُ والشرُّ بها أزواجُ ... لذا نتاجٌ ولذا نتاجُ
لكل إنسانٍ طبيعتانِ ... خيرٌ وشرٌّ وهما ضدانِ
والخيرُ والشرُّ اذا ماعُدَّا ... بينهما بونٌ بعيدٌ جدَّا

إنَّ أبا العتاهية ــ في ظننا ــ لم يكن زنديقاً ، وانما كان في أول أمره محيَّراً مُذبذباً ثم استقر بعد ذلك على الايمان بالله وباليوم الآخر ، وهاهو ذا يقسم : « والله ما ديني الاّ التوحيد(٢٥٧) » . وقد أصاب الدكتور محمد مصطفى هداره في قوله(٢٥٨) : « الواقع اننا نؤمن ايماناً وثيقاً بأنَّ أبا العتاهية ليس زنديقاً ولا كافراً ولكنه يؤمن ايماناً لايتطرق اليه الشك . وكل ما في الأمر أنه رجل عاش وسط تيارات من الفلسفات المختلفة والمذاهب المتباينة . فتأثر بها لاتأثر الزنديق ولكن تأثر المؤمن . فهو يستخدم ما في الثنوية من فكرة الخير والشر لتوضيح تيارهما في نفس الانسان وفي العالم كله . ولكنه لم يتعدَّ هذه الحدود وبذلك لم يتعدَّ حدود الإسلام » .

زهده :

عاش أبو العتاهية حياةً لاهيةً عابثة . ثم عاف تلك الحياة بعد تجاوزه الخمسين من العمر . والتجأ الى الزهد وتقوى الله وعبادته . وقد اختلف الدارسون في هذا التحوُّل . فقد رأى محمد خلف الله أنَّ وراء زهد أبي العتاهية وتحوُّله من تيار اللهو والمجون الى الايمان وتقوى الله عاملين رئيسين : أولهما : أحساسه الدفين بضعة أصله . وهذا الاحساس النفسي حمله على أن ينادي بأنَّ التقوى هي العزُّ والكرمُ كما في قوله :

(٢٥٥) طبقات الشعراء ص ٢٢٨ .

(٢٥٦) ديوانه ص ٤٩٤ .

(٢٥٧) الأغاني ٤ : ٣٥ .

(٢٥٨) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٦٩ .

دعـــنـــي مـــن ذكرِ أبٍ وجَدٍّ ونـــســـبٍ يُـعـلـيـكَ سُورَ الـمـجدِ
مالـــفـــخرُ اِلّأفـي الـتُّقى والزُّهدِ وطاعةٍ تــعــطــي جِـنـانَ الـخـلدِ

والعامل الثاني : حبه لعتبه الذي صهر مشاعره ، وكان بلا أمل فصار بذلك حرماناً جديداً أُضيف الى أسباب تَنسكهِ . ويرى خلف الله أنَّ صدمته في حبه لعتبة هي نقطة التحول الحقيقية في حياته(٣٥٩) . ويضيف الدكتور مصطفى هدارة عاملاً ثالثاً هو اتصاله بالثقافات المختلفة في عصره . ولا سيما حركة الزهد التي بدأت تأخذ طريقها في ذلك الوقت(٣٦٠) . أما محمد بن برانق فقال : « ماكان شعره في الزهد لله ولكنه طريق سلكه في شعره لإظهار الحسرة والأسى على حبيبته عتبة(٣٦١) . وأنكر الدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي زهد أبي العتاهية ورأى أنه ضلّلَ الباحثين والنقاد مايقرب من اثني عشر قرناً . ولا يزال شعره في مدارسنا الثانوية بل وجامعاتنا يدرس على أنه منبعثٌ عن زهد أو ما يشبه الزهد مع إنه أبعد الاشياء عن ذلك . وجعل أحد دوافع الزهد عند أبي العتاهية اتفاقية سرية بين الشاعر من جهة والفضل بن الربيع مع زبيدة من جهة أخرى . لإبعاد الرشيد عن مجالس الأنس والطرب والجواري منافسات زبيدة وإبعاد جعفر البرمكي عدو الفضل بن الربيع ونديم الرشيد على الشراب ... لقد كانت زبيدة تريد أن تجعل من الرشيد رجلاً عابداً زاهداً في كل شيء من الدنيا سواها . وأبو العتاهية وشعره وسيلتها الى ذلك(٣٦٢) .

وهكذا حاول الكثيرون اخراج أبي العتاهية من حلبة الزهد ورميه خارجها . مع انه ـ في رأينا ـ قد تزهَّدَ في أخريات عمره ، وكفَّ عن شهواته وصبواته ، وهاهو ذا يقول مخاطباً الرشيد بعد اعتزال مجلسه وطرح اللهو والشراب والمنادمة جانباً : « يا أمير المؤمنين : إنَّ الحسناتِ يُذهبنَ السيئات . كنتُ أقولُ الغزلَ وليَ شبابٌ وجِدَةٌ . وبي حِرَاكٌ وقوّةٌ ، وأنا اليومَ شيخٌ ضعيفٌ لايحسن بمثلي تَصابٍ(٣٦٣) . ان زهده جاء بعد ضعفه وكبره وشعوره بالندم على ماقدمت يداه من معاصٍ وآثام وأعمال منكرة . ويرى الدكتور محمد محمود الدش أنه تزهَّدَ حقاً بعد سنة مئتين للهجرة ، أي بعد السبعين من العمر(٣٦٤) .

---

(٣٥٩) دراسات في الادب العربي الاسلامي ص ٨٥ .

(٣٦٠) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ٢٩٢ .

(٣٦١) أبو العتاهية ص ٣١ .

(٣٦٢) الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ١٠٢ ، واسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ٢٩ .

(٣٦٣) زهر الآداب ١ : ٢٢٩ .

(٣٦٤) أبو العتاهية ، حياته وشعره ص ١٥٩ .

شعره :

كان أبو العتاهية ذا ثقافة واسعة . أتته من عدة روافد أوسعها الرافد الاسلامي . وهذه الثقافة واضحة في شعره . فمثلاً ماذكره المبرد في قول أبي العتاهية :(٣٦٥)

وقد يهلكُ الانسانُ من باب أمنِهِ وينجو باذنِ الله من حيث يحذرُ

فهو متأثر بقوله تعالى : (فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيرا)(٣٦٦) ومن تأثره بالحديث :(٣٦٧)

اذا كنت في الدُنيا بصيراً فإنَّما بلاغك منها مثلُ زادِ المسافر

فهو مأخوذ من الحديث الشريف : « ليكن بلاغ احدكم من الدُنيا كزادِ المسافر » . ومن تأثره بمن سبقه من الشعراء في قوله :(٣٦٨)

يامَن رأى قبلي قتيلاً بكى من شدَّةِ الوجدِ على القاتلِ

فهو مأخوذ من جميل بن معمر في قوله :(٣٦٩)

خليليَّ . فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي ؟

كان ابو العتاهية مبكراً في نظم الشعر ومكثراً . حتى انه قال : « لوشئتُ ان أجعلَ كلامي كلّه شعراً لفعلتُ »(٣٧٠) وقد شاهد ابن النديم من ديوانه في الموصل نيفاً وعشرين جزءاً من ثلاثين .(٣٧١) وقال الخطيب البغدادي : « وهو أحد من سار قوله . وانتشر شعره . وشاع ذكره . يقال : انَّ احداً لم يجتمع له ديوانه بكماله . لعظمه »(٣٧٢) ولكن الذي بين أيدينا الآن من ديوانه مجلد واحد أغلبه في الزهد . ونجهل الاسباب التي حالت بين ذلك الشعر الكثير وبين وصوله الينا .

---

(٣٦٥) الكامل ١ : ٢٢٢ .

(٣٦٦) سورة النساء . الآية ١٩

(٣٦٧) ديوانه ص ١٧٦ .

(٣٦٨) ديوانه ص ٢٨٦

(٣٦٩) ديوان جميل بثينة ص ٧٢ .

(٣٧٠) الاغاني ٤ : ١٢ .

(٣٧١) الفهرست ص ٢٢٧ .

(٣٧٢) تاريخ بغداد ٦ : ٢٥٠ .

استهل ابو العتاهية حياته الشعرية بالغزل . ولعلّ في قول الدكتور محمد عبدالعزيز الكفراوي شيئاً من المبالغة : « انه أعظم شعراء الحبّ في عصره »(٣٧٣) . ان غزله عفيف ورقيق له « من قلوب النساء موقع الزلال البارد من الضمآن »(٣٧٤) . وأغلب ما وصل الينا منه في عتبة جارية المهدي ووصيفة الخيزران . وقد سُحِرَ بها حينما رآها لأول مرة ماضية الى السوق . وأخذ يستعطفها ويتوددُ اليها . ويتوسلُ لها . بشعر سهل لطيف عذب . مثل قوله :(٣٧٥)

عيني على عتبة منهلةٌ بدمعها المنسكبِ السائلِ
كأنها ، مِن حسنِها ، درّةٌ أخرجها اليمُّ الى الساحلِ
كأنَّ في فيها وفي طرفها سواحراً أقبلنَ من بابلِ
لم يَبقِ مني حبُّها ، ما خلا حشاشةٌ في كبدٍ ناحلِ

وكان صدّ عتبة وردُها ودلالها يزيد جذوة حُبّه ، ويثير في نفسه الالم والحسرة ، ويدفعه الى نظم الشعر شاكياً :(٣٧٦)

الله بيني وبين ظالمتي طلبت منها وصالها فأبتْ
ماذا عليها لو أنها بعثت منها رسولاً اليّ أو كَتَبتْ ؟
رغبتُ في وصلها ، وقد زهدتْ عُتبةُ في وصلِنا وما رغبتْ

انَّ بساطة شعره وطريقته في التوجع وفي التعجب وفي النداء والدعاء أشبه بطرق النساء . وهذا مادفع الاقدمين الى القول : انه يحمل زاملة المخنثين .(٣٧٧) . وقد سُئل بشار بن برد : منْ أشعر أهل زماننا ؟ فقال : مخنث أهل بغداد (يعني أبا العتاهية) .(٣٧٨)

وللمديح نصيب لا بأس به في شعر أبي العتاهية . اذ سخره للوصول الى ابواب الخلفاء والولاة والقواد والحصول على الاموال الكثيرة منهم . وكان يهز أريحيتهم

(٣٧٣) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ١٢٧ .
(٣٧٤) طبقات الشعراء ص ٢٢٠
(٣٧٥) ديوانه ص ٢٨٦ .
(٣٧٦) مروج الذهب ٢ ، ٤٥٢
(٣٧٧) الاغاني ٤ : ١ ، وينظر ابو العتاهية حياته وشعره ص ٢٠٦
(٣٧٨) الاغاني ٤ ، ٧٢

لأنه يعرف كيف يتخير الافكار القريبة الى نفوسهم بعيون القول ، واليك هذه الابيات في مدح الخليفة المهدي لترى مدى دقتهِ في اصابة هدفه :(٣٧٩)

أتتْهُ الخلافةُ مُنقادةً إليهِ تجرّرُ أذيالها
ولم تكُ تصلحُ الاّ له ولم يكُ يصلحُ الاّ لها
ولو رامها أحدٌ غيرهُ لزلزلتِ الأرضُ زلزالها
ولو لم تُطِعهُ بناتُ القلوبِ لما قبِلَ اللهُ أعمالها

وكان الخليفة الرشيد يُقرّبه ويرعاه ويصحبه ويملأ يديه مالاً . ولذلك كثرت مدائحه فيه . ومن جيد شعره الذي تتجلّى فيه مظاهر القوة في الصياغة قوله :(٣٨١)

جرى لكَ من هارون بالسّعدِ طائِرُه امامُ اعتزامٍ لاتخافُ بوادِرُهْ
امام له رأيٌ حميد ، ورحمةٌ موادُهُ محمودة ومصادِرُهْ
هو الملكُ المجبولُ نفساً على التُّقى مُسلّمةٌ من كلِّ سوء عساكِرُهْ
ليغمدَ سيفَ الحربِ . فاللهُ وحدَه ولـيُّ أميرِ المؤمنين وناصرُهْ
وهارون ماءُ الزّنِ يشفي من الصَّدى اذا ما الصدى بالريق غصّتْ حناجِرُهْ
وأوسط بيتٍ في قريشٍ لبيتُهُ وأول عزٍ في قريشٍ وآخِرُهْ
وزحفٍ له تحكي البروقَ سيوفُهُ وتحكي الرعودَ القاصفاتِ حوافِرُهْ
اذا حميتْ شمسُ النّهارِ تضاحكتْ الى الشمسِ فيه بيضُهُ ومغافِرُهْ
اذا نُكِبَ الاسلامُ يوماً بنكبةٍ فهارون من بين البرّيةِ ثائرُهْ
لقد بُلّغتُ ما قال فما بالبيتُ ما قالا

ولابي العتاهية شعر في الهجاء ولكنه قليل . يغلب عليه الافتراء والتهكم والسخرية والطعن في الرجولة . ولاسيما هجاؤه لمعن بن زائدة الشيباني الذي منعه من التشبيب بجاريته سُعدى ، من ذلك قوله :(٣٨٢)

لقد بلّغتُ ما قال فما بالبيتُ ما قالا
فلو كان من الأسد لما راعَ ولا هالا
وما تصنعُ بالسيف اذا لم تكُ قتّالا
فصُغ ماكنتَ حلّيتَ به سيفكَ خلخالا

---

(٣٧٩) ديوانه ص ٢٧٥ .

(٣٨٠) بنات القلوب : النـ...

(٣٨١) ديوانه ص ٢١٣

(٣٨٢) ديوانه ص ٢٨٠ .

وكان معن بن زائدة يتألّم ويتوجّع من هذا الهجاء ويقول : « ما لبستُ سيفي قطُ فرأيتُ انساناً يلمحني الاّ ظننت انه يحفظ قول ابي العتاهية فيَّ ، فلذلك يتأملني فأخجل »(٣٨٣).

والباب الواسع في شعره هو الزهد . وقد رأينا كيف انصرف الى نظمه بعد كبره واعتلاء الشيب مفرقه ، ورجحنا انه تاب توبةً صادقةً لاريب فيها ، وكان كما قال ابو الفرج الاصبهاني : « يحجُّ في كلِّ سنةٍ »(٣٨٤) . والحجُّ آنذاك لم يكن سهلاً ميسوراً وانما له متاعب جمة لا يتحملها الا المؤمن الصبور الذي أتى الله بقلب سليم .

أدرك ابو العتاهية ان المرء الى فناء ، وأن وراءه حساباً عسيراً . لذلك زهد في الدنيا بعد أن سعى فيها الى طلب اللذة والمتعة وعكف على بهرجتها وزينتها ، وقد ذكر خلاصة رأية في الحياة في قوله :(٣٨٥)

طلبتُكِ يادنيا ، فأعذرتَ في الطلبْ ... فما .نلتُ الاّ الهمّ والغمّ والنصبْ
فلما بدا لي أنني لستُ واصلاً ... الى لذةٍ الاّ بأضعافها تعبْ
وأسرعت في ديني ، ولم أقضِ بغيتي ... هربت بديني منكِ ، انْ نفعَ الهربْ
تخلّيتُ مما فيكِ جَهْدي وطاقتي ... كما يتخلّى القومُ من عَرّة الجربْ

هكذا وجد الحياة ، همٌ وتعبٌ ، وغمٌ ونصبٌ ، لذلك فرَّ منها الى عالم العبادة والزهادة ويبدو أن السهام التي رمي بها من المبغضين والحاسدين آذته وزادته نفرةً وفراراً من الواقع الذي كان يعيش على أرضه ، وقد عبّر عن ذلك في قصيدة منها :(٣٨٦)

فياربِّ ، إنَّ الناسَ لاينُصفونني ... وإنْ أنا لم أُنصِفْهُمْ ظلموني
وإنْ كان لي شيءٌ تصدَّوا لأخذِه ... وإن جئتُ أبغي شيئهم منعوني
وإنْ نالهم رِفدي فلا شكرَ عندهم ... وإن أنا لم أبذلْ لهم شتموني
وإنْ وجدوا عِندي رخاءً تقرَّبوا ... وإنْ نزلتْ بي شدَّةٌ خذلوني
وإنْ طرقتني نكبةٌ فكِهُوا بها ... وإن صحبتني نِعمةٌ حسدوني

---

(٣٨٣) الاغاني ٤ : ٢٧
(٣٨٤) الاغاني ٤ : ٥٢
(٣٨٥) ديوانه ص ٤٩ .
(٣٨٦) ديوانه ص ٤١٥

لقد دعا أبو العتاهية في شعره الزهدي إلى محاسن الأخلاق، وحميد الفِعال، وصالح الأعمال، وكان آخر ماقاله في مرضه الذي مات فيه :(٣٨٧)

إلـهـي، لاتُـعذّبـنـي، فإنّـي ... مـقرٌّ بالذي قد كان مـنّـي
ومالـي حـيـلةٌ، إلا رجائـي ... وعفوك، إنْ عفوتَ، وحسنُ ظنّي
فكم مِن زلّةٍ لي في البرايا ... ولأنـت عـلـيَّ ذو فـضـلٍ ومَـنِ
إذا فـكـرتُ في نَدمـي عـلـيـهـا ... عضضتُ أناملي، وقرعتُ سنّي
يظنُّ الناسُ بي خيراً، وإنّي ... لشرُّ الناسِ، إنْ لم تعفُ عنّي

انّ شعر أبي العتاهية، في كل أغراضه، سهل وواضح وسلس، وبلا نعثر في مظاهر الصنعة او الزخرف. قال مصعب بن عبدالله حينما سمع الأبيات الآتية: من شعره

تـعـلّـقـتُ بآمالٍ ... طـوالٍ ايّ امـالِ
وأقـبـلـتُ عـلى الدنـيـا ... مـلحـاً أيّ اقـبالِ
أيا هذا، تـجـهّزْ لـ ... ـفراقِ الأهـلِ والمالِ
فلابـدّ مـن الموتِ ... على حالٍ مـن الـحالِ

« هذا كلام سهل حق، لا حشو فيه ولا نقصان، يعرفه العاقل، ويقرُّ به الجاهل »(٣٨٨) لقد تقصد ابو العتاهية هذه الطريقة، اي طريقة السهولة والوضوح والسلاسة، وأرادها لنفسه، فالشاعر في رأيه يجب « أن تكون الفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس »(٣٨٩). وهذا الشيء دفع نكلسون الى القول: « ان أبا العتاهية قد برهن لأول مرة في تاريخ الادب العربي، وربما كان لآخر مرة أيضاً انه في استطاعة المرء أن يستعمل لغة عادية، وواضحة تمام الوضوح، وتظل له رغم ذلك مكانته بين الشعراء »(٣٩٠)

والى جانب السهولة والوضوح وسلاسة الاسلوب كان ابو العتاهية « يباشر المعنى مباشرة، ويقصد اليه قصداً، لا يختار لذلك واسطة من صورة أو غيرها، مما أولع به شعراء العصر الذي عاش فيه، الآ ان تأتيه عفواً في غير كدّ »(٣٩١) وهذه الحقيقة

(٣٨٧) ديوانه ص ٤٢٥.
(٣٨٨) الأغاني ٤ : ١٠، وينظر ديوانه ص ٣٤٦.
(٣٨٩) الأغاني ٤ : ٧٠.
(٣٩٠) أسطورة الزهد عند أبي العتاهية ص ١٥٤.
(٣٩١) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٨٩.

واضحة للعيان في شعره عموماً . وللتأكد من ذلك نورد هذا الخبر . روى ابو الفرج الاصفهاني أنّ أباالعتاهية مدح عمر بن العلاء، وهو من أصحاب الخليفة المهدي، « فأمر له بسبعين الف درهم ، فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفيّ ؟ وأيُّ شيء مقدار شعره ؟ فبلغه ذلك . فأحضر الرجل وقال له : والله انّ الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ، ويتعاطاه فلا يحسنه ، حتى يشبِّبَ بخمسين بيتاً ، ثم يمدحنا ببعضها ، وهذا كأنَّ المعاني تجمع له ، مدحني فقصّر التشبيب وقال :

انِي أمنتُ من الزمان وريبِهِ ... لما علقتُ من الأمير حبالا
انّ المطايا تشتكيك لأنها ... قطعت اليك سباباً ورمالا
فاذا وردْنَ بنا وَرَدْنَ مخفّةً ... واذا رجعْنَ بنا رجَعْنَ ثقالا(٢٩٢)

لقد عرف ابو العتاهية اختيار الطريق الذي يوصله الى مايريد . وحسناً قال حينما سُئل : « كيف تقول الشعرَ : قال : ماأردتُه قطُ الاّ مثلَ لي ، فأقولُ ماأريد وأترك مالا أريدُ »(٢٩٣)

---

(٢٩٢) الاغاني ٤ : ٣٨ .

(٢٩٣) الاغاني ٤ : ١٣ .

مسلم بن الوليد

١٤٠ ـ ٢٠٨ هـ

اسمه وكنيته ولقبه :

هو مسلم بن الوليد ، ويكنّى بأبي الوليد ، ويلقّب بصريع الغواني . وهذا اللقب كان الرشيد قد أطلقه عليه حين سمع قصيدته الغزلية الخمرية التي يقول فيها :

سأنقادُ للذّاتِ متّبعَ الصّبا   لأمضيَ هَمّي أو أُصيبَ فتىً مثلي
هل العيشُ إلاّ أنْ تروحَ مع الصّبا   وتغدو صريعَ الكأسِ والأعينِ النُجلِ ؟

قال له : أنتَ صريع الغواني ، فسُمّي بذلك حتى صار لايُعرف إلاّ به(٢٩٤) .

وفي رواية أخرى : ان رجلاً سأل مسلم بن الوليد : لم تدعَى صريع الغواني ؟ فأنشأ يقول(٢٩٥) :

إنَّ وردَ الخدودِ والأعينَ النُجـ   ـلِ وما في الثُغورِ من أُقحوانِ
واعوجاجَ الأصداغِ في ظاهرِ الخـ   ـدِّ وما في الصُدورِ مِن رُمّانِ
تركتني بينَ الغواني صريعاً   فلهذا أُدعَى صريعَ الغواني

إن هذا اللقب الذي شُهر به ينطبق عليه ، إذ كان زير نساء ، ويردد كثيراً في شعره كلمة الصريع وما أشبهها . ويبدو انه كان راضياً مزهواً به .

سيرته :

ولد مسلم بن الوليد في الكوفة سنة ١٤٠ للهجرة ، من اسرة تُنتسب إلى الأنصار . وكان أخوه الأكبر سليمان الأعمى شاعراً جيداً وصديقاً نديماً لبشار بن برد . وكان له أثر كبير في نشأته وتوجيهه الى درب الأدب .

تعلّم مسلم بن الوليد في الكوفة . واختلفَ إلى البصرة ، وسمع كبار رجال النحو واللغة والأدب والرواية ، وحفظ القرآن الكريم ، والشعر القديم ، والخطب والأمثال ... حتى أصبح واحداً من أعلام الأدب آنذاك . قال الجاحظ : « من الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعرَ الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن

---

(٢٩٤) طبقات الشعراء ص ٢٣٥ ، تاريخ بغداد ١٣ ، ٩٧ ، ديوانه ص ٣٢ .

(٢٩٥) ديوانه ص ٣٤٢ .

كلثوم بن عمرو العَتَّابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظِه وحَذْوه ومثالِه في البديع يقول جميعُ من يتكلَّف مثلَ ذلك من شعراء المولَّدين ، كنحوِ منصورِ النَّمَري ، ومسلمِ بن الوليد الأنصاري »(٢٩٦).

جذبت بغداد الكثيرين من الأدباء والعلماء . وكان مسلم بن الوليد شأنه شأن معاصريه تواقاً الى الترف واللهو والمال . فارتحل اليها . ولم يمض وقت طويل حتى سطع نجمة في سماءِ الأدب ، ودعته مجالس الخلفاء والوزراء والقواد ، ونال الهدايا والأعطيات ، ويقال : إنه كان يربح ألف ألف درهم في العام وكان مِتلافاً ينفق ما تجود به أيدي الكرماء على ملذاته وأصحابه الذين يتسامرون معه .

ولم يدم على حياة اللهو والشرب ، إذ نراه يُغيِّرُ هذه الحياة ، ويقلع عن درب الغواية والعبث بعد وفاة زوجته ، يقول أبو الفرج الأصبهاني(٢٩٧) : « كانت لمسلم بن الوليد زوجةٌ من أهلِه ، كانت تكفيه أمرَهُ وتَسُره فيما تليه له منه ، فماتت ، فجزع عليها جزعاً شديداً ، وتنسَّك مدَّة طويلة ، وعزم على ملازمة ذلك ، فأقسم عليه بعض إخوانه ذات يوم ان يزوره ، ففعلَ ، فأكلوا وقدَّموا الشرابَ ، فامتنع منه مسلم ، وأنشأ يقول :

بكاءٌ وكأسٌ ، كيف يتّفقانِ ؟ سبيلاهُما في القلبِ مختلفانِ
دَعاني وإفراطَ البكاءِ فإنني أرى اليومَ فيه غيرَ ما تَريانِ
غَدَتْ والثَّرَى أولى بها مِن وَليِّها إلى منزلٍ ناءٍ لعينيكَ دانِ
فلا حُزنَ حتى تذرفَ العينُ ماءَها وتعترفَ الأحشاءُ للخفقانِ
وكيفَ بدفعِ اليأسِ للوجدِ بعدَها وسهماهُما في القلب يَعتلجان »

لقد أحسن في هذه الأبيات وأجاد ، لأنَّ معانيها صادرة من أعماقه ، تنطقُ صدقاً ، وتتحدَّث عن ألم كبير ومأساة فادحة أصابته وأوجعته وتركته بلا قرينٍ وأليف .

تولَّى مسلم بن الوليد في أخريات أيامه بريدَ جُرجان ، وبقي فيها مستقراً على شاطئ بحر الخزر ، وكان يتشوَّق الى بغداد ويحنُّ لها . وقد أحسَّ بالغربة ورأى ذات يوم نخلةً فبعثتْ شجونَهُ وذكَّرته بنخيلِ العراق كما ذكَّرتْ نخلةُ الأندلس

---

(٢٩٦) البيان والتبيين ١ : ٥١ .

(٢٩٧) الأغاني ١٩ : ٦٠ .

عبدالرحمن الداخل بوطنه في المشرق في أبيات مشهورة له .(٣٩٨) قال مسلم وكأنّه يبكي على حالهِ ويرثي نفسه :(٣٩٩)

ألا يـانـخـلـةً . بالسّـفـح مـن أكـنـافِ جُرجانِ
ألا إنّـي وإياكِ بـجرُجانَ غريـبانِ

وقيل : لما احتضر وهو بجرجان نظر إلى نخلة وقال هذين البيتين . ولبى داعي ربه سنة ٢٠٨ للهجرة .

شعره :

نال مسلم بن الوليد إعجاب الدارسين والنقاد ، وجعلوه في منزلة رفيعة ، فهذا ابن رشيق يقول : « سمعتُ جملةً من العلماء يقولون مسلم بن الوليد نظير أبي نواس ، وفوقه عند قوم من أهل زمانه في أشياء(٤٠٠) ، ويُفضّله الآمدي على أبي تمام « لسلامة شعره ، وحسن سبكه ، وصحة معانيه »(٤٠١) . وهو في نظر المرزباني « شاعر مفلق مستخرج للطيفِ المعاني بحلوِ الألفاظ »(٤٠٢) .

طرق مسلم بن الوليد أغلب موضوعات الشعر من مديح وغزل ووصف ورثاء وهجاء ... وكان مجوّداً فيها ، مُبدعاً في صياغتها ، مُتفنناً في تركيبها . وقد بهرَ محبي الأدب منذ عصره ، ذكر أبو الفرج الأصبهاني ان جملة من الأدباء والنقاد اجتمعوا يوماً عند الخليفة المأمون « فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء ، فقال له بعضهم : أينَ أنتَ ياأمير المؤمنين عن مسلم بن الوليد ؟ قال ، حيث يقول ماذا ؟ قال ، حيث يقول وقد رثى رجلاً :

أرادوا ليُخفوا قبرَهُ عن عدوِّهِ فطيب تُرابِ القبرِ دلَّ على القبرِ

وحيث مدح رجلاً بالشجاعة فقال :

يجودُ بالنفسِ إذْ ضنَّ الجواد بها والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجُودِ

وهجا رجلاً بقبح الوجه والأخلاق فقال :

---

(٣٩٨) ينظر : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٠١ .
(٣٩٩) ديوانه ص ٣٤٣ .
(٤٠٠) العمدة ١ : ١٩١ .
(٤٠١) الموازنة ص ١١ .
(٤٠٢) معجم الشعراء ص ٣٧٧ .

قبحتْ مناظِرُه فحينَ خَبرتُه حَسُنَتْ مناظرهُ لِقُبحِ المخبرِ
وتغازلَ فقال :
هوًى يَجِدُ وحبيبٌ يلعبُ أنتَ لَقًى بينهما مُعَذَّبُ

فقال المأمون : هذا أشعر من خُضتم اليومَ في ذكره »(١٠٣) .

كان مسلم فارساً مجلياً في المديح ، يصبُّ جلَّ طاقته وموهبته في إبداعه وإخراجه في صورة مُثلى ، وكأنَّه أمام امتحانٍ صعبٍ ، ومثالٌ على ذلكَ قصيدته اللامية التي يبلغ عدد أبياتها تسعة وسبعين بيتاً ، وهي من عيون قصائده في مدح يزيد بن مَزْيَد الشيباني ، قائد الرشيد المشهور الذي أثخن الجراح في الاعداء وانتزع النصر منهم بجلده وصبره وقوة ارادته وشدّة مناجزته ، منها قوله :(١٠٤)

يغشَى الوغى وشِهابُ الموتِ في يدهِ يرمي الفوارسَ والأبطالَ بالشُّعَلِ
يفتُّر عندَ افترارِ الحربِ مبتسماً إذا تغيَّرَ وجهُ الفارسِ البَطَلِ
موفٍ على مُهَجٍ في يومِ ذي رَهَجٍ كأنَّهُ أجلٌ يسعى إلى أملِ
ينالُ بالرفقِ ما يعيا الرجالُ بهِ كالموتِ مُستعجلاً يأتي على مَهَلِ
لا يرحل الناسُ إلاَّ نحو حُجرتهِ كالبيتِ يُضحي إليه مُلتقى السُّبُلِ
يقري المنيَّةَ أرواحَ الكماة كما يقري الضيوفَ شحومَ الكومِ والبُزُلِ
يكسو السيوفَ دماءَ الناكثينَ بهِ ويجعلُ الهام تيجانَ القنا الذُّبُلِ
يغدو فتغدو المنايا في أسنَّتهِ شوارعاً تتحدَّى الناسَ بالأجَلِ
قد عوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها فهنَّ يتبعنَهُ في كلِّ مُرتحلِ
تراهُ في الأمنِ في درعٍ مضاعفةٍ لا يأمَنُ الدَّهرَ ان يُدعى على عَجَلِ
لا يَعبَقُ الطيبُ خدَّيهِ ومفرقَهُ ولا يُمسِّحُ عينيهِ من الكُحُلِ

إنها صورة رائعة ، مرسومة بكلمات محبوكة وعبارات مسبوكة ، تأخذ معانيها بعضها برقاب بعض وكأنها سلسلة ذهبية قلَّدها الشاعُر جيدَ البطل الممدوح ، وقد تأثَّرَ بها أبو الطيب المتنبي حين مدح سيف الدولة الحمداني في قصيدة جاء فيها :(١٠٥)

---

(١٠٣) الأغاني ١٩ : ٣٤ .
(١٠٤) ديوانه ص ٩ .
(١٠٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٧٢ .

وقفتَ وما في الموتِ شكٌّ لواقفٍ … كأنَّكَ في جفنِ الرَّدى وهو نائمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كلمى هَزيمةً … ووجهُكَ وضَّاحٌ وثغركَ باسمُ

وكان مسلم يذوبُ صبابةً في جمال النساء الأخّاذ ، ويُعبّرُ عنه بشعرٍ رقيقٍ ، يسيل عذوبة ، ولا سيما في شعره الذي نقل فيه حديث الغواني اللواتي تغزّل بهنّ ، وهو يُذكّرنا فيه بشعر عمر بن ابي ربيعة ، مثل قوله من قصيدة :(٤٠٦)

وقد قالتْ لبيضٍ آنساتٍ … يصدنَ قلوبَ شبانٍ وشيبِ :
انا الشمس المضيئةُ حينَ تبدو … ولكنْ لستُ أعرفُ بالمغيبِ
براني اللهُ رَبِّي اذ براني … مبرّأةً سلمتُ منَ العيوبِ
فلو كلّمتُ إنساناً مريضاً … لما احتاجَ المريضُ إلى الطبيبِ
فقلنَ لها : صدقت فهل عطفتِنْ … على رجلٍ يَهيمُ بكمْ كئيبِ
غريبٍ قد أتاكِ فأطلقيهِ … فإنَّ الأجرَ يُطْلَبُ في الغريبِ
فقالتْ : قد بَدتْ منه هَناتٌ … وقد تبدو الهناتُ من المريبِ
وصلناهُ فكلّمنا « بسحرٍ » … كذلكَ كلُّ ملاقٍ خلوبِ (٤٠٧)
وما ظلمتْ ولكنّا ظلمنا … فقد تُبنا إليها من قريبِ
غَفَرتُ ذنوبَها وصفحتُ عنها … فلم تصفحْ ولم تغفرْ ذنوبي

لم يكن مسلم بن الوليد مجيداً في المديح والغزل فحسب وانما كان مجيداً في كل الفنون الشعرية ، فله شعر جميل في الوصف ، ولا سيما في وصف الخمرة ، ووصف الروض ووصف السفينة التي جعلها وسيلته في الوصول الى الممدوح بدلاً من الناقة ، وكذلك كان محسناً في الرثاء والتعبير عن الحزن بحرارة وقد عدّ النقّاد بيته الذي مرَّ بنا في بداية حديثنا عن شعره أرثى بيت .

وقصارى القول : إنَّ مسلم بن الوليد من الشعراء الأذكياء المبدعين الذين جمعوا بين جزالة القدامى ورقة المحدثين ، وبصياغة لطيفة وموسيقى محببة ، وان قيل انه « أول من وسَّعَ البديعَ وحشابه شعره(٤٠٨) » ، فإنَّ صورَهُ التي زينها بالبديع والبيان لم تكن قبيحة أو مستكرهةً كما سنرى عند شعرائنا المتأخرين .

---

(٤٠٦) ديوانه ص ١٩١ .
(٤٠٧) كلمنا بسحر : أي سحرنا سحراً ، وليس اسمها ، وكذلك يفعل كل ملاق خلوب والخلوب : الخدوع .
(٤٠٨) طبقات الشعراء ص ٢٢٥ .

أبو تمام الطائي

١٨٨ ـ ٢٣١ هـ

اسمه ومولده :

هو ابو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس ، وتمام ابنه ، ولد بقرية « جاسم » على يمين الطريق الممتد بين دمشق وطبرية . وقد اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها ، ولعل سنة ١٨٨ للهجرة أقرب الى الصحة ، لأن اكثرهم يرجحون هذا التاريخ ومنهم ابنة تمام ، فيقول : « ولد ابي سنة ثمانٍ وثمانين ومئة ، ومات سنة احدى وثلاثين ومئتين »(٤٠٩)

نسبه :

انّ الخلاف في نسبه وأصله كبير ايضاً ، فقد ذكر ابو الفرج الاصبهاني ان أبا تمام من نفس طيئ صليبةً ، واسمه حبيب بن أوس ،(٤١٠) وعدّد ابن خلكان جدوده وأوصله الى يعرب بن قحطان ،(٤١١) وقيل : انّ أباه كان رجلاً نصرانياً يدعى تَدوسَ فحرفه ابو تمام الى أوس وانتسب الى طيء ، وذهب مرجليوث وطه حسين الى أنه تيودوس ، وهو اسم يوناني ، وكان هذا نصرانياً يبيع الخمر في دمشق وأن ابنه نشا في حجرة نشأة نصرانية ، ولكنه أسلم وترك دمشق وذهب الى مصر فأقام فيها فترة .(٤١٢) وانكر البهبيتي نصرانية ابيه وقال : « دعك من نصرانية ابيه ، فما كانت الا افتراء خصوم ابي تمام » .(٤١٣)

ان نصرانية أبيه ـ انْ صحّتْ ـ لاتنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيء ، وأنه اختار منها اكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجلوا لها في عصره امجاداً حربيةً ، مما يدل على أنه طائي وعربي أصيل .(٤١٤)

---

(٤٠٩) نزهة الألباء في طبقات الادباء ص ١٠٨ ، وينظر اخبار ابي تمام للصولي ص٢٧٢ ، وتهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ٤ : ١٨ : ٣٦ .

(٤١٠) الاغاني ٦ : ٢٨٢ صليبة : اي ليس من مواليها ولا حلفائها

(٤١١) وفيات الاعيان ٢ : ١١ .

(٤١٢) من حديث الشعر والنثر ص ٩٢ ، وتنظر مادة ابي تمام في دائرة المعارف الاسلامية

(٤١٣) ابو تمام الطائي ص ٦٢ .

(٤١٤) ينظر العصر العباسي الاول للدكتور شوقي ضيف ص ٢٦٩ .

سيرته :

نشأ أبو تمام في دمشق بعد انتقالـه اليها مع أبيه . واشتغل في مطلع حياته عاملاً صغيراً في حانوت للحياكة . وفي اثناء ذلك كان يتردد الى حلقات الدرس ويسمع ما يدور على أفواه العلماء والادباء من علوم اسلامية اصيلة او وافدة مثل الفلسفة اليونانية . وتنقل كثيراً في سبيل التعلّم . وكانت رحلته الاول الى حمص . حيث أفاد من الشاعرين عتبة بن عبدالكريم الطائي . وعبدالسلام بن رَغبان المعروف بديك الجن . وانتفع بما عندهما من معرفة بصنعة الشعر . وبعدها شدّ رحاله الى مصر ونزل المسجد الجامع في الفسطاط ليكسب معاشاً وينهل علماً . وأسعفته قدرته على قرض الشعر الجيد منذ الوهلة الاولى وتسخيره للمدح كما يفعل كثير من الشعراء ، فنظم قصيدة في مدح صاحب الشرطة والخراج عيّاش بن لهيعة الحضرميّ ، منها قوله :(٤١٥)

وما ضيقُ أقطارِ البلادِ أضافني إليكَ ولكن مذهبي فيك مذهبي(٤١٦)
وأنت بمصرٍ غايتي وقرابتي بها وبنو الآباءِ فيها بنو أبي

وفي رواية للصولي ان أبا تمام قال عن هذه القصيدة انها « أول شعر قلته ... ومدحت به عياش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم »(٤١٧) ولا تتّسق هذه الروايه مع عتاب أبي تمام للممدوح فيما بعد ولامع هجائه له . ومع ذلك قد يحصل أن يمدح شاعر شخصاً ثم ينقلب عليه فيهجوه كما فعل مسلم بن الوليد مع يزيد بن مزيد الشيباني(٤١٨)

عاد الى موطنه دمشق سنة ٢١٤ للهجرة بعد مكوثه في مصر اكثر من خمسة أعوام . استوعب فيها علوماً كثيرة . ووقف على كتب جمة . وكان المأمون آنذاك يتجول في الشام بعد رجوعه من حرب الروم والانتصار عليهم ، وقد مدحه ابو تمام بقصيدة طويلة . منها قوله :(٤١٩)

---

(٤١٥) ديوانه ١ : ١٥٤

(٤١٦) يقول : لم يلجئني ضيق البلاد عليّ ، وكساد بضاعتي عند الناس ، ولكن مذهبي الا أسال الا الكريم .

(٤١٧) أخبار أبي تمام ص ١٢١ .

(٤١٨) الاغاني ١٩ : ٢٩ .

(٤١٩) ديوانه ٢ : ١٥٦

يا أيُّها الملكُ الهمامُ وعدلُه ملكٌ عليه في القضاءِ هَمامُ
أوريتَ زندَ عزائمٍ تحت الدُّجى أسرجْنَ فكركَ والبلادُ ظلامُ
فنهضتَ تسحبُ ذيلَ جيشٍ ساقةُ حُسنُ اليقينِ وقادةُ الاقدامُ
حتى نقضتَ الرومَ منكَ بوقعةٍ شنعاءَ ليس لنقضِها إبرامُ

لم يظفر أبو تمام عنده بما كان يحلم به أو يتأمله. وراح ينظم شعرا في رثاء بطل من طيء هو محمد بن حميد الطائي الذي كافح بابك الخرمي كفاحاً مريراً وخانه القدر فسقط في ميدان النضال. وأخذ هذا الشعر يحتلّ مكانةً ممتازةً في الأوساط الادبية ولا سيما قصيدته التي يقول في مطلعها: (٤٢٠)

كذا فليجلّ الخَطْبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عُذرُ

وكان يحبّ التنقّلَ والتطواف وانتجاع الأقاليم والثغور في العالم الاسلامي الذي عدّه وطناً واحداً له. وقد صورَ هذه الحالة أصدق تصوير في ابياته الاولى من قصيدته التي مدح بها محمد بن حسّان الضبي: (٤٢١)

ما اليوم أوّلَ توديعٍ ولا الثاني البينُ أكثرُ من شوقي وأحزاني
خليفةُ الخِضْرِ مَن يَربعْ على وطنٍ في بلدةٍ فظهورُ العيسِ أوطاني
بالشام أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتينِ وبالفسطاط اخواني
وما أظنُّ النّوى ترضَى بما صنعت حتى تُطوّحَ بي أقصى خراسانِ (٤٢٢)

انه على سفرٍ دائم. وترحلٍ قائم. على ظهور الابل. يطوفُ البلادَ وكأنه خليفة الخضر. فأهله في الشام. وهواهُ في بغداد. وهو بالرقمتين. واخوانه بمصر. وقد يطرح به النوى أقصى خراسان.
هكذا حقاً كان أبو تمام. فنراه يرتحل الى الموصل ومنها الى ارمينية. وينال عطاءً وافراً من واليها خالد بن يزيد الشيباني، ثم يقفل راجعاً الى بغداد بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ للهجرة ويجد حُظوةً عند المعتصم وكبار رجال الدولة. منهم محمد بن يوسف الثغري القائد الذي هزّم بابك الخرمي ثم قصد خراسان واستقبله واليها عبدالله بن طاهر استقبالاً حافلاً ومن معه من الكتاب والشعراء. وأنشد أمامه قصيدةً قوية جزلة المعاني. مطلعها: (٤٢٣)

---

(٤٢٠) ديوانه ٤ : ٧٩

(٤٢١) ديوانه ٣ : ٢٠٨

(٤٢٢) وهناك رواية ثانية : حتى تسافر بي . وثالثة : حتى تخاله بي .

(٤٢٣) الاغاني ١٦ : ٣٨٩ . وينظر الديوان ١ : ٢١٦ .

هـــنَّ عوادي يوسـبـفٍ وصواحِـــبُـــهُ   فعَزْماً فقِدْماً أدرَكَ السُّؤْلَ طالِبُهْ

فلما فرغ منها نثر عليه ألف دينار .

وقبل عودته الى العراق ، عرّج على همدان ، واستضافه أبو الوفاء بن سلمة أحد أدباء البلد وسُراتها . وصادف سقوط الثلوج بكثافة في هذا الاقليم ، فأعاقه عن السفر ، وجلس في مكتبة أبي الوفاء وأكبَّ على الكتب التي تحويها هذه المكتبة وصنّف خمسة مجاميع في الشعر منها الحماسة ، والوحشيات . كما يقول أكثر الدارسين .(٤٢٤) واننا لا نتفق مع هذا الرأي ، لان المرء مهما أوتي من قدرة وقوة لا يستطيع ان يقرأ في مدة ثلاثة شهور كل الشعر العربي ويختار منه خمسة كتب ، واننا نذهب الى ماذهب اليه الآمدي بأن أبا تمام « كان مشتهراً بالشعر ، مشغوفاً به ، مشغولاً مدة عمره بتخيره ودراسته »(٤٢٥) وربما كانت مدة اقامته مكملة لعمله السابق الذي خطّطه لنفسه في جميع الشعر في مختارات . وانه استغلّ هذا الانقطاع للتفرغ لهذا العمل بدلاً من نظم الشعر والوقوف به على أبواب الممدوحين . رجع أبو تمام الى اصبهان ومنها الى سُرَّ من رأى ، وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك الخرمي الذي دوّخ الدولة منذ سنة ٢٠١ للهجرة ، ونازله رجال كثيرون ، وأخيراً قبض على الأفشين في اوائل سنة ٢٢٣ للهجرة ، وهو من اكبر قواد المعتصم ، وجاء به مقيداً الى سُر من رأى وفيها صُلِبَ جزاء بغيه وخروجه على الدولة ، وأخذ الشعراء وفي مقدمتهم ابو تمام يباركون للخليفة بهذا النصر يقول من قصيدة بهذا الظفر :(٤٢٦)

فتـوحُ أمـيرِ المؤمـنين تفتّحـتْ   لـهنّ أزاهـيرُ الرُّبـا والخمائـل

وعادتْ نصرٍ لم تزلْ تستعيدُها   عصابةُ حقٍّ في عصابةِ باطلِ

فهذا دواءُ الداءِ من كل عالمٍ   وهذا دواء مـن كـلِّ جاهـــلِ

وحينما أغار تيوفيل إمبراطور بيزنطة على مدينة « زبطْرة) ونكّلَ بأهلها وسبى نساءها ، نهض المعتصم على نداء الهاشمية الأسيرة : وامعتصماه ! وهتف لبيك لبيك . وخرج بنفسه يدوس ديار هذا الامبراطور الى أن وصل الى عمورّية . وكان يحميها تسعون ألفا من الروم ، فحاصرها ، ثم انقضّ عليها وفتحها ، وكسر أنوف المتجبرين المعتدين ، وأخذ للتذكار باباً حديدياً عظيماً من أبواب هذه المدينة

---

(٤٢٤) ينظر بحثنا (نظرة في حماسة أبي تمام) مجلة بين النهرين ، العدد ٢٧ لسنة ١٩٧٩ .

(٤٢٥) الموازنة ص ٥١ .

(٤٢٦) ديوانه ٣ : ٨٦ .

وأحضره الى بغداد وقد رآه ابن الطقطقا فقال : « وهو الآن على أحد أبواب دار الخلافة يسمىٰ باب العامة »(١٢٧) . وسجّل أبو تمام وقائع هذه المعركة في قصيدة تُعَدُّ من عيون الشعر العربي ، مطلعها :(١٢٨)

السّيف أصدق أنباءً من الكُتُبِ في حدّه الحدُّ بينَ الجِدّ واللّعبِ

وأصبحت لأبي تمام مكانة لائقة ومتميزة عند الخليفة المعتصم وابنه أحمد ، وقويت علاقته بالوزراء والكتاب والقواد ولاسيما محمد بن عبدالملك الزيات الوزير الشاعر ، وكاتبه وكاتم سره الحسن بن وهب ، وحظي عند الجميع تقديراً واكراماً ومهاداة . وعندما خرج الأفشين عن طاعة الدولة وظهرت خيانته أمر المعتصم بسجنه ثم اعدامه ، ووقف أبو تمام فأنشد الخليفة قصيدة في غاية السبكِ والحبك مطلعها :(١٢٩)

الحقُّ أبلَجُ والسُّيوف عواري فحذارِ من أُسد العرين حذارِ

وفي سنة ٢٢٧ للهجرة توفي الخليفة المعتصم ورحل الى بارئه وخلَفهُ ابنه الواثق ونظم أبو تمام بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :(١٣٠)

مالِلدموع تروم كلّ مرامِ والجفنُ تاكلُ هجعةٍ ومنامِ !
ياحُفرة المعصوم تربُكِ مُودَعٌ ماء الحياة وقاتل الاعدام
إنَّ الصفائح منكِ قد نُضِدَتْ على مُلْقىً عِظامٍ لو علمتِ عِظامِ !

وفي أوائل سنة ٢٢٩ للهجرة عُين أبو تمام على بريد الموصل وانتهى تطوافه ومرافقته للخليفة وحاشيته ، ولكنه لم يمكث طويلاً اذ فاجأه الموتُ سنة ٢٣١ للهجرة على أرجح الآراء ولم يتجاوز الأربعين الاّ قليلا . ودفن في الموصل خارج الميدان على حافة الخندق(١٣١) . ورثاه محبُّوه أمثال أبي عبادة البحتري ، وعلى بن الجهم ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وأبو الشيص ، وأحمد بن يحيى البلاذري ...

---

(١٢٧) الفخري ص ٢٣٠
(١٢٨) ديوانه ١ : ٤٠
(١٢٩) ديوانه ٢ : ١٩٨ .
(١٣٠) ديوانه ٣ : ٢٣ .
(١٣١) وفيات الأعيان ٢ : ١٧ ، هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٩ .

صفاته :

كان أبو تمام شخصية مرموقة تملأ العين . قال أبو البركات الأنباري : « كان موصوفاً بالظرف ، وحسن الأخلاق ، وكرم النفس[٤٣٢] . ومن أميز صفاته الذكاء الحاد والاحساس بالشي قبل وقوعه . ذكر الصولي أنَّ أبا تمام « إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه . كأنَّه كان على علم بما يقول فأعدَّ جوابه »[٤٣٣] . ويُروى أنه لما أنشد قصيدته في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها :

دِيمةٌ سَمحةُ القيادِ سَكُوبُ مُستغيثٌ بها الثَّرى المكروبُ

سمعها أحد الفلاسفة الجالسين وقال : « إنَّ هذا الفتى يموت شاباً . فقيل له : ومن أين حكمتَ ؟ قال : رأيتُ فيه من الحدَّة والذكاء والفطنة . مع لطافة الحس وجودة الخاطر . ماعلمتُ به أنَّ النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده »[٤٣٤]

وكان أبو تمام حاضر البديهة . سريع الإجابة والاقناع . يتخلَّص من المواقف الحرجة بذكاء ولباقة . من ذلك قصته حينما مدح أحمد بن المعتصم بسينيته المشهورة . وكان الفيلسوف الكندي حاضراً . وانتهى الى قوله :

إقدامُ عمروٍ في سماحة حاتمٍ في حلمِ أحنفَ في ذكاء إياسِ[٤٣٥]

اعترض عليه الكندي وقال : الأميرُ فوقَ مَنْ وصفتَ . فأطرقَ قليلاً ثمَ رفع رأسه وأنشد :

لاتنكروا ضربي له مَنْ دونَهُ مثلاً شروداً في الندى والباسِ
فالله قد ضرب الاقلَّ لنورهِ مثلاً مِن المشكاة والنبراسِ

ثم استمر في انشاده حتى أتم القصيدة ولما أخذتْ من يده لم يجدوا بها البيتين . فعجبوا من سرعة فطنته واهتز الأمير طرباً .[٤٣٦]

---

(٤٣٢) نزهة الالباء في طبقات الأدباء ص ١٠٨ .

(٤٣٣) أخبار أبي تمام ص ٧٢ . وقيل القصيدة في مدح محمد بن الهيثم . ينظر ديوانه ١ : ٢٩٤ .

(٤٣٤) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٠ . شذرات الذهب ٢ : ٧٤ .

(٤٣٥) هو عمرو بن معدي كرب . وحاتم الطائي وإياس بن معاوية كان قاضياً في البصرة والاحنف بن قيس سيد قبيلة تميم .

(٤٣٦) هبة الايام فيما يتعلق بابي تمام ص ٢٥ . وفيات الأعيان ٢ : ١٥ .

ومن صفات أبي تمام حبُّ التجول والمسير بلا ضجر ولا ملل من أجل الوصول الى المكان الذي عقد العزم على الذهاب إليه ، وقد صدق في قوله(٤٣٧) :

مااًبيضَّ وَجْهُ المرء في طلب العُلَى حتى يسوَّدَ وجهُهُ في البيدِ

والى جانب حُبّه للسفر ، كان كريماً سخياً مسرفاً ، يحبُّ أطاليب الحياة غير أنه لم يكن متهتكاً ، بل كان يأتي ملذاته في ستر(٤٣٨)

ثم مزية أخرى لأبي تمام أنه كان كثير النظر في الكتب والحفظ ، قال محمد بن قدامة : « دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ماغرق فيه فما يكاد يرى ، فوقفتُ ساعة لايعلم بمكاني لما هو فيه ، ثم رفع رأسه فنظر اليَّ وسلَّم عليَّ فقلتُ له : يأبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصبرك عليها ! فقال: والله مالي الفٌ غيرها ولا لذةٌ سواها.(٤٣٩) والى جانب هذه القراءة كان يستظهرُ شعراً كثيراً وقد « قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع »(٤٤٠)

شعره :

لانظن دارساً للأدب العربي لايعرف الى أي مدًى سار أبو تمام بالشعر نحو التطور والتجديد ، وكيف حرَّك النقاد ـ قديماً وحديثاً ـ الى دراسة شعره واطلاق الأحكام المتباينة فيه ، فهو شاعر امتاز بالثقافة الواسعة ، والذكاء الحاد ، والحفظ الغزير للشعر العربي الموروث ، قال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول : « مارأيت أحداً قطُّ أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام(٤٤١) » وعدَّهُ محمد بن عبد الملك الزيات « أشعر الناس طرّاً »(٤٤٢) ، وقال الشاعر عمارة بن عقيل حينما قدم الى بغداد وسمعَهُ الناسُ شعراً لأبي تمام وحكَّمه فيه « لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعاني ، واطراد المراد ، واتساق الكلام ، فانَّ صاحبكم هذا أشعر الناس »(٤٤٣) . وقال الزمخشري : « وهو وإن كان مُحدثاً لايُستشهدُ بشعره

---

(٤٣٧) ديوانه ٤/١ ، ٨ ، ٥ .

(٤٣٨) أعيان الشيعة ١٩ ، ١٩ وما بعدها ، وأبو تمام للدكتور عمر فروخ ص ٣٦

(٤٣٩) طبقات الشعراء ص ٢٨٤ .

(٤٤٠) وفيات الأعيان ٢ ، ١٢ .

(٤٤١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ ، ١٤ .

(٤٤٢) الاغاني ١٦ ، ٣٨٤ .

(٤٤٣) الأغاني ١٦ ، ٣٨٥ .

في اللغة . فهو من علماء العربية . فأجعل مايقوله بمنزلة مايرويه »(٤٤٤) . وإنّ أردنا أن نجمع ماقيل في أبي تمام وشعره ومختاراته ابتداءً من الصولي في كتابه « اخبار أبي تمام » ومروراً بمن ترجم له الى وقتنا الحاضر لوجدنا الشيء الكثير المليء بالاطراء والاعجاب والثناء .

تناول أبو تمام معظم موضوعات الشعر المعروفة وبرع فيها إلّا الهجاء فقد قصَّرَ بهما وأكثرَ شعره في فني المديح والرثاء . فهما يُشكّلان أكثر من ثلثي الديوان . وقد اشتهر بها حتى قيل : أبو تمام مدّاحة نوّاحة .

لقد صبَّ جلَّ طاقته الشعرية في اجادة المديح لأنه الموضع الذي يمتحن به الشاعر ثم يُجاز عليه . وما أكثر المواقف التي نجح فيها . وفاز بالجوائز السنية والهدايا الثمينة . وإحدى هذه المواقف أنه حضر مجلس أبي دُلف القاسم بن يحيى العجلي وكان كريما سريا جوادا . وأنشده قصيدته :

على مثلها من أربع ملاعب   أذيلتْ مصونات الدّموع السواكب

فلما بلغ الى قوله :

اذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها   وازادت على ما وطّدت من مناقب
فأنتم بذي قارٍ أمالتْ سُيوفُكمْ   عروشَ الذي استرهنوا قوس حاجب(٤٤٥)
محاسنُ من مجدٍ متى تَقْرِنُوا بها   محاسنَ أقوامٍ تكن كالمعايب

فقال أبو دلف : « يامعشر ربيعة . ما مدحتم بمثل هذا الشعر قطُّ . فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها إليه . فقال أبو دلف : قد قبلها وأعاركم لبسها . وسأنوب عنكم في ثوابه . تمِّم القصيدة يا أبا تمام . فتممها فأمر له بخمسين ألف درهم . وقال : والله ماهي بازاء استحقاقك وقدرك . فاعذرنا . فشكره وقام ليقبل يده . فحلف ألا يفعل »(٤٤٦)

إنّ أبا تمام يعرف كيف ينفذُ الى قلوب الممدوحين ويداعبُها عن طريق مايعجبهم . إضافة الى مقدرته العالية في اختيار ألفاظ رصينة منظومة كاللؤلؤ في سلك ذهبي متين جميل كما لاحظنا في القصيدة السابقة وقد بدأها بمقدمة طللية

---

(٤٤٤) الكشاف ١ : ٢٢٠ .
(٤٤٥) يوم ذي قار : هو أول يوم انتصر فيه العرب على العجم . ولتنظر قصة قوس حاجب بن زرارة في شرح التبريزي على ديوان أبي تمام ١ : ٢٠٨
(٤٤٦) الأغاني ١٦ : ٣٨٩ .

وهذا مانجده بكثرة في قصائده المدحية . وقد يبدأ بوصف صاحبته ومعاناته في هواها ثم يعود الى ذكر ديار ها . وبعدها يخلص الى ممدوحة مثل قصيدته في مدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد . يقول في أبياتها الأولى :(٤٤٧)

أرأيت أيّ سوالفٍ وخدودِ عنَّتْ لنا بينَ اللّوى فزرودِ
أترابُ غافلة اللّيالي ألّفتْ عُقَدَ الهوى في يارق وعقود(٤٤٨)
بيضاءُ يصرعُها الصّبا من نعمةٍ خَوْدٌ كخُوطِ البانةِ الأملود(٤٤٩)
مالي بربع منهمُ معهودِ إلاّ الأسى وعزيمةُ المجلود

ويذكر ناقته وماتعاني من تعب ومشقة ، ثم يصف كيف تحط رحالها في رحاب الممدوح فتجد أمناً وراحة وطمأنينة :

هيهاتَ منها روضةٌ محمودةٌ حتى تُناخَ بأحمدَ المحمود
بمعرَّس العَرَبِ الذي وجدتْ فيهِ أمن المروءة ونجدة المنجود

إنَّ ابا تمام يعنى عنايةً فائقةً بمقدمته المدحية . وكثيراً مايلتفتُ فيها الى نفسه . فيصف همومه وآلامه . وقد يودعها حكماً وتأملاتٍ تدلُّ على نظر عميق وفكر دقيق . وهو عندما ينتقل من هذه المقدمة يُحكم الربط بينها وبين الموضوع الأساس وهو المديح كي لايشعر القاري أو السامع بفجوة أو عثرةٍ . حينما يرفعُ من شأن الممدوح . ويُشهرُ مناقبه ويُظهرُمناسبَه ... وقد يُطيل في استهلاله قبل التخلّص الى المدح . كما نلاحظ ـ مثلاً ـ في قصيدته التي مدح بها الخليفة المعتصم وأولها :(٤٥٠)

رقَّتْ حواشي الدّهرِ فهي تمرمرُ وغداً الثّرَى في حَلْيِهِ يتكسَّرُ

فهو يصف الطبيعة في لوحة جميلة جذّابة في أكثر من عشرين بيتاً . يأتي فيها على مباهج هذه الطبيعةومافيها من مناظر جذّابة . ولاسيما في زمن الربيع الذي تخضرٌ فيه المروج في حُلّةٍ بديعة . وتتفع الزهور بألوانها الزاهية . ثم يربط بين

(٤٤٧) ديوانه ١ : ٣٨٤ .
(٤٤٨) غافلة الليالي : ناعمة البال . ألفت عقد الهوى : جمعت الهوى بما لاح من حسنها اليارق : السوار .
(٤٤٩) الخود : الحسنة الخلق الشابة الناعمة . الخود : الغصن . الأملود : الأملس الناعم .
(٤٥٠) ديوانه ٢ : ١٩١ .
(٤٥١) تمرمر : تموج وتضطرب ليناً ونعمة .

هذه المقدمة الظريفة التي تفتح النفوس وتسرُها مع خُلُقِ الخليفة العظيم الذي عمّ البريَّة بعدله ولطفه وكرمه :

خُلق أطلَّ من الربيع كأنَّهُ   خُلُقُ الامامِ وهَدْيُهُ المتيسِّرُ
في الأرضِ من عدل الإمامِ وجودهِ   ومن النَّباتِ الغضّ سُرْج تَزْهَرُ
تنسى الرِّياضُ ومايَرُوِّضُ فعلُهُ   أبداً على مرِّ الليالي يُذكرُ

واشتهر أبو تمام بالرثاء كاشتهاره في المديح . قال ابن رشيق : « هو من المعدودين في إجادة الرثاء »(٤٥٢) . وقال الآمدي : « هو أشعر الناس في المراثي »(٤٥٣) . لقد كانت مراثية رائعة وكأنها أناشيد حربية ولاسيما ماقاله في القائد محمد بن حُميد الطائي الذي استشهد في ساحة الوغى ولم يكن عجباً أن يطلب أبو دُلف العجلي من أبي تمام أن ينشدهُ قصيدته الرائية (كذا فليجل الخطب ...) في رثاء هذا القائد . ومنها :

وما ماتَ حتى ماتَ مَضْربُ سيفهِ   مِنَ الضَّربِ واعتلَّتْ عليه القنا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فردَّهُ   إليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعرُ
فأثبت في مستنقع الموتِ رِجلَهُ   وقال لها من تحتِ أخمصك الحشرُ
غدا غدوةً والحمد نسجُ ردائه   فلم ينصرفْ إلاَّ وأكفانُه الأجرُ

فقال له : « والله لوددتُ أنَّها فيَّ » فقال : بل أفدي الأمير وأهلي ، وأكونُ المقدم . فقال : إنه لم يمت من رُثِي بهذا الشعر »(٤٥٤)

إنَّه كان يُحسن إظهار التفجُّع والتحسُّر والألم على الفقيد ، وخسارة الأمة فيه ، ويجيد « خلق الجو الحزين المتلائم مع طبيعة الكارثة وظروف المأساة ، ثم يُلقي بثقله وفكره على بحار المعاني فيصيد نفائسها ويصقلها ويُطرِّزها ويُقدِّمها لجمهرة الناس أحسن ما تكون صوغاً وأجمل ماتكون ثوباً » .(٤٥٥) . ومن جميل مراثيه التي أجاد فيها قوله في رثاء القائد جعفر الطائي :(٤٥٦)

---

(٤٥٢) العمدة ٢ : ١٥ .
(٤٥٣) خاص الخاص للثعالبي ص ١٢١ .
(٤٥٤) الأغاني ١٦ : ٣٩ .
(٤٥٥) الشعر والشعراء للدكتور مصطفى الشكعة ص ٦٧٤
(٤٥٦) ديوانه ٤ : ١٢٨ .

رَحِمَ اللهُ جعفراً . فلقد كان   أبياً شهماً وكان رحيماً
مَثَّلَ الموتُ بينَ عينيه والذُّ   لُ . فكلاً رآه خَطباً عظيماً
ثم سارتْ به الحميّة قُدْماً   فأماتَ العِدَى ومات كريماً !

أما الاغراض الاخرى فلم يكن مكثراً فيها . فله شعر رقيق في العتاب ولاسيما في أولئك الذين مدحهم وقد تأخر رِفْدهم . مثل قوله يخاطب أبا دُلف :(٤٥٧)

أبا دُلفٍ لم يبقَ طالبُ حاجةٍ   مِن الناسِ غيري والمحلُّ جديبُ
يسُرك أنْ أبتَ عنك مخيباً   ولم يُرَخْلَقُ مِن جداكَ يخيبُ ؟ !

وأحياناً ينقلبُ هاجياً . وهو فيه أدنى مرتبة من سائر شعره . إذ تبدو لغته الشعرية في هذا اللون باردة لارواة فيها ولاجمال . ويظهر أنه لم يكن يُحسن لغة السباب والشتائم التي درج عليها بعض شعراء العصر العباسي . مثل قوله في هجاء عبدالله بن يزيد الكاتب :(٤٥٨)

ما أنتَ إلا المثلُ السائرُ   يعرفُه الجاهلُ والخابرُ
فاكِهةٌ ضُيِّعَ بستانُها   فانتابها الوارِدُ والصادرُ

وقوله في عيّاش بن لهيعة :(٤٥٩)

سَمُجَتْ بكَ الدُنيا فمالكَ حامدٌ   وسمجتَ بالدُنيا فمالكَ حاسدُ

ولم يُعرفْ أبو تمام بحبيبةٍ معينةٍ غازلها . وعانى فيها شوقاً وصبابةً . ومع ذلك نجد له غزلاً في مطامع القصائد المدحية . أو مقطوعات مستقلّة . مثل قوله الجميل الذي يستهوي المرء سماعه :(٤٦٠)

نَقِّلْ فؤادكَ حيثُ شئت من الهوى   ما الحبُّ إلاّ للحبيب الأولِ
كم منزل في الأرضِ يألفه الفتى   وحنينُه أبداً لأوّلِ منزلِ

كان أبو تمام يحسن اختيار أبياته التي تجري مجرى الأمثال والحكم . سواء كان في أثناء المديح والرثاء أم في الأغراض الأخرى . مثل قوله :(٤٦١)

---

(٤٥٧) ديوانه ٤ : ٤٤٢ .
(٤٥٨) ديوانه ٤ : ٢٥٢ .
(٤٥٩) ديوانه ٤ : ٢٤٧ .
(٤٦٠) ديوانه ٤ : ٢٥٣ .
(٤٦١) ديوانه ١ : ٢٩٧ .

وإذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُويَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يعرفُ طيبُ عَرفِ العُودِ

ومن حكمه التي راقت الجاحظ وأعجبته، وعدها تصلح للرواية والمذاكرة قوله في البيتين الآتيتين اللذين يدعو فيهما الى الارتحال والتنقل، لأن الانسان بحاجة الى تجديد النشاط والحيوية ورؤية عوالم جديدة :(٤٦٢)

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مخلقٌ لديباجيتهِ فاغتربْ تتجددِ
فاني رأيتُ الشمسَ زيدت محبةً الى الناسِ ان ليستْ عليهم بسرمدِ

خصائص شعره :

أبو تمام شاعر مثقف وذكي . استوعب علوم عصره ، وأحاط بها ، واستقصاها ، واستخلص منها زبدتها ووظفها في شعره توظيفاً اختلف الدارسون والنقاد فيه . فمنهم من صار معه ومنهم من صار عليه . وقد لاحظ أبو الفرج الاصبهاني ذلك فقال : « وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط . حتى يفضله على كل سالفٍ وخالفٍ . وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه ، ويطوون محاسنه »(٤٦٣) . ومن أبرز الأمور التي أخذوها عليه في شعره الصنعة البديعية ، والصنعة المعنوية او الاختراع ، والاغراب والتعمد في اختيار الالفاظ المبهمة والصعبة .

لقد عمد كثير من الشعراء الى الاستعانة بالبديع ، ولاسيما الجناس والطباق والمقابلة والتلميح ومراعاة النظير... والاكثار من التشبيهات والاستعارات والكنايات ، وأولهم مسلم بن الوليد ثم تبعه أبو تمام ،(٤٦٤) وفاقه وأربى عليه حتى « صار فيه اولاً واماماً متبوعاً ، وشهر به حتى قيل : هذا مذهب ابي تمام » .(٤٦٥) وقد اشار بنفسه الى هذا المذهب فقال :(٤٦٦)

ان الجيادَ اذا علتها صنعةٌ راقت ذوي الآداب والافهامِ
لتريَن الأبصار فيها فسحة وتأملاً باشارة الاقوامِ

(٤٦٢) ديوانه ٢ : ٢٣ ، البيان والتبيين ٢ : ١٨٧
(٤٦٣) الاغاني ١٦ : ٣٨٣
(٤٦٤) تنظر ، الصورة الفنية في شعر أبي تمام ص ١٤٢ - ١٨٤ .
(٤٦٥) الوساطة ص ١٦ .
(٤٦٦) ديوانه ٣ : ٢٨١ .

ان النقاد تتبعوا شعره ، ونظروا فيه بدقة ، وانكروا عليه اموراً جمة ، والشواهد عليها كثيرة ، تأخذ منها قوله :(٤٦٧)

لاتسقني ماءَ الملامِ فإنَّني صبٌ قد استعذبت ماء بكائي

قالوا : « اذا كان ماء الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستعفياً منه ، مستعذباً له »(٤٦٨) وقد ردهم الآمدي بقوله : « ليس قول ابي تمام ـ لاتسقني ماء الملام ـ بعيبٍ عندي ، لأنه لما أراد ان يقول ـ قد استعذبت ماء بكائي جعل للملام ماءً ليقابل ماءً بماءٍ ، وان لم يكن للملام ماء على الحقيقة ، فان الله جلّ اسمه يقول : (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) ومعلوم ان الثانية ليست بسيئة وانما هي جزاء على السيئة ، وكذلك : (ان تسخروا منّا فانا نسخر منكم) والفعل الثاني ليس بسخرية ، ومثل هذا في الشعر والكلام كثير ومستعمل ، فلما كان في مجرى العادة ان يقول القائل : أغلضتُ لفلانٍ القولَ ، وجرّعته منه كأساً مُرةً ، أو سقيته منه أمرّ من العلقم ، وكان الملام مما يستعمل فيه التجرّع ، جعل له ماءً على الاستعارة ، وهذا كثير موجود »(٤٦٩)

ولم يكتف أبو تمام بالبديع وصور البيان ، بل كان يعمد أيضاً الى الافكار ، ويتعمق فيها ، ويستبط منها الواناً يرتاح لها العقل ، وقد أثنى عليه ابو العلاء المعري في هذا الشيء ، فقال : « كان صاحب طريقة مبتدعةٍ ، ومعانٍ كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامضِ البحار ، ويفضُ عنها المستغلق من المحار » .(٤٧٠) ومن أمثلة هذه الطريقة المبتدعة قوله في مدح الحسن بن رجاء :(٤٧١)

لاتنكري عطلَ الكريم من الغنى فالسيلُ حرب للمكان العالي
وتنظري خَببَ الركابِ ينصُها محيي القريض الى مميت المالِ

وقوله في مدح أبي دُلف العجلي :(٤٧٢)

تكادُ عطاياه يجنُ جنُونُها اذا لم يعوذها بنغمةِ طالبِ
تكاد مغانيه تهشُ عراصُها فتركبُ من شوق الى كل راكبِ

---

(٤٦٧) ديوانه ١ : ٢٢ .
(٤٦٨) سر الفصاحة ص ١٣١ .
(٤٦٩) نفسه ص ١٣٢ .
(٤٧٠) رسال الغفران ص ٤٨٨
(٤٧١) ديوانه ٣ : ٧٧
(٤٧٢) ديوانه ٢ : ٢٠٤

وتتصل بالمزية السابقة مزية أخرى هي التعقيد اللفظي والميل الى الغريب من المعاني ، وقد وصف شعره بقوله :(٤٧٣)

فكأنما هي في السماع جنادل ... وكأنما هي في العيونِ كواكبُ
وغرائبٌ تأتيك الا أنها ... لصنيعكَ الحسنِ الجميلِ أقاربُ

ولمس علي بن عبدالعزيز الجرجاني هذه الصفة في شعره فقال انه « تعسّف ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف اليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجهٍ ، وتوصل اليه بكل سببٍ ، ولم يرض بهاتين الخلتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غثٍ ثقيل ، وأرصد لها الافكار بكلّ سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمعَ لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر ، وكدّ الخاطر ، والحمل على القريحة »(٤٧٤)
فمن اغرابه قوله :(٤٧٥)

وركبٍ يساقون الركاب زجاجةً ... من السير لم تقصد لها كفُّ قاطبِ
فقد أكلوا منها الغوارب بالسُّرى ... فصارت لها أشباحهم كالغواربِ(٤٧٦)

لاغرو ان ظهر مثل هذا التصعيب في شعره ، فانه كان يقتسر المعنى البعيد او الاستعارة التي يتخيلها ، ولا يبالي بما يأتيه من نقد ، فقد سأله ابو العميثل اللغوي : لم تقول مالا يفهم ؟ فأجابه على الفور : ولِمَ لا تفهم ما يقال ؟(٤٧٧) وهذا الامر دفع الناقد العباسي المشهور علي بن عبدالعزيز الجرجاني الى القول : ان ديوانه مشحون بالغموض والتعقيد .(٤٧٨)

ومهما قيل في أبي تمام .(٤٧٩) ، فانه يبقى ذلك الشاعر العربي الكبير الذي يشنِّفُ الاسماع بأقوى الشعر وأجزله . وقد صدق ابن رشيق حين قال : « انما سمي

---

(٤٧٣) ديوانه ١ : ١٧٤ .

(٤٧٤) الوساطة ص ١٩

(٤٧٥) ديوانه ١ : ٢٠١

(٤٧٦) جعل ابو تمام السير خمرا صرفا ، يديرها الركبان بينهم فتورثهم شدة في سيرهم من غير تفكير بمآل ، ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها ، وكان السير الكثير ايضا قد انحلهم هم انفسهم فاصبحت اجسامهم النحيلة كأنها هي سنام الابل .

(٤٧٧) اخبار ابي تمام ص ٧٢ .

(٤٧٨) الوساطة ص ٤٨٩ .

(٤٧٩) تنظر : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ١ : ١٤٤ ــ ٢٤٨ ، ٣٤٩ ــ ٥٥٧ .

الشاعر شاعراً ؟ لانه يشعر بما لايشعر به غيره . فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه ، او استظراف لفظ وابتداعه ، او زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقص مما اطاله سواه من الالفاظ . أو صرف معنى الى وجه عن وجه اخر ، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة . ولم يكن له الا فضل الوزن »(٤٨٠)

---

(٤٨٠) العمدة ١ : ١١٦ .

أبو عبادة البحتري
٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ

هو الوليدُ بن عُبَيدِ الله بن يحيى ، وكُنيتهُ أبو عُبادة ، واشتهر في عالم الأدب بلقبِهِ البحتري ، نسبةً الى بُحتر أحدأجداده(٤٨١) ، ينتهي نسبه الى طيء احدى القبائل القحطانية ، وكانت أمه عربية من بني ناهل احدى القبائل التغلبية ، فهي عربية خالصة النسب أيضاً ، وقد أشاد في شعره بنسبه العربي ، فقال :(٤٨٢)

إنَّ قومِيَ قومُ الشَّريفِ قديماً وحديثاً ، أبوَّةً ، وجُدُودا
ذهبت طيءٌ بسابقةِ المجدِ على العالمينَ ، بأساً وَجُودا

سيرته :

ولد البحتري في مدينةٍ تشتهرُ بالخضرة والمروج تسمى « مَنْبِج » ، تقع في الشمال الشرقي من حلب ، سنة ٢٠٦ للهجرة ، وأمضى فيها طفولته وشبابه ، وأخذ فيها علومه ، ولا سيما مايتصل بالقرآن والحديث واللغة والنحو والفقة ، وكان مولعاً بحفظ الشعر يُنشِدُه في ذهابه وإيابه كما يقول ابن خلكان(٤٨٣)

ظهرت مواهبه الشعرية في وقت مُبكر ، وحينما آنَس من نفسه القدرة على مواجهة رجال الأدب ومحاورتهم شدَّ رحاله واتَّجه صوب حمص ليلتقي بالشاعر الكبير أبي تمام الطائي ليعرض عليه نظمه ويأخذ رأيه فيه ، وبينما هو في طريقه مرَّ بحلب ، وفيها وقعت عينه على فتاة جميلة تدعى « علوة بنت زُرَيْقة الحلبية » ، فَفُتِنَ بشكلها وقوامها الرشيق ، ونظم فيها شعراً في غاية الرقَّة والعذوبة ، وبقيت صورتها عالقةً في ذهنه بعد رحيله عنها .

---

(٤٨١) الأغاني ٢١ : ٣٧ ، معجم الأدباء ٧ : ٢٢٦ .(٤٨٢) ديوانه ١ : ٥٩٢ .
(٤٨٣) وفيات الأعيان ٦ : ٢٢ .

وصل البحتري الى حمص والتقى بأبي تمام ، وأنشده شعره أمام مجموعة من الشعراء الحاضرين آنذاك . فأقبل عليه ، وأكرمه ، وقال له : أنتَ أشعرُ مَنْ أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكا اليه خَلَّةً . فكتب الى أهل معرة النعمان في شأنه . فاستقبلوه بحفاوة ، ولمسوا نباهته ، وشاعريته الجيدة ، ووظفوا له أربعةَ آلاف درهم . كانت أول مالٍ أصابه بالشعر(٤٨٤)

وفي رواية أخرى تقول : إنه التقى بأبي تمام في مجلس أبي سعيد الثغري أمير الجزيرة . قال البحتري : « أول مارأيت أبا تمام أنّي دخلت على أبي سعيد محمد ابن يوسف ، وقد مدحته بقصيدتي :

أأفاقَ صَبٌ من هوىً فأُفِيقا ؟ أو خانَ عهداً أم أطاعَ شفيقاً ؟

فسُرَّ بها أبو سعيد ، وقال : أحسنتَ واللهِ يافتى وأجدتَ ... ودعاني أبو تمام ، وضمَّني اليه ، وعانقني ، وأقبل يُقرِظني ، ولزمته بعد ذلكَ ، وأخذتُ عنه ، واقتديتُ به(٤٨٥) » ويُرجّح الصولي أنّ هذه الرواية ربما كانت قبل ذهابه الى معرة النعمان .

قويت علاقته بأبي تمام ، وسمع منه وصيةً بليغة في صناعة الشعر أفاد منها في مسيرة حياته الأدبية(٤٨٦) . وبقي وفياً مخلصاً له . حتى انهُ سُئِلَ : «انَّ الناس يزعمون أنكَ أشعرُ من أبي تمام . فقال : واللهِ ماينفعني هذا القولُ ، ولا يضرُ أبا تمام ، واللهِ ماأكلتُ الخبزَ الاَّ بِه ، ولَوَ دِدتُ أنَّ الأمرَ كان كما قالوا ، ولكنّي واللهِ تابعٌ له ، آخذٌ منه ، لائذٌ به ، نسيمي عند هوائِه ، وأرضي تنخفضُ عند سمائِه(٤٨٧)

ولما اشتدَّ أزرُه في نظم الشعر ، ولم تتَّسع ديارُه لأدبه ، أقبل الى العراق ، وهي زاهية بجلال الملك ، ناعمة بغضارة العيش ، فاحتضنته ، وجَذبتْ عليه ، وكان قدومه

(٤٨٤) أخبار البحتري ص ٦٦ .

(٤٨٥) الأغاني ٢١ : ٤١ وتنظر الموازنة ص ١٢ ، والديوان ٣ : ١٤٥ .

(٤٨٦) تنظر الوصية في العمدة ٢ : ١١٤ ، زهر الآداب ١ : ١١٠ .

(٤٨٧) الأغاني ٢١ : ٤٠ .

زمن الخليفة الواثق. ولكن شهرته ظهرت في عهد المتوكل، اذ صار لسان هذا الخليفة، يمدحُه، ويُمَجدُه، ويُسجّلُ أعمالَه في قصائد عامرة، ويصاحبُه في رحلته الى دمشق، ويقول له:(٤٨٨)

ياإمامَ الـهدى الذي إحـ ـتاطَ لـلدّيـنِ، واجـتـهدْ
سِرْ بـسَـعْدِ الـسُـعودِ في صُـحـبةِ الواحدِ الـصَـمدْ!
وابـقَ في الـعِزِّ والـعُـلُـ ـوِّ لـنـا آخرَ الأبَدْ!

وحين يقفلُ راجعاً الى بغداد ينظم أيضا قصيدةً. منها:(٤٨٩)

فأُسفِرَ وجهُ الشَّرقِ حتى كأنَّما تـبلَّـجَ فـيـه الـبدرُ بـعد أُفولـهِ
وقد لبستْ بغدادُ أحسنَ زيِّها لإقـبالـهِ، واسـتـشرفَـتْ لـعدولـهِ
لعمري لقد آبَ الخليفةُ جعفرٌ وفي كلِّ نفسٍ حاجةٌ مِن قفولهِ

وتوثَّقتْ صلته بهذا الخليفة، وأصبح نديمه. كما توثقت علاقته بوزيره الفتح بن خاقان الذي عُرف بتكريمِ الشعراء والحدب عليهم. وظلّت هذه العلاقة الحميمة زهاء خمسة عشر عاماً. كانت من أهنأ أيام البحتري وأسعدها. حتى قتل الخليفة ووزيره الفتح على مرأى من بصره في مجلس منادمةٍ في قصره سنة ٢٤٧ للهجرة بمؤامرة خطيرة اشترك فيها ابنه المنتصر(٤٩٠). وهرب البحتري متوجعا متألما يلاحقه شبح الجريمة. ورثى الخليفة المقتول وعرَّض بابنه في قصيدة تتوشَّحُ بثوب الصدق وتدلُّ على وفاءٍ شديد. مطلعها(٤٩١):

محلٌّ على القاطولِ أخلقَ داثِرُهْ وعادَتْ صروفُ الدَّهرِ جيشاً تغاوِرُهْ(٤٩٢)

ومنها:

---

(٤٨٨) ديوانه ٢، ٧٠٨.

(٤٨٩) ديوانه ٢، ١٩٣٤.

(٤٩٠) ينظر البحتري في سامراء ص ٢٦٩ ـ ٢٨٥.

(٤٩١) ديوانه ٢، ١٠٤٧.

(٤٩٢) القاطول، نهير من دجلة كان في موضع سامراء كان عليه القصر الجعفري. أخلق: بلي. الداثر: البالي. صروف الدهر: نوازله. تغاوره: تغاربه.

صريعٌ تقاضاه السُيوفُ حُشاشةً يَجودُ بها . والموتُ حُمْرٌ أظافِرُهْ
أدافعُ عنه باليدينِ . ولم يكنْ ليَثْني الأعادي أعزلُ اللَّيلِ حاسِرُهْ
ولو كانَ سيفي ساعةَ القتلِ في يدي درَى القاتلُ العجلانُ كيف أساوِرُهْ
حرامٌ عليَّ الراحُ بعدكَ . أو أرى دماً بِدمٍ يجري على الأرضِ مائِرُهْ

توجَّه البحتري الى مكة وأدّى فريضة الحج . ومنها سافر الى منبج حيث أهله وذويه . ولكنه لم يستطع البقاء فيها بعد أن رأى النعمة والثراء في بلاط الخلافة . فعاد مسرعاً الى سرَّ مَن رأى وأرضى الخليفة المنتصر بقصيدة أشاد فيها بحلمه ورأفته ـ ولم يدم حكم هذا الخليفة أكثر من ستة أشهر . إذ فاجأه الموت سنة ٢٤٨ للهجرة . وجاءَ بعده المستعين . ولم يبتعد البحتري عن دار الخلافة . فاتصل بهذا الخليفة الجديد وخصَّهُ بعدَه قصائد . وفي سنة ٢٥١ للهجرة اتصل البحتري بالمعتز بعد وفاة المستعين . وحظي بجوائز كثيرة . وتولّى المهتدي الخلافة سنة ٢٥٥ للهجرة ومدحه بقصائد أشاد فيها بزهده وورعه وعدله وشجاعته في محاربة الروم . وبعد سنة خُلِعَ هذا الخليفة ووُلّيَ مكانه المعتمد . وهو آخر الخلفاء الذين اتصل بهم البحتري ومدحهم ونال رِفْدَهم . وهكذا كانت علاقته بالخلفاء . يستقبل خليفة ويُودِّع آخر . وقد أثرى ثراءً كبيراً . وأصبح صاحب أموالٍ وضياع كثيرة . حتى قِيل : « كان مليّاً قد فاض كسبهُ من الشعر . وكان يَركبُ في موكبٍ من عبيده »(٤٩٣) .

وبعد وفاة الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ للهجرة عاد البحتري الى موطنه الأصلي . ومكث فيه الى أن أدركته المنية سنة ٢٨٤ للهجرة تاركاً وراءه ديواناً ضخماً وكتاب « الحماسة » . وآخر بعنوان « معاني الشعر » لم يصل الينا .

شعره :

كان البحتري شاعراً فناناً مجيداً مبدعاً . استطاع بموهبته الفذّة وطبعه المتدفق أن يُقدّمَ شعراً جميلاً شبيهاً « بسلاسل الذهب » كما يقول ابن خلكان(٤٩٤)

---

(٤٩٣) العمدة ٢ : ١٨٥ .

(٤٩٤) وفيات الأعيان ٦ : ٢٢ .

وصل الينا شعر البحتري في ديوان كبير، حَوَى كلَّ أبواب الشعر العربي المعروفة، والمديح هو أكبر باب في هذا الديوان، فانه احترفَ هذا الفن وجعله وسيلةً لتحسين الحال وجمع المال. فله في مديح الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد وأعيان الدولة شعر كثير، وجد في نفوسهم هوىً وقبولاً حسناً. وقد عدّه أبو هلال العسكري من أكبر المدّاحين. وذكر له قصيدةً في مدح الفتح بن خاقان. منها قوله:

أغرُّ لــه مــن جُودهِ وسـماحــهِ ظـهـيرٌ علـيه مايـخـيـبُ وشافـعُ
ولما جرى للمجد والقومِ خلفَهُ تغوَّلَ أقصى جهدِهم وهو وادعُ
وهل يتكافا الناسُ شتّىً خِلالُهُمْ وما تتكافا في اليدين الأصابعُ
اذا ارتدَّ صمتاً فالرؤوسُ نواكسٌ وإنْ قالَ فالأعناقُ صُورٌ خواضعُ
ولا يعلمُ الأعداءُ مِن فَرْطِ عزمهِ متى هو مَصْبُوبٌ عليهم فواقعُ

وعقَّبَ في خاتمة القصيدة بقوله: «لم يبقَ وجهٌ من وجوه المدح في الجود والشجاعةِ وتصوبِ الرأي ومضاءِ العزيمة والدهاء وشدّةِ الفكر الاّ قد اجتمع ذكرهُ في هذه الأبيات. ولا أعرفُ أحداً يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحه الاّ البحتري»(٤٩٥).

وهو في نظر ابن خلكان محسنٌ كلَّ الإحسانِ في المديح. وأورد له أبياتاً من قصيدته الرائية المشهورة في الخليفة المتوكل وهو يخرج لأداء صلاة عيد الفطر، وأوّلها:

(٤٩٥) ديوان المعاني ١: ٥٧. وينظر ديوانه ٢: ١٣٠٢.

أخفي هوى لكَ في الضلوعِ وأُظهِرُ   وأُلامُ مـــن كَـــمَدٍ عـــلـــيـــك وأُعذَرُ

ومنها :

ذكروا بطلعتكَ النبيّ فهلّلوا   لما طلعتَ من الصُّفوفِ وكبَّرُوا

حتى انتهيتَ الى المصلَّى لابساً   نورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهرُ

ومشيتَ مشْيةَ خاشعٍ متواضعٍ   للهِ لا يُزْهَى ولا يَـــتـــكـــبَّرُ

وعلق عليها بقوله : « هذا الشعرُ هو السحرُ الحلالُ على الحقيقة . والسهلُ الممتنعُ . فللهِ درُّه ! ماأسلَىَ قياده . وأعذبَ ألفاظه . وأحسنَ سبكَه . وألطفَ مقاصده : وليس فيه من الحشو شيءٌ . بل جميعه نُخَبٌ »(٤٩٦) . وكما أشاد ابن خلكان بهذه القصيدة . فقد أشاد بها كثيرٌ من الباحثين المعاصرين وعدُّوها من قصائده الفريدة في جودة المبنى وروعة المعنى(٤٩٧)

لقد تميز شعره المدحي بمتانةِ الألفاظ . وجودة الأُسلوب . وحسنِ العرض ورقَّةِ الجرسِ الموسيقي التي تستهوي السامع . ويبدو أنه عمل بوصية أُستاذه أبي تمام حين قال له : « اذا أخذتَ في مديح سيدٍ ذي أيادٍ فأشهِرْ مناقِبَهُ . وأظهِرْ مناسبَتَهُ . وأبِنْ معالمَهُ . وشرِّفْ مقامَه . ونضِّد المعاني . واحذرِ المجهول منها . وإياك أنْ تَشِينَ شِعْرَكَ بالألفاظ الرديئة . ولتكن كأنَّكَ خياطٌ يقطعُ الثيابَ على مقادير الأجساد »(٤٩٨) .

وأجاد البحتري في الغزل . وقدَّم شعراً يسيلُ رقَّةً وعذوبةً في « علوة » . تلك الغادة الحسناء التي تولَّع بها وصبا اليها في مطلع شبابه . ولم يحظَ بها . اذ تزوَّجتْ من رجلٍ آخر . ولكنَّه لم يسلُ عنها . وظلَّ طيفُها يعاوده طوال حياته . وضُرِبَ به المثل بين الأُدباء . فأصبحوا يقولون : أرقّ من طيف البحتري . وقد كانت أغلب شواهد الشريف المرتضى في كتابه « طيف الخيال » من شعره . اذْ ذكره في بضعةٍ وسبعينَ موضعاً(٤٩٩) . ولا عجب في ذلك ؛ فإنَّ ابن رشيق قال : « البحتري

---

(٤٩٦) وفيات الأعيان ٦ : ٢٦ .

(٤٩٧) ينظر : حياة البحتري وفنه ص ١٥٨ . تاريخ الأدب العربي . العصر العباسي الثاني ص ٢٩٠ . البحتري في سامراء ص ١٧١ . الشعراء والشعراء في العصر العباسي ص ٧٠٨ . البحتري بين نقاد عصره ص ١٧٢ .

(٤٩٨) زهر الآداب ١ : ١١٠ .

(٤٩٩) ينظر : طيف الخيال (الفهرس) ص ١٤٨ ــ ١٥٨ .

أرقُّ الناس نسبياً ،وأصلحهم طريقة، لاسيما إنْ ذكرَ الطيف ، فإنّه البابُ الذي شُهِرَ به »(٥٠٠) ومن شعره الشفاف الآسر قوله في فاتنتهِ :(٥٠١)

خيالٌ يعتريني في المنام ... لِسكرَى اللّحظِ ، فاتنةِ القوامِ
لِعَلْوَةَ إنّها شَجَنٌ لنفسي ... وبلبالٌ لقلبي المستهامِ
اذا سَفرَتْ رأيتَ الطّرفَ بحتاً ... ونار الحُسنِ ساطعةَ الضّرامِ
سلامُ اللهِ كلَّ صباحِ يومٍ ... عليكِ ، ومَن يُبلّغُ لي سلامي ؟
لقد غادرتِ في قلبي سقاماً ... بما في مقلتيكِ من السّقامِ
لئن قلَّ التواصلُ أو تمادَى ... بنا الهجرانُ عاماً بعدَ عامِ
فكم مِن نظرةٍ لي مِنْ قريبٍ ... إليكِ ، وزورةٍ لكِ في المنامِ !
أأتّخذُ العراقَ هوى وداراً ... ومَنْ أهواهُ في أرضِ الشّآمِ ؟

والبحتري شاعر وصّاف من الدرجة الأولى ، له مقدرةٌ فائقةٌ على تصوير مظاهرِ الحضارة ، ومباهج العمران ، ونعَمِ الحياة ، والطبيعةِ الخلّابة بريِاضها وأزهارها . وله قدرة فذة في تقديم صور متحركة لموكب الخلافة ، والجيش ، والأسطول الحربي .. وكذلك وصف حياة البادية ومشاقّها وما فيها من حيوان كالناقة والذئب والأسد .. وقد حقّق في كل ذلك تفوقاً كبيراً مايضعهُ ضمن أعظم الوصافين العرب . واليكَ هذه الأرجوزة اللطيفة بوقعها الموسيقي المحبب ولغتها الجميلة السهلة في وصف سحابة ذات رعد وبرق ، ألقت مطرها على الأرض ، فرويت وتفتحت أزهار رياضها ، وامتلأت غدرانها بالمياه(٥٠٢) :

ذاتُ ارتجازٍ بحنينِ الرّعدِ ... مجرورةُ الذّيلِ ، صدوقُ الوعدِ
مسفوحةُ الدّمعِ لغيرِ وَجْدِ ... لها نسيمٌ كنسيمِ الوَرْدِ
ورنّةٌ مثلُ زئيرِ الأُسْدِ ... ولمعُ بَرْقٍ كسيوفِ الهندِ
جاءَتْ بها ريحُ الصَّبَا من نجدِ ... فانتثرتْ مثْلَ انتثارِ العِقدِ
فراحتِ الأرضُ بعيشٍ رَغْدِ ... مِن وَشْيِ أنوارِ الرّبي في برد
كأنّما غُدرانُها في الوَهْدِ ... يلعبنَ من حَبابها بالنَّرْدِ

---

(٥٠٠) العمدة ٢ : ١١٩ .

(٥٠١) ديوانه ٢ : ١٩٣٢ .

(٥٠٢) ديوانه ١ : ٥٦٧ .

وللبحتري شعر جيد في رثاء مَنْ رُزيء به، يفيضُ حزناً وألماً وحسرة. وقد مرَّت بنا قصيدته في رثاء المتوكل التي قال فيها أبو العباس ثعلب: «ماقيلتْ هاشميةٌ أحسن منها. وقد صرَّح فيها تصريح مَنْ أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب»(٥٠٣). ومن مراثيه القوية أيضاً ماقاله في القائد محمد بن يوسف الثغري وولده يوسف بعد مقتلهما. قال أبو الفرج الأصبهاني: «ومراثيه فيهما أجود من مدائحه. ورُوِيَ أنه قيل له في ذلك. فقال: مِن تمام الوفاء أنْ تَفْضُلَ المراثي المدائحَ»(٥٠٤). وله قصيدة رائعة في رثاء الفرسان الأبطال مِن بني حُميد الطائي الذين استشهدوا في ساحة الحرب دفاعاً عن الكرامة والشرف والوطن، منها قوله(٥٠٥):

تدانتْ مناياهمْ بهم، وتباعدتْ ... مضاجعُهمْ عن تُربكَ المتنسَّمِ
فكلٌ له قبرٌ غريبٌ ببلدةٍ ... فمنْ مُنجدٍ نائي الضريح ومُتهمِ
قبورٌ بأطرافِ الثغور كأنَّما ... مواقِعُها منها مواقعُ أنجُمِ
مضوا يَستلذُّونَ المنايا حَفيظةً ... وحِفظاً لذاكَ السُّؤْدُدِ المتقدِّمِ
ولما رأوا بعضَ الحياةِ مذلَّةً ... عليهمْ وعزَّ الموتِ غيرَ مُحَرَّمِ
أبوا أنْ يذوقوا العيشَ والذَّمُ واقعٌ ... عليهِ، وماتوا ميتةً لم تُذَمَّمِ

وكان البحتري موفور الحظ في شعر العتاب، فله فيه صور دقيقة. قال ابن رشيق: «وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيدُ الجماعة أبو عبادة البحتري»(٥٠٦). أما الهجاء فانه كأستاذه أبي تمام لم يكن مُوفَّقاً فيه، أو بالأحرى لم يكن مطبوعاً فيه، وقد نوَّه أبو الفرج الأصبهاني بذلك، فقال: «شاعرٌ فاضل، حسنُ المذهب، نقيُّ الكلام، مطبوعٌ. كان مشايخنا رحمةُ الله عليهم يختمون به الشعراء، وله تصرُّفٌ حسنٌ فاضلٌ نقيٌّ في ضروب الشعر، سِوى الهجاء، فإنَّ بضاعته فيه نزرةٌ، وجَيِّده منه قليل»(٥٠٧)

---

(٥٠٣) زهر الآداب ١: ٢١٦.

(٥٠٤) الأغاني ٢١: ٤٢.

(٥٠٥) ديوانه ٣: ١٩٤٦.

(٥٠٦) العمدة ٢: ١٦٠.

(٥٠٧) الأغاني ٢١: ٣٧.

وله أبيات قليلة في الحكمة استلهمها من صميم تجاربه وتفاعله مع الحياة مثل قوله :(٥٠٨) :

اذا المرءُ لم تبدهكَ بالحزمِ كلِّهِ   قريحتهُ لم تُغنِ عنكَ تجارِبُهْ

وقوله(٥٠٩)

اذا ما الجرحُ رُمَّ على فسادٍ   تبيَّنَ فيه تفريطُ الطبيبِ

خصائص شعره :

ان من أميز خصائص شعر البحتري الوضوح الذي لاتعقيد فيه ولا ابتدال ، الى جانب اللغة الصافية الشفافة التي لاتختنق بجرائر التفلسف والمنطق ، والالتزام بالايقاع الجميل في ظل موسيقى هادئة مريحة ، والتوسط في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية في صياغة رائعة وكأنها كما يقول ابن الأثير : « نساء حسان عليهنّ غلائل مُصبَّغات وقد تحلين بأصنافِ الحلي »(٥١٠) » . وقد أشار البحتري بنفسه الى مذهبه الشعري في الابيات الآتية :(٥١١)

كلفتمونا حدودَ منطقكم   في الشعرِ يُلْغَى عن صِدقِه كذِبُهْ
ولم يكُنْ ذو القُروح يلهجُ بالـ   ـمنطقِ ، مانوعُهُ ، وما سَبَبُهْ(٥١٢)
والشعرُ لمحٌ . تكفي اشارتُهُ   وليس بالهذرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ
لو أن ذاكَ الشريفَ وازنَ بيـ   ـن اللفظِ واختار لم يقل : شَجَبُهْ(٥١٣)
واللفظ حَلْيُ المعنى ، وليس يريـ   ـكَ الصُّفْرَ حسنَ تُريكَهُ ذَهَبُهْ(٥١٤)

---

(٥٠٨) ديوانه ١١ : ٢٢٤ .

(٥٠٩) ديوانه ١ : ١٠٠

(٥١٠) المثل السائر ٩ : ١٧٨

(٥١١) ديوانه ١ : ٢٠٩ .

(٥١٢) ذو القروح : امرؤ القيس .

(٥١٣) يريد بالشريف : عبيدالله بن عبدالله بن طاهر الذي جرت بينه وبين البحتري مناقضة بالشعر تجدها في الديوان .

(٥١٤) الصفر : النحاس الأصفر .

ولا يعني هذا أن البحتري تخلّى عن تراثه القديم ، بل العكس ، فانه جمع في شعره بين مذهب القدامى ومذهب المحدثين . أخذ عن القديم الجزالة والفصاحة والمتانة ، وعن الحديث الرقة والعذوبة والسلاسة . وقد أصاب الآمدي في قوله : « ان شعر الوليد بن عبيد البحتري صحيحُ السَّبْكِ . حَسَنُ الديباجةِ . وليس فيه سَفْسافٌ ولا رديءٌ ولا مطروحٌ . ولهذا صار مُستوياً يشبه بعضه بعضاً ... وما فارق عمودَ الشعر المعروف ، وكان يتجنّب التعقيد ، ومستكره الألفاظ ، ووحشيَّ الكلام »(٥١٥).

لقد نال اعجاب اغلب الدارسين ومحبي الشعر ، وعدّوه أطبع المحدثين والمولدين ؛ لأنه « يرسل نفسه على سجيتها إرسالاً . ويُعبّرُ عن عواطفه كما يُعبّرُ الناس جميعاً حين يحبون أو يبغضون . فليس غريباً أنْ يجد كلُّ انسانٍ من معاصريه مرآةً لهذه العواطف التي يشعر بها في حياته ، وفيما يختلف عليها من ظروف »(٥١٦)

---

(٥١٥) الموازنة ص ١٠ .

(٥١٦) من حديث الشعر والنثر ص ١١٧ .

ابن الرومي
٢٢١ ـ ٢٨٣ هـ

لم يلق هذا الشاعر الكبير، لسوء حظه، باهتمام مؤلفي كتب الادب والسيَر والطبقات من القدامى، اذ لانجد له ترجمةً في طبقات الشعراء لابن المعتز، ولا في كتاب الأغاني لابي الفرج الاصبهاني، ولا في نزهة الالباء في طبقات الادباء لابن الانباري، ولا في معجم الادباء لياقوت الحموي .... ولعل اكثر من انصفه بترجمة موجزة لا تغني كثيراً الخطيب البغدادي وابن خلكان. وقد حظي في العصر الحاضر بأعمال طيبة من رجال فضلاء، وفي مقدمتهم عباس محمود العقاد في دراسةٍ قيمة، والدكتور حسين نصار في تحقيق ديوانه بستة أجزاء.

سيرته :

عليُّ بن العباس بن جُريج أو جورجيس، المكنّى بأبي الحسن، والمعروف بابن الرومي، ولد في بغداد بالجانب الغربي لليلتين خلتا من رجبٍ سنة ٢٢١ للهجرة من أب رومي، وقد أشار الى ذلك في شعره، فقال :(٥١٧)

ونحن بنو اليونان من قومٍ لنا حِجىً ومــجدٌ وعــيدانٌ صلابُ المــعاجــم

وقال في نورية لطيفة وهو يداعب فتاة :(٥١٨)

وروميــةٍ يوماً دعــتــنــي لوصــلــها ولم أكُ من وصلِ الأغاني بمحرومِ
فقالت : فدتك النفس ماالأصلُ ؟ انني أُريدُ وصالاً منك . قلتُ لها : رومي

وليس غريباً ان يكون هذا الشاعر من أصل رومي : فان كثيراً من الاقوام أسلموا وامتزجوا بالعرب، ولاسيما في العصر العباسي. وكانت أمه اعجمية ايضاً تُسمّى حسنة بنت عبدالله السَّجزيّ كما ذكر المرزباني .(٥١٩) وهي امرأة تقيّة صالحة، طيبة المعشر، تطعم الايتامَ وتجود على الجيران بمطاعمها. ومن شعر ابن الرومي فيها بعد مماتها :(٥٢٠)

---

(٥١٧) ديوانه ٦ : ٢٢٧٢

(٥١٨) الكشكول ١ : ١٣٤، ولم يرد البيتان في ديوانه المطبوع.

(٥١٩) معجم الشعراء ص ١٤٥

(٥٢٠) ديوانه ٦ : ٢٣٠٠

أقولُ ، وقد قالوا : أتبكي كفاقدٍ رضاعاً وأينَ الكهلُ : من راضع الحلمْ ؟
هي الأم ، ياللناس جُرِّعت ثُكلها ومن يبكِ أمّاً لم تُذمْ قطُّ ، لا يُذمْ

فقد ابن الرومي والده وهو صغير ، وتعهّدتهُ أمُّه وأخوه الاكبر ويسمى محمداً كان يعمل في دواوين الدولة ، ولم يلبث ان توفي اخوه ولم يبلغ الثلاثين ، وتوالت عليه الشدائد ، فماتت أمه ، ثم تزوجَ وأنجب أطفالاً ، ولكن القدر لم يمهله بهم ، فماتوا جميعاً حتى زوجته ، فحزن عليهم أشدَّ الحزن .

أمّا دراسته وعلمه وثقافته فلم تذكر المصادر شيئاً عنها ، ويبدو أنَّ الكتاتيبَ قد أعطته قسطاً من علوم اللغة العربية وآدابها ، وحينما اصبح يافعاً أخذ يختلف الى حلقات العلماء في المساجد ، ويتابع الكتب ويقرؤها ويستخلص المعارفَ منها ، وقد أشار أبو العلاء المعري الى أنه « كان يتعاطى علمَ الفلسفة ، واستعار من أبي بكر ابن السراج كتاباً »(٥٢١) وهذا الخبر يدل على شغفه بالمطالعة واستنباط العلوم من الكتبِ حتى الفلسفة ، التي ساهمت في خلق الكثير من مميزات شعره التي سنراها فيما بعد

وكان غريبَ الاطوار ، سواديَّ المزاج ، انطوائيَّ النفس ، كثير التطير والظن والقلقِ ، ضعيفَ الأعصاب ، شديد الخوف ، لا يستقرُّ على حالة ، تراه يمدح شخصاً ثم لا يلبث ان يهجوه ، حتى قال عبيدالله بن سليمان بن وهب وهو يوصي ابنه الوزير القاسم : « أرى مايسوءني ولا يسرني ، أرى رجلاً صحيح الشعر ، سقيم العقل ، ومثل هذا لاتؤمنُ بوادرُه ؛ وأقلُّ غضْبَة يغضبها تبقي في اعراضنا مالا يغسله الدهرُ ، والرأي ابعاده »(٥٢٢) . وهكذا جعلته هذه الصفات رجلاً غير محظوظٍ كأقرانه من الشعراء الذين وجدوا قبولاً حسناً عند الخلفاء وأعوان الدولة .

وفي موته رأيان ، الاول : انه مات اثر مرض ، والثاني : ان الوزير القاسم بن عبيدالله دسّ له السمَّ فمات ليتخلص من لسانه ، وهذا ماذهب اليه أكثرُ المؤرخين . . وكانت وفاته لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ٢٨٣ للهجرة ودفن بمقبرة باب

---

(٥٢١) رسالة الغفران ص ٤٧٧
(٥٢٢) جمع الجواهر ص ٢٩٢

البستان في الجانب الشرقي من بغداد ورويت له أشعارٌ قالها في نَزعِهِ ، منها ماروواه ابو حيان التوحيدي عن احد الرواة قوله : دخلنا على ابن الرومي في مرضه الذي قضى منه فأنشدنا :

ولقد سئمتُ مآربي ... فكأنَّ طيبها خبيثُ
الاّ الحديثَ فانّهُ ... مثلُ اسمه أبداً حديثُ(٥٢٣)

شعره :

برزت موهبة ابن الرومي في وقت مبكر . فقد صاغ ابياتاً في هجاء غلام عباسي وهو لايزال في الكتّاب .(٥٢٤) ثم استمر في النظم حتى اصبح له ديوان في حجم كبير . حوى أغلب موضوعات الشعر المعروفة من مديح ، وهجاء ، ورثاء ، ووصف ، وغزل ، وعتاب ، وشكوى ، وحكم ...

عاصر ابن الرومي عدّة خلفاء ، ولكنه لم يمدح منهم احداً مدحاً مباشراً الا الخليفة المعتضد ، ويعزو أحد الباحثين ذلك الى « سوء طالعه في قصور الملوك ، وجبنه عن اقتحام اجوائهم ، واستهانتهم به لضآلة شخصه ، وميوعة اسلوبه ، المتجافي عن القعقعة والجلباب »(٥٢٥) ولا نظنُّ هذا هو السبب الرئيس ، ولعل الواقع السيء الذي كانت عليه الخلافة زمن المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والدسائس الكثيرة في قصورهم نفّرته عن اجوائهم وابعدته عن ابوابهم . والبيتان الآتيان في مدح المعتضد يدلان على الاستبشار بعهد جديد :(٥٢٦)

هنيئاً بني العباس ان امامكمْ ... امام الهدى والباس والجود : أحمدُ
كما بأبي العباس أنشيء ملككمْ ... كذا بأبي العباس أيضاً يُجدَّدُ

ان لابن الرومي ممدوحين كثيرين ، يتجاوزون الاربعين ، من وزراء ، وكتاب ، وحجّاب ، وحكّام ، وقوّاد ، وتجّار ، واصحاب جاهٍ ونفوذ ... ومع هذه الكثرة فانه لم يحظ بنوالٍ كبير منهم ، وربما يتعلّق ذلك بابن الرومي نفسه . فانه لم يكن دقيقاً

---

(٥٢٣) الامتاع والمؤانسة ١ : ٢٧ وينظر الديوان ١ : ٣٩٧ .

(٥٢٤) ينظر ديوانه ٢ : ٦٩٢ .

(٥٢٥) ابن الرومي في الصورة والوجود ص ٢٨٦

(٥٢٦) ديوانه ٢ : ٦٦٠ .

في الدخول الى نفوس الممدوحين وتشخيص مواطن الفضائل والمناقب التي يرتاحون لها وينتعشون لسماعها كما كان يفعل أكثر شعراء عصره . فلو نظرنا مثلاً في قصيدته البائية في مدح احمد بن ثوابة التي تجاوزت مئة وثمانين بيتاً لماوجدنا فيها الآ ابياتاً قليلة في موضوع المدح الخالص مثل قوله :(٥٢٧)

بوجهك أضحى كلُ شيء منوَّراً		وأبرز وجهاً ضاحكاً غير قاطبِ

وله شعر كثير في الهجاء . صبّ فيه حقده وغضبه على كثيرٍ من الناس . وجردّهم من انسانيتهم بأسلوب ساخر لاذع . وألصق بهم عيوباً ونواقص مشينة . وصوّرَ بعضهم تصويراً مضحكاً يكادُ يكونِ منفرداً فيها . وقد عدّهُ العقاد من أشهر هجائي القرن الثالث مع الشاعر دِعبل الخزاعي .(٥٢٨) مثل قوله وهو يفضّلُ الكلبَ على المهجو :(٥٢٩)

والكلبُ وافٍ وفيكَ غدرٌ		ففيكَ عن قدره سفولُ
وقد يحامي عن المواشي		وما تحامي ولا تصولُ
وأنت من أهلِ بيتِ سوء		قصَّتُهم قصةٌ تطولُ
وجوهُهم للورى عِظاتٌ		لكنَّ أقفاءهم طبولُ(٥٣٠)

وأوقف ابن الرومي قسطاً من شعره على المرأة . ووصفها وصفاً بديعاً . وأضفى عليها ألوانِ الطبيعة وظلالها . واحياناً لولا القرينة لما أدركت أنه يصف امرأةً . مثل قوله في بستان المغنية .(٥٣١)

بستانُ : ياحسرتا على زهرٍ		فيكِ من اللهو بل على ثمر
بستانُ : لم يُستعر لكِ اسمكِ يا		بستانَ لذاتنا ولم يُعَر

واسلوبه في الغزل شفاف ورقيق لا يخدش السمع مثل قوله وهو يرد على اولئكَ الذين يلومون العاشقين . لأنَّ لومهم يغريهم بزيادة الحبّ والامعان فيه . كما تُغري الريحُ النارَ بشدَّةِ الاحراق :(٥٣٢) .

---

(٥٢٧) ديوانه ١ : ٢٢٣ .

(٥٢٨) ابن الرومي . حياته من شعره ص ٢٢٢

(٥٢٩) ديوانه ٥ : ٢٠٠٤

(٥٣٠) اي اقفاؤهم تصلح للضرب والصفع عليها كالضرب على الطبول .

(٥٣١) ديوانه ٢ : ٩١٨

لاتُكثرنَ ملامة العشّاقِ   فكفاهم بالوجدِ والأشواقِ
انَّ البلاءَ يطاقُ غيرَ مضاعفٍ   فاذا تضاعفَ كانَ غيرَ مُطاقِ
لاتُطفئنَّ جوىً بلومٍ. انّه   كالريح تُغرى النارَ بالاحراقِ
ما للمحبّ اذا تفاقمَ داؤهُ   غيرُ الحبيبِ يزورُهُ من راقي

وكانت له عبقرية فذّة في وصف المرئيات والمعنويات. بما أتيح له من دقة التصوير وبراعة التشخيص وحسن التعبير. فقد وصف الرياض والازهار والثمار والأطيار والحيوان. كما وصف أنواع الطعام ومجالس المنادمة والمغنيات. ومظاهر العمران. والطبائع والعادات والعاهات. واصحاب المهن والحرف... مثل قوله في وصف الخبّاز ومهارته في صنع الخبز بسرعةٍ فائقةٍ تشبه اللمحة الخاطفة :(٥٣٣)

ما أنسَ لا أنسَ خبّازاً مررتُ به   يدحو الرُقاقةَ وشْكَ اللمح بالبصرِ
مابين رؤيتها في كفه كرةً   وبين رؤيتها قوراءَ كالقمرِ
الّا بمقدار ماتنداحُ دائرةٌ   في صفحةِ الماء يرمى فيه بالحجرِ

واليك هذا المشهد الرائع الذي يُصوّرُ الشمسَ ساعة غروبها وتوديعها للطبيعة :(٥٣٤)

اذا رنّقتْ شمسُ الأصيل ونفّضتْ   على الأفقِ الغربيِّ ورْساً مُذعذعاً(٥٣٥)
وودّعتِ الدنيا لتقضي نحبها   وشوّلَ باقي عمرها فتشعشعا(٥٣٦)
ولاحظتِ النوّارَ وهي مريضةٌ   وقد وضعت خدّاً الى الارض أضرعا
كما لاحظت عوّاده عينُ مُدنفٍ   توجع من أوصابه ما توجّعا

---

(٥٣٢) ديوانه ٤ : ١٦٦٢

(٥٣٣) ديوانه ٣ : ١١١٠

(٥٣٤) ديوانه ٤ : ١٤٧٥

(٥٣٥) رنقت : يقال رنق الطائر اذا وقف صافاً جناحيه لا يمضي. وترنيق الشمس مستعار من ترنيق الطائر وهي ميلها الى المغيب ودنوها من الافق. الورس : نبات أصفر. مذعذع : محرك. لعله يريد به اهتزاز الأشعة في بصر الناظر.

(٥٣٦) النحب : النوم. شول : نقص. قل. وشولت الناقة. جفت البانها. تشعشع : يقال تشعشع الشهر اي بقي منه قليل.

وظلّتْ عيونُ النورِ تخضلُ بالندى كما اغرورقت عين الشَّجيِّ لتدمعا
يراعيــنــها صُوراً الــيــها روانــيا ويلحظنَ ألحاظاً من الشَّجوِ خُشَّعا(٥٣٧)
وبيــن اغضاءُ الـفراقِ عـلـيـهـما كأنَّهما خلا صفاءٍ تودَّعا(٥٣٨)

ماأجمل هذه اللوحة وأروعها . انها رُسمت بريشةٍ دقيقةٍ مظهرةً شمسَ الأصيل وهي مائلةٌ نحو الأفق استعداداً للرحيل تاركةً الأرض الخضراء بزروعها وورودها حزينةً متوجعةً بعد مودةٍ ومحبةٍ ولقاء .

وكان ابن الرومي ينقلب في ساعاتٍ من حياته الى انسانٍ متفجعٍ يتنزّى جُرحاً ويتفجرُ ألماً وحزناً بعد أن يرصد الدهر سهامه له في أسرته واحداً بعد الآخر ، ويُقدِّمُ فيهم شعراً حزيناً . ولاسيما في ابنه الأوسط محمد ، اذ نراه يبكيه بأشجى الحان الابوه المفجوعة في فلذة الكبد ومصيبة الولد . مثل قصيدته الدالية التي لاتقل روعةً من قصيدة ابي ذؤيب الهذلي في عينيته المشهورة التي رثى فيها ابناءه السبعة الذين ماتوا الاّ طفلاً . قال ابن الرومي من قصيدة تتجاوز اربعين بيتاً :(٥٣٩)

بكاؤكما يشفي وان كان لايجدي فجُودا فقد أودى نظيرُكما عندي
بنيّ الذي أهدته كفايَ للثرى فياعزّةَ المُهدى وياحسرةَ المهدي
ألا قاتــل اللهُ المــنـايا ورمــيــهـا من القومِ حباتِ القلوبِ على عمدِ
توخى حمامُ الموتِ أوسطَ صبيتي فلله كيف اختار واسطة العقدِ
على حين شمتُ الخيرَ من لمحاتِهِ وآنستُ من افعاله آية الرُشدِ
طواهُ الرّدى عنّيْ فأضحى مزارُهُ بعيداً على قربٍ قريباً على بعدِ(٥٤٠)
واني . وان مُتعتُ بابني بعده لذاكره ماحنّتِ النيبُ في نجدِ(٥٤١)

---

(٥٣٧) يراعينها : يلاحظها . صوراً : موائل . روانيا : مديمات نظرهن .
(٥٣٨) بين : تبين اغضاء الفراق : دنوه
(٥٣٩) ديوانه ٢ : ٦٢٤
(٥٤٠) يقول : ان ابنه صار بعيداً على الرغم من قرب مكان دفنه . قريب المكان ولكنه بعيد المنال الا بالذكريات
(٥٤١) النيب : جمع ناب وهي الناقة .

واولادنا مـــثـــل الـــجوارحِ ايُـــهـا فقدناه كان الفاجعَ البَيِّنَ الفقدِ
لكلٍ مكانٌ لا يسدُّ اختلاله مكانُ أخيه في جزوعٍ و لا جلدِ(٥٤٢)
هل العينُ بعد السَّمعِ تكفي مكانَهُ إم السمعُ بعد العينِ يهدي كما تهدى ؟

ومن شعره الرثائي المشهور قصيدته الطويلة التي بكى فيها على مدينة البصرة الفيحاء التي ضربها الزنج بقساوة وعنف، وخربوها، وأذلوا أهلها. وعصفوا بمنجزات الحضارة فيها سنة ٢٥٧ للهجرة في خلافة المعتمد. وكانت هذه الحادثة من أسوأ الحوادث التي وقعت على هذه المدينة. وجاءت قصيدة ابن الرومي التي تردَّدت بين الغضب والحزنِ تشرح هذه المأساة الدامية التي أذهلت الناس آنذاك. منها قوله :(٥٤٣)

لهفَ نفسي عليكِ ايتها البصـ ـرةَ لهفاً كمثلِ لهبِ الضرامِ
لهف نفسي عليكِ ياقُبَّة الاسـ ـلامِ لهفاً يطولُ منه غرامي
كم أخٍ قد رأى أخاهُ صريعاً تَرِبَ الخدِّ بين صرعى كرامِ
كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيهِ وهو يـعـلى بـصارمٍ صـمـصـامِ
كم رضيعٍ هناكَ قد فطموه بشبا السَّيف قبل حينِ الفطامِ
كـم فتـاةٍ مـصونةٍ قد سـبوها بارزاً وجـهـهـا بـغـيـر لـثامِ
صـبـحوهـم فـكابدَ الـقومُ مـنـهـم طولَ يومٍ كأنَّـــه ألـــفُ عامِ

ولابن الرومي شعر لطيف في الحنين الى الأوطان . والشكوى والعتاب . والشيب والشباب . والحكمة والمثل . لم يكن متخلفاً فيه ولا مقصراً . بل يبلغ في بعضه مرتبةً لا نظير لها . مثل قوله :(٥٤٤) .

ولـي وطـنٌ آلـيـتُ ألا أبـيـعـه وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
عهدتُ به شرخَ الشبابِ ونعمةً كنعمةِ قومٍ أصبحوا في ظلالكا
فقد ألفتهُ النفس حتى كأنّه لها جسدٌ انْ بانَ غُودرْتُ هالكا
وحـبّـبَ أوطانَ الرجالِ الـيـهـم مآربُ قـضَّاها الـشـبابُ هنالـكا
اذا ذكروا أوطانــهـم ذكّرتـهـم عدود الصبا فيها فحنوا لذلكا

---

(٥٤٢) الجزوع : هو الكثير الجزع . والجلد : هو الصبور على الحوادث .

(٥٤٣) ديوانه ٦ : ٢٣٧٧ .

(٥٤٤) ديوانه ٥ : ١٨٢٥ .

خصائص شعره :

عُرف عن ابن الرومي بكثرة النظم . واطالة النَّفس . حتى يصل في بعض قصائده الى ثلاث مئة بيت تقريباً وقد ضاع جزءٌ من شعره كما يرى المستشرق روفون جست . ويقول في المتبقي منه : « ونستطيع أن نقدره بما لا يقل كثيراً عن ضعف شعر البحتري . وثلاثة أضعاف أو اربعة أضعاف شعر أبي تمام »(٥٤٥)

انّ اميز خصائص شعره التعمق في المعاني . والتحليل . والاستقصاء . واستعمال المنطق . قال المرزباني هو « أشعر أهل زمانه بعد البحتري . وأكثرهم شعراً . وأحسنهم اوصافاً . وابلغهم هجاءً . وأوسعهم افتناناً في سائر اجناس الشعر وضروبه وقوافيه . ويركب من ذلك ماهو صعب متناوله على غيره . ويلزم نفسه مالا يلزمه . ويخلط كلامه بألفاظٍ منطقية يجمل لها المعاني ثم يفصلها بأحسن وصف وأعذب لفظ »(٥٤٦) انه كان يدخل الى اعماق المعاني بفكره الثاقب ويستخرج منها النوادر والدرر . وقد عرف له هذا ابن خلكان فقال : « صاحب النظم العجيب . والتوليد الغريب . يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة » (٥٤٧) .

وكان ابن الرومي صاحب ثروة لغوية كبيرة . يعرف دقائقها وأسرارها . ويحسن اختيار الألفاظ والعبارات منها . أما المحسنات اللفظية فقد استعان بها في تحسين صوره . ولكنه لم يسرف فيها اسراف ابي تمام .

ومع براعته . ودقة معانيه . وبديع صوره وأخيلته لم يسلم من النقد . فطه حسين يقول : « طول وقوف ابن الرومي عند المعاني يضطره الى أن يطيل النظر فيها . فهو يتصرف فيها ويعبثُ بها أكثر مما كان ابو تمام يتصرُّف في معانيه » (٥٤٨) ان كلَّ شاعر مهما كان مقتدراً ومتمكناً من ناحية القريض لا بد ان تقع في شعره هنات يؤاخذ عليها . وقد أدرك ابن الرومي ذلك . وعرف ان النقد سيوجه اليه . ولذلك شبه شعره بالشجر ي يرى فيه اللحاء والخشب والشوك والثمر : (٥٤٩)

---

(٥٤٥) ابن الرومي ، حياته وشعره ص ٨١ .

(٥٤٦) معجم الشعراء ص ١٤٥ .

(٥٤٧) وفيات الاعيان ٣ : ٣٥٨ .

(٥٤٨) من حديث الشعر والنثر ص ١٣٨ .

(٥٤٩) ديوانه ٣ : ١٠٢٩ .

قولا لمن عاب شعرَ مادحه   أما ترى كيف رُكِّب الشجرُ ؟
رُكِّبَ فيه اللُّحاءُ والخشبُ الـ   ـيابس والشوكُ بينه الثمرُ
وكان أولى بأنْ يهذِّبَ ما   يخلقُ ربُّ الأرباب لا البشرُ
فلم يكنْ ذاكَ بل سواه من الـ   أمرِ لشيءٍ جرى به القدرُ
والله أدرى بما يدبرهُ   منا ، وفي كلِّ ماقضى الخِيرُ
فليعذرِ الناسُ مَنْ أساءَ ومن   قصَّرَ في الشعر ، إنَّه بشرُ
مطلبه كالمغاص في درك اللجَّـ   ـة من دون دُرها خطرُ
وليذكروا أنه يكدُّ له الـ   ـعقلُ وتنضى في قرضِه الفِكرُ
وفيه ما يأخذ التخيرُ من   غالٍ ثمينٍ وفيه ما يذرُ
وليس بدٌّ لمن يغوص من الـ   ـجرفِ لما يُصطفى ويحتقرُ

عبدالله بن المعتز

٢٤٧ ـ ٢٩٦ هـ

ظهر في بني العباس مجموعة من الشعراء الجيدين ، كانت لهم منزلة رفيعة في دنيا الأدب ، ويكاد عبدالله بن المعتز المتوفي سنة ٢٩٦ للهجرة ، والراضي بالله المتوفي سنة ٣٢٩ للهجرة(٥٥٠) . من أشهر رجال هذه الأسرة في قرض الشعر والاجادة فيه .

سيرته :

أبو العباس عبدالله بن الخليفة المعتز بالله محمد بن الخليفة المتوكل على الله جعفر ، يصل نسبة إلى علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم ، وقد افتخر بهذا النسب قائلاً :(٥٥١)

أيُّها السائلي عن الحَسَبِ الأطـ ـيبِ ما فوقَـهُ لـخـلـقٍ مزيدُ
نحنُ آلُ الرسولِ والعِترةُ الحـ ـقُّ وأهلُ القُربى فماذا تريدُ
ولـنـا ما أضاءَ صـبـحٌ عـلـيـهِ واتـتْـهُ راياتُ لـيـلٍ سودُ
ومـلـكـنـا رقَّ الإمامةِ مـيـرا ثاً . فمنْ ذاعـنـاً بفخرٍ يحيدُ
وأبونا حامي النبيِّ وقد أد بَرَ مَـنْ تـعـلـمـونَ وهو يذودُ

في مدينة سامراء ، مدينة الخليفة المعتصم ، وعاصمة الخلفاء العباسيين من بعده ، ومركز الاشعاع الحضاري في القرن الثالث للهجرة ، ولد ابن المعتز سنة ٢٤٧ للهجرة بعد مقتل جدّه المتوكل بأربعين يوماً على أرجح الآراء والروايات (٥٥٢) .

فرح الأب بهذا المولود ، وضربَ باسمه الدنانير ، وتولّى تربيته وتنشئته في حجر العز والكرامة ، ودوحة العلم والمعرفة ، ولكن هذا الأمر لم يَدُمْ ، إذ قُتِلَ هذا الأب

---

(٥٥٠) وصل الينا المختار من ديوانه مرتباً حسب الحروف الهجائية (أخبار الراضي بالله والمتقي لله ص ١٥٤ ـ ١٨٢) .

(٥٥١) ديوانه ١ : ٨٠ .

(٥٥٢) تاريخ بغداد ١٠ : ٩٥ ، وفيات الاعيان ٢ : ٧٦ .

غدراً في شعبان سنة ٢٥٥ للهجرة . ولم يتجاوز عمر ابنه ثمانية أعوام وقد سكتت المصادر عن ذكر أمه ، فلم تعطنا شيئاً عنها سوى انها كانت جارية لجدته قبيحة(٥٥٣) .

توجّه ابن المعتز نحو الدرس والتعلّم منذ الصغر ، وكان والده قد اختار له أبا جعفر محمد بن عمران الضبي النحوي الكوفي ليؤدبه .(٥٥٤) وسارت جدته في هذا الإتجاه ، فهيأت له مستلزمات الدراسة ، واختارت له مجموعة من الأساتذة في علوم القرآن والحديث والفقة واللغة والنحو والأدب ... قال ابن النديم : « كان يقصد فصحاء الأعراب ، ويأخذ عنهم ، ولقي العلماء من النحويين والاخباريين »(٥٥٥) . ومن أشهر العلماء والأدباء الذين درس عليهم : أحمد بن سعيد الدمشقي ، وأبو العباس المبرّد إمام البصريين في اللغة والأدب ، وأبو العباس ثعلب إمام الكوفيين في النحو واللغة ، وأحمد بن يحيى البلاذري المؤرخ المشهور . والتقى بكثير من رجال المعرفة ، وجالسهم امثال : قُدامة بن جعفر ، وأبي بكر الصولي ، وابن خلّاد البصري ، وأبي سعيد محمد بن هُبيرة الأسدي ، وأحمد بن أبي فَنَن ...

لم يترك ابن المعتز علماً من علوم عصره إلّا قرأه بنهم وأخذ منه ، حتى الموسيقى ، قال أبو الفرج الأصبهاني : « كان عبدُالله حسنَ العلم بصناعةِ الموسيقى ، والكلام على النغم وعللها »(٥٥٦) . وظهرت ثمرة دراسته في وقت مبكر ، إذ نراه وهو في الثالثة عشرة من عمره بنظم أبياتاً يخاطبُ بها أُستاذه ومؤدبه أحمد بن سعيد الدمشقي ، منها(٥٥٧) :

سَرْبلتني حكمةً قد هذّبت شيمي ... وأججّت غَرْبَ ذهني فهو مشتعلُ
أكونُ إنْ شئتُ قُسّاً في خطابتِهِ ... أو حارثاً وهو في يوم الفخرِ مرتجلُ
وإن أشأ فكزيدٍ في فرائضه ... أو مثل نعمان لمّا ضاقتِ الحِيَلُ
أو الخليلَ عروضياً أخاً فِطَنٍ ... أو الكسائي نحوياً له عِلَلُ
تغلي بداهة ذهني في مراكبها ... كمثل ما عَرِفَتْ آبائي الأوَلُ

---

(٥٥٣) ذيل الأمالي والنوادر ص ٩٩ .

(٥٥٤) معجم الأدباء ٧ ، ٥٢ .

(٥٥٥) الفهرست ص ١٦٨ .

(٥٥٦) الأغاني ١٠ ، ٢٧٦ .

(٥٥٧) ديوانه ٢ ، ٣٤٦ .

هذا الشعر ـ كما قال الدكتور طه حسين(٥٥٨) ـ على خلوّه من الجمال الفني ، أو على خلوّه من الشعر ، كثير على فتى في الثالثة عشرة من عمره ، ولكنه على كل حال يمثل غرور الصبي ، وإعجاب الفتى بنفسه ... يرى انه يكون خطيباً كقس ، وشاعراً كالحارث بن حِلِّزة ، وبارعاً في الميراث كزيد بن ثابت ، وبارعاً في الفقة وحيله كأبي حنيفة ، وماهراً في العروض كالخليل ، وماهراً في النحو كالكسائي . ويشكُ الدكتور سعد شلبي بهذه القدرة على النظم في هذا العمر فيقول : « يغلبُ على ظني انَّ هذه الأبيات مما نحل عليه ، ويرشح ذلك انها أسمى من ان يقولها غلام في الثالثة عشرة ، هذا من حيث هو شعر ، ومن حيث مضمونها أيضاً . فيندر ان يلمّ صبيٌ بهذه المعارف كلها » (٥٥٩).ومهما قيل في هذه الأبيات الشعرية ، فإنَّ أكمام غرسه تفتحتْ في أولِ شبابِهِ وأصبحتْ تُعجب الناظرينَ ، وقد روى له أبو الفرج الأصبهاني شعراً قاله في مجلس عمه أبي عيسى بن المتوكل نال استحسان العارفين بقواعد الشعر وأصوله وهو دون عشرين سنة .(٥٦٠)

توزّعت حياة ابن المعتز بين الدرس والقراءة والتأمل والتأليف وبين اللهو واللعب والمنادمة والغناء والموسيقى ومغازلة الحسان وركوب الخيل والصيد والاستمتاع بجمال الطبيعة بعيداً عن الحياة السياسية والصراع على السلطة .

لقد كان عهد شبابه ناضراً بهياً رخياً ، عبَّر بشعر كثير عن هذا العهد المملوء بالانشراح والانفتاح على عالم اللهو والأنس والطرب . ومع كل هذا الابتعاد عن جو السياسة والسلطة لم يسلم من واقعةٍ وخيمةٍ كان فيها حتفُه ، فإن القواد الذين كانت بأيديهم مقاليد الأمور تآمروا على الخليفة المقتدر وخلعوه ونصبوا مكانه ابن المعتز ، وبايعوه بالخلافة ، واستجاب لهذه المبايعة على شرط « ألاّ يكون في ذلكَ سفكُ دمٍ

---

(٥٥٨) من حديث الشعر والنثر ص ١٥٦ .

(٥٥٩) ابن المعتز العباسي ، صورة لعصره ص ١٠٢ .

(٥٦٠) الأغاني ١٠ ، ٢٨٢ .

ولا حربٍ . فأخبروه أنَّ الأمر يُسَلَّمُ إليه عفواً ، وأنَّ جميع مَنْ وراءهم من الجند والقوَّاد والكتَّاب قد رضوا به . فبايعهم على ذلك »(٥٦١) . والغريب أنَّ القواد أنفسهم اختلفوا فيما بينهم وأعادوا المقتدر إلى السلطة وخلعوا ابن المعتز بعد يوم وليلة من تنصيبه على كرسي الحكم . وقُبض عليه . واودع السجن . وقتل بعد ان عذِّبَ عذاباً شديداً . وكان ذلك يوم الخميس ثاني شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٦ للهجرة وله من العمر تسعة وأربعون عاماً ودفن في خربةٍ بازاء داره .(٥٦٢) وفُجِعَ فيه رجالُ الأدب والقريض ورثوه بشعر حزين . منهم أبو الحسن على بن محمد المعروف بابن بسام في قوله :(٥٦٣)

لله دَرُّك مــن مَــيْـتٍ بـمـضـيـعة ناهيكَ في العلمِ والآداب والحسبِ
مافيه لو . ولا ليتٌ . فتُنَقِّصه وإنَّـــــما أدركَـــــتْـــــهُ حِرْفَةُ الأدبِ

بقي ابن المعتز مذكوراً بعد رحيله بكتبه النفيسة التي تركها وراءه . وقد ضاع بعضها ووصل إلينا بعضها الآخر . منها : كتاب طبقات الشعراء . وكتاب البديع . وكتاب أشعار الملوك . وكتاب الآداب . وكتاب فصول التماثيل في تباشير السرور الى جانب ديوانه الكبير ورسائله .

نبغ ابن المعتز في نظم الشعر . واشتهر فيه . حتى أصبح احد أعلام الأدب في العصر العباسي . قال ابن رشيق : « ليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي نواس . ثم حبيب والبحتري . ويقال : إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد . ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز . فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولَّدين وامريء القيس في القدماء . فإنَّ هؤلاءِ الثلاثة لا يكادُ يجهلهم أحدٌ من الناس »(٥٦٤)

---

(٥٦١) تاريخ الطبري ١٠ : ١٤ .
(٥٦٢) وفيات الأعيان ٣ : ٧٧ .
(٥٦٣) فوات الوفيات ٢ : ٢٤٠ .
(٥٦٤) العمدة ١ : ١٠٠ .

إنَّ هذه الشهرة جاءته من إجادته في الشعر ، بل كل أغراض الشعر ، وبلوغه فيه مرتبة رفيعة حتى عُدَّ « أشعر قريش ؛ لأنه قال في الخمر ، والطرد ، والغزل ، والمديح ، والهجاء ، والمذكر ، والمؤنث ، والمعاتبات ، والزهد ، والأوصاف ، والمراثي ... فأحسن في جميعها »(٥٦٥) .

لم يتخذ ابن المعتز المديح وسيلةً للعيش وسبيلاً لكسب المال ، وإنما نظم فيه وفاءً وإخلاصاً لأصدقائه ومحبيه ، أو مجاملة للخلفاء والوزراء ، أو تطميناً للنفس وابعاداً للشبهات من رجال السلطة الذين أطاحوا برأس جدّه وأبيه . فمن شعره مثلاً قوله في مدح صديقة يحيى بن علي المنجم أحد رجال الأدب آنذاك(٥٦٦) :

إنَّ يحيى ـ لازال يحيا ـ صديقي وخليلي مِن دونِ هذا الأنامِ
زادَ ودّي له صفاءً كما في كـــلِّ يومٍ يزدادُ صـــفو المُدامِ

ومِن مديحه للخليفة المعتضد قوله(٥٦٧) :

دعانـــــي الإمامُ إلى قُربـــــهِ فأهلاً بذاكَ وســـــهلاً بـــــهِ
يُوفِّـــــقـــــهُ اللهُ في رأيـــــهِ ويوحـــي الـصوابَ إلى قـلـبـهِ
وبالــحــقِّ يــنـعــشُ قوماً بــهِ وبالـحــقِّ يـهــلــكُ قوماً بــهِ
ويَســـهرُ والــنـاسُ في غـفـلةٍ لأمرٍ يـــفـــكِّرُ في غـبِّـــهِ
وتـخـضرُ مـن سِـلـمـه أوجـهُ الـ بلادِ وتـــحـــمرُ مـــن حَرْبـــهِ
ولـــم يُرَ قـــطُ شـبـيـــهُ لـــهُ ولا قـــيـــسَ قـــطُ إمامٌ بـــهِ
اذا الدهرُ لاقى لــــــــــه عزمةً وَنى وتراجــعَ عــن خـطـبـهِ
يــقــصُرُ جُــهديَ عــن شــكره ولـــســتُ أقــصُرُ عــن حُـبِّــهِ

إنَّ القاريءَ لهذا الشعر القريب من النثر يلمس أنَّ صاحبه قد دفع نفسه دفعاً إلى نظمه. فلا يجد فيه عمق العبارات وصدقها ، وقوة المعاني وحرارتها كما يجدها مثلاً في مديح ابراهيم بن هرمة للمنصور ، ومسلم بن الوليد للرشيد ، وأبي نواس للأمين ، وأبي تمام للمعتصم ، والبحتري للمتوكل ... ولا يعني هذا ان ابن المعتز كان مقصراً في فن المديح ، بل العكس ، إذ نجد له قصائد جيدة شكلاً ومضموناً مثل رائيته التي مدح بها المعتضد وعرَّج فيها على تهنئته بقصر « الثريا » الذي أبدع الفنانون في بنائه ، قال في أولها :(٥٦٨)

---

(٥٦٥) أشعار أولاد الخلفاء ص ١١٣ .

(٥٦٦) ديوانه ١ : ٥١١ .

(٥٦٧) ديوانه ١ . ٢٩٧ .

(٥٦٨) ديوانه ١ : ٤٣٤ .

سلمتَ أميرَ المؤمنين على الدَهرِ ولا زلتَ فينا باقياً واسعَ العمرِ
حللتَ الثُريا خيرَ دارٍ ومنزلٍ فلا زالَ معموراً وبوركَ مِن قصرِ

وقال في خاتمتها :

فـكـلُّ أناسٍ يـشـهرون أكـفَّـهـم دعاءً له بالعزِّ فيهمْ وبالنصرِ

وهو كثير الفخر بمآثر أسرته وفضائلها . وبنفسه التي جعل منها بطلا مغواراً وفارساً هماماً في الوغى . مع إنه ــ على علمنا ــ لم يشارك في حرب ولم يقاتل في معركة . مثل قوله(٥٦٩) :

هاشـمـيٌ إذا نـسـبـت ومـخـصـو صٌ ببيتٍ مِن هاشمٍ غيرِ عارِ
وليَ الصافناتُ تَردي إلى المو تِ ، ولا تهتدي سبيلَ الفِرارِ
وسـيـوفٍ كأنّـهـا حـيـنَ هُزَّتْ وَرَقٌ هزَّهُ سـقـوطُ الـقـطـارِ
وسهامٍ تُهدي الرَّدى مِن بعيدٍ واقـعـاتٍ مواقـعَ الأبـصـارِ
أنا جيشٌ إذا غدوتُ وحيداً ووحـيدٌ في الـجـحـفـلِ الـجرَّارِ

انشغل ابن المعتز في جانب من حياته بالحسان والحسناوات . وقد استأثرت محبوبته « شرَّة » بجزء كبير من شعره الغزلي الذي بثَّ فيه لوعته وهيامه وصبابته فيها . وهو ــ في الغالب ــ لم ينفرد بشيء جديد في هذا الفن الذي اشتهر به الكثيرون في العصر العباسي . مثل قوله :(٥٧٠)

عـصـيـتُ في شرَّ فـما أنـساها وحُـجـبـتْ عـنّـي فـما أراها
وطويـتُ تـفـي على جواها وغـصّةٌ يذبـحـنـي شـجاها
فذاكَ من حالي وما أسلاها ليست ترى عينُ الهوى سواها

وقوله(٥٧١) :

يقولونَ لي والبعدُ بيني وبينها بانَأت نأت عنكَ شرٌ وانطوى سببُ القربِ
فقلتُ لهم والحبُ يفضحه البُكا لئنْ فارقتْ عيني لقد سكنتْ قلبي

وانشغل أيضاً إلى جانب الغزل بالخمرة وتحدث عنها حديثاً مسهباً . وتوسَّع في وصف مجالسها وندمائها وسقاتها وأباريقها وفعلها في الشاربين ودبيبها في المنتشين .

---

(٥٦٩) ديوانه ١ : ١٠٣

(٥٧٠) ديوانه ١ : ٢٠٧

(٥٧١) ديوانه ١ : ٢١٧

وصرَّح كثيراً بحبه لها وولعه بها ومقارعة كؤوسها مع صحبه وسُمَّاره . مثل قوله وهو يدعو نديمة لقيام الليل على هديها(٥٧٢) :

قد أظلمَ الليلُ ياندیمي فاقدحْ لنا النارَ بالمُدامِ
كأنني والورى رقودٌ أُقبِّلُ الشمسَ في الظلامِ

وانظر كيف يدعو إلى شربها جهراً وعلانية في مجلس أنس وطرب وغناء بلا اكتراثٍ إلى عتاب أو عقاب . حالة كحال الوليد بن يزيد الذي عُرف بمصاحبة الراح والوجوه الملاح(٥٧٣) :

عللاني بصوتِ نايٍ وعودِ واسقياني دَمَ ابنهِ العنقودِ
أشربُ الراحَ وهي تشربُ عقلي وعلى ذاكَ كانَ قتلُ الوليدِ
ربَّ سكرٍ جعلتُ موعدهُ الصُّبـ ـحَ وساقٍ حثثتُهُ بمزيدِ

ولم يقتصر ابن المعتز في الوصف على الخمرة . بل وصفَ كل شيء بديع وجميل وقعت عينه عليه . ولعل الوسط الذي كان يعيش فيه . بما فيه من ثروة وفيرة ووسائل للترفيه كثيرة . أثر في الاقبال على هذا اللون من النظم . وانظر إلى ما يقوله في الأبيات الآتية حينما أقبل الربيع ولبست الأرض وشياً مطرَّزاً بالألوان الزاهية وغنَّت الأطيار بأصواتها الشجية(٥٧٤) :

جدَّ ريحُ الربيع وازدوج الطيـ ـرُ ولاحت بوارقُ الأنواء
وترى الروض لابسأ ثوب وشي نسجتْه للهو أيدي السَّماءِ
فتجلَّى مُصفرُّه باخضرار واحمرارٍ لكثرة الأنداء
فاسقنا ياغلامُ إذ غنَّتِ الطيـ ـرُ وجاء الربيع راحاً بماء

ان غرام ابن المعتز بالطبيعة دفعه أن يصورها تصويراً بارعاً بلا تكلفٍ او افتعال بأشكالها والوانها ويقدمها للقارئ في إطار جذاب بهيج . قال الدكتور طه حسين انه « يصور جمال الرياض والبساتين تصويراً هو آية في الابداع الفني . لا أظن أحداً قد استطاع أن يأتي بمثله في تشبيهاته واختراع المعاني البديعة التي تثيرها هذه الريض »(٥٧٥) . انظر الى هذه الأبيات في وصف النرجس :(٥٧٦)

---

(٥٧٢) ديوانه ٢ : ٢٣٥ .

(٥٧٣) ديوانه ٢ : ١٠١ .

(٥٧٤) ديوانه ٢ : ٤٩٢ .

(٥٧٥) من حديث الشعر والنثر ص ١٦٤ .

(٥٧٦) ديوانه ٢ : ٥٨٨ .

عيونَ إذا عاينتها فكأنّما مدامعها من فوقِ أجفانها دُرُّ
محاجرُها بيضٌ وأحداقها صفرٌ وأجسامُها خضرٌ وأنفاسها عطرُ
لدى روضِ بستانٍ كأنّ نباتَه تقنّع وشياً باكرَهُ القطرُ

ويأخذ الطَّردُ جانباً كبيراً من ديوانه ، فهو وصّاف بارع يصاحبه خيال خصب في تصوير رحلة الصيد والحيوانات والطيور التي تستخدم في القنص ، مثل قوله في وصف كلاب الصيد :(٥٧٧)

ولما غدتْ خيلُنا للطرادِ جعلنا الى الدّيرِ ميعادها
وقاد مُكلّبنا ضُمّراً سلوقيةً طالما قادَها
معلَّمة من بنات الريا ح إذا سألت عَدْوَها زادها
وتُخرجُ أفواهُها ألسناً كفتق الخناجر أغمادها
وأمسكن صيداً ولم تُدمهِ كضمّ الكواعبِ أولادَها

ويمتلك ابنُ المعتز طاقة شعرية متدفقة في مواقف الأسى والبكاء على الموتى أهله وذويه وأصحابه الذين أخلصوا له الودّ ووقفوا الى جانبه في أيام حياته العصيبة . وكثيرا مايبث في هذا اللون من الشعر آلامه ويشير الى العظماء من قومه الذين طواهم الزمن، ويُلمح الى عصره المملوء بالغدر والوقيعة بالاشراف. مثل قوله في رثاء أهله : (٥٧٨)

لله أقوامٌ فقدتُهمُ سكنوا بطون الارض والحُفرا
أين السبيلُ الى لقائهمِ أم مَن يُحدّث عنهم خبَرا
أسدُ الوغى وبدورُ أنديةٍ تهوى العيونُ إليهم النَّظرا
هيهات لا ألقاهمُ أبداً سَقياً لهم ولعصرهم عَصرا
تركوا الزمان مُرقّعاً خَلَقاً والناسَ لاجِنّاً ولابشرا
وكأنّما الأخلاقُ في خَلَقٍ لاعينَ من كرمٍ ولا أثرا
كم مُورقٍ بالبشرِ مبتسمٍ لا أجتني من غُصنه ثمراً

ولم تمنع رفعة منزلته ، وعلو مكانته ، وسمو أسرته من الهجاء والذم والتقريع . وهو في غالب هذا اللون من النظم لاينزلق الى مهاوي الفحش المستكره والسبّ المستقبح مثل قوله في هجاء أحد جلسائه :(٥٧٩)

---

(٥٧٧) ديوانه ٢ : ٤٢٢ .

(٥٧٨) ديوانه ٢ : ٣٦ .

(٥٧٩) ديوانه ١ : ٦٥ .

اقطعْ وصالي فلستَ منّي ودُمْ على جفوتي وهجري
لا أشتهي الخِلَّ عند عيني صديق وفري عدوّ فقري

وقوله في آخر :

أقولُ وقد صدَّ عني امروٌ وما كنت بالصدّ منه جديرُ
كما لم أر النفعَ في وصلِهِ كذلك هجرانه لا يضيرُ

ونجد في ديوان ابن المعتز شعرافي الزهد والوعظ والنصح والحكمة . وهي ـ كما يبدوـ منتزعة من تجاربه وتجارب الاخرين الذين سبقوه وقد صبَّها في قوالب جميلة مستساغة مثل قوله :(٥٨١) :

اصبر على حَسَدِ الحسو دِ فإنَّ صبرك قاتِلُهْ
فالنارُ تأكلُ نفسها ان لم تجدْ ما تأكلُهْ

وقوله :(٥٨٢)

تجاوزْ عن جناية كلِّ دهرٍ وصاحبْ يوم حادثةٍ بصبر
وان نابتك نائبة فشاوِرْ فكم حَمِدَ المشاور غبَّ أمرِ
وقَسِّمْ همَّ نفسك في نفوسٍ ولا تنفردنَ بطولِ فكرِ

خصائص شعره :

كان ابن المعتز يتدفَّقُ شعراً منذ مطلع حياته ينظم في كل شيء يثيره أو يلفت نظره ومن هنا كثر هذا الشعر في كل الأغراض . وقد سلك فيه مسلكاً سهلاً ميسوراً لاوعورة فيه ولاتعقيد . ارتفع في بعضه الى مستوى رفيع يضاهي المستوى الذي بلغه كبار شعراء الامة العربية قال الدكتور طه حسين : « هو مطبوع ليس متكلفاً ولا متعملاً في شعره، وهو يؤثرالسهل على القريب. وهوحريص مااستطاع على جزالة اللفظ . وهو يُعنى بهذه المعاني المترفة . التي تلائم حياته وبيئته . وهو شغوف بفن خاص من فنون الشعر . يظهر أنه قد تفوَّق فيه على الشعراء . وهو فن الوصف والوصف المادي بنوع خاص ووصف الأشياء المادية الجميلة التي تلائم هواه . وهو من أكثر الشعراء تشبيهاً . ومن أبرعهم في هذا التشبيه ... يبحث عن طرائف الاشياء . ووجوه تشبيهه قريبة . يفهمها كلُّ انسان في سهولة ويسر . وفي غير مشقة ولا عناء » (٥٨٣) مثل قوله في الهلال والنجوم :(٥٨٤)

(٥٨٠) ديوانه ١ : ٦٥٨ .
(٥٨١) ديوانه ٢ : ١٩٤ .
(٥٨٢) ديوانه ٢ : ١٦٨ .
(٥٨٣) من حديث الشعر والنثر ص ١٥٨ .
(٥٨٤) ديوانه ٢ : ٦٠٥ .

انـــظر الى حـــــــسن هلال بدا   يـهـتـك مـن أنواره الحندســا
كـمـنـجـل قد صـيـغ مـن فـضة   يحصد من زهر الدّجى نرجسا

ومثل قوله :(٥٨٥)

لـــي بكـاءٌ وللسحاب بكـاءٌ   فدموعـــــــــــي هوى وذاك هواءُ
نحن في الحالتين شتّى وفيما   قد بدا لـــلـــمـــيون مـــنّا سواءُ
ياجفون السحاب دمعك يفنى   عـن قلـيل وما لدمعي فناءُ
أنا أبكـي طوعاً وتبكين كرهاً   ودموعـــي دمٌ ودمـــعكِ مـــاءُ
بك يحيا العبادُ من بلل القطـ   ـر ويـحـيـا بـمـقـلـتـيّ الثراءُ

لقد كان ابن المعتز بارعاً في رسم الصورة الشعرية ووضعها في اطار جذاب حتى عدّه الدكتور مصطفى الشكعة : « فنان الشعر العربي . وأستاذ الشعراء العرب في مجال التشبيه الرائق والصورة الأنيقة النابعة من طبيعة الفن الكامنة فيه . وملكة الشعر والموسيقى التي خلقت معه ورافقناه منذ أن كان فتىً صغيرَ السنِ غضَّ الإهاب »(٥٨٦) واستعان الى جانب صور البيان . بالبديع في ابراز معانيه وتجميلها ، ولكنه لم يكن مغالياً فيه كأبي تمام وأتباعه . وانما تداوله تناولاً محبباً مقبولاً وقد شهد له ابن رشيق في ذلك فقال : « وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من عبدالله بن المعتز . فإنّ صنعته خفيفة لطيفة لاتكاد تظهر في بعض المواضيع الاّ للبصير بدقائق الشعر . وهو عندي ألطف أصحابه شعراً . وأكثرهم بديعاً وافتناناً وأقربهم قوافي وأوزاناً ولا أرى وراءه غاية لطالبها في هذا الباب »(٥٨٧) .

ومن ينعم النظر في شعره يجده موزوناً على البحور المعروفة جميعها ، طويلها وقصيرها . تامّها ومجزوئها الى جانب قوافيه فإنها ـ على تنوعها ـ لطيفة الوقع على السمع .

وجملة القول : إن ابن المعتز أديب كبير موهوب امتلك طاقة شعرية كبيرة في التعبير عن المشاعر والأحاسيس بلغة واضحة وجميلة تجاوبت مع نفوس القراء قديماً وحديثاً .

---

(٥٨٥) ديوانه ٢ : ٤٩٢ .
(٥٨٦) الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٧٨٩ .
(٥٨٧) العمدة ١ : ١٣٠ .

النثر

المقدمة :

زاد الاهتمام بالنثر منذ انبثاق نور الاسلام وقيام الدولة الجديدة زمن الرسول محمد صلى عليه وسلم . وأخذ ينمو ويتطور ويزداد اتساعاً في عهد الخلفاء الراشدين ثم في دولة بني أمية . ولا سيما بعد الفتوحات الكبيرة وتوسّع رقعة الحكم الاسلامي شرقاً وغرباً . وزيادة مصالح مركز الخلافة . وحاجة الخلفاء الى الاتصال بالولاة والعمال والقواد .

وبدأ كثير من الكتّاب بتجويد الكتابة واتقانها واظهارها باسلوب جزل متين، وقد كانت في أول أمرها تميلُ الى الايجاز الشديد . واختصار المعاني بأقل العبارات وأقصرها . والتمسك بالأمانة والصدق والصراحة التي درج عليها العرب وأوصى بها الدين الحنيف .

وحينما تقدم العهد بالدولة الأموية . ومضى الجيل الأول . مالت الكتابة الى التنويع والإطناب والتوسع في المعاني والتأنق في صياغة الجمل والعبارات . حتى أصبح لها أصول محددة وقواعد مقننة . وقد ظهرت ثمرتها جليةً واضحةً عند عبدالحميد بن يحيى (ت ١٣٢ هـ) كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في دمشق . وقد أجمع النقاد والمؤرخون على أنه واضع أُسس الكتابة الفنية الأول في النثر العربي . قال ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون . ولطريقته لزموا . وهو الذي سَهَّلَ سبيل البلاغة في الترسل »(٥٨٨) . وقال المسعودي : « صاحب الرسائل والبلاغات .وهو أول من أطال الرسائل . واستعمل التحميدات في فصول الكتب . فاستعمل الناس ذلك بعده »(٥٨٩) .

كان عبدالحميد يُعنَى في كتاباته بتنسيق العبارات وتوازنها . وأخذ الجمل بعضها برقاب بعض . والتبسط والاطناب . واستخدام السجع والازدواج من غير تكلف . وقد تجلّت طريقته في رسالته الدقيقة المحكمة التي وجهها الى الكتاب ليتخذوها دليلاً لهم في عملهم الكتابي(٥٩٠) . ومن جميل ماوصل الينا من نثره أيضاً رسالة الى عبدالله

---

(٥٨٨) الفهرست ص ١٧٠ .

(٥٨٩) مروج الذهب ٢ : ٢٤٨ .

(٥٩٠) تنظر الرسالة كاملة في صبح الأعشى: ٨٥ ـ ٨٩

ابن مروان على لسان أبيه الخليفة مروان بن محمد وكان قد أرسله لمحاربة الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي ، وهي طويلة تقع في تسع وثلاثين صفحة(٥٩١) . وله رسالة قصيرة بعث بها الى أهله وذويه وهو منهزم مع مروان بن محمد من بطش العباسيين ، منها قوله : « كتبتُ اليكم والأيامُ تزيدُنا منكم بُعداً ، واليكم صبابةً ووجداً فإنْ تتمّ البليةُ الى أقصى مُدَّتها ، يكُن آخرُ العهدِ بكم وبنا ، وإنْ يلحقْنا ظُفُر جارحٌ من أظفارِ مَنْ يليكم نرجعُ اليكم بذلّ الاسار والصغار ، والذلُّ شرُّ دارٍ، والأمْ جارٍ ، يائسين من روح الطمع وفسحة الرجاء نسألُ الله الذي يُعزُّ مَنْ يشاء ، ويُذلُّ مَنْ يشاء أن يَهبَ لنا ولكم أُلفةً جامعةً في دارٍ آمنةٍ ، تجمعُ سلامةَ الأديان والأبدان ، فانه ربُّ العالمين وأرحم الراحمين »(٥٩٢)

ولما قامت الدولة العباسية عَظُمَ شأن الكتابة وزاد الإقبال عليها بعد أن انفتح أمامها مجالات واسعة ، وأصبح للكتّاب مقام محمود لدى الخلفاء والوزراء والولاة ، وكان للموهوبين منهم دور بارز في تسيير شؤون الدولة السياسية والادارية والمالية .

كان الكتّابُ في العصر العباسي مثقفين ثقافة عالية ومزودين بصنوف المعرفة ، تراهم يحفظون القرآن الكريم وشيئاً كبيراً من الحديث النبوي وكلام البلغاء وخطب الصحابة والخلفاء ووصاياهم وقصائد كبار الشعراء اضافة الى تزودهم بثروة لغوية ووقوفهم على علوم الأمم الأخرى مباشرة أو بعد ترجمتها الى اللغة العربية .

لقد توسّعت الآفاق أمام الكتابة بعد أن احتضنت الدولة العباسية الأمة الاسلامية وتولّت رعايتهم وحمايتهم والنظر في شؤونهم السياسية والثقافية والعمرانية .. فنجد هناك كتابات في التفاويض ، والتقاليد ، والمبايعات ، والعهود ، والعقود ، والتهاني والتعازي الى جانب التواقيع ، والخطب ، والرسائل ، والمنشورات ، والوصايا . وهناك أيضاً كتابات اخوانية كالشفاعة ، والعتاب ، والشكوى ، والاعتذار ، واستنجاز الحاجات .. وكتابات في أغراض تأديبية بأسلوب القصص أو السّير على ألسنة الحيوان .

وقد سلك الكتّاب آنذاك أُسلوبين في كتاباتهم ، الأول الأسلوب السهل المرسل العذب مع القصد في الألفاظ بقدر مايتطلبه المعنى من الوضوح والجلاء ، ورائد هذا الأسلوب ابن المقفع ، وهاهو ذا يوصى أحد الكتّاب بقوله : « اياكَ والتتبع لحوشي

---

(٥٩١) صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ - ٢٣٣ .

(٥٩٢) الوزراء والكتاب ص ٤٦ .

الكلام طمعاً في نيل البلاغة ، فإنَّ ذلكَ هو العيُ الأكبر » وقوله لآخر : « عليكَ بما سَهُلَ من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السِّفْلة » ؛ وسار على هذا الدرب الكثيرون منهم عمرو بن مَسْعدة ، وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف ...

أما الأسلوب الثاني فهو أُسلوب التأنق واستيفاء المعنى باستقصاء أجزائه ، وتقطيع الكلامِ الى فقر مرسلة ومسجعة ، والاستطراد الى الأخبار والنوادر والتراجم والاكثار من الشواهد الشعرية ومأثور الكلام كما نرى ذلك في أسلوب الجاحظ الذي سنتناوله بالشرح والتوضيح في ترجمته .

الفنون النثرية :

الرسائل :

تطورت الفنون النثرية في العصر العباسي تطوراً ملحوظاً ، وقطعت شوطاً بعيداً في مضمار الرقي والتقدُم بعد الانفتاح الكبير على أمم أُخرى وتمازج الثقافات ، وكما هو معروف فإنَّ الإنشاءِ رهين برقي الحياة وتطورها ، وكانت الرسائل بأشكالها المختلفة في مقدمة هذه الفنون ازدهاراً واتساعاً ؛ لأنها مرتبطة أشد الارتباط بحياة الناس جميعاً ولا سيما العاملين في مرافق الدولة والقائمين بشؤون السلطة . يقول الدكتور طه حسين : « ليس غريباً اذن أنْ تتغير طبيعة النثر في آخر القرن الثاني وطول القرن الثالث ، وأن تكثر موضوعاته ، وأن يزاحم الشعرَ حتى يسبقه ، فقد كان النثر لايكاد يتجاوز النثر السياسي والتاريخ ... أما في القرن الثاني وطوال القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها ... وهذا طبيعي مفهوم لأنَّ النثر أيسر وأبسط ، وهو أقدر وأوسع للمعاني . فيستطيع الكاتب اذا عرض لفنٍ أو لمسألةٍ أن يتناولها من جميع وجوهها دون أن يحول بينه وبين الاتجاه فيما يريدُ وَزْنٌ أو قافيةٌ ، أو شرط من هذه الشروط التي كانت تُقيد الشعراء ، ونجد هذا واضحاً عندما نقرأ الرسائل الكثيرة التي صدرت عن كُتاب القرن الثالث »(٥٩٤)

ويمكن تقسيم الرسائل آنذاك الى نوعين ، الأول : الرسائل الديوانية أو مايسمّى بالمكاتبات الرسمية ، وغالباً تكتب عن الخلفاء والوزراء والولاة والقواد بأقلام المتخصصين بصنعة الكتابة ، وهم كما قال الجاحظ : « لايقفون الاّ على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة ، والديباجة

---

(٥٩٣) النضان في أمالي المرتضى ١ : ١٣٧ .
(٥٩٤) من حديث الشعر والنثر ص ٥٥ .

الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد ، وعلى كلّ كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور عمّرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للّسان بابَ البلاغة ، ودلّت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت الى حسان المعاني(٥٩٥) »

وكانت الرسائل اما طويلة تميل الى الشرح والتفصيل ، مثل رسالة الخليفة المعتصم الى ملوك المسلمين بعدما قبض على بابك الخرمي وقضى على ثورته التي دامت عشرين عاماً(٥٩٦) أو قصيرة موجْزة نستطيع أن نطلق عليها عبارة « ماقلّ ودلّ » مثل الرسالة التي كتبها يوسف بن صُبيح عن عبدالله بن علي الى ابن أخيه السفاح يُعزيه عن ابنٍ له : « أما بعد ، فإنّ أحقَّ الناس بالرضا والتسليم لأمرِ الله جلّ وعزَّ مَنْ كان إماماً لخلقِ الله وخليفةً لرسول الله صلى الله عليه وسلّم فتعزّ أميرَ المؤمنين بفهمكَ ،وارجعْ في وعدِ الله جلّ وعزّ من الصابرين الى علمك(٥٩٧) » . ومن الرسائل الموجزة جداً ماكتبه طاهر بن الحسين الى الخليفة المأمون بعد مقتل علي ابن عيسى بن ماهان : « كتابي الى أمير المؤمنين ، ورأسُ علي بن عيسى بن ماهان بين يديّ ، وخاتمه في يدي ، وعسكره مُصرفٌ تحت أمري ، والسلام(٥٩٨) »

والنوع الثاني من الرسائل التي شاعت في العصر العباسي ، الإخوانيةُ التي يتبادلها الأصدقاء فيما بينهم في مناسبات شتى ، وكانوا يتأنقون في صياغتها ويُعنون بديباجاتها ، ويضمنونها بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين والأشعار والأمثال والحكم ... وقد اشتهر الكثيرون بها أمثال ابن المقفّع ، ومحمد بن زياد الحارثي ، وكلثوم بن عمرو العتابي الذي قال عنه ابن قتيبة : « كان شاعراً محسناً ، وكاتباً في الرسائل مجيداً ، ولم يجتمع هذان لغيره(٥٩٩) » . فمن رسائله اللطيفة ما كتبه الى أحد أصدقائه يسأله مواصلة مودتهِ بعد جفوة وقطيعة : « لو اعتصم شوقي اليك بمثل سلوّك عنّي لم أبذلْ وَجْه الرغبة إليكَ ، ولم أتجشّم مرارةَ تماديكَ ، ولكن استخفتنا صبابتنا ، واحتملنا قسوتكَ ، لعظيم قَدْرِ مودتكَ ، وأنت أحقُّ من اقتصَّ لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من إبطائه(٦٠٠) » .

---

(٥٩٥) البيان والتبيين ٤ : ٢٤ .

(٥٩٦) ينظر صبح الأعشى ٦ : ٤٠٠ ـ ٤٠٤ .

(٥٩٧) جمهرة رسائل العرب ٣ : ٩

(٥٩٨) المثل السائر ٢ : ٣٢٨ ، وينظر الوزراء والكتاب ص ٢٤٠ .

(٥٩٩) الشعر والشعراء ٢ : ٧٤٠ .

(٦٠٠) زهر الآداب ٢ : ٩٨٦ .

ودبّجَ بعض الكتاب رسائل طريفة ومفيدة شبيهة بما يعرف الآن بالخواطر الأدبية . تناولت موضوعات كثيرة تتعلّق بالأخلاق والتهذيب والتوجيه والنصح والارشاد وشؤون الحياة المختلفة . مثل رسالة غسّان بن عبدالحميد في الأخوّة والوفاء وحفظِ العهد : « أمّا بعدُ . فإنَّ الله جعل العبادَ أطواراً في أخلاقهم . كما جعلهم أطواراً في صورهم . وجعل بينهم أموراً يتآلفون عليها ويُعْملون أحلامهم فيها : منْ حُرَمٍ يتجاملون بها . وحقوقٍ يتنازعونها . ومودّة يتعاطونها : وأخوّة يتداولونها . ترعَى بوفاء . وتؤدَّى بأمانة . وتضيعُ بتقصير . وتُنتقص بخيانة . ليسَ منْ أُدِّيَتْ اليه فيما يحفظ منها بأسعد من المؤدِّى لها فيما يأخذ به من الفضل لنفسه . وليس من ضُيِّعَتْ منه بأشقى ممن ضيَّعها فيما يُدخلُ من تقصير عليه . فإنَّ من أخطأه الوفاء من أخيه فانما يدخل عليه تقصير غيره ومن ضيّع الوفاء لإخوانه فقد أدخل النقصَ في خاصّة نفسه . والمرءُ يجدُ مِن أخيهِ اذا خانه بدلاً . ولا يجد عن نفسه اذا قصَّرتْ به متحوَّلاً . وليس نقصٌ يستبدل به كنقصٍ لا يستطيع مُزايلته(٦٠١) »

الخطابة :

أشتهر العرب منذ عصر ما قبل الاسلام بالخطابة . وعرفوا بفصاحة اللسان . وقوة البيان . وبراعة التعبير . وشدّة التأثير . وازدادت الخطابة ازدهاراً في عصر الرسول والخلفاء الراشدين . وبلغت القمة في عصر بني أمية لتوفر دواعيها الدينية والاجتماعية والسياسية . وظلت رائجةً في العصر العباسي الأول . وبقيت المنابر قائمةً تدوّي بأصواتها الهادرة . تدعو الناس للدولة الجديدة . وتلمُّهم حولها . وتجمعُ قلوبهم في حُبّها . وتندّدُ بالدولة السابقة وتزري برجالها . وقد اشتهر الخليفة الأول أبو العباس السفاح بالقدرة الفائقة على اثارة الناس والهاب مشاعرهم في خطبه . من ذلك قوله حين بويع بالخلافة : « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه . وكرّمه وشرّفه وعظمه . واختاره لنا . وأيّدهُ بنا . وجعلنا أهله وكهفه . وحصنه والقوّام به والذابين عنه . والناصرين له : وخصّنا برحم رسول الله صلى الله عليه وآله . وأنبتنا من شجرته . واشتقّنا من نبعته . وأنزل بذلك كتاباً يتلى . فقال سبحانه : (قل لا أسألكم عليه أجراً الاّ المؤدة في القربى) .(٦٠٢) فلما قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله . قام بالأمر أصحابه (وأمرُهم شورى بينهم)(٦٠٣) فعدلوا وخرجوا

(٦٠١) جمهرة رسائل العرب ٣ : ١١٣ .

(٦٠٢) سورة الشورى ، الآية ٢٣ .

(٦٠٣) سورة الشورى ، الآية ٣٨ .

خمصاناً .(٦٠٤) ثم وثب بنو حَرْب وبنو مروان فابتزُّوها ، واستأثروا بها ، وظلموا اهلها ، فأملى الله لهم حيناً ، فلما أسفوه(٦٠٥) انتقم منهم بايدينا وردّ علينا حقنا ، فأنا السّفاح المبيح والثائر المبير »(٦٠٦) .

وبرز عدد من ولاة الدولة العباسية وقوادها بالخطابة . وقد وصلت الينا مجموعة كبيرة من خطبهم ، منهم داود بن علي والي مكة والمدينة لأبي العباس السفاح . قال الجاحظ : « كان أنطق الناس واجودهم ارتجالاً ، واقتضاباً للقول ،ويقال انه لم يتقدم في تحبير خطبةٍ قطُ »(٦٠٧) .

وظلت الخطابة السياسية نشطةً قرابة قرن من الزمن في البيت العباسي ، فكان فيه خطباء بارزون من الخلفاء أمثال المنصور والمهدي والرشيد والمأمون ، وكلها تؤكد أحقية العباسيين بالحكم وصلتهم بآل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعد ذلك ضعفت ، ولم نعد نجد خليفة يملأ السمع بخطبةٍ ، ولاسيما بعد ذهاب هيبة الخلافة وسيطرة الأعاجم على مقاليد السلطة ، وتصريف شؤون الدولة بأنفسهم .

ونجد الى جانب الخطب السياسية خطباً دينية وجهادية وحفلية ، وكانت الخطب الدينية تفيض بالوعظ والنصح والارشاد ، وتلقى في الغالب أيام الجمع والأعياد ، وقد شارك فيها عدد من الخلفاء ، منهم المأمون في قوله من خطبة له في يوم جمعة : « الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ، ومستوجبه على خلقه ، أحمده واستعينه وأومن به وأتوكّل عليه ، وأشهد ان لا اله الاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله ، أرسلهُ بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أوصيكم عبادَ الله بتقوى الله وحده ، والعمل لما عنده ، والتنجُز لوعده ، والخوف لوعيده ، فانه لا يسلم الاّ من اتقاه ورجاه ، وعمل له وأرضاه ، فاتقوا الله عباد الله ، وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ، وترحلوا فقد جُدَّ بكم ، واستعدوا للموتِ فقد أظلكم ، وكونوا قوماً صيحَ بهم فانتبهوا ، وعلموا أنّ الدنيا ليست لهم بدارٍ فاستبدلوا ، فانَ الله لم يخلقكم عبثاً ولم

---

(٦٠٤) خمصاناً : جياعاً .

(٦٠٥) أسفوه : أغضبوه .

(٦٠٦) شرح نهج البلاغة ٧ : ١٥٤ .

(٦٠٧) البيان والتبيين ١ : ٣٢١ .

يتركُكم سدىً ... نسأل الله أن يجعلنا واياكم ممن لاتبطره نعمة ، ولا تقصُرُ به عن طاعته غفلة ، ولا تُحلُّ به بعد الموت فزْعة ، انه سميع الدعاء ، وبيده الخير ، وانه فعال لما يريد »(٦٠٨)

أما الخطب الحربية أو الجهادية فكانت تأخذ طابع الاستنهاض والاستبسال وشحذ الهمم وبذل النفوس ، مثل قول عبد الله بن طاهر في تحريض الجند على قتال الخوارج : « إنكم فِئةُ الله المجاهدون عن حقِّهِ ، الذابُّون عن دينِهِ ، الذائدون عن محارمه ، الداعون الى ماأمر به ، من الاعتصام بحبله ، الطاعة لولاةِ أمره ، الذين جعلهم رُعاة الدين ، ونظامَ المسلمين ، فاستنجزوا ... اللهِ ونصره ، بمجاهدة عدوِّه وأهل معصيتِهِ ، الذين أشروا وتمرَّدوا ، ... وفارقوا الجماعة ، ومرقوا في الدين ، وسعوا في الأرض فساداً ، فإنه يقول تبارك وتعالى : (إن تنصروا الله ينصرْكُم ويُثبِّتْ أقدامكم » . فإنه الوَزَرُ المنيعُ ، الذي دلَّكم الله عليه ، والجُنةُ الحصينةُ التي أمركم الله بلباسها ، غُضُّوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم في مصافكم ، وامضوا قُدُماً على بصائركم ، فارغين إلى ذكر اللهِ ، والاستعانة به ، كما أمركم الله ، فإنه يقول : « اذا لقيتُم فئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تُفلحون »(٦١٠) . أيدكم الله بعِزِ الصَّبرِ ، ووليكم بالحياطة والنصرِ »(٦١١) .

وهناك خطب تعرف بالحفلية تلقى في المناسبات كاعلان البيعة للخليفة او ولي العهد ، والمآتم والأفراح والمواسم والوفود وهي في الغالب قصيرة ومؤثرة على نحو ما قالته احدى الاعرابيات وقد تعرضت للخليفة المنصور في طريق مكة بعد وفاه أبي العباس السفاح : « ياأمير المؤمنين احتسب الصبرَ ، وقدِّمِ الشكرَ ؛ فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين ، وأعظم عليكَ المنةَ في الحادثين : سلبك خليفة الله ، وأفادك خلافة الله : فسلم فيما سلبك ، واشكر فيما منحك ، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين ، وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين »(٦١٢) ولما توفي الخليفة المنصور دخل ابن عتبة مع الخطباء على الخليفة المهدي فسلَّم ثم قال : « آجرَ الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلّفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا

---

(٦٠٨) عيون الاخبار ٢ ، ٢٥٣
(٦٠٩) سورة محمد ، الآية ٧ .
(٦١٠) سورة الأنفال ، الآية ٤٥ .
(٦١١) العقد الفريد ٤ ، ١٢٤ .
(٦١٢) صبح الاعشى ٩ ، ٢٧٨ .

مصيبة أعظم من فقد امير المؤمنين . ولا عقبى أفضل من وراثة مقام أمير المؤمنين . فاقبل ياأمير المؤمنين من الله أفضل العطيّة . واحتسب عنده اعظم الرزية »(٦١٣)

القصص :

راجت في العصر العباسي القصص وكثر الاقبال عليها . وهي - وإن كانت في نظر بعض الباحثين وحسب معاييرهم لاتدخل في باب القصة ، لأن الخصائص المطلوبة غير متكاملة فيها - تروى للتسلية والسمر وقضاء أوقات الفراغ الى جانب ما فيها من عبر وعظات ودروس اخلاقية . ولاسيما التي تتناول البطولة والفروسية قبل الاسلام وبعده .

وكانت بعض القصص تدور على السنة الطير والحيوان . كما هو الحال في كتاب « كليلة ودمنة » الذي نقله الى اللغة العربية عبدالله بن المقفع . وهو أثر نفيس يصور « البهائم والطير كائنات عاقلة مفكرة مدبرة تخضع لنوازع الغرائز وشهوات النفوس خضوعها الى الاعتبار بالاحداث والاحتكام الى الضمير والرغبة في التفلسف واستخلاص العظة أو المثل من المواقف والعلاقات »(٦١٤) ولسهل بن هارون كتابان على شاكلة كليلة ودمنة . الأول « ثعلة وعفراء » . وقد نقل الحصري القيرواني الفقرات الآتية منه : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلكم . فانّ تقديم النافلة مع الابطاء عن الفريضة مظاهر عن وهن العقيدة . وتقصير الروية . ومضرٌ بالتدبير . مخلٌ بالاختيار . وليس في نفع محمدته عوض من فساد المروءة ولزوم النقصيصة » وقال معقباً : « وكتابه هذا مملوء حكماً وعلماً »(٦١٥) والكتاب الثاني « النمر والثعلب » . وهو ممتع طريف الاسلوب . يدور على شخصيات ثلاث : الثعلب الحكيم . والذئب الجحود . والنمر الطاغي وقد وصل الينا منه نصوص كاملة .(٦١٦)

وكانت مجالس الوعظ آنذاك تميل الى القصص الديني . ولاسيما في تفسير بعض آيات القرآن الحكيم . وقد شاهد الجاحظ طرفاً من هذه المجالس وذكر أسماء مجموعة من قُصّاص العصر العباسي الاول . قال : « ومن القُصّاص موسى بن سيّار

(٦١٣) البيان والتبيين ٢ : ١٩٢ .

(٦١٤) الحكاية الشعبية ص ٤١ .

(٦١٥) زهر الآداب ١ : ٥٧٧

(٦١٦) العصر العباسي الاول ص ٥٢٠ . وينظر العدد الاول من حولية الجامعة التونسية سنة ١٩٦٤ .

الأسواري ، وكان من أعاجيب الدنيا ... وعمرو بن فائد ، كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسَّر اية في عدة أسابيع ... وكان يقصَّ في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيباً من ذلك ... ثم قصّ من بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يدرك في القُصَّاص مثله »(٦١٧) وهؤلاء القُصَّاص كانوا يعنون بالأسلوب وضبط الكلام وطريقة الالقاء كي يُقبل عليهم الناس ويلتفو حولهم وينصتوا اليهم . قال الجاحظ عن الفضل بن عيسى الرقّاشي : « كان سَجْاعاً في قصصه ، وكان عمرو بن عُبيد وهشام بن حسان ، وأبان بن أبي عيَّاش ، يأتون مجلسه ... وقد كان عبدالصمد بن الفضل ، وأبو العباس القاسم بن يحيى ، وعامة قُصَّاص البصرة ، وهم أخطبُ من الخطباء ، يجلس اليهم عامة الفقهاء »(٦١٨)

ويمكن أن نضيف الى ماسبق الحكايات التاريخية التي يندر فيها الحوار وتأخذ طابع السرد المباشر ، مثل قصة انتقام قصير بن سعد اللخمي لجذيمة الأبرش الذي صرعته الزباء ملكة تدمر .(٦١٩) وقصة معركة القادسية التي صوَّر فيها ابو حنيفة الدِّينوري احداثها تصويراً دقيقاً كما وقعت بين المسلمين والفرس من غير تعمل او افتعال . وقد تماسكت فيها الاحداث وان اشتملت على حكايات فرعية مثل حكاية طلحة بن خويلد الاسدي الذي بعثه سعد بن ابي وقاص ليأتيه بخبر الفرس ، فذهب وتحرّى المكان المطلوب واصطدم بعدد من الخصوم وعاد ومعه احدهم اسيراً ، وقصة أبي محجن الثقفي الذي خرج من سجنه للقتال بعد أن ركب فرساً بلقاء بمساعدة زوجة سعد بن أبي وقاص ، وقاتل قتال الأبطال وأثخن الجراح في الأعداء وعاد ظافراً مرفوع الرأس .(٦٢٠)

وتجدر الاشارة هنا الى أن هناك حكايات لبعض الأطباء مع مرضاهم فيها نوادر ظريفة وحيل طريفة ، وقد نقل لنا علي بن سهل الطبري طائفةً منها في كتابه فردوس الحكمة .(٦٢١)

---

(٦١٧) البيان والتبيين ١ : ٣٦٨ .

(٦١٨) البيان والتبيين ١ : ٢٩٠ .

(٦١٩) الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية ص ٢١٦ نقلاً عن كتاب (أمثال العرب) لابي عبيد القاسم بن سلام ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٠٧٩٩ ز .

(٦٢٠) الأخبار الطوال ص ١١١ وما بعدها .

(٦٢١) طبع في برلين سنة ١٩٢٨ بتصحيح الدكتور محمد الصديقي .

التوقيعات :

وهي الهوامش او الملاحظات التي يكتبها الخلفاء والولاة والوزراء والقواد والقضاة على الكتب الرسمية او الشكاوى المرفوعة اليهم من افراد الشعب. وتمتاز بجمال الاسلوب والايجاز الشديد والبلاغة المتقنة. وقد وصلت الينا مجموعة كبيرة من هذه التوقيعات في الكتب الادبية والتاريخية. ولاسيما في العقد الفريد لابن عبد ربه. (٦٢٢) من ذلك توقيع الخليفة السفاح في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: «مَنْ صبر في الشدّة شاركَ في النعمة». وتوقيع الخليفة المنصور على كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أنّ جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال فأخذوا أرزاقهم: «لو عدلتَ لم يَشْغبوا. ولو وفيت لم ينهبوا». وتوقيع الخليفة المهدي على كتاب أتاه من صاحب أرمينية يشكو سوء طاعة رعاياه: «خذ العفوَ وأمُرْ بالمعروف واعرضْ عن الجاهلين». وتوقيع الخليفة الرشيد الى عامله على خراسان: «كلّ مَنْ رفع رأسهُ فأزِلْهُ عن بدنه». ومما يروى عن الخليفة المأمون أن ابراهيم بن المهدي كتب اليه في كلام له: «ان غفرت فبفضلك. وان أخذت فبحقك». فوقّع في كتابه: «القدرة تذهب الحفيظة. والندمُ جزء من التوبة. وبينهما عفو الله».

وكانت التوقيعات تشيع بين الناس. يتناقلونها ويحفظونها. وقد اشتهر جعفر بن يحيى بها. قال الجهشياري: «كان جعفر بليغاً كاتباً. وكان اذا وقّع نُسِخَتْ توقيعاته وتدورست بلاغاته» (٦٢٣). ومن توقيعاته الى احد العمال: «قد كثر شاكوك. وقلّ شاكروك. فاما عدلت. واما اعتزلت». (٦٢٤). وكان يقول للكتّاب: اذا استطعتم أن يكون كلامكم كلّه مثل التوقيع فافعلوا» (٦٢٥). وكذلك اشتهر الفضل بن سهل ذو الرياستين بتوقيعاته البليغة. مثل توقيعه على كتاب مظلوم: «كفى بالله للمظلوم ناصراً» (٦٢٦). وعرف أخوه الحسن بن سهل ايضاً بالتوقيعات الدقيقة. مثل توقيعه على كتاب لامرأة حبس زوجها: الحقُ يحبسه. والانصافُ

(٦٢٢) العقد الفريد ٤ : ٢١١ ـ ٢٢٢.

(٦٢٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٨

(٦٢٤) العقد الفريد ٤ : ٢١٩

(٦٢٥) زهر الآداب ١ : ١٥٧ وينظر الوزراء والكتاب ص ١٥٥

(٦٢٦) العقد الفريد ٤ : ٢٢٠

يطلقه »(٦٢٧) ولطاهر بن الحسين توقيعات كثيرة في كتاب بغداد لابن طيفور. منها انه وقع في قصة رجل محبوس: « يخرج ولا يحوج »، وفي قصة قاتل: « لايؤخر قتله ». وفي قصة لص: « ينفذ حكم الله فيه »(٦٢٨)

وقد بسط عدد قليل من الكتاب في توقيعاتهم فبلغت عدة أسطر او مقدار الرسائل المعتدلة. من ذلك ماكتبه محمد بن عبدالله بن طاهر في رقعةٍ اعتذر اليه فيها رجل من شيء بلغه عنه. فرأى خطه قبيحاً: « أردنا قبولَ عُذرِكَ فاقتطعنا عنه ما قابلنا من قبيح خطِكَ. ولو كنتَ صادقاً في اعتذارِكَ لساعدتكَ حركةُ يدِكَ. أو ماعلمتَ أنَّ حسن الخطِ يناضلُ عن صاحبه بوضوح الحجةِ. ويمكن له دَرْكَ البغية؟ »(٦٢٩)

نثر المؤلفات أو المصنفات:

نشط العلماء والادباء في التأليف وتدوين العلوم والمعارف في العصر العباسي الأول نشاطاً كبيراً. ورفدوا المكتبة العربية بتراث جليل ونفيس أفاد جيلهم والأجيال اللاحقة في التعليم والتثقيف وتربية العقول. ففي مجال الادب برز عدد كبير من المصنفين. ومن اشهرهم الجاحظ صاحب المؤلفات الكبيرة ولاسيما البيان والتبيين والحيوان. وابن سلاّم الجمحي صاحب طبقات فحول الشعراء. والمبّرد صاحب الكامل. وابن قتيبة صاحب الشعر والشعراء. وابن المعتز صاحب طبقات الشعراء ... وقد حرص هؤلاء المصنفون على تقديم موادهم بأسلوب واضح ولغة سهلة فصيحة يفهما القاريء بلا عَناء ولا مشقّة.

وكانت الدراسات اللغوية والنحوية والصرفية نشطة ايضاً. وقد برز كثير من العلماء في ميادينها أمثال: سيبويه. والكسائي. والفراء. وثعلب. والمبرد ...

واتجه فريق آخر من الكتاب والمؤلفين الى المغازي والسير. وصنفوا كتباً قيمة فيهما. ويعد محمد بن اسحاق شيخ المصنفين. فله السيرة المشهورة التي استخرجها الامام ابو محمد عبدالملك بن هشام وعرفت به وشاع ذكره بها. والواقدي صاحب المغازي. ومحمد بن سعد صاحب الطبقات الكبرى ... واشتهر بتاريخ العرب هشام

(٦٢٧) العقد الفريد ٤: ٢٢٠.

(٦٢٨) كتاب بغداد ص ٧٢.

(٦٢٩) جمهرة رسائل العرب ٤: ٤٦٢.

ابن محمد الكلبي صاحب كتاب الاصنام وجمهرة انساب العرب ، ولمعت أسماء بكتابة تواريخ الأمم القديمة والأديان ، ولعل من أشهرهم : المدائني ، واليعقوبي ، والبلاذري ، والطبري .

وازدهرت الكتابة الجغرافية التي تتناول البلدان والمواقع واحوال السكان وأجناسهم وطبائعهم . وقد لمعت أسماء عدد كبير من الكتاب في هذا الميدان لانزال نراجع كتبهم ، مثل المسالك والممالك لابن خرداذبة ، والبلدان لليعقوبي ، والاعلاق لابن رستة ، والاكليل وصفة جريرة العرب لابن الحائك ...

وأقبل بعض العلماء على القرآن الكريم ، فشرحوه ، وتناولوا قراءاته ، وأظهروا اعجازه وناسخه ومنسوخه ، ويعدُ تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري من أشهر التفاسير التي ظهرت آنذاك سعةً وشمولاً ودقةً . وذهب علماء آخرون الى الاحاديث النبوية الشريفة وجمعوها ووثّقوها على طريقة الاسانيد ، اشتهر منهم أصحاب الصحاح الستة : البخاري ، ومسلم ، وابن ماجة وابو داود والترمذي ، والنسائي .

وتخصص عدد كبير من العلماء بالفقه والشريعة ، وألفوا كتباً كثيرة ، شرحوا فيها العبادات ، والاحوال المدنية ، والقوانين الجزائية ، بفروعها المختلفة ، ومن أبرز هؤلاء العلماء : مالك بن أنس ، وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، وابو عبدالله محمد ابن ادريس الشافعي ، واحمد بن حنبل ، وجعفر بن محمد الصادق .

وكان لعلم الكلام الذي يبحث في الأنشطة العقلية والمسائل العقائدية نصيب من الكتابات آنذاك ، وكان المعتزلة من أنشط الجماعات في هذا المجال ، فانهم كانوا يعتمدون المنطق والفلسفة في مناقشاتهم ومحاججاتهم ، وقد اشتهر منهم واصل بن عطاء وبشر بن المعتمد ، وأبو هذيل العلاف ، وابراهيم بن سيَّار النظَّام .

لقد انفرجت امام الكتابة في العصر العباسي الاول كما لاحظنا ميادين كثيرة رحبة الجوانب ، وهي في جملتها تتسم بدقة المأخذ وبساطة العرض ، تُمتِّعُ النفسَ والعقل معاً بخلاف الاسلوب الغارق في الصنعة الذي شاع في العصور اللاحقة .

النثر المترجم :

حدث امتزاج كبير بين العرب والأُمم الأُخرى بعد قيام الدولة العباسية .ووقفَ الناس آنذاك على ثقافات كثيرة وَفَدَتْ عن طريق الترجمة . وأقبل المترجمون الذين يحسنون اكثر من لغة الى نقل كتب مفيدة في الطب والفلك والفلسفة والرياضيات والسياسة وسواها.وقد اشتهرت في ذلك الوقت مراكز لهذه الترجمة امثال حرّان والرُّها ونصيبين وانطاكية والاسكندرية وجُنْدِ يسابور . وكان لتشجيع الخلفاء دور بارز واثر كبير في نشاط الترجمة والاقبال عليها ، اذ نراهم يُخصصون الاموال الطائلة لها ، ويبعثون الرجال الماهرين بالترجمة لجلب الكتب النافعة من مواطنها . وينشؤون دوراً خاصة لها . ويُهيؤون مستلزمات الاقامة والراحة للعاملين فيها . وكان ابو جعفر المنصور من اوائل الخلفاء المشجعين على الترجمة فان ابن المقفع ترجم له كتباً في السياسة والآداب وتدبير الملك والفلسفة والمنطق بعضها في الاصل يونانية او هندية منقولة الى اللغة الفارسية وترجم له محمد بن ابراهيم الغزاري كتاب « السند هنْد » في علم الفلك . واستدعى جورجيوس بن جبرائيل رئيس اطباء جند يسابور ونقل له مجموعة كتب في الطب وطلب من أبي يحيى البطريق ترجمة عدد من كتب ابقراط وجالينوس في الطب .

وكان هارون الرشيد من الخلفاء المتميزين في حب المعرفة وإكرام أهل العلم وهو الذي أنشأ خزانة الحكمة ومركزاً للترجمة يضمُّ مجموعة من المترجمين باشراف يوحنا بن ماسويه . ووصلت الترجمة زمن الخليفة المأمون إلى عصرها الذهبي . إذ رعى العلماء المترجمين وقربهم إليه . وأرسل فريقاً منهم لاستقصاء الكتب النفيسة في بلاد الروم وقبرص . واهتم بدار الحكمة وخصّص لها مالاً وفيراً وضمَّ إليها نخبة من المترجمين البارزين وعهد بادارتها إلى حُنين بن اسحاق . وكانت ثمرة تلك الرعاية وذلك الاهتمام ترجمة مجموعة كتب لاقليدس وأفلاطون وأرسطو ... وبقيت حركة الترجمة نشطة بعد وفاة المأمون . وظهر علماء كبار في ميدانها . ومن أشهرهم الفيلسوف يعقوب بن أسحاق الكندي قال عنه ابن أبي أُصيبعة : « كان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق . وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم . ولم يكن في الإسلام فيلسوف غيره . احتذى في تواليفه حذو أرسطو طاليس . وله تواليف كثيرة في فنون من العلم . وخدم الملوك فباشرهم بالأدب . وترجم من كتب أرسطو الكثير »(٦٣٠)

(٦٣٠) عيون الانباء ٢ ، ١٧٩

انّ من أكثر الكتب المترجمة تداولاً منذ العصر العباسي الاول ، كتاب « كليلة ودمنة »(٦٣١) . وقد سبق الاشارة اليه في حديثنا عن ثقافة العصر . والملاحظ في هذا الكتاب ان المترجم سلك فيه اسلوباً لطيفاً . تتدفق المعاني بيسر وسهولة بحيث لايجد القاريء صعوبة أو عسراً في فهمه ، وليس بصحيح مايرجحه بعض الباحثين من أن ابن المقفع أنشأه وكتبه مباشرة . فانّ قدرة هذا الكاتب وتمكنه من اللغة العربية وتضلّعه فيها وسعة ثقافته وفهمه للغة المترجم عنها جعلته أن يُقدّمَ مادته بصيغة مشرقة واضحة . واليك هذا المقطع منه : « قال دمنةُ : زعموا انه كان في بعض المدن طبيبٌ له رفقٌ وعلمٌ . وكان ذا فطنةٍ فيما يجري على يديه من المعالجاتِ ، فكبرَ ذلك الطبيبُ وضعُفَ بصرهُ . وكان لملكِ تلك المدينة ابنةٌ قد زوّجها لابن أخٍ له . فعرضَ لها ما يعرض للحوامل من الاوجاع ، فجيء بهذا الطبيب . فلما حضر سألَ الجارية عن وجعها وما تجد . فأخبرتهُ . فعرف داءَها ودواءَها . وقال : لو كنتُ أبصر لجمعتُ الأخلاطَ على معرفتي بأجناسها ، ولا أثقُ في ذلك بأحدٍ غيري . وكان في المدينة رجلٌ سفيهٌ . فبلغه الخبرُ . فأتاهم وادعى علمَ الطبِّ ، وأعلمهم انه خبير بمعرفةِ اخلاط الادوية والعقاقير ، عارفٌ بطبائعِ الادوية المركبة والمفردة . فأمره الملكُ ان يدخل خزانة الادوية فيأخذ من اخلاط الدواء حاجتَهُ . فلما دخل السفيهُ الخزانة . وعُرضتْ عليه الادوية ، ولا يدري ماهي ولا له بها معرفةٌ . أخذ في جملة ماأخذ منها صُرّةً فيها سُمٌ قاتل لوقته . وخلطهُ في الادوية ولا علم له به ، ولا معرفة عنده بجنسه . فلما تمّتْ اخلاط الادوية ، سقى الجارية منه ، فماتت لوقتها . فلما عرف الملكُ ذلك . دعا بالفيه . فسقاهُ من ذلك الدواءِ فماتَ من ساعته »(٦٣٢)

---

(٦٣١) ورد اسما كليلة ودمنة ، وهما ابنا آوى ، في بابين فقط من أبواب الكتاب الاساسية ، وعددها خمسة عشر باباً ، احدها باب « الاسد والثور » والاخر باب « الفحص عن امر دمنة » . اما سائر ابواب الكتاب فلا علاقة لها بهذين الاسمين . وهذا يعني ان تسمية الكتاب باسمهما من قبيل اطلاق الجزء على الكل .

(٦٣٢) كليلة ودمنة ص ١٧٦

الكتاب

عمرو بن بحر الجاحظ

١٦٠ ــ ٢٥٥ هـ

تميز العصر العباسي الاول بالثراء والرخاء ، والانفتاح على ثقافات مختلفة ، والاقبال على العلوم والآداب ، والتوجه الى التأليف والتصنيف والترجمة . وقد نبغ رجالٌ عظام في شتى المعارف ، رفدوا المكتبة العربية بتراث قيِّم تعاقبت الاجيال على الاحتفاظ به والافادة منه . ويُعد الجاحظ ــ وهو من رُوّاد الأساليب الرفيعة في الكتابة ــ من ابرز هؤلاء الرجال العظام الذين خلّدوا انفسهم بعطائهم الفكري من خلال الكنوز النافعة التي خلفوها .

مولده ونشأته :

أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ، لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه ولد في البصرة حوالي سنة ١٦٠ للهجرة ، وتوفي ابوه وهو صغير ، وفي مدينته التي كانت آنذاك محج طلاب المعرفة تعلّم مبادىء القراءة والكتابة في أحد كتاتيبها ، وحينما اصبح يافعاً أخذ يتردّدُ على حلقات العلم التي تعقد في المساجد ، ويختلف الى سوق المربَد ، يتلقّى الفصاحة من شفاه العرب الذين يفدون الى هذه السوق قال ياقوت الحموي : « سمع من أبي عبيدة ، والأصمعي ، وأبي زيد الانصاري ، وأخذ النحو عن الأخفش وكان صديقه ، وأخذ الكلام عن النّظام ، وتلقّف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد »(٦٣٢) وأفاد من أبي يوسف يعقوب بن أبراهيم صاحب أبي حنيفة ، وصالح بن جناح اللخمي ، وثُمامة بن أشرس النميري ، ويزيد بن هرون ، والسريّ بن عبدويه ، والحجّاج محمد بن حمّاد بن سلمة ، وسواهم ... وكان مفرطاً في القراءة ، يكتري دكاكين الوراقين ، ويعتكفُ فيها ، ليقف على ما يأتي اليها من كتب ، ويستوعبُ معارفها ، ويحفظ ما يروق له منها ، ولم يبخل بالمال حينما يتوفر لديه لشراء الكتب قال محمد بن سليمان الجوهري : « كنا نصحبُ الجاحظ على سائر احواله من جدٍّ وهزل ،قال : فخرجنا يوماً لنزهةٍ ،فبينما نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه ، اذ عارضتْ امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضتْ علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ،

---

(٦٣٢) معجم الادباء ٦ : ٥٦

وتخلفَ معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال . ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً ، وأخذ الاوراق وقال : انتظروني ومضى بها الى منزله . فلما عاد اخذنا نهزأ به ويقول : فُزتُ بقطعةٍ من العلم وافره . وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله . انّ فيها ما لا يوجدُ الاّ فيها . ولكنكم جهالٌ لاتعرفونَ النفيسَ من الخسيس »(٦٢٤) . وقال أبو هفّان : « لم أر قطُّ ولا سمعت مَنْ أحبَّ الكتبَ والعلومَ اكثرَ من الجاحظ . فإنّه لم يقع بيده كتابٌ قطُّ الاّ استوفى قراءته كائناً ماكان »(٦٢٥)

والى جانب طلب العلم والمعرفة كان يلتمس اسبابَ العيش عن طريق العمل . وقد قيل : انه كان يبيعُ الخبزَ والسمكَ على ضِفة نهر صغير بالبصرة يُعرف بسيحان . ويبدو أنّ أمه كانت في باديء امره تتولى الانفاق عليه ، وقد رُوي انها ضاقتْ به حين رأته منهمكاً في اقتناء الكتب والجلوس اليها ساعات طوالا . فطلبَ منها يوماً طعاماً . فجاءته بطبق مليء بكراديس أودعها البيت « فقال : ماهذا ؟ قالت هذا الذي تجيءُ به . فخرج مغتماً . وجلس في الجامع ومُويس بن عمران جالس . فلما رآه مغتماً قال له : ماشأنك ؟ فحدّثه الحديثَ . فأدخله المنزلَ وقرّب اليه الطعامَ واعطاه خمسين ديناراً فدخل السوق . واشترى الدقيقَ وغيره ، وحمله الحمالون الى داره . فأنكرت الام ذلك وقالت من اين لكَ هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدّمتِها اليّ »(٦٢٦) . ولكن هذه الحالة لم تدم . اذ انهالت عليه الهدايا والعطايا بعد أن اشتهر أمره وعرف بين كتاب عصره بقلمه الرفيع وانشائه البديع . وحينما زار بغداد حضر مجلس المأمون . فنال اعجابه واثنى عليه وقرّبهُ وولاه رئاسة ديوان الرسائل . وكان هذا المنصب مهماً في الدولة لايتولاه الاّ مَنْ له مقدرة كبيرة ومعرفة واسعة بشؤون الكتابة . ولكنّ الجاحظ لم يبق فيها اكثر من ثلاثة ايام . اذ بادر الى الاستعفاء معتذراً للخليفة . فأعفاه . وانصرف الى التأليف الذي اكسبه شهرة عظيمة وجعله ذا مقام محمود عند أرباب الدولة والمعنيين بالثقافة . وكان في اثناء ذلك يتنقّلُ بين البصرة وبغداد وسامراء . وقام برحلات الى ديار الشام وزار دمشق وانطاكية . وكان الناسُ يتفاخرون بصداقته ومجالسته لحسن عشرته ووافر علمه وظرافة نوادره . ويعتزون بكتبه ويفرحون حينما تُوشّحُ بأسمائهم . قال : « أهديت كتاب الحيوان الى محمد بن عبدالملك فاعطاني خمسة آلاف دينار . واهديتُ كتاب

---

(٦٢٤) امراء البيان ص ٣٨٧

(٦٢٥) معجم الادباء ٦ : ٥٩ .

(٦٢٦) طبقات المعتزلة لابن المرتضى ص ٦٨ .

البيان والتبيين الى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار . وأهديتُ كتاب الزرع والنخل الى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار » .(٦٣٧)

اعتنق الجاحظُ مذهبَ الاعتزال ونصره في كتاباته ، وخالف أستاذه ابراهيم بن سيّار النظام ببعض الآراء . وأيده في هذه الآراء طائفة من المتكلمين عرفوا بالجاحظية نسبةً اليه .(٦٣٨)

وكان صديقاً مخلصاً للوزير محمد بن عبدالملك الزيّات . وحينما نُكب هذا الوزير وقُبضَ عليه زمن المتوكل سنة ٢٣٣ هـ « هرب الجاحظ ، فقيل له : لِمَ هربتَ ؟ فقال : خفتُ أنْ أكونَ ثاني اثنين اذ هما في التنور ! يُريد : ماصُنع بمحمد ابن عبدالملك من ادخاله تنوراً فيه مسامير كان هو صنعه ليعذِّبَ الناسَ فيه . فعُذِبَ به حتى مات »(٦٣٩)

استقر في البصرة . وطالت به الحياة . وأُصيب بالفالج والنقرس .(٦٤٠) قال المبرد « دخلتُ على الجاحظ في آخر ايامه وهو عليلٌ . فقلت له : كيف أنتَ ؟ فقال : كيف يكونُ من نصفه مفلوجٌ ولو نشرَ بالمناشير لما أحسَّ به . ونصفه الاخر منقرسٌ ، ولو طار الذباب بقربه لآلمه . والأمر في ذلك أني قد جزتُ التسعين وأنشدنا :

أترجو أنْ تكونَ وأنتَ شيخٌ كما قد كنتَ أيامَ الشبابِ
لقد كذبتك نفسكَ ليسَ ثوبٌ خليق كالجديد من الثيابِ(٦٤١)

وأدركه الموت سنة ٢٥٥ للهجرة . وقيل وقعت عليه كتبه وهو شيخ ضعيف قد جاوز التسعين فقضت عليه .

أخلاقه :

كان الجاحظُ يمتلك شخصيةً قويةً وارادةً فذّةً . وكان متفائلاً يبدو عليه السرور . بسيطاً . متواضعاً . يخالط الناس جميعاً سواء كانوا اغنياءَ ام فقراءَ : حريصاً على مواعيده واوقاته . وفياً لاصدقائه . صادقاً في أقواله . محباً للنظام .

(٦٣٧) معجم الادباء ٦ / ٧٦

(٦٣٨) ينظر الملل والنحل للشهرستاني ص ٧١

(٦٣٩) امالي المرتضى ١ : ١٩٥

(٦٤٠) الفالج : الشلل.النقرس : نوع من مرض المفاصل .

(٦٤١) نزهة الالباء ص ١٢٤ ، تاريخ بغداد ١٢ : ٢١٩ .

صبوراً متقناً لعمله ومتفانياً فيه، بعيداً عن الفوضى وما يُقلق الانسان، متجنباً الحاسدين والموتورين. ولم يكن مترمتاً، يقوم بما فرضَ عليه الاسلامُ من واجبات، يرفقُ بالضعفاء حتى يقووا وبالجهلاء حتى يتعلموا، يبذلُ جهده في رفع شأن المسلمين، ويحببُ اليهم دينهم ودنياهم ليستقيموا امةً عزيزةً فاضلةً ذات شأن عظيم.(٦٤١)

تهكمه وتندره :

عُرف الجاحظ بالظَّرف والمفاكهة والمداعبة والتندر، واخبارهُ في ذلك كثيرة نجدها مبثوثة في كتبه ورسائله. وقد استطاع أن يجعل ظِلَّهُ خفيفاً عند الجميع مع انه كان دميمَ الوجه قبيحَ الشكل جاحظَ العينين.

لقد كان مرحاً، مقتدراً على الضحك والاضحاك، متمكناً من تلطيف النفوس وابعاد السأم والضجر عنها، وتهذيبها. والانسان يتعلم بالضحك اكثر مما يتعلم بالتجهم والعبوس. ومثال ذلك ماجاء في قصة محمد بن أبي المؤمل. قال الجاحظ: «اشترى مرَّة شبوطة.(٦٤٢) وهو ببغداد. وأخذها فائقةً عظيمةً. وغالى بها، وارتفع في ثمنها. وكان قد بَعُد عهده بأكل السمك ـ وهو بصريٌ لا يصبرُ عنه ـ فكان قد اكبر أمر هذه السمكة، لكثرة ثمنها، ولسمنها وعظمها، ولشدة شهوته لها. فحين ظنَّ عند نفسه انه قد خلا بها، وتفرَّد بأطايبها، وحسرَ عن ذراعيه، وصمد صَمْدَها، هجمتُ عليه ومعي السدريُّ.(٦٤٤) فلما رآه رأى الموتَ الأحمر، والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضيَ، ورأى قاصمة الظهر، وأيقن بالشرِّ، وعلم أنه قد ابتلي بالتنين.... فلما أكل السّدريُّ جميع أطايبها... ولم يبق في يده مما كان بأمله في تلك السمكة... تولّد الغيظ في جوفه... وتمّ عزمُه في أن لا يؤاكل رغيباً أبداً.

---

(٦٤٢) للتوسع ينظر كتاب الفكر التربوي عند ابن المقفع والجاحظ وعبدالحميد الكاتب ص ٢٥٣ ـ ٢٨٦، وأمراء البيان ص ٢٩١ ـ ٢٩٤، والجاحظ في حياته وادبه وفكره ص ١٥٢.

(٦٤٣) الشبوط، نوع من السمك، دقيق الذنب، عريض الوسط، لين المس. وفي كتاب الحيوان للجاحظ شرح وافٍ عنه.

(٦٤٤) السدري، محمد بن هشام بن أبي خميصة، شاعر مقل، كان يصحب الجماز، وعبدالصمد بن المعذل، والجاحظ وأدباء البصرة (معجم الشعراء ص ٢٧٥، وينظر ذيل الأمالي للقالي ص ١٣٠).

ولا زهيداً . ولا يشتري سمكةً ابداً . رخيصةً ولا غالية . وان اهدوها اليه ان لا يقبلها . وان وجدها مطروحة لا يمسها »(٦٤٥) .

موقفه من الشعوبية :

شاعت حركةُ الشعوبيين في العصر العباسي الاول . ووقف الخلفاء منهم ولاسيما المهدي موقفاً متشدّداً . والى جانب الخلفاء وقف عدد من الادباء والعلماء يحاربونهم بألسنتهم ويردونهم بالحجج والبراهين . وكان الجاحظ واحداً منهم . فهو يحب العرب ويكره من يعاديهم او يطعن فيهم ؛ لذلك نراه يهبُّ بما أوتي من بيانٍ وحكمةٍ يقاتل الشعوبيين ويستصغرهم ويحط من قدرهم . ومن يرجع الى كتاب البيان والتبيين وكتاب الموالي والعرب(٦٤٦) يستجلي ذلك بوضوح . يقول مثلاً : « واعلم انكَ لم ترَ قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا اعدى على دينه . ولا أشد استهلاكاً لعرضه . ولا أطول نصباً . ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على اكبادهم . وتوقد نار الشنان في قلوبهم . وغليان تلك المراجل الفائرة . وتسعرُ تلك النيران المضطرمة ولو عرفوا اخلاق اهل كل ملةٍ . وزيّ أهل كل لغةٍ وعللهم . على اختلاف شاراتهم وآلاتهم . وشمائلهم وهيئاتهم . وما علّه كل شيء من ذلك . ولِمَ اجتلبوه ولم تكلفوه . لأراحوا انفسهم . ولخفت مؤونتهم على من خالطهم »(٦٤٧) .

مؤلفاته :

كان الجاحظ نابغة عصره . لم يدع باباً من ابواب المعرفة الا طرقه . وأصدق مايوصف به انه موسوعة او دائرة معارف . فقد بلغت مؤلفاته مايقارب المئة والستين .(٦٤٨) ولعل في كلام سبط ابن الجوزي مبالغة حين قال : ألف خمسين وثلاثمئة مؤلف بين رسالة في بضع صفحات وكتاب في بضعة مجلدات وذكر انه رآها في اول القرن السابع في مشهد ابي حنيفة في بغداد .(٦٤٩)

---

(٦٤٥) البخلاء ص ٢٢٨ .

(٦٤٦) ينظر كتاب : الجاحظ حياته وآثاره ص ٢٢٢ .

(٦٤٧) البيان والتبيين ٣ : ٢٩ .

(٦٤٨) ينظر : معجم الادباء ٦ : ٧٥ ـ ٧٨

(٦٤٩) أمراء البيان ص ٣٨١ .

إن مؤلفات الجاحظ مفيدة ونافعة، بعضها رسائل أشبه ما نسميها اليوم بالبحوث، مثل: التربيع والتدوير، مناقب الترك، المعاش والمعاد، كتمان السر وحفظ اللسان، فخر السودان على البيضان، في الجد والهزل، في نفي التشبيه، في كتاب الفتيا، الى أبي الفرج بن نجاح الكاتب، فصل بين العداوة والحسد، صناعات القواد، في النابتة، كتاب الحجاب، مفاخرة الجواري والغلمان، ذم أخلاق الكتاب، كتاب البغال، الحنين الى الاوطان، كتاب التبصر بالتجارة كتاب البلدان، كتاب النساء، كتاب القيان، كتاب حجج النبوة، فضل هاشم على عبد شمس... وبعضها الآخر كتب في مجلدٍ واحدٍ أو عدة مجلدات، مثل: الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، والعثمانية، والمحاسن والأضداد، والبرصان والعرجان والعميان والحولان...

لقد وقعت كتبه ورسائله موقع الاستحسان والرضا عند القراء والباحثين على مر العصور السابقة، ولا تزال تُراجع وتُعتمد في الدراسات الأدبية والعلمية والسياسية والاجتماعية، لأنها رصينة وموثوقة، ومكتوبة بلغة سليمة وأسلوب واضح وممتع ولطيف.

نثره وأسلوبه:

كان الجاحظ كاتباً بارزاً مشهوراً في جميع الأوساط في العصر العباسي، وبقيت شهرته الى يومنا هذا. له طريقة خاصة عُرف بها، امتدت آثارها الى آماد بعيدة، يتداولها جيلٌ بعد جيلٍ، حتى أصبحتْ مدرسةً من مدارس الكتابة لها خصائصها ومميزاتها، يعود اليها الباحثون في دراساتهم ينهلون منها المواد الأولى في الانشاء العربي. ومن أبرز صفات هذه الطريقة:

١ ــ مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهو يقول: «ينبغي للمتكلم أنْ يعرفَ أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات. فيجعلَ لكلِّ طبقةٍ من ذلكَ كلاماً، ولكلِّ حالةٍ من ذلكَ مقاماً، حتى يقسمَ أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسمَ أقدارَ المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلكَ الحالات(٦٥٠)».

(٦٥٠) البيان والتبيين ١ : ١٣٨، وينظر الحيوان ٣ : ٤٢.

٢ ـ البيان والابتعاد عن حوشي الكلام وغريبه ووضوح الدلالة . فهو يقول : « على قَدْرِ وضوح الدلالة وصواب الإشارة . وحسن الاختصار . ودقَّةِ المدخل . يكون إظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضحَ وأفصحَ . وكانت الاشارةُ أبينَ وأنورَ . كان أنفعَ وأنجحَ . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيِّ هو البيانِ الذي سمعتَ الله عز وجلَّ يمدحه . ويدعو اليه . ويحثُّ عليه ... والبيانُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ شيءٍ كَشَفَ لكَ قِناعَ المعنى . وهتَكَ الحجابَ دون الضمير . حتى يُفضيَ السامعُ الى حقيقتِهِ . ويهجم على محصولِهِ كائناً ما كان ذلك البيانُ . ومن أيِّ جنس كان الدليل ؛ لأنَّ مدارَ الأمرِ والغايةَ التي إليها يجري القائل والسامعُ . إنما هو الفَهْمُ والإفهامُ ؛ فبأيِّ شيءٍ بلغتَ الإ فهامَ وأوضحتَ عن المعنى . فذلك هو البيان في ذلك الموضع »(٦٥١)

٣ ـ الاستطراد . وأراد به دفعَ المللِ والسآمةِ عن القاريء . وتفكيهاً . للنفس وترويحاً لها من التعب والعناء . وتنشيطاً لمتابعة القضايا والمسائل التي يتناولها بالبحث والاستقصاء . جاء في كتاب الحيوان قوله : « قد عزمتُ ـ والله الموفِّق ـ أني أوشِّحُ هذا الكتاب وأُفصِّلُ أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قـاريءُ هذا الكتاب من باب الى باب ومن شكل الى شكل• فاني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك الاَّ في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة »(٦٥٢)

٤ ـ مزج الجد بالهزل والضحك والمرح . لتحبيب القراءة والمتابعة وشحذ الذهن وتجديد النشاط . قال : « وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضيات أن يُحملَ أصحابها على الجد الصرف . وعلى العقل المحض . وعلى الحقِّ المرِّ . وعلى المعاني الصعبة التي تستَكدُّ النفوسَ وتستفرغُ المجهودَ . وللصبر غاية وللاحتمال نهاية . ولا بأسَ أن يكونَ الكتاب موشَّحاً ببعض الهزل »(٦٥٣)

٥ ـ العناية بالالفاظ وتركيب العبارات والجمل بلا تكلُّف أو تصنُّع . فهو يقول : « إذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً . وكان صحيحَ الطبع . بعيداً من الاستكراه . ومنزَّهاً عن الاختلال . مصوناً عن التكلُّف . صنعَ في القلوب صنيعَ

---

(٦٥١) البيان والتبيين ١ : ٧٥

(٦٥٢) الحيوان ٣ : ٧

(٦٥٣) رسالة في النساء . مجموعة رسائل الجاحظ ط الرحمانية ـ القاهرة ١٩٢٢ ، ص ٢٧٥ .

الغيث في التربة الكريمة . ومتى فَصلتْ على هذه الشريطة ، ونفذتْ من قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ومنحها من التأييد ، ما لا يمتنع من تعظيمها صدورُ الجبابرة . ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة »(٦٥٤)

٦ ـ التلوين الصوتي أو الموسيقي الذي يعتمد على السجع ، يأتي عفو الخاطر ، والمزاوجة والترادف والجمل الاعتراضية مثل قوله : « لا أعلمُ قريناً أحسن موافاةً ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضرَ معونةً ، ولا أخفَّ مؤونة ، ولا شجرةً أطولَ عمراً ، ولا أجمعَ أمراً ، ولا أطيبَ ثمرةً ، ولا أقربَ مُجتنى ، ولا أسرعَ اداركاً ، ولا أوجدَ في كلِّ ابّانٍ من كتاب ، ولا أعلمْ نِتاجاً في حداثةِ سنه ، وقرب ميلادِه ، ورُخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمعُ من التدابير العجيبة ، والعلومِ الغريبة ، ومن آثار العقولِ الصحيحة ، ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة ، ومِنَ الحِكَمِ الرفيعةَ ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، ومن الاخبارِ عن القرون الماضية ، والبلاد المتنازحةِ ، والأمثالِ السائرة ، والأُمم البائدة ، ما يجمع لكَ الكتابُ (٦٥٥) »

لقد رُزقَ أسلوبه القبول في القلوب ، لصدقه وواقعيته ودقّته وتوافقه بين اللفظ والمعنى ، ولذلك اكتسب الخلود ، .واستحقَّ أن يكون المعلم الاول في الإنشاء العربي . وخيرُ ما نختتم هذه الدراسة الوجيزة عن سيرته وانشائه الأبيات الآتية من نظمه :(٦٥٦) :

يَطيبُ العيشُ أنْ تلقى حكيماً ... غذاهُ العلمُ والظنُّ المصيبُ
فيكشفُ عنكَ حيرةَ كلِّ جهلٍ ... وفضلُ العلمِ يعرفُه الأديبُ
سقامُ الحرصِ ليس له شفاءٌ ... وداءُ الجهلِ ليس له طبيبُ

(٦٥٤) البيان والتبيين ١ : ٨٣ .
(٦٥٥) الحيوان ١ : ٤٢ .
(٦٥٦) تاريخ بغداد ١٢ : ٢١٥ .

سهل بن هرون

؟ ـ ٢١٥ هـ

سيرته :

سهل بن هرون ، ويكنّى أبا عمرو ، من كتّاب العصر العباسي الأول المشهورين ، وهو عراقي المولد والمنشأ . ولد في ميسان(٦٥٧) بين البصرة وواسط ، وقيل : دَسْتميسان(٦٥٨) بين البصرة وواسط والأهواز ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني للهجرة تقريباً ، ترك مسقط رأسه مع أسرته وانتقل الى البصرة مدينة العلم والمعرفة آنذاك . وفيها درس وتثقّف وظهرت مواهبة في الكتابة ونظم الشعر . وقد أثنى عليه الجاحظ ونقل كثيراً من اخباره في كتبه ، وصفه بقوله : « كان حسنَ الشارة ، بعيداً عن الفدامةِ(٦٥٩) ، معتدلَ القامةِ ، مقبولَ الصورةِ ، يُقضى له بالحكمة قبلَ الخبرة ، وبرقةِ الذهنِ قبلَ المخاطبةِ ، وبدقَّةِ المذهب قبل الإمتحان ، وبالنُّبلِ قبل التكشُّفِ »(٦٦٠)

وكان ظريفاً محبوباً ، رْويت له طرائف ونوادر كثيرة مع رجال عصره(٦٦١) ، ونال شهرة كبيرة بأدبه وكثرة مصنفاته . قال الجاحظ : هو « من الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر والخطب ، والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المخلَّدة ، والسير الحسان المدونة ، والأخبار المولدة »(٦٦٢)

جاء سهل الى بغداد حاضرة العلماء والادباء واستقر فيها وتفتَّحت أمامه آفاق الشهرة والمجد حيث تقرَّب من الخليفة الرشيد والتحق بالدواوين ، وحظي بصداقة ذي الوزارتين الفضل بن سهل وأصبح من مُقربيه وهو الذي قدّمه للخليفة المأمون وأعجب بذكائه وفطنته وبلاغته وجعله خازناً لكتب الفلسفة في دار الحكمة ، قال ابن نُباتة المصري : « كان في أول أمره خصيصاً بالفضل بن سهل ، ثم قدّمه الى المامون فأعجب ببلاغته وعقله ، وجعله كاتباً على خِزانة الحكمة ، وهي كتب

---

(٦٥٧) زهر الآداب ١ : ٥٧٧ .

(٦٥٨) الفهرست ص ١٧٤ .

(٦٥٩) الفدامة : العيّ .

(٦٦٠) البيان والتبيين ١ : ٨٩

(٦٦١) ينظر الحيوان ٢ : ٦٦ ، سرح العيون ص ٢٤٢ .

(٦٦٢) البيان والتبيين ١ : ٥٢

الفلاسفة التي نُقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ، أرسل إليه يطلب خِزانة كتب اليونان .. فأرسلها إليه ، واغتبط المأمون وأمر العلماء بتعريبها ، وجعل سهل بن هارون خازناً لها . فتصفحها ونسج على منوال كتبٍ منها »(٦٦٣) . وبقي في منصبه العلمي الى أن توفي سنة ٢١٥ للهجرة . وترك مجموعة من الكتب والرسائل مثل . ثعلة وعفراء على نسق كليلة ودمنة ألفة للمأمون ، وكتاب الإخوان ، وكتاب المسائل ، وديوان رسائل ، وتدبير الملك والسياسة ، والوامق والعذراء ، والنمر والثعلب ، والهذلية والمخزومي ، وسحرة ـ أو شجرة ـ العقل ، وسواها .

نثره وطريقته :

كان سهل بن هرون كاتباً بليغاً مشهوراً برصانة الأسلوب وجودة الديباجة ، وقد سلك طريقة ابن المقفع في تأليف الكتب التي تُعنى بشؤون الحكم والسياسة وتدبير الملك، وكذلك قصص الحيوان، ولعلَّ من أطرف كتبه «النمر والثعلب»، وقد وصل الينا قسم منه(٦٦٤)، يعتمد الحوار فيه على الثعلب الحكيم، والذئب الجاحد، والنمر الطاغي . من ذلك أن الذئب حينما استتب أمرُه في السلطة وقوي شأنه تمرّدَ على النمر وقطع عنه المعونة. فكتب النمر رسالة اليه يُهدّده فيها ويُنذره بالعقاب. فردَّ الذئبُ بهذه الرسالة : « بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد النبي الكريم. أما بعد، فإن كتابَ الملك ـ أمتع الله به ـ وصلَ إليَّ بما حذَّرفيه وأنذر وقدَّم وأخَّرَ ، وفهمتُه . وقد كان الملكُ ـ حفظه الله ـ أسندَ إليَّ أمرَ هذا الثغر المخوف على حين انتشار من العدوّ به . وانقطاعٍ من سُبُله ، واختلافٍ من الكلمة بين أهله وتسرّقٍ من الأهواء فيه . فرأبتُ(٦٦٥) صَدْعَ الآفة ، وجمعتُ شمل الطاعة ، وكشفتُ دُجْيَةَ(٦٦٦) الفتنة ، وأسغتُ الريقَ بعد الشَّجا .(٦٦٧) ، وقمعتُ أولي العداوة والبغضاء ، وأقمتُ حقّاً كان معلمُهُ متروكاً ، ودفعتُ ضلالة كان محرَّمها مسلوكاً . ألتمس بذلك جزيل الثواب وكريم المآب ورضا الملك والزلفة عنده . فعاد ما عملته هباءً . ولم أجد منه شيئاً مشكوراً . وما يُقعْقَعُ لمثلي بالشَّنانِ(٦٦٨) . وإني لألوى بعيد

(٦٦٣) سرح العيون ص ٢٤٣ .

(٦٦٤) حولية الجامعة التونسية ، العدد الأول ١٩٦٤

(٦٦٥) رأبتُ : أصلحتُ .

(٦٦٦) الدجية : الظلمة .

(٦٦٧) الشجا : الغصة .

(٦٦٨) الشنان : الجلد اليابس . والقعقع : ضرب ، وكانوا اذا ضربوا عليه نفرت الإبل ، ويضرب ذلك مثلاً لمن لا يرهبه وعيد ولا إنذار ولا تخويف .

المُسْتمرّ(٦٦٩) . فإن يستتمّ الملكُ صنيعتِه ويربُ(٦٧٠) نعمته فأنا بين العصا ولحائها(٦٧١) . والاّ فسيجدني جِذْلَ حِكاك(٦٧٢) . إذا نكأت(٦٧٣) قُرْحَةً أدميتها . أحمر(٦٧٤) . ضراباً بالسيف . والسلام »

فلما قرأ النمر الرسالة عرف أنه عزم على الانتقاض عليه فجمع وزراءه . وكانوا ثلاثةً . فاستشارهم في أمره . فأشار الأول بالكتابة اليه في ايجاز لِتَبيّن دخيلة أمره وحقيقة موقفه إن سِلْماً فسلِمٌ . وإنْ حرباً فحربٌ . وأشار الثاني بالصفح عن زلّته . فإنَّ الحرب سجال . وهي حتى على الظافر خسارةٌ في الاموال والرجال . وأشار الثالث بمحاربته قبل استفحال أمره وحتى لا يظنَّ غيره من الولاة أنَّ بالنمر ضعفاً . فيحاكوه ويسقطوا عن ظهورهم فرائض السلطان وخراجه . وأخذ النمر بقول الوزير الأول . فكتب الى الذئب رسالةً . نُسْختها : « بسم الله الرحمن الرحيم . صلّى الله على سيدنا محمد النبي الكريم . أما بعدُ . فاني رأيتك تُقدِّمُ رجلاً وتؤخرُ أخرى . فإذا نظرتَ في كتابي هذا فاعتمدْ على أيهما شئت .فإن كنتَ سِلْماً فأقبلْ والاّ فأذنْ بحربٍ . والسلام » .

إنَّ طريقته في الكتابة واضحة وجلية . لا تكلُّفَ فيها ولا التواء . الى جانب الفصاحة . والدقّة في اختيار الألفاظ وملاءَمتها في سياق العبارات . والتقطيع الصوتي الجميل الذي يبهرُ السامعَ . مثل قوله : « لو أنَّ رجلين خطبا أو تحدّثا . أو احتجاً أو وصفا . وكان احدهما جميلاً جليلاً بهيّاً . ولبّاساً نبيلاً . وذا حسبٍ شريفاً . وكان الآخرُ قليلاً قميئاً . وباذَّ الهيئة . وخاملَ الذِّكر مجهولاً . ثم كان كلامهما في مقدارٍ واحدٍ من البلاغة . وفي وزنٍ واحدٍ من الصواب لتَصدع عنهما الجمع وعامتُهم تقضي للقليل الدّميم على النبيل الجسيم . وللباذِّ الهيئة على ذي الهيئة . ولشغلهم التعجُّب منه عن مساواةِ صاحبه به . ولصار التعجُّبُ منه سبباً للعجب به . ولصار الاكثارُ في شأنه عِلة للاكثار في مدحه ؛ لأن النفوس كانت له أحقر . ومن بيانه أياس . ومن حسده أبعد . فإذا هجموا منه على مالم يكونوا يحتسبونه . وظهر منه خلافُ ما

---

(٦٦٩) ألومي : عسر . يلتوي على خصمه . بعيد المستمر : قوى بها الخصومة .

(٦٧٠) يربُّ : ينمي ويزيده .

(٦٧١) لحا العصا : قشرها . والكناية واضحة .

(٦٧٢) الجذل : أصل الشجرة . حكاك من الحك وهو الدلك . وجذل حكاك : مثل يضرب لمن يستشفى برأيه .

(٦٧٣) نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرأ .

(٦٧٤) كنى بالحمرة على البأس الشديد .

قدّروه . تضاعفَ حُسْنُ كلامه في صدورهم ، وكبُرَ في عيونهم ؛ لأنَّ الشيء من غير معدنه أغرب . وكلّما كان أغربَ كان أبعدَ في الوهم . وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرفَ . وكلما كان أطرفَ كان أعجبَ . وكلما كان أعجب كان أبدع وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان ومُلَح المجانين ؛ فإنَّ ضحكَ السامعين من ذلك أشدُّ . وتعجبهم به أكثر . والناسُ موكَّلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البعيد . وليس لهم في الموجود الراهن . وفيما تحت قُدرتهم من الرأي والهوى ، مثلُ الذي لهم في الغريب القليل . وفي النادر الشاذّ . وكلُّ ما كان مِلْكَ غيرهم . وعلى ذلك زَهِدَ الجيرانُ في عالمهم . والأصحابُ في الفائدة من صاحبهم . وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم . ويرحلون الى النازح عنهم . ويتركون من هو أعمُّ نفعاً وأكثر في وجوه العلم تصرُّفاً . وأخفُّ مؤونةً وأكثرُ فائدة . ولذلك قدَّمَ بعضُ الناس الخارجيَّ على العريق ، والطارف على التليد(٦٧٥) » .

إنَّ براعة الأُسلوب والصياغة المحكمة والديباجة المشرقة في نثره رفعت من شأنه وأنزلته منزلة رفيعة بين أرباب البيان والسيف ، وسرت أقواله بين القراء كالحكم ، مثل قوله ، « العقلُ رائدُ الروح ، والعلمُ رائدُ العقل . والبيانُ ترجمانُ العلم(٦٧٦) . وقوله : « اللسانُ البليغُ والشعرُ الجيدُ لا يكادان يجتمعان في واحد . وأعسرُ من ذلك أن تجتمع بلاغةُ الشعر ، وبلاغةُ القلم(٦٧٧) »

---

(٦٧٥) البيان والتبيين ١ : ٨٩ .

(٦٧٦) نفسه ١ : ٧٧ .

(٦٧٧) نفسه ١ : ٢٤٣ .

عمرو بن مَسْعَدَة

؟ ـ ٢١٧ هـ

سيرته :

هو عمرو بن مَسْعَدَة بن سعيد بن صُول ، وكنيتُه أبو الفضل ، وهو ابن عم ابراهيم بن العباس الصُولي الشاعر الكاتب (ت ٢٤٣ هـ) ، اعتنقَ جدُه الاسلام زمن بني أمية . وكان أبوه مَسْعَدَة كاتباً بليغاً يشتغل في ديوان الرسائل زمن الخليفة المنصور ، وقد نقل ياقوت قطعةً نثريةً له في تعظيم الاسلام تتميَّز بالبلاغة وحسن الصياغة ، وهي : « الحمدُ لله الذي عظَّمَ الاسلامَ واختاره ، وأوضحه وأناره ، وأعزَّه وأنافه وشرَّفه وأكمله وتمَّمه وفضَّله وأعزَّه ورفعه ، وجعله دينه الذي أحبَّه واجْتَباه ، واستخلصه وارتضاه واختاره واصطفاه ، وجعله الدين الذي تعتدُّ به ملائكته ، وأرسل بالدعاء عليه أنبياءه ، وهدى له من أراد اكرامه واسعاده من خلقه ، فقال جلَّ من قائل : (انَّ الدين عندَ الله الاسلامُ) وقال جلَّ وعلا : (ومن يبتغِ غيرَ الاسلام ديناً فلنْ يُقبلَ منه) وقال : (مِلَّةَ أبيكم ابراهيمَ هو سمَّاكُم المسلمينَ مِنْ قبلُ) . فبهذا الاسلام والدخول فيه والعلم به وأداء شرائعه والقيام بمفروضاته وصلت ملائكته ورسله الى رضوان الله ورحمته وجواره في جنته ، وبه تحرَّزوا من غضبه وعقوبته ، وأمنوا نكال عذابه وسطوته »(٦٧٨).

وكان لمسعدة أربعةُ بنين : عمرو ، ومحمد ، ومسعود ، ومُجاشع الذي يقول فيه أبو العتاهية :(٦٧٩)

عَلِمْتَ يامجاشعُ بن مَسْعَدهْ أنَّ الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ

مفسدةٌ للمرء أيَّ مَفْسَدَهْ

لم يصل الينا شيء عن مولد عمرو بن مسعدة ونشأته وأساتذته ، ولا نعلم نوع الدراسة التي انصرف اليها ، ولعلَّ أباه وجهَّه منذ الصغر نحو القراءة والكتابة والدرس ، وعلَّمه صنعةَ الكتابة التي كانت الطريق للصعود الى المجد والعُلَى والغنى :

أقبل على أعمال الخلافة ، فاشتغل كاتباً للتوقيع بين يدي جعفر بن يحيى ، قال عن نفسه : « كنتُ أُوقِّعُ بين يَدَي جعفر بن يحيى ، فرفعَ اليه غلمانهُ ورقةً يستزيدونه في روايتهم ، فرمى بها اليَّ وقال : أجبْ عنها ، فكتبتُ : قليلُ دائمٌ خيرُ

(٦٧٨) معجم الادباء ٦ : ٨٨ .

(٦٧٩) معجم الادباء ٦ : ٨٨ .

من كثير منقطع . فضرب بيده على ظهري وقال : أيُّ وزير في جِلْدك(٦٨٠) » . ولما شاع ذكره في صنعة الكتابة ومهارته فيها وبلغ خبرة الى المأمون قرّبه اليه وأكرمه وأخذه معه حينما زار دمشق . واختلفت الروايات في تولّيه الوزارة . فقال ياقوت الحموي : « قد ولي للمأمون الأعمال الجليلة . وألحق بذوي المراتب النبيلة . وسمّاه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً(٦٨١) » . وقال المسعودي : ان المأمون استوزره(٦٨٢) . ومهما كان . فالمرتبة التي وصل اليها كانت جليلة وعظيمة . حيث اشتغل في ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والأزمة :

كان الخليفة المأمون يُجله ويحترمه . ويُسميه الرومي لبياض وجهه وجمال صورته . وقد « أقبلت عليه الدنيا اقبالاً عظيماً . فنعمَ ولذَّ واغتبطَ . وقصده القاصدون . وطابت نفسه باصطناعهم والاحسان اليهم . وعطف على العُفاة والقُصّاد . فاستكثر من الأنصار وانبسطت نفسه ويده بالعطاء . فتعشقته نفوس الناس وأهل الدولة . والخليفة من وراء ذلك يمده . ويطلق يده في المال والنوال(٦٨٣) » .

خرج مع المأمون في غزوة في بلاد الروم وتوفي بمدينة أَذَنَة(٦٨٤) سنة ٢١٧ للهجرة . (٦٨٥) « ورُفعت الى المأمون رقعةٌ أنه خلَّف ثمانين ألف ألف درهم . فوقّع في ظهرها . هذا قليلٌ لمن اتصل بنا وطالتْ خدمته لنا . فبارك الله لولده فيما خلف . وأحسن لهم النظر فيما ترك(٦٨٦) » .

نثره وأسلوبه :

كان عمرو بن مسعدة أحد البلغاء المعروفين في عصر الخليفة المأمون . قال ابن النديم : « كان بليغاً شاعراً مُترسّلاً وله كتاب رسائل كبير(٦٨٧) » . وقال ابن خلكان : « كان كاتباً بليغاً جَزْلَ العبارة وجيزها . سديد المقاصد والمعاني(٦٨٨) » .

---

(٦٨٠) أمراء البيان ص ١٧٥ .

(٦٨١) معجم الادباء ٦ : ٨٨ .

(٦٨٢) مروج الذهب ٢ : ٤١٧ .

(٦٨٣) أمراء البيان ص ١٧٦ .

(٦٨٤) أذنة : بلدة في بلاد الروم قريبة من البحر الابيض المتوسط ، لها نهر يقال له سيحان .

(٦٨٥) وقيل توفي سنة ٢١٥ للهجرة (وفيات الاعيان ٣ : ٤٧٦) .

(٦٨٦) معجم الادباء ٦ : ٨٩ .

(٦٨٧) الفهرست ص ١٧٨ .

(٦٨٨) وفيات الاعيان ٣ : ٤٧٥ .

انَّ أسلوبه يتميز بالمتانة والوضوح والايجاز ، وهو من السهل المتنع ، وصفه الفضل بن سهل بقوله : « هو أبلغُ الناسِ ، ومن بلاغته أن كلَّ أحدٍ اذا سمع كلامه ظنَّ أنه يكتبُ مثله ، فاذا رامه بَعُدَ عليه(٦٨٩) » ، مثل قوله في رسالة له الى الحسن بن سهل : « أما بعدُ ، فانكَ ممن اذا غرسَ سقى ، واذا أسَّسَ بني ليستتمُّ تشييد أسِّهِ ، ويجتني ثمار غرسه ، وثناؤك عندي قد شارفَ الدروس ، وغرسُكَ مشفٍ على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسستْ وسقيَ ما غرستْ ، ان شاء الله تعالى(٦٩٠) » .

لقد كان نثره الموصوف بالإيجاز الدالّ على المعنى الكثير موضع إعجاب أرباب البيان ، قال أحمد بن يوسف الكاتب : « دخلتُ على المامون ، وهو يمسكُ كتاباً بيده ، وقد أطال النظر فيه زماناً وأنا ملتفتٌ إليه ، فقال : يا أحمد ، أراكَ مفكراً فيما تراه منّي ، قلتُ : نعم ، وقى الله أمير المؤمنين مِن المكاره ، وأعاذَهُ من المخاوف ، قال : فإنَّه لامكروه فيه ، ولكنني قرأت كلاماً وجدتُه نظيرَ ماسمعتهُ من الرشيد يقوله في البلاغة ، كان يقول : البلاغةُ التباعد عن الإطالة ، والتقرُّبُ من معنى البغية ، والدلالةُ بالقليل من اللفظ على المعنى ، وما كنت أتوهَّمُ أنَّ أحداً يقدرُ على المبالغة في هذا المعنى حتى قرأتُ هذا الكتابَ ، ورمى به اِليَّ ، وقال : هذا كتابٌ مِن عمرو بن مَسْعَدة إليه ، قال : فقرأته فإذا فيه : (كتابي الى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلي من قوّاده وسائر أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جندٍ تأخَّرت أرزاقهم ، وانقياد كُفاة تراخت(٦٩١) أعطياتهم ، واختلَّتْ لذلك أحوالهم ، والتاثتْ(٦٩٢) معه أمورهم) فلما قرأته قال : إن استحساني إياه بعثني على أن أمرتُ للجند قبله بعطائهم لسبعةِ أشهر ، وأنا على مُجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حلَّ محله في صناعته »(٦٩٣)

وقد رأى القلقشندي أن طريقة مجموعةٍ مز كتاب العصر العباسي الأول ومنهم عمرو بن مسعدة شبيه بطريقة الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تجويد الالفاظ وصحة المعاني وتقويم المباني ، فقال : « لقد كان المتقدمون لا يحتفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه الا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، واتفق من غير قصد ولا اكتساب ، وانما كانت كلماتهم متوازية ، وألفاظهم مُتساوية ، ومعانيهم

(٦٨٩) معجم الادباء ٦ : ٨٩ ، صبح الاعشى ٢ : ٢٢٠ .

(٦٩٠) معجم الادباء ٦ : ٩٠ .

(٦٩١) تراخت : تقاعست وتأخرت .

(٦٩٢) التاثت : اختلطت .

(٦٩٣) وفيات الاعيان ٣ : ٤٧٨ ، وينظر العقد الفريد ٢ : ٢٧٢ .

ناصعة ، وعباراتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة ، وجملُ كلامهم متماثلة ؛ وتلك طريقة الامام علي رضي الله عنه ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام . كابن المقفَّع ، ويزيد بن هارون ، وابراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مَسْعَدَة ، وأبي عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء(٦٩٤) » .

اشتهر عمرو بن مسعدة بالحكم البليغة مثل قوله :

- عليكم بالاخوان فانهم زينةٌ في الرخاء وعدَّةٌ للبلاء .
- قلَّة الزيارة أمانٌ من الملامة
- أسرع الاشياء انقطاعاً مودةُ الأشرار .
- اخوان السوء كشجرٍ في النار يحرقُ بعضه بعضاً .
- ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد .
- كمونُ الحقدِ في الفؤاد ككمونِ النار في الزناد .
- القريبُ بعيدٌ بعداوته ، والبعيدُ قريبٌ بمودته .
- لا تأمنن عدوكَ وان كان مقهوراً ، واحذره وان كان مفقوداً ، فان حدَّ السيف فيه وان كان مغموراً .
- نصحُ الصديق تأديبٌ ، ونصحُ العدو تأنيبٌ .
- الودُّ أعطف من الرحم .
- النفس بالصديق آنسُ منها بالعشيق .
- من حقوق المودَّة عفو الاخوان ، والاغفاء عن تقصيرٍ ان كان .
- يبقى الوُدُّ ما بقي العتاب(٦٩٥) .

---

(٦٩٤) صبح الأعشى ٢ : ٣٢٧ .

(٦٩٥) ثمة شواهد أخرى في كتاب أمراء البيان ص ١٨٠ .

محمد بن عبد الملك الزيّات

۱۷۳ ـ ۲۳۳ هـ

سيرته :

هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة . ويكنّى أبا جعفر . ويُعرف بابن الزيّات . كان جدُّه من قرية يقال لها الدَّسْكَرة القريبة من بغداد . يجلبُ الزيتَ من مواضعه ويبيعه في بغداد فغلب هذا التلقيبُ على بيته.

ولد ابن الزيّات في بغداد سنة ۱۷۳ للهجرة من أصل عربي . ونشأ فيها . وكان أبوه من الاغنياء الموسرين في بغداد بجانب الكرخ . حثّه على التجارة والتعلق بها وملازمتها . ولكنه رفضها وامتنع عنها وأقبل نحو علوم اللغة العربية وآدابها ينهل من ينابيعها حتى نبغ في الشعر والنثر على السواء. نُقل عن ابنه عمر بن محمد بن عبدالملك أنه قال: «كان جَدّي موسراً من تجار الكرخ. وكان يريدُ من أبي أنْ يتعلّقَ بالتجارة . ويتشاغل بها . فيمتنع من ذلك ويلزم الادبَ وطلبه . ويخالط الكتّاب . ويلازم الدواوين. فقال له ذاتَ يوم: والله ما أرى ماأنتَ ملازمُه ينفعُكَ ؛ وليضُرَّنَّكَ ؛ لأنكَ تدع عاجلَ المنفعة . وما أنتَ فيه مكفيٌّ. ولكَ ولأبيك فيه مال وجاه . وتطلبُ الآجلَ الذي لا تدري كيف تكون فيه . فقال : والله لتعلمنَّ أيُّنا ينتفع بما هو فيه : أأنا أم أنت ؟ ثم شَخَصَ الى الحسن بن سهل بِفَمِ الصّلح(٦٩٦) . فامتدحته بقصيدة . فأعطاه عشرة آلاف درهم . فعاد بها الى أبيه . فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه(٦٩٧) »

ويبدو أنَّ ابن الزيات لم يكن قانعاً بما حصل عليه من مال . وانما كان طامعاً في منصبٍ يتولاه في الدولة . فأقبل على الحسن بن سهل وأنشده(٦٩٨) :

لم أمتدِحْكَ رجاءَ المالِ أطلبُهُ ... لكنْ لتُلْبِسَني التحجيلَ والغُرَرا
وليس ذلكَ الاَّ أنَّني رَجُلٌ ... لا أطلبُ الورْدَ حتى أعرفَ الصَّدَرا

---

(٦٩٦) فم الصلح : موضع على نهر الصلح ، وهو فوق واسط . والصلح كانت دار الحسن بن سهل .

(٦٩٧) الاغاني ٢٢ : ٤٦ .

(٦٩٨) الأغاني ٢٢ : ٤٧ .

وتحقق له ما أراد ، اذ عيَّنه كاتباً بالدواوين . وأخذ نجمه يعلو ، واشتهر أمره بين الأدباء والعلماء . فقد ذكر الرواة « أنَّ عثمان المازني لما قدم بغداد في أيام المعتصم ، كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في علم النحو . فاذا اختلفوا فيما يقعُ فيه الشكُّ يقول لهم أبو عثمان : ابعثوا الى هذا الفتى الكاتب ، يعني محمد بن عبد الملك . فأسألوه واعرفوا جوابه . فيفعلون ويصدرُ جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه(٦٩٩) » .

يقي ابن الزيات يشتغل كاتباً في دواوين الدولة زمن الخليفة المأمون ، ولما ولي المعتصم الخلافة استوزره وأصبح الرجلَ الأولَ في دولته لعلمه وذكائه وقدرته على تسيير أمور الحكم ، وحظي بتقدير الناس واحترامهم ، ووفد عليه كثير من العلماء والأدباء ، أمثال أبي تمام والبحتري والجاحظ والحسن بن وهب وحنين بن اسحاق ...

ظلَّ ابن الزيات وزيراً في خلافة الواثق . وكانت بينه وبين قاضي القضاة أحمد بن أبي دُؤاد منافسةٌ انقلبت فيما بعد الى جفوةٍ وبغضاء وعداوةٍ وشحناء وتهاج بالشعر . « وكان الواثق قد أمر أن لا يرى أحدُ من الناس محمدَ بن عبد الملك الزيات الوزير الا قام له ، فكان ابن أبي دؤاد اذا رآه قامَ واستقبلَ القبلة يُصلّي ، فقال ابنُ الزيات :

صلّى الضُحى لما استفادَ عداوتي ... وأراهُ يَـنْـسُـكُ بعدها ويَـصُومُ
لا تَـعْـدَمَـنَّ عداوةً مسمومةً ... تركتكَ تقعدُ تارةً وتقومُ(٧٠٠) »

وحينما جاء المتوكل الى الخلافة ، كان في نفسه شيء منه ، لأنَّ ابن الزيات حاول أن يصرف الخلافة عنه الى ابن الواثق . وقيل كان يتجهمَ للمتوكل ويغلظ عليه القولَ(٧٠١) .

استوزره المتوكل أربعين يوماً ، ثم قتله مخدوعاً بأقوال ابن أبي دؤاد وغيره من الحاقدين عليه بحجة أنه جمع أموالاً طائلة في أثناء توليه الوزارة .

---

(٦٩٩) وفيات الاعيان ٣ : ٩٤ .
(٧٠٠) وفيات الاعيان ٤ : ٨٥ وينظر ديوان ابن الزيات ص ٦٦ .
(٧٠١) ينظر الكامل لابن الاثير ٧ : ٣٦ .

قضى ابنُ الزيات نحبه في التنور الذي اتخذه أيام وزارته . وكان فيه مسامير يُعذّبُ فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال . وكان موته سنة ٢٣٣ للهجرة . وقد ندم المتوكل على مقتله ، وعلم أن أقوال الوشاة كانت كاذبة ومُلفّقة ، وقال لابن أبي دؤاد : أطمعتني في باطل ، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً(٧٠٢) .

أسلوبه في الكتابة :

كان ابن الزيات عالماً أديباً . ترك ديوان رسائل(٧٠٣) . وديوان شعر(٧٠٤) . وقد أشاد به ابراهيم بن المدبر الوزير فقال : « انَّ محمد بن عبد الملك من ألطف الناس ذهناً ، وأرقهم طبعاً ، وأصدقهم حسّاً ، وأرشقهم قلماً ، وأملحهم اشارةً . اذا قال أصابَ ، واذا كتب أبلغَ ، واذا شعر أحسنَ ، واذا اختصر أغنى عن الاطالة(٧٠٥) » . ووصف أبو عبادة البحتري بلاغته في الكتابة بقوله(٧٠٦) :

لـتـفـنّـنـتَ في الـكـتـابةِ حـتـى ... عطّلَ الناسُ فَنَّ عبد الحميدِ
في نـظـامٍ مـن الـبلاغة ماشـ ... ـكَ امرؤٌ أنّـه نـظامُ فريدِ
وبديـعٍ كأنّـه الزَهَرُ الـضا ... حِكُ في رونقِ الربيع الجديدِ
مشرقٌ في جوانبِ السمع مايُخـ ... ـلقُهُ عَوْدُهُ على المستعيدِ
ما أعيرت منه بطونُ القراطيـ ... ـسِ وما حُمّلتْ ظهورُ البريدِ
مستميلٌ سمع الطروب المعنى ... عـن أغاني مـخارق وعـقيدِ
حـجـجٌ تُـخرسُ الألدَّ بألـفا ... ظ فرادي كالـجوهر المـعدود
ومعانٍ لو فـصّلـتـها الـقوافي ... هـجّنـتْ شـعرَ جرولٍ ولـبيدِ
حُزْنَ مُستعمـلَ الـكلام اختـياراً ... وتـجنـبـنَ ظـلـمةَ الـتعقيدِ
وركبـنَ الـلفـظَ الـقريبَ فأدركـ ... ـنَ بـه غايةَ المرادِ الـبعيدِ
كالعذارى غدونَ في الحللِ الصفـ ... ـر اذا رُحْنَ في الخطوط السود

---

(٧٠٢) امراء البيان ص ٢٧١ .
(٧٠٣) الفهرست ص ١٧٧ .
(٧٠٤) طبع في القاهرة سنة ١٩٤٩ بتحقيق الدكتور جميل سعيد .
(٧٠٥) امراء البيان ص ٢٥٩ .
(٧٠٦) ديوان البحتري ١ : ٦٢٦ .

انّ من أبرز سمات نثر ابن الزيات الايجار في الالفاظ مع الاتساع في المعاني ، وحسن اختيار الكلمات الفصيحة ودقّة استخدامها في الجمل والعبارات وكأنّها حبات منضّدة مُتّسقة ، مثل قوله ، « انّ حقَّ الأولياء على السلطان تنفيذُ أمورهم ، وتقويمُ أودهم ، ورياضةُ أخلاقهم ، وأن يميز بينهم ، فيقدّم مُحسنهم ، ويُؤخّر مسيئهم ؛ ليزدادَ هؤلاء في احسانهم ، ويزدجر هؤلاء عن اساءَتهم(٧٠٧) »

كان ابن الزيات معجباً بالاسلوب الفصيح البليغ ، فها هو ذا يطربُ لسماع قصيدةٍ ، لما تطويه من معنى ، وتحويه من بلاغة ، وتعلن عنه من فصاحة ، لأبي تمام في مدحه ، فيقول له : « يا أبا تمام ؛ والله انكَ لتحلّي شعركَ من جواهر لفظكَ وبدائع معانيكَ ما يزيد حسناً على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب ؛ وما يُدّخرُ لكَ من جزيل المكافأة الاّ يَقْصُرُ عن شِعْرِكَ في الموازنة(٧٠٨) » .

انّ غزيرَ علمه ، وكثرةَ محفوظاتهِ ، ووافرَ ثروتهِ اللغوية ، وسعةَ اطلاعِه على ثقافة عصره ، جعلت الألفاظ تنقادُ له والمعاني تطاوعُه بيسرٍ وسهولةٍ في كلّ المواقف . فمن جميل ما وصل الينا من نثره قولُه ؛ « الحمد لله الذي جعلَ أمير المؤمنين معقودَ النيّة بطاعته ، مُنطوي القلب على مناصحته ، مشحوذ السيف على عدوِّه ؛ ثم وهبَ له الظفر ، ودوّخ له البلادَ ، وشرّد به العدوّ ، وخصّه بشرفِ الفتوح شرقاً وغرباً ، وبرّاً وبحراً(٧٠٩) » وقوله ، « انَّ الله أوجبَ لخلفائه على عباده حقَّ الطاعةِ والنصيحةِ ، ولعبيدهِ على خلفائه بسط العدل والرأفة ، واحياء السُّنن الصالحة ، فاذا أدّى كلٌّ الى كلٍ حقَّهُ كان سبباً لتمام المعونة ، واتصالِ الزِّيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة(٧١٠) » وقوله ، « أفعال الأمير عندنا معسولةٌ كالأماني ، متصلةٌ كالأيام ، ونحن نُواترُ الشكرَ لكريم فعله ، ونواصلُ الدعاءَ له مواصلةَ برّه ؛ انّه الناهضُ بكلّنا ، والحاملُ لأعبائنا ، والقائمُ بما نابَ من حقوقنا(٧١١) » .

---

(٧٠٧) العقد الفريد ٤ : ٢٤٠ .
(٧٠٨) زهر الآداب ١ : ٧٦ .
(٧٠٩) العقد الفريد ٤ : ٢٤١ .
(٧١٠) نفسه ٤ : ٢٤٠ .
(٧١١) نفسه ٤ : ٢٤١ .

ابنُ قُتَيبة

٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ

بلغت الثقافة الاسلامية مرتبةً رفيعةً ومنزلةً عاليةً في القرن الثالث للهجرة . وقد مَثَّلَ ابن قتيبة بعدِ الجاحظ هذه الثقافة خيرَ تمثيل . ورفد المكتبة بثروة كبيرة تتصل باللغة والنحو والادب والتفسير والحديث والفقه والتاريخ وسواها من علوم اللغة العربية وآدابها . انتفعت منها الاجيال انتفاعاً كبيراً حتى قبل « كلُّ بيتٍ ليس فيه شيٌ من تصنيفه لاخير فيه »(٧١٢) .

سيرته :

هو عبد الله بن مسلم قُتيبة الدِّينَوَري . يكنَّى ابا محمد . اختلفَ الدارسون في مكان ولادته . قال ابن الانباري وابن النديم وابن الاثير : انه ولد في الكوفة . وقال اخرون . منهم السمعاني والقفطي : انه ولد في بغداد سنة ٢١٣ للهجرة . اما نسبته الى مدينة دِينور فلأنَّه ولي القضاء فيها مدة(٧١٣) .

نشأ وشب في بغداد . وكانت يؤمئذ مهد العلم . ومنتدى الادب . ومدينة الحضارة . فأكبَّ على الدرس . وجَدَّ في التحصيل على علماء التفسير والحديث وائمة اللغة والرواية وشيوخ الادب . امثال ابي حاتم السجستائي . واسحاق بن راهويه . وابراهيم بن سفيان الزيادي . وألمَّ بما ترجم عن اليونانية والهندية والفارسية . واتصل بالجاحظِ وقرأ كتبه(٧١٤) . وحضر مجالس المعتزلة . ولكن سرعان قلاهم وردَّ عليهم وبين سقطاتهم التي هووا فيها حينَ غالوا في اعتماد العقل وفرطوا في التزام النص(٧١٥) .

لزم ابن قتيبة مدينة بغداد . وكانت له صلة بابي الحسن عبيدالله بن يحيى ابن خاقان وزير المتوكل وباسمه الف كتابه « أدب الكاتب »(٧١٦) . وارتحل الى

(٧١٢) تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية ص ١٣٢ .

(٧١٣) تنظر مصادر ترجمة في هامش نزهة الالباء في طبقات الادباء ص ١٤٢ . وهامش انباه الرواة على انباه النحاة ٢ : ١٤٢ . وابن قتيبة العالم الناقد الاديب للدكتور محمد عبدالحميد الجندي . وابن قتيبة للدكتور محمد زغلول سلام .

(٧١٤) عيون الاخبار ٢ : ٢٤٩ .

(٧١٥) ينظر تأويل مختلف الحديث ص ١٣ وما بعدها

(٧١٦) تنظر مقدمة ادب الكاتب ص ٥

دينور لولاية القضاء عليها . ورجع الى بغداد منصرفاً الى التأليف والتدريس ، ولم يخرج منها الاّ مدّة يسيرة قصد فيها الى الحج . ثم عاد ليواصل التدريس الى ان توفي سنة ٢٧٦ للهجرة .

كتبه واسلوبه :

اجمع الذين ترجموا لابن قتيبة على انه كان احد العلماء الادباء ، والحفاظ الاذكياء ، وان مصنفاته عظيمة القدر وجليلة النفع(٧١٧) . ففي الادب صنف عيون الاخبار ، وادب الكاتب ، والشعر والشعراء ، وكتاب المعاني ، والمعارف ، ووصية الى ولده . وكل هذه الاثار مطبوعة . وصنف عيون الشعر ، وطبقات الشعراء ، والمناقضة ، وديوان الكتاب ، وصناعة الكتابة ، والحكاية والمحكي ، وفرائد الدر ، وحكم الامثال ، وآداب العشرة .

والف في اللغة والنحو كتاب الجراثيم ، والوحش ، وخلق الانسان ، والاشتقاق ، وجامع النحو .

وكتب في التفسير تأويل مشكل القرآن ، وتفسير غريب القرآن وهما مطبوعان ، ومعاني القرآن ، واعراب القرآن ، وكتاب التفسير .

واختصّ الحديث بكتاب تأويل مختلف الحديث ، والمسائل والاجوبة وهما منشوران ، وغريب الحديث ، واصلاح غلط ابي عبيد في غريب الحديث .

وافرد في الفقه كتاب الاشربة ، والميسر والقداح ، وكلاهما مطبوعان ، وجامع الفقه ، وتأويل الرؤيا ، واستماع الغناء بالالحان ، والتفقيه ، والصيام .

وعمل في القراءة كتاب القراءات ، وآداب القراءة .

ووضع في الكلام الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، والرد على الشعوبية ، والكتابان محققان ، ودلائل النبوة من الكتب المنزلة على الانبياء عليهم السلام ، والرد على القائل بخلق القرآن .

ودوّن في التاريخ مناقب الخلفاء الراشدين ، وسير العجم ، وكتاب الوزراء ، وفي الفلك كتاب الانواء وهو مطبوع ، وفي الزرع كتاب النبات .

وثمة اسماء اخرى لمصنفاته لا يتسع المقام لذكرها(٧١٨) .

---

(٧١٧) الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجري ص ١٨٣ .

(٧١٨) انظر ثبتاً باسماء مؤلفات ابن قتيبة في مقدمة كتاب عيون الاخبار ١ : ٣٢ – ٤٢ ومقدمة كتاب تأويل مشكل القرآن ص ٨ – ٢٩ .

من اميز خصائص اسلوب الكتابة عند ابن قتيبة الوضوح والسهولة والسلاسة مع العناية بجودة المعنى والاسترسال في الكلام دون التقيد باغلال الصنعة، والاستشهاد بالايات والاحاديث والامثال والحكم والشعر. جاء في مقدمة كتابه المشهور « الشعر والشعراء » قوله : « كان حقُّ هذا الكتاب ان اودعه الاخبار عن جلالة قدر الشعر وعظيم خطره . وعمن رفعه الله بالمدح ، وعمن وضعه بالهجاء . وعما اودعته العرب من الاخبار النافعة ، والانساب الصحاح ، والحِكَم المضارعة لحكم الفلاسفة ، والعلوم في الخيل . والنجوم وانوائها والاهتداء بها ، والرياح وما كان منها مبشراً او خائلاً ، والبروق وما كان منها خُلّباً او صادقاً ، والسحاب وما كان منها جَهاماً او ماطراً ، وعما يبعثُ منه البخيل على السماح ، والجبان على [illegible] ، والدنيءعلى السمو ، غير اني رايت ماذكرت من ذلك في كتاب العرب(٧١٩) كثيراً كافيا فكرهت الاطالة باعادته . فمن احبَّ ان يعرف ذلك ليستدل به على حلو الشعر ومُرّه ، نظر في ذلك الكتاب(٧٢٠) .

انَّ كتابات ابن قتيبة الى جانب الترسل وتوخي السهولة والزهد في السجع الا ماجاء عفواً ، جيدة الصياغة ، لطيفة التعبير ، مثل قوله في ابي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان : « الحمد للهِ الذي اعاذ الوزير ابا الحسن ـ ايده الله ـ من الرذيلة ، وابانه بالفضيلة ، وحباه بخيم السلف الصالح(٧٢١) ، وردَّاه رِداءَ الايمان ، وغشّاهُ بنوره ، وجعله هدى من الضلالات ، ومصباحاً في الظلمات ، وعرَّفه مااختلف فيه المختلفون ، على سَنَن الكتاب والسُّنة ، فقلوب الخيار له مَعتلقةٌ ، ونفوسهم اليه مائلة ، وايديهم الى الله فيه مَظانُّ القبول ممتدَّة ، والسنتهم بالدعاء له شافعة ، يهجع ويستيقظون ، ويغفل ولا يغفلُونَ ؛ وحُقَّ لمن قام لله مقامَهُ ، وصبَر على الجهاد صبرَهُ ، ونَوَى فيه نِيَّتَهُ ، ان يلبسه الله لباسَ الضميرِ ، ويُرَدِّيَهُ رداء العمل الصالح ، ويَصُورَ اليه مختلفات القلوب(٧٢٢) ، ويُسعده بلسان الصدق في الاخرين(٧٢٣) » .

---

(٧١٩) من هذا الكتاب قطعة نشرها الاستاذ محمد كَرد علي في رسائل البلغاء ص ٢٦٩ .

(٧٢٠) الشعر والشعراء ١ : ١١ .

(٧٢١) ابانه : ميزه وفضله عن غيره ، حباه : منحه وخصه ، الخِيم : الطبع والشيمة والسجية .

(٧٢٢) ان يلبسه الله لباس الضمير : اي يظهر الله عز وجل ضميره الجميل . يصور : يميل .

(٧٢٣) ادب الكاتب ص ٥ .

العصر العباسي الثاني

٣٣٤ ـ ٦٥٦ هـ

توطئة :

ضعفت الخلافة العباسية ، وذهبت هيبتها ، بعد مقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ للهجرة بمؤامرة مدبرة من ابنه المنتصر مع الغلمان الأتراك(٧٢٤) وأخذت الأوضاع تتدهور وتتردّى ، وأصبحت أمور الخلفاء بيد القواد والخدم من غير العرب ، يعزلون ويولّون حسب أهوائهم ورغباتهم ، ففي أثناء أربعة عشر عاماً (٣٢٠ ـ ٣٣٤ هـ) عزلوا ونصبوا خمسة خلفاء ، منهم مَنْ قُتل ، ومنهم مَنْ خُلع أو أهين وسُجن وسُمِلَتْ عيناه .

وظهرت في هذه الحقبة إمارات ودويلات في الشرق والغرب ، انسلختْ من جسد الدولة العباسية ، لها سلطانها ونفوذها ، وقوتها وسيطرتها ، وقوادها وجنودها ، مثل السامانية فيما وراء النهر ، والزيارية في جرجان ، والغزنوية في أفغانستان والهند ، والبويهية في فارس ، والحمدانية في حلب والموصل ، والفاطمية في مصر ...

في أثناء هذا التفكك والانحلال ، وضعف مركز الخلافة ، انتهز البويهيون الفرس الفرصة ، ووجدوها سانحة لتحقيق مآربهم والوصول إلى غاياتهم ، فخرجوا من ديارهم ، وزحفوا بجيوشهم على بغداد ، وقد رحبَّ بهم الخليفة المستكفي بالله (٣٣٣ ـ ٣٣٤) ، ومنح رؤساءهم ألقاب التكريم ظناً منه انه يستعين بهم في ردّ مكانة الدولة العباسية وهيبتها إلى سابق عزها بعدما أنهكتها قوى الترك الذين اعتمد عليهم المعتصم وابتنى لهم مدينة سُرَّ من رأى ، واستفحل أمرهم يوماً بعد آخر ، وأصبح الحل والعقد بأيديهم ، يتصرّفون في شؤون الدولة كما يشاؤون ، حتى أصبحوا مهيمنين على واجبات الخلفاء مِن بعدُ .

دخل احمد بن بويه بغداد في الحادي عشر من جمادى الاولى سنة ٣٣٤ للهجرة ، وجعله الخليفة المستكفي بالله اميراً للامراء ولَقَّبه معز الدولة ، ولقّب اخاه علي بن بويه الذي استقل بادارة اقليم فارس عماد الدولة ، ولقّب الحسن بن بويه الذي اصبح حاكماً على ولايتي الري والجبل ركن الدولة ، ثم امرا ان تُضرب القابهم وكُناهم على النقود الى جوار اسمه ، وسرعان ماتنكّر معز الدولة البويهي للخليفة المستكفي بالله بعد شهر واحد من وصوله الى بغداد ، وغدر به وسجنه ، وسمل

---

(٧٢٤) مختصر التاريخ ص ١٤٧ .

عينيه ، ونهب داره ، وكانت هذه اقبح فِعلة واشنع بداية سيئة ومنكرة اقترفها البويهيون بحق الخلافة العباسية . والذي فعله معز الدولة مع الخليفة المستكفي بالله . فعله بعد ذلك بهاء الدولة مع الخليفة الطائع لله سنة ٣٨١ للهجرة واخذ ما في قصره من دخائر وجواهر .

ظل البويهيون ممسكين بزمام الامور اكثر من مئة عام . يرفلون مع حاشيتهم في ترف ونعيم وعيش كريم . اما عامة الناس فقد عاشوا في ظل الغلاء والخوف والرعب والمصادرة .

لقد ازدادت مكانة الخلافة تدهوراً وانحطاطاً وتوزعت الاقاليم المختلفة الى دول كبيرة والى دويلات صغيرة تركز كل منها حول مدينة كبيرة . حتى اننا نجد الجزيرة الفراتية تتوزع بين ثلاث اسر . تستقلُ كل منها بما تحت يدها . هي اسرة العقيليين بالموصل . واسرة المرداسيين بالرقة . واسرة المروانيين بديار بكر . وقد حمل هذا التدهور المذلّ الخليفة العباسي القائم بأمر الله التطلع الى منقذٍ للدولة والخلافة من هذه الحالة السيئة . فكان هذا المنقذ جماعة السلاجقة الاتراك . الذين دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة بادئين مرحلة جديدة من مراحل تاريخها(٧٢٥) .

دخل السلاجقة بغداد بقيادة طغرل بك . واستقبله الخليفة القائم بامر الله استقبالاً حافلاً . وخاطبه بلقب ملك الشرق والغرب(٧٢٦) . وكان هذا بدءاً لما يُعرف في التاريخ بعصر نفوذ السلاجقة . وامتدت سلطتهم على الاراضي التي كانت خاضعة للخلافة العباسية بقوة السلاح . وكانت سياستهم مع الخلافة اقل وطأةً من البويهيين . فانهم احترموا الخلافة ووقّروا الخلفاء والرؤساء الروحيين للدولة(٧٢٧) .

شجّع السلاجقة نظام الاقطاعات والاتابكيات . واسندوها الى شخصيات من اسرهم . وكثيراً ماكانت تقوم بينهم منازعات وحروب يذهب ضحيتها الناس الآمنون . ومن هنا فلم يتقدم العراق عما كان عليه سابقاً من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

---

(٧٢٥) الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ١٧٤

(٧٢٦) ينظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٢ ، المنتظم لابن الجوزي ٨ : ١٨١ ـ ١٨٢ ، تاريخ ابن الاثير ٩ : ٤٢٥ ، الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي ١ : ٣٩ ـ ٤٤ .

(٧٢٧) الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ١٨٠ .

بدأ التفكك الداخلي في الاسرة السلجوقية بعامل نظام الوراثة الذي اتبعوه . وبموت سلطانهم مسعود سنة ٥٤٧ للهجرة انهدَّ كيانهم ولم يستطع من جاء من بعده اعادة مكانتهم . اذ استطاع الخليفة المقتفي لامر الله (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ) وبمؤازة وزيره يحيى بن هبيرة ان يعيد للخلافة هيبتها واستقلالها . وكذلك ابنه المستنجد بالله الذي ثبت قاعدة الاستقلال .

اعقب خروج السلاجقة من العراق صحوةٌ عادت فيها مكانة الخليفة الى سابق حرمتها وعزّها . ويكفي هذه الحقبة فخراً ظهور خليفتين عظمين . كان لهما دور بارز ومشرّف في نهوض الامة بعد رقدتها . وسيرها حثيثاً نحو الرقي والتقدم . الاول : الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) الذي وحّد العربَ وجدَّد نظامَ الفتوَّة . والثاني : المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ) باني اكبر مدرسة آنذاك تشعُّ منها الثقافة وتستقطب الاساتذة والطلبة من كافة ارجاء العالم الاسلامي .

واخيراً جاء المستعصم بالله المعروف بقلة الخبرة والدراية بأمور السياسة . وعدم تهئية جيش قوي لمحاربة القُوى الزاحفة على البلاد الاسلامية . فكانت نهايته بيد التتر القادم من الشرق سنة ٦٥٦ للهجرة

ولا بدَّ من الاشارة هنا انَّ التفكك والانحلال الذي اصاب الدولة العباسية بعد حكم البويهيين ثم السلاجقة وتحول البلاد الى فئات مبعثرة لايجمع بينها اتحاد ولا يضمها سلطان قوي . جعل الغرب يضم اليه اقاصيه وادانيه . ويلمّ شعثه . ويرتق فتقه . ويرأب صدعة . ويتهيأ للانقضاض على الشرق المتداعي . طمعاً في خيراته ووافر ثرواته .

جاء الصليبيون الى الشرق في موجات متتابعة . وفي فترات متقاربة . ابتداء من سنة ٤٩٢ للهجرة . فأهلكوا الحرث والنسل . واشاعوا الخراب والدمار في القرى والامصار حتى قدَّر المؤرخون عدد الذين قُتلوا في مذبحة أنطاكية بعشرة الاف شخص . وفي معرة النعمان بمئة الف . وفي بيت المقدس بسبعين الف(٧٢٨) . وقال ريموند دي اكليس الذي شاهد المذبحة الاخيرة : ان الدماء قد وصلت في رواق المسجد الى الركب(٧٢٩) . فما لم يشاهده قد يربو التقدير ويفوق النعت والتعبير

---

(٧٢٨) مختصر تاريخ العرب ص ٢٨٩ .

(٧٢٩) نفسه ص ٢٨٧

وقف المسلمون بوجه الحملات الصليبية بشجاعة وصلابة . وكان للزنكيين دور بارز ومُشرف في محاربتهم . فقد ظهر فيهم البطلان عماد الدين زنكي ونور الدين محمود اللذان حاربا الاعداء بلا هوادة . ثم جاء الايوبيون وحملوا راية الجهاد والكفاح والنضال . وكان للبطل الغيور صلاح الدين الايوبي وجنوده الميامين الدور الاكبر في محاربتهم واخراجهم من القدس وردهم الى نحورهم . وقد رافقت هذه الحروب نهضة فكرية كبيرة اغنت المكتبة العربية بانتاج ضخم في مختلف فروع المعرفة . وكان للادب دور فعّال في هذه الحروب الى جانب السلاح . اذ تضافر شعراء كثيرون من الشام ومصر والعراق واليمن والمغرب على معاضدة الابطال . واظهار مناقبهم . ورسم بطولاتهم في محاربة الفرنج وجولاتهم في جلاء الغاصبين عن المواقع التي احتلوها والمدن التي استباحوها(٧٣٠) .

الادب في ظل البيئات الجديدة :

بلغت الدولة العباسية اوج قوتها . وذروة مجدها . وغاية عظمتها . وبالغ هيبتها وعزّتها . زمن الخلفاء الاوائل . امثال : المنصور . والرشيد . والمأمون . والمعتصم . ثم اخذت تضعف وتتفكك . وبدأت القوى الطامعة او المعادية تتحرَّكُ وتتكتّلُ للانفصال عن جسد هذه الدولة واقامة دويلات لأنفسها بعيدةً عن سلطة بغداد . وقد تمَّ لها ماأرادت ، لان الخلافة لم تستطع ان تقف بوجهها . وتكسر شوكتها . وتقضي على مآربها . وتمنعها من انشاء حكومات لها . وكانت هذه الدويلات بين معترفٍ ـ بصورة شكلية ـ بالخلافة او غير معترف .

تنافست الدويلات المستقلة في جذب العلماء والأدباء . واستقطاب المفكرين . والاستكثار منهم . والاغداق عليهم الاموال والصلات والهدايا . واسناد الوظائف الهامة لهم وجعلهم موضع الثقة والاستشارة(٧٣١) .

وكانت غالبية ملوك الدويلات وامرائها يتقنون اللغة العربية . ويهتمون بالمجالس العلمية والادبية . ويشاركون ارباب الاقلام في الكتابة . فعضد الدولة البويهي كان مهتماً بالاداب وله مشاركة فيه . وقد قرَّبَ عدداً كبيراً من الشعراء

(٧٣٠) ينظر بحثنا : النشاط العلمي والادبي في عهد الاسرة الايوبية . مجلة اداب الرافدين العدد ٨ لسنة ١٩٧٧ . وشعر الحرب في عصر بني ايوب . مجلة اداب الرافدين ، العدد ١٥ لسنة ١٩٨٢ . والقدس في شعر القرن السادس للهجرة . مجلة المورد . العدد (١) لسنة ١٩٨٢ .

(٧٣١) ينظر : اتجاهات الشعر في القرن الرابع الهجري

والكتاب امثال ابي اسحاق الصابي ، وابي علي النحوي ، وابي الطيب المتنبي ، وابي الحسن محمد بن عبدالله السلامي . واعتمد ركن الدولة البويهي على كاتب كبير هو ابو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد . قال ابو منصور الثعالبي هو : « اوحدُ العصر في الكتابة ، وجميع ادوات الرياسة ، وآلات الوزارة ، والضارب في الآداب بالسّهام الفائزة ، والآخذ من العلوم بالاطراف القوية ، يدعى الجاحظ الاخير ، والاستاذ ، والرئيس ، يُضرب به المثلُ في البلاغة ، وينتهي اليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسُّل وجزالة الالفاظ وسلاستها ، الى براعة المعاني ونفاستها(٧٣٢) » . واستوزر مؤيد الدولة البويهي الاديب الشاعر العالم الصاحب بن عباد الذي « احتفَّ به من نجوم الارض ، وافراد العصر ، وابناء الفضل ، وفرسان الشعر ، مَنْ يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنهم في الاخذ برقاب القوافي وملك رِقِّ المعاني ... مثل ابي الحسن السّلامي ، وابي بكر الخوارزمي ، وابي الطيب المأموني ، وابي الحسن البديهي ، وابي سعيد الرستمي ، وابي القاسم الزعفراني ، وابي العباس الضبي ، وابي الحسن بن عبدالعزيز الجرجاني ، وابي القاسم بن ابي العلاء ، وابي محمد الخازن ، وابي هاشم العلوي ، وابي الحسن الجوهري ... وابي دُلف الخزرجي ، وابي حفص الشهرزوري ، وابي معمر الاسماعيلي وابي فياض الطبري ، وغيرهم(٧٣٣) .

واشتهر عدد من وزراء السلجوقيين بحب العلماء الادباء واكرامهم والانفاق عليهم ، منهم الوزير نظام الملك ابو علي الحسن بن علي . قال ابو شامة المقدسي : « كان عالماً فقيهاً ديناً خيّراً متواضعاً عادلاً . يحبُّ أهلَ الدين ويكرمهم ويُجزل صلاتهم ، وكان أقرب الناس منه وأحبهم إليه العلماء ، وكان يناظرهم في المحافل ويبحث عن غوامض المسائل لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مدة . وأما صدقاته ووقوفه فلاحدّ عليها ومدارسه في العالم مشهورة لم يخلُ بلد منها »(٧٣٤) . واشتهر في عصر السلاجقة الشاعر الكاتب أبو اسماعيل الحسين بن علي الطغرائي الذي وزر للسلطان مسعود ابن محمد السلجوقي في الموصل له ديوان شعر جيد ، وقد اشتهرت قصيدته المعروفة بلامية العجم التي يقول في أولها(٧٣٥)

أصالةُ الرأي صانتني عن الخطَلِ وحِليةُ الفضلِ زانتني لدى العَطَلِ

---

(٧٣٢) يتيمة الدهر ٣ : ١٥٨ .

(٧٣٣) يتيمة الدهر ٣ : ١٩٣ .

(٧٣٤) الروضتين ١ : ٦٢ .

(٧٣٥) ديوانه ص ٣٠٩ .

ومن الامارات التي عنيت بالعلم والأدب إمارة بني ميكال في نيسابور ومن أشهر رجالها أبو محمد عبدالله بن اسماعيل الميكالي . قال الثعالبي : « هو أشهرُ . وذكره أسيرُ . وفضله أكثرُ . من أن يُنبَّه عليه . وله – مع كرم حسبه وتكامل شرفه – فضيلة علمه وأدبه . وكان من الكتابة والبلاغة بالمحل الأعلى . وله من سائر المحاسن القِدْح المعلَّى . فكان يحفظ مئة ألف بيت للمتقدمين والمحدثين يهذُّها في محاضراته . ويحلُّها في مكاتباته . وله شعر كتابي يُشير الى شرف قائله »(٧٣٦) .

وعرفت الأسرة الزيَّارية التي كانت تحكم جرجان وطبرستان وماحولهما برعاية العلوم والآداب . ويُعدُّ قابوس بن وشمكير من أبرز رجالها .(٧٣٧) . اذ كان معروفاً ببيانه وفصاحته وحسن كتابته . وقد زاره البيروني وقدم له كتابه الآثار الباقية كما قدم له الثعالبي كتابيه : المبهج . والتمثيل والمحاضرة .

واشتهر اقليم خوارزم بكثرة مدارسه ووفرة علمائه وأدبائه(٧٣٨) . أمثال : الزمخشري . والمطرزي . والبيروني . وابن سينا . وأبي بكر الخوارزمي . وأبي محمد القاسم بن الحسين الخوارزمي . وابي محمد عبدالله بن ابراهيم الرقاشي . السكَّاكي . ورشيد الدين الوطواط .

وكانت لامارة المزيديين التي ضمت الحلة والبصرة والكوفة والبطائح وواسطاً والأنبار وحدثية وعانة . شأن كبير في الحركة الأدبية والعلمية في القرن الخامس للهجرة . وقد برز فيها مجموعة من الشعراء والكتاب أمثال منصور بن دبيس . وصدقة بن منصور بن دبيس . ومحمد بن خليفة السنبسي . وعلى بن أفلح العبسي(٧٣٩)

وارتقى الأدبُ والعلمُ مكاناً مرموقاً في امارة الحمدانيين (٣١٧ – ٣٩٤ هـ) التي سيطرت على الموصل وديار بكر وحلب وحمص وحماة وأنطاكية ومنبج ومعرة النعمان وبعض الثغور . وقد جمع بلاط سيف الدولة بحلب جماعة كبيرة من الشعراء والكتاب واللغويين والفلاسفة أمثال أبي الطيب المتنبي . وأبي فراس الحمداني . وأبي بكر الصنوبري . وابن نُباتة السعدي . والسري الرفاء . والوأواء

---

(٧٣٦) يتيمة الدهر ٤ : ٤١٧ .

(٧٣٧) ينظر معجم الأدباء ٦ : ١٤٣ – ١٥٢

(٧٣٨) الأدب العربي في اقليم خوارزم ص ٦٢ – ٨٤ .

(٧٣٩) تنظر : الخريدة ، قسم العراق ، ٤ / ١ : ١٢٢ – ١٨٢ ، أدباء حليون ص ٩ – ٦٧ .

الدمشقي ، والببغاء ، والنامي ، والسلامي ، وكشاجم ، والخالديين ، وأبي علي النحوي ، وابن جني ، وابن خالويه ، وأبي الفرج الأصبهاني ، وعبدالرحيم بن نباته ، والفارابي(٧٤٠)

وقامت في مصر والشام دولة الاخشيديين (٣٢٣ ــ ٣٥٨) ، وظهر فيها عدد من الشعراء والكتاب(٧٤١) ، من أبرزهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا ، وابراهيم بن عبدالله الجيزي اللغوي الاخباري ، كاتب كافور ، وصالح بن مؤنس ، والحسن بن علي الأسدي ...

وحكمت دولة الفاطميين مصر والشام بعد سابقتها الإخشيدية (٣٥٨ ــ ٥٦٦) وحظيت العلوم والآداب في عهدها رعاية وعناية ، وقد نبغ عدد من ملوكها بنظم الشعر والاجادة فيه ، أبرزهم المعز لدين الله(٧٤٢) ، وكان للشعراء الذين اتصلوا بهم ووضعوا شعرهم بين أيديهم منازل رفيعة وهبات سنية وأعطيات سخية ، وقد زخرت كتب الأدب والتراجم والسير بأسماء كثيرة من الأدباء الذين عاصروا هذه الدولة(٧٤٣) ، أمثال : الحسن بن علي بن وكيع التِنيسي ، وعلى بن عباد الاسكندري ، ومحمد بن قادوس ، والحليس بن الحباب ، والمهذب بن الزبير ، والرشيد بن الزبير ، وأحمد محمد الأنطاكي المعروف بأبي الرقعمق ، وأبو الصلت أمية بن عبدالعزيز ، وطلائع بن رزّيك ، وظافر الحداد ...

وازدهرت الحركة الفكرية في عصر الزنكيين الذين حكموا الموصل وحلب والاماكن التي كانت بيد الحمدانيين (٤٨٩ ــ ٥٧٠ هـ) . فقد شجعوا أهل العلم والادب ، ولا سيما نورالدين محمود ، وهو أعظم ملوكهم ، فإنه كان لا يفتأ يجمع العلماء في مجلسه ويستشيرهم في أُمور دينه ودنياه ، ويحيطهم بعنايته ورعايته ، ويهيء لهم المناخ الملائم لعيشهم وعملهم ، ويُعد في نظر الدارسين أول منشيء لدار الحديث في التاريخ الحديث في التاريخ الاسلامي(٧٤٤) . ومن مشاهير

---

(٧٤٠) ينظر : سيف الدولة الحمداني أو مملكة السيف ودولة الأقلام ص ١٨١ ــ ١٩٧ ، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص ١٤٥ ــ ١٧٨ ، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٣٨ ــ ٤٦ .

(٧٤١) ينظر : الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الأيوبي ص ١٥٩ ــ ٢٠١ .

(٧٤٢) طبع ديوانه بتحقيق محمد حسن الأعظمي .

(٧٤٣) ينظر : مصر الشاعرة في العصر الفاطمي ٨ ــ ١٧ .

(٧٤٤) الدارس في تاريخ المدارس ١ : ٩٩ .

الشعراء الذين سجلوا بطولاته وتغنوا بفتوحاته أبو الحسن أحمد بن منير الطرابلسي(٧٤٥) ومحمد بن نصر القيسراني(٧٤٦).

وشهد عصر الأيوبيين في مصر والشام (٥٦٧ـ٦٤٨) نهضة علمية وأدبية كبيرة. وكان مؤسس دولتهم صلاح الدين الأيوبي يتذوق الشعر ويهتز له. وظهرت في أسرته مجموعة من الشعراء وصلت اليناد واوينهم أمثال الملك الأمجد مجد الدين الأيوبي(٧٤٧). والملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي(٧٤٨). والملك المظفر الدين عمر الأيوبي(٧٤٩). وقد تضافر شعراء كثيرون من الشام ومصر والعراق واليمن والمغرب على معاضدة صلاح الدين ورسم بطولاته في محاربة الفرنج وجولاته في جلاء الغاصبين عن المواقع التي احتلوها والمدن التي استباحوها(٧٥٠). ولا عجب حين قال ابن العديم: «ولم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد سيف الدولة الحمداني ماإجتمع ببابه من الشعراء ـ رحمه الله ـ وزاد على سيف الدولة في الحباء والفضل والعطاء(٧٥١)

ونشطت الحركة الأدبية في ظل الامارة البكتكينية في أربيل في نهاية القرن السادس ومطلع القرن السابع للهجـرة ويعد السلطان مظفر الدين كُوكْبري من أعظم رجال هذه الامارة. فانه اهتم بالعلوم والآداب. وشجّع الدارسين. وبذل لهم بسخاء. وأنشأ لهم مدرسة. وانتجع مدينة أربيل في زمنه الكثيرون. ولكثرة من جاءها من الوافدين ـ طلاباً وأساتذه ـ ألف شرف الدين أبو البركات المبارك بن أحمد بن المبارك المعروف بابن المستوفي الاربلي كتاباً كبيرا بأربعة مجلدات سماه

---

(٧٤٥) تنظر، مقدمة شعره ٥ ـ ٣٢.

(٧٤٦) ينظر، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٠٣ ـ ١٣١. ومحمد بن نصر القيسراني، حياته وشعره ص ١٢٤ ـ ١٢٧.

(٧٤٧) طبع ديوانه بتحقيقنا سنة ١٩٨٢.

(٧٤٨) كتبتُ دراسة مطولة عنه وحققتُ ديوانه الموسوم بـ (الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية).

(٧٤٩) الخريدة، بداية شعراء الشام، ص ٨٢ ـ ١١٠.

(٧٥٠) ينظر بحثنا (جهاد صلاح الدين الأيوبي، التاريخ والشعر) مجلة المورد، العدد ٤، سنة ١٩٨٧.

(٧٥١) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢، ١٢٥.

« نباهة البلد الخامل بمن ورده من الاماثل(٧٥٢) ». ويكفي هذه الامارة فخراً أن يكون ابن خلكان صاحب كتاب « وفيات الأيمان » أحد أبنائها. ومن شعرائها المشهورين مجدالدين أسعد بن ابراهيم النشابي(٧٥٣)، وعيسى بن سنجر الحاجري(٧٥٤). وابن الظهير الإربلي(٧٥٥). والصاحب بهاء الدين علي بن عيسى المنشيء الإربلي(٧٥٦).

ان حكام الدويلات والامارات ــ كما لاحظنا ــ يحبون المعرفة، ويقدرون العلماء والأدباء، ويشجعون قدومهم اليهم، ويُجلونهم ويكثرون من احترامهم، ويبسطون في عطائهم واكرامهم. ولم يكن نظم الشعر مزدهراً فقط في ظلال الحكام، بل التأليف والتصنيف أيضاً. وقد لمعت أسماء كثيرة. نذكر منهم على سبيل المثال: أبا منصور الثعالبي. وأبا العلاء المعري. والخطيب البغدادي. وابن الأنباري. والباخرزي. وابن الجوزي. وأسامة بن منقذ وعماد الدين الأصبهاني. والقاضي الفاضل. وابن شداد. والعكبري. والخطيب التبريزي. وأبا الفضل الميداني. وأبا القاسم الزمخشري. وأبا منصور الجواليقي. وأبا السعادات ابن الشجري، وأبا محمد القاسم بن علي الحريري. وابن عساكر. وأبا طاهر السِّلَفي. ومحيي الدين النووي. وسيف الدين الآمدي. وتاج الدين الكندي. وابن الحاجب النحوي. وأبا شامة المقدسي. وشهاب الدين السُهروردي. وياقوتاً الحموي. وأبناء الأثير: مجدالدين وعزالدين الدين. وضياءالدين.

ومِن معالم الحركة الفكرية في هذا العصر كثرة المكتبات. والتنافس في إنشائها. واقتناء الكتب الكثيرة لخزائنها مهما بلغت أثمانها وبعدت أوطانها. وتعيين الأمناء على تنسيقها وتنظيمها وحفظها. ومن هذه المكتبات المشهورة مكتبة سيف الدولة الحمداني بحلب وكان الشاعر أبو بكر الصنوبري أميناً عليها. ومكتبة أبي القاسم جعفر بن محمد بن حمدان في الموصل. قال الصفدي: « وكانت له في بلده دار علم، قد جعل فيها خزانة. فيها جميع العلوم. وقفاً على كل طالب علم. ولا يمنع

---

(٧٥٢) وصل الينا الجزء الثاني منه فقط وطبع باسم « تاريخ اربل » في مجلدين.

(٧٥٣) حقق ديوانه عبد الله محمد طه في رسالة جامعية باشراف الدكتور عبد الوهاب الصرواني. آداب الموصل ١٩٨٥.

(٧٥٤) حقق ديوانه صاحب شنون الزيدي في رسالة جامعية باشراف الدكتور يونس السامرائي. آداب بغداد ١٩٨٨.

(٧٥٥) نشر ديوانه بتحقيقنا سنة ١٩٨٨.

(٧٥٦) من كتبه المطبوعة: رسالة الطيف، وكشف الغمة في معرفة الأئمة، والتذكرة الفخرية.

أحداً من دخولها اذا جاءَها . وإن كان معسراً أعطاه ورقاً . يفتحها كل يوم ويجلس فيها(٧٥٧) » . ومكتبة علي بن سوار من حاشية عضد الدولة في مدينة رام هرمز على شاطيء الخليج العربي . ومكتبة العزيز بالله الفاطمي في القاهرة وكانت تضم آلاف الكتب في شتى العلوم والمعارف . ومكتبة المدرسة النظامية . ومكتبة مدرسة المستنصرية في بغداد . ومكتبة الملك المعظم عيسى بن أبي بكر في دمشق . وكانت تحتوي كتباً نادرة وثمينة بعضها بخط مؤلفيها . وقد شاهدها ياقوت الحموي واطّلع على نفائسها . منها صحاح الجوهري . فقال : « ووقفتُ على نسخة للصحاح بخط الجوهري بدمشق عند الملك المعظم بن العادل بن أيوب صاحب دمشق . وقد كتبها سنة ٤٣٣ »(٧٥٨) . وقال في موضع آخر عند ترجمته لمحمد بن أحمد العميدي المتوفى سنة ٤٣٣ هـ : « وله تصانيف في الأدب منها تنقيح البلاغة في عشر مجلدات . رأيته

بدمشق في خزانة الملك المعظم ـ خلّد الله دولته ـ وعليه خطه وقد قُرِيءَ عليه في شعبان سنة ٤٣١ هـ(٧٥٩) » . ومن المكتبات الكبيرة في بلاد الشام . مكتبة حماة التي أنشأها الملك المنصور محمد بن عمر، وكان فيها من الكتب مالا مزيد عليه(٧٦٠) . وبقيت هذه المكتبة عامرة تنمو وتزداد الى زمن الملك المؤيد اسماعيل بن علي المشهور بأبي الفداء . « قيل انها ما اجتمعت لغيره من سائر الفنون . فإنه اجتهد في جمعها من سائر البلاد شرقاً وغرباً(٧٦١) » .

ومن مظاهر الحركة الفكرية أيضاً كثرة المدارس التي أنشاها الخلفاء والملوك والأمراء والأثرياء . والانفاق على طلبتها وأساتذتها . منها كانت خاصة لتدريس علم واحد كالحديث أو النحو أو الفقه .. ومنها عامة لتدريس جميع علوم اللغة العربية . ولم يمنع ذلك من تدريس علوم أخرى الى جانب المواد الأصلية كالطب والصيدلة والكحالة والهندسة والفلك والتاريخ والجغرافية . وتُعد المدرسة النظامية من أشهر المدارس آنذاك أنشاها في بغداد نظام الملك الذي سبق ذكره . ثم المدرسة المستنصرية

(٧٥٧) ينظر مقالتنا (ابن حمدان الموصلي ٢٤٠ هـ ـ ٣٢٣ هـ) مجلة الجامعة . الموصل . العدد ٢ سنة ١٩٨١ .

(٧٥٨) معجم الأدباء ٢ : ٢٧ .

(٧٥٩) معجم الأدباء ٩ : ٣٢٨ .

(٧٦٠) فوات الوفيات ٤ : ١٢ .

(٧٦١) ثمرات الأوراق ص ١٢٥ .

التي شيدها الخليفة المستنصر بالله . والنورية الكبرى التي أنشأها الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي في دمشق . وفيها قال الشاعر عرقلة الدمشقي(٧٦٢) :

ومدرسةٍ سيدرسُ كلُّ شيءٍ وتبقى في حِمىً علمٍ ونسكِ
تضوع ذكرُها شرقاً وغرباً بنورالدين محمود بنِ زنكي

ولنورالدين مدارس أُخرى في الموصل وحلب . واشتهرت المدرسة الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في القدس وهي غير المدرسة الصلاحية التي أنشأها في القاهرة بجوار ضريح الامام الشافعي وقد سماها السيوطي بتاج المدارس . ومن مدارس دمشق المشهورة العزيزية التي اسسها الملك الأفضل على بن صلاح الدين الأيوبي ثم أتمها أخوة الملك العزيز عثمان . ومن أشهر مدرسيها عبداللطيف البغدادي . وسيف الدين الآمدي شيخ المتكلمين في وقته . قال عنه ابن أبي أُصيبعة : « وكان اذا نزل وجلس في المدرسة . وألقى الدرس والفقهاء عنده . يتعجب الناسُ من حسنِ كلامه في المناظرة والبحث . ولم يكن أحدٌ يماثله في سائر العلوم(٧٦٣) » . والأشرفية التي بناها الملك الأشرف موسى بن أبي بكر العادل ومن أشهر رجالها أبو شامة المقدسي صاحب كتاب الروضتين . وفي أربيل اشتهرت المدرسة المظفرية التي أنشأها مظفر الدين كُوكْبري . ولم يكن حظُّ النساء بأقل من حظ الرجال في انشاء المدارس مثل المدرسة الخاتونية في دمشق أنشأتها عصمةُ الدين بنت معين الدين أنر زوجه نورالدين محمود . ومدرسة الفردوس في حلب أنشأتها مؤنسة خاتون بنت أبي بكر العادل . ورتَّبتْ فيها خلقاً من القراء والفقهاء وكتبت على حائط فنائها بعد البسملة آيات من سورة الزخرف(٧٦٤) . وبَنَتْ مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر تقي الدين محمود مدرسة في حماة ووقفت عليها وقفاً جليلاً وكتباً(٧٦٥)

لقد كانت المدارس كثيرة لايمكن ذكرها جميعاً(٧٦٦)) . ويستطيع الباحث ان يقف على أسماء منشئيها والعلماء والأُدباء الذين دَرَّسوا فيها في كتاب « الدارس في تاريخ المدارس » للنعيمي .

---

(٧٦٢) ديوان عرقلة الكلبي ص ٧٠

(٧٦٣) عيون الأنباء ٢ : ٢٨٥ .

(٧٦٤) خطط الشام ٦ : ١٠٧ .

(٧٦٥) خطط الشام ٦ : ٨٦ .

(٧٦٦) ينظر بحثنا (التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية)) ، مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٠ سنة ١٩٧٩ .

ومن الوسائل التي يسّرتْ نشر العلم والإقبال عليه، ازدهار صناعة الورق في العالم الاسلامي. وكانت بغداد وسمر قند ومصر من مراكز هذه الصناعة. ومن العلماء مَنْ كان ينسخ الكتب بنفسه، ومن كان ينسخها لغيرة بالأجرة. فازدهرت الوراقة، وحمل تجار الكتب نتاج العلماء والأدباء إلى الأقطار. وقد أوردت المصادر أخباراً كثيرة عن الوراقين، وأشادت بأسماء لامعة تعاطوا هذه المهنة واتخذوها وسيلة للعيش والحصول على المال. نذكر منهم: أبا سعيد السيرافي (ت ٣٦٨ هـ) وكان «لا يأكل إلاّ من كسب يده، ولا يخرج من بيته إلى مجلس الحُكْم، ولا إلى مجلس التدريس كلَّ يوم إلاّ بعد أن ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرها عشرة دراهم، تكون قدر مؤونته ثم يخرج إلى مجلسه»(٧٦٧) وأبا الفرج محمد بن اسحاق المشهور بابن النديم (ت ٣٨٥ هـ) وكان وراقاً يبيع الكتب(٧٦٨)، وهو صاحب كتاب «الفهرست» جمع فيه أسماء الكتب التي عُرفت باللغة العربية حتى أواخر القرن الرابع للهجرة. وأبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) الذي قال عن نفسه: «لقد استولى عليَّ الحرفُ، وتمكّن مني نكد الزمان، إلى الحدّ الذي لا استرزق مُع صحة نقلي، وتقييد خطي، وترويق نسخي، وسلامته من التصحيف والتحريف بمثل ما يسترزق البليد الذي يمسخُ النسخَ، ويفسخُ الأصلَ والفرع»(٧٦٩). ويحيى بن محمد الأرزي (ت ٥١٥ هـ) وكان – كما يقول ياقوت – «اماما في العربية، مليح الخط، سريع الكتابة، كان يخرج في وقت العصر الى سوق الكتب ببغداد، فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه»(٧٧٠). وموهوب بن أحمد الجواليقي (ت ٥٤٠ هـ) وكان دقيقاً في عمله كثير الضبط، وخطه مرغوب فيه، يتنافس الناس في تحصيله، والمغالاة به»(٧٧١). والشيخ سعد بن علي الحظيري الوراق الملقب بدلال الكتب (ت ٥٦٨ هـ) وهو عالم جليل له مصنفات كثيرة وكان له دكان خاص في سوق الوراقين(٧٧٢). وصدقة بن الحسين (ت ٥٧٣ هـ). وقد نسخ بخطه كثيراً للناس في

---

(٧٦٧) انباه الرواة ١ : ٣١٢.

(٧٦٨) معجم الأدباء ٩ : ٤٠٨.

(٧٦٩) معجم الادباء ٥ : ٣٨٤.

(٧٧٠) معجم الأدباء ٧ : ٢٩١.

(٧٧١) انباه الرواة ٣ : ٣٣٥، ذيل طبقات الحنابلة ١ : ٢٠٥.

(٧٧٢) الخريدة، قسم العراق، ٤ / ١ : ٢٨.

سائر الفنون(٧٧٣) . وعلي بن عبدالرحيم بن الحسن المعروف بابن العصار (ت ٥٧٦ هـ) « وكانت طريقته في النسخ حسنة . والناس يتنافسون في خططه ويغالون به »(٧٧٤)

ان نسخ الكتب وبيعها شملت مختلف العلوم اللسانية والشرعية والعقلية . والفنون والصناعات والطبيعات والرياضيات والجغرافية والطب والأدوية والعقاقير والنبات والحيوان والمعارف والموسيقى والغناء والتصوير والنقش وسواها .

لقد بقي العالم الاسلامي متماسكاً من الناحية الثقافية وان كان منقسماً سياسياً في عصر البويهيين ثم السلاجقة . فاللغة العربية كانت لغة الدواوين ولغة الآداب في بلاط الامارات على مختلف لغاتها وأجناسها . وسبب ذلك أنهم لم ينظروا الى اللغة العربية على أنها لغة غزاة فاتحين تزحف تحت أعلام جيوشهم . وتنتشر بتشجيع من حكامهم . ثم تذل وتتلاشى عند ضعف نفوذهم . ولكن على أنها لغة ذلك الدين الجديد الذي ارتضته الغالبية من أهل تلك البلاد . لغة القرآن الكريم المعجز بأسلوبه ومعانيه معاً . وتلاوته والاستماع اليه . ودراسته عبادة من العبادات . ولذا نجد اللغة العربية تنتشرُ بين الطبقات المثقفة . وتصيرُ لغةَ الكتابة . والأدب نظماً ونثراً بين جميع الأقوام(٧٧٥) .

---

(٧٧٣) ذيل طبقات الحنابلة ١ : ٣٢٩ .

(٧٧٤) إنباه الرواة ٢ : ٢٩١ .

(٧٧٥) ينظر تاريخ الشعر العربي للكفراوي ٢ : ٢٢ .

القسم الأول

الشعر

الموضوعات الشعرية :

كثُر عددالشعراء، وغزُرَ نتاجهم، في العصر العباسي الثاني . وقد عاشوا في ظل الخلافة في بغداد . أو في ظل الملوك والأمراء في المماليك والدويلات التي قامت آنذاك في الشرق والغرب . وكانوا من أجناس متباينة وأقوام مختلفة تجمعهم اللغة العربية التي كتبوا ماجادت به قرائحهم شعراً ونثراً .

إنَّ الاغراض الشعرية في هذا العصر غالباً ماكانت امتداداً لما هي عليه في العصور السابقة . ومن يرجع الى الدواوين الشعرية والكتب الأدبية يجد كفَّة المديح هي الراجحة وكميته هي الفائقة . ولعل ذلك يعود الى كثرة المدّاحين الذين سخروا شعرهم لكسب المال والجاه . حتى ان الكثيرين منهم في أواخر العصر العباسي اختصوا بالخلفاء عُرفوا بشعراء الديوان(٧٧٦) كانوا يتقاضون أجراً شهرية من الدولة . وينالون عطايا وهبات من الخلفاء أنفسهم في مناسبات كثيرة . ومثال على ذلك الشاعر أبو الفوارس سعد بن محمد الصيفي المعروف بـ« حيص بيص » فانه نال من المستضيء بأمر الله على أبيات مدحه بها حين تولّى الخلافة ثلاث مئة دينار وخلعة وضيعة كبيرة . منها قوله :(٧٧٧)

أقولُ وقد تولّى ... ــبرٌ   ولـــيٌ لـــم يزلْ تـــقـيًا
وقد كُشف الظّلامُ بمستضيءٍ   غدا بالناس كُلّهم حفيًا
وفاض البحر بالمعروفِ حتى   حسبْنَاه عُباباً أو أتيًا
بلغنا فوق ماكنّا نُرَجّي   هنيئاً يابني الدّنيا هنيًا

ولاننسى في هذا المجال دور فريق من رؤساء الدويلات آنذاك في اجتذاب الشعراء وايوائهم والانفاق عليهم وتحفيزهم على نظم الشعر . مثل سيف الدولة الحمداني . فانه ضرب دنانير خاصة للصلات . وزن كل دينار عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته . فأمر يوماً لأبي الفرج الببغاء بعشرة دنانير . فقال ارتجالاً :

---

(٧٧٦) ينظر الجامع المختصر ٩ : ٦٩ .

(٧٧٧) ديوانه ٢ : ٢٧٩ ، وتنظر الخريدة ، قسم العراق ، ١ : ٢٢٠ .

نحن بجودِ الأميرِ في حَرَم   نرتعُ بين السُّعود والنِّعَم
أبدعُ مِن هذه الدنانير لم   يجرِ قديماً في خاطر الكرم
فقد غدَتْ باسمِهِ وصورتهِ   في دهرنا عوذةً من العَدَم

فزاده عشرةً أخرى .(٧٧٨) وكانت للمتنبي منزلة خاصة عند هذا الأمير . فقد كان يعطيه كلَّ سنةٍ ثلاثة آلاف دينار ازاء ثلاث قصائد ينشده إياها كل عام(٧٧٩) ودفعت هذه الشهرة أن يُنشيء بديع الزمان مقامه سماها « المقامة الحمدانية » . صوَّر فيها جود سيف الدولة وكرمه لجلسائه والمقربين منه .(٧٨٠)

ومن الرجال البارزين المشهورين باكرام أرباب الفكر . صلاح الدين الأيوبي ، فانه كان لا يردُّ قاصداً ولا يصدُّ وافداً . وقد تجمَّع حوله عدد كبير من الشعراء . يمدحونه ، ويشهرون مناقبه . ويتغنون ببطولاته . حتى نعته أحدهم برب الملاحم(٧٨١) :

ربُّ الملاحمِ لم يؤرِّخ مثلها الـ   ـعلماءُ قِدماً في قديم الأعصرِ
مَنْ رامَ مِنْ كلِّ الملوك مرامَهُ   تُخفِقْ مساعيهِ ويكبُ ويَعْثُرِ

وأشاد آخر بكرمه وكثرة عطائه . فقال :(٧٨٢)

مخضرَّة أكنافُه لوفودهِ   والعام محمرُّ الذوائبِ أشهبُ
أرضٌ بروضِ المكرماتِ أريضةٌ   وثرى بنُوارِ الفضائلِ مُعْشِبُ
صبٌّ بتشييدِ المآثرِ مُتعبٌ   فيها ومَنْ شادَ المآثرَ يتعبُ
ملكتْ سجاياهُ القلوبَ محبَّةً   إنَّ الكريم الى القلوبِ مُحبَّبُ
كفٌّ تكفُّ الحادثاتِ وراحةٌ   ترتاحُ للجدوى وقلبٌ قلَّبُ
بك ياصلاح الدين يوسف أكثب الـ   ـنائي ورفَّ المقشعِرُّ المجدِبُ
وأقمت سوقاً للمدائح مُربحاً   فباليه أعلاقُ الفضائلِ تُجْلَبُ

إنَّ الشعراء المداحين يبالغون ـ في الغالب ـ في كرم الممدوح وعطائه . فيجعلون يده كالغيث أو البحر مثل قول الأبيوردي في الوزير نظام الملك الحسن بن علي(٧٨٣) :

---

(٧٧٨) يتمة الدهر ١ : ٣٢
(٧٧٩) الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ص ٤٩ .
(٧٨٠) تنظر مقامات بديع الزمان ص ١٥٨ .
(٧٨١) ديوان فتيان الشاغوري ١٤١ .
(٧٨٢) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ٢٤ .
(٧٨٣) ديوان الأبيوردي ١ : ٩ . ٦ .

ويخجل من راحتيه الغمامْ   إذا درّ نائلُهُ الصَّيِّبُ
أتى في السماحة مالم يدعْ   لأهل الندى سيراً تُعجبُ

وقد شدّد أبو المعري نعيه على أولئك الذين يتخذون من صناعة الشعر مجالاً للتكسب. فقال : « ومن بغى أن يتكسب بهذا الفن . فقد أوغ شرانهُ في شن (٧٨٤) غير ثقة على الوديعة. بل هي منه في صاحب خديعة» (٧٨٥). ووقف في الأبيات الاتية ناقداً أولئك الشعراء المتكسبين . فقال : (٧٨٦)

لاخير في جزل العطاء أتى   رجلا بأن كلامه جزلُ
يرجو فيمدح غير مرتقب   رَبّاً ، وكلُّ مقاله إزلُ
شُهرت سيوف القول طائفة   كذباً وأفضل منهم العُزْلُ

وشاع المديح النبوي في أواخر العصر العباسي ولعل سوء الحياة الاجتماعية وتدهور الأوضاع الاقتصادية وحوم الخطر على البلاد من الاعداء الطامعين في الشرق والغرب كان وراء هذا الشيوع (٧٨٧) فان الشعراء اتجهوا الى الرسول طالبين منه العون على مصائبهم مثل قول الشيخ الزاهد الضرير يحيى بن يوسف الصَّرْصَري : (٧٨٨)

أشكو اليك وأنت تعلمُ فتنة   كادتْ لها الصمّ الصِّلابُ تصدَّعُ
فبمنْ أعزّك واصطفاك فأجزل الـ   ـنعمى عليك فحوضُ فضلك مترعُ
فاجبر [illegible] الكسيرة إنّه   لم يبقَ في قوس التجلّد منزعُ

ومن الأغراض التقليدية في هذا العصر الهجاء . إذ لم يسلم منه الملوك والامراء والوزراء والقضاة والخطباء وكتاب الدواوين . ومصدرهُ في الغالب البغضُ والكراهية والحسد والمنافسة . وقد حاول الشعراء في هذا الفن تجريد المهجوين من الفضائل والمحامد مثل قول أبي اسحاق ابراهيم بن عثمان الغزّي في هجاء أحد ملوك بلاد فارس واتهامه باللوم والاحتيال والكذب والبخل : (٧٨٩)

---

(٧٨٤) الشن : القربة البالية .

(٧٨٥) رسالة الغفران ص ٤١١ .

(٧٨٦) اللزوميات ٢ : ١٩٢ .

(٧٨٧) ينظر بحثنا (المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية) مجلة آداب الرافدين ، العدد ٥ سنة ١٩٨١

(٧٨٨) فوات الوفيات ٤ : ٣٠٤ .

(٧٨٩) ديوان الغزي ص ٢٦ نقلاً عن الحياة الأدبية في الشام ص ١٠١ .

رأيـــتُ لؤماً مُـــصَوّراً رجُلاً مُـهـجَـتُـه الاحـتـيال والـكذبُ
على سرير كالـنَّـعـش . لارَهَـبٌ يـعـلوهُ مـن هـيـبةٍ ولارغبُ
وهو عـبوسٌ كالـفـهد مـجـتـمـعٌ يـكادُ مـن قـبـح خلقهِ يَـثِـبُ
إنّ لم تكنْ همَّة فإنّ له هَمْهَمَـــةٌ في خلالـــها صَـــخَـبُ
يـفرحُ ماصام ضـيـفـهُ وبشـ ـمُ الخبز . قبل الذّوقِ . يكتئبُ
يلتهبُ القلبُ منه بالجوع والـ ـياقوتُ في التاج منه يلتهبُ

وثمة شعراء أوغـلوا في أهاجيهم في الفحش والقذف ورخيص القول وبذيّ الكلام . ومن أكثرهم شرّاً وأقذرهم لساناً وأشدهم على الناس جرأة على بن محمد بن نصر بن منصور بن بسام . قال المسعودي : « كان شاعراً لسناً . مطبوعاً في الهجاء . ولم يسلم منه وزير ولا أمير . ولاصغير ولاكبير . وله هجاء في أبيه واخوته وسائر أهل بيته . فمما قاله في أبيه :

بَنَى أبو جعفر داراً فشيدها ومـثـلـه لـخـيار الدورِ بـنـاءُ
فالـجوعُ داخـلـها . والذّلُ خارجـها وفـي جوانـبـهـا بؤسٌ وضرّاءُ
مايـنـفـعُ الدار تـشـيـيد حائـطـها وليس داخِلها خبزٌ ولاماءُ »(٧٩٠)

ومن المشهورين بالهجاء أيضاً الشاعر أبو القاسم الحسين بن الحسين المعروف بالواساني . فانه كان يختلقُ لخصومه قصصاً مليئة بألفاظ سخيفة ومعانٍ سوقيّة مرذولة وهو في نظر الثعالبي « أحد الفضلاء المجيدين في الهجاء . وكان في زمانه كابن الرومي في أوانه(٧٩١) » . وقصائده في هذا الفن طوايلة جداً . وقد بلغت احداها مئة وأربعة وتسعين بيتاً . وكذلك اشتهر بالهجاء المقذع المليء بالشتائم أبو عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبلة البغدادي(٧٩٢) . وشرف الدين محمد بن نَصْر المشهور بابن عُنين . فله أهاج كثيرة في اشراف الناس وسراتهم(٧٩٣) . ولم يتورع من نظم قصيدة منحطّة سافلة تقبح النفس من سَماع صورها سماها « مِقْراض الاعراض » .

وتجدر الاشارة الى أنَّ هناك شعراء كباراً لم يُعطوا للهجاء اهتماماً . فالقاريء لا يجد شيئاً ذا بال في ديوان الطغرائي والارجاني والأبيوردي وظافر الحداد والبهاء

---

(٧٩٠) مروج الذهب ٤ : ٢٠١
(٧٩١) يتيمة الدهر ١ : ٣٥١ .
(٧٩٢) ينظر ديوانه ص ٧١ ـ ٨١ .
(٧٩٣) الباب السابع في ديوانه كله هجاء ص ١٧٩ ـ ٢٢٨ .

زهير ... ونزّه آخرون دواوينهم منه أمثال علي بن مُقرّب العُيوني ، والشريف أبي الحسن علي بن الحسين العُقيلي ، وأبي بكر أحمد بن سعيد العُماني المعروف الستالي ، وأسامة بن منقذ ، وابن الدهان الموصلي ، وابن النبيه المصري ...

ولسوء الأوضاع الاقتصادية وتدهور الحياة السياسية ولاسيما في القرن الرابع للهجرة ، عاش كثير من الناس في شظف العيش ، يتجرعون مرارة البؤس والحرمان وآلام الجوع والهوان ، وقد لجأت فئة منهم ــ تحت وطأة الفقر ــ الى الاستجداء والاحتيال على ابتزاز الأموال بطريقة خاصة ، يدعون أهل الكدية أو الساسانيين ، وظهر فيهم شعراء مجيدون مثل أبي الحسن عقيل بن محمد الملقب بالأحنف العكبري ، ومسعر بن مهلهل المعروف بأبي دلف الينبعي ، كانوا يُصوّرون في شعرهم الحالة المزرية التي هم فيها ، وتنقلهم من بلد الى آخر مشردين ، يطوي بطونهم الجوع ، هائمين بلا مسكن ، بلغة تثيرُ العطف والشفقة وتستدرُّ العون والمساعدة ، مثل قول الاحنف العكبري(٧٩٤) :

العنكبوتُ بَنَتْ بيتاً على وهنٍ تأوي اليه ومالي مثله وطنُ
والخنفساءُ لها من جنسها سَكَنٌ وليس لي مثلُها الف ولا سكنُ(٧٩٥)

ويلمسُ القارئ في شعرهم انتقاداً ولاسيما للفئة الحاكمة التي ملأت جيوبها بالمال والجواهر وتركت الناس في فقر مدقع مثل قول العكبري(٧٩٦) :

ترى العِقيانَ من الذهب المُصفّى تُركّبُ فوقَ أثفارِ الدواب(٧٩٧)
وكيسي منه خلوٌ مثل كفّي أما هذا من العجبِ العُجابِ ؟ !

انَّ التوتر في الواقع الاجتماعي في ذلك العصر دفع عدداً من الشعراء أن ينظموا قصائد ، مضمنين فيها معاناتهم في مجابهة الحالة المأساوية التي يمرُّون بها من فاقة وضنك ، مثل محمد بن عبد العزيز السوسي الذي دبّج قصيدة طويلة تربو على أربعمئة بيت ، شرح فيها الظروف العسيرة التي يتعرض لها فـي ظـل القهر والحرمان(٧٩٨) .

---

(٧٩٤) يتيمة الدهر ٣ : ١٢٣ .

(٧٩٥) سكن : زوجة .

(٧٩٦) يتيمة الدهر ٣ : ١٢٤ .

(٧٩٧) الثفر : السير الذي في مؤخرة السرج .

(٧٩٨) يتيمة الدهر ٣ : ٤٢٧.

وظهر الى جوار شعر الكدية، شعر هزلي خليع ماجن(٧٩٩)، نتيجة شيوع البطالة، وفشو الفساد الاجتماعي والتردّي الخلقي في جانب من المجتمع آنذاك. فلم تتورع طائفة من الشعراء من أن تخلع قناع الحشمة والوقار وتلج باب السخف والدعارة، متخذةً هذا اللون من الشعر وسيلةً للارتزاق وكسب المال، تُضحكُ به أهل اللهو والفراغ من الرؤساء والأغنياء. ولعلَّ طريقة هذه الطائفة امتداد لطريقة أبي دُلامة زيد بن الجون الذي عُرف بنوادره ومجونه زمن السفاح والمنصور والمهدي(٨٠٠). وقد اشتهر بها في القرن الرابع أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج البغدادي، ومحمد بن عبد الله المعروف بابن سُكّرة الهاشمي. وفي القرن الخامس الشريف أبو يَعْلَى محمد بن صالح المعروف بابن الهبّارِيَّة، وفي القرن السادس هبة الله بن الفضل المشهور بابن القطّان.. ولم يكن هؤلاء الشعراء مُقصِّرين في الموضوعات الشعرية الأخرى، ولكنهم تهافتوا على الدعابة والفكاهة والمجون؛ لأنهم وجدوا فيها نفعاً ورواجاً، وقد صرَّحَ بذلك ابن الحجاج، فقال(٨٠١):

لو جدُّ شِعري رأيتَ فيه   كواكبَ الليلِ كيف تَسْري
وانما هَزْلُهُ مُجونٌ   يمشي في المعاشِ أمري

ومن مظاهر الفساد الخلقي في طرف من المجتمع ذيوع الغزل بالغلمان، الذي عُرف من قبلُ على يد أبي نواس ومن سار في ركْبِهِ، وقد لاحظ آدم متز هذه الظاهرة فقال: «لاشكَّ أنَّ الغزل الذي قيل في التوجُّع من هوى الغلمان يعادل ماقيل في هوى النساء على الأقل(٨٠٢)». ونحن لانستبعد ماذهب اليه أحد الباحثين من «أنَّ كثيراً من الشعراء قد استعملوا ضمائر المذكر مع أنهم في الواقع كانوا يوجهون شعرهم الى معشوقات لا الى معشوقين(٨٠٣)» أو أنهم كانوا ينظمونهُ تظرفاً(٨٠٤)، مثل قول الشاعر صالح بن رشدين(٨٠٥):

---

(٧٩٩) ينظر الادب في ظل بني بويه ص ٢٤٨ ـ ٢٩٠، الشعر العربي في العراق وبلاد العجم ٢: ١٢٨، عصر الدول والامارات ص ٢٩٦، الشعر العراقي في القرن السادس الهجري ص ٢٧٧.

(٨٠٠) ينظر أبو دلامة الرجل الشاعر والناقد الساخر ص ٤٩.

(٨٠١) يتيمه الدهر ٢: ٣٢.

(٨٠٢) الحضارة الاسلامية ١: ١٣٥.

(٨٠٣) تاريخ الشعر العربي للكفراوي ٢: ١٣٢.

(٨٠٤) الحياة الادبية في الشام ص ٩٩.

(٨٠٥) يتيمة الدهر ٢: ٤١٥

أنت أعطشتني إليك وأبكيتني دما
فاذا شئت أن ترى عاشقاً ميتاً ظما
فأدر في ناظريك تجدني توهما

والى جانب الغزل بالمذكر يجد القاريء شعراً في المؤنث . وقد جاء في مقطوعات وقصائد مستقلة . أو في مقدمات بعض القصائد المدحية . ومن عيون هذه المقدمات ماقاله ابن الخياط الدمشقي(٨٠٦) :

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه   فقد كاد رياها يطير بلبه
واياكما ذاك النسيم فإنه   اذا هبَّ كان الوجد أيسر خطبه
خليليَّ : لو أحببتُما لعلمتُما   محلَّ الهوى من مُغرم القلب صبه
تذكَّرَ والذكرى تشوقُ وذو الهوى   يتوقُ ومَنْ يعلقْ به الحبُّ يصبه

ثم يصف الحبيبة وصفاً حسياً يذكر ثناياها ورضابها وزيارته لها وشكواه عندها بلغة رقيقة عذبة . وقد استحسن ابن خلكان هذه القصيدة وعدها من الغرر ورأى أنه لو لم يكن للشاعر غيرها لكفاه ذلك(٨٠٧)

ومن الشعراء الذين اشتهروا بالغزل الرقيق العفيف الملك الأمجد مجد الدين الايوبي . اذ بلغ فيه ذروة نضجه الفني المشفوع بالذاتية والطبع السليم(٨٠٨) . وحسام الدين الحاجري الاربلي الذي يمثل ـ كما يقول الدكتور شوقي ضيف ـ مرحلة جديدة للغزل ... الدويات الذي قرأناه عند المتنبي والشريف الرضي ومهيار . وكأن الحاجري ... غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً(٨٠٩) . مثل قوله(٨١٠) :

سأبيعو لم أقض منها مآربا   أعز الى قلبي حبيبا وصاحبا
وأنقع لي من بارد الماء غلة   وأعصى من الدنيا لقلبي مواهبا
أخاف عليها من عيون وشاتها   وأحذر عنها حين تقبل جانبا
ولي شغف لايبرح الدهر قائداً   زمامي اليها بالصبابة جاذبا

---

(٨٠٦) ديوانه ص ١٧٠ .

(٨٠٧) وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ .

(٨٠٨) ينظر ديوانه بتحقيقنا ، وبحث الدكتور مصطفى جواد (أغزل شعراء الكرد في العربية الملك الامجد) مجلة الكتاب ، العددان ١ ، ٢ سنة ١٩٥٨ .

(٨٠٩) عصر الدول والامارات ص ٣٩١ وينظر بحثنا (حسام الدين الحاجري الاربلي ، حياته وشعره) مجلة آداب المستنصرية ، العدد ١٠ سنة ١٩٨٤ .

(٨١٠) ديوانه ص ١٤٨ .

أعاتبُ سلمى بالقطيعة والجفا   أعيذك أن تُهدي إليها المعاتبا
واقسِم لو أنّ المنايا بكفّها   كؤوسٌ فأسقاها لطابتْ مشاربا
أجِلْ نظراً في وجهها تر بهجةً   تُنسي قلوبَ العاشقين الحبائبا
أأطلبُ من سلمى بديلا وأبتغي   سُلوّاً ؟ ألا لانلتُ قصدي طالبا

إنّ شاعريّة الحاجري في الغزل فيّاضة . ترفدها عاطفة صادقة . وخيال خصب . وميدان هذا الغزل في الجزء الأكبر من شعره الديار الحجازية . فنراه يذكر ــ على طريقة الشريف الرضي في حجازيـاته . وأبي المظفر الأبيوردي في نجدياته ــ ملاعبَ عالج . ورمال كاظمة . والعُذيب . وحاجر . ومرابع رضوى والعقيق . وفاتنتُه التي تسكن هذهِ المواقع أنقعُ من الماء القراح . وأطيب من كل لذّةٍ ومراحٍ وحبُه لها دائم بلا انقطاع . ووثيق بلا انفصام مهما كلّفه ذلك من أذى ويحن وسقام ؛ لأنه ألفها كما يألف الوليدُ الرضاع . ويمن اليها حنين النياقِ الى مرابع خبَها :(١١١)

ألـفـتـك إلـف الولـيد الرّضاع   وقد يألـفـنّ الرّضيـع الـفـطام
سأبـكـيـك مابـكـت الثاكلات   وهـيـهـات يـبردُ مـنّـي الأوامْ
وأحـنو إلـيـك حـنـين الـنـياق   لـهـنّ بأكـتـاف نـجد غرامْ

وشاع في هذا العصر لون من الشعر يُعبّر عن صور المودّة والمحبّة والصلة المتينة بين الخلان والأصحاب . ينظمه الشعراء في المناسبات المفرحة والمحزنة . وتغلب عليه المقطّعات . ومثال ذلك ماكتبه أبو فراس الحمداني الى أخيه أبي الهجاء حرب بن سعيد :(٨١٢)

حللت من المجد أعلى مكانٍ   وبـلّـغـك الله أقصى الأماني
فإنّـك . لاعدمـتُـك الـغـلـي   . أخٌ لا كاخوة هذا الزمانِ
صفاؤك في البُعد مثل الدنوّ   وودُّك في القلب مثلُ اللسان
كـسونا أخوّتـنـا بالـصّـفاء   كما كُسيتْ بالكلام المعاني .

واتسع نطاقُ شعر الشكوى الذي عبّر فيه الشعراء عن مشكلاتهم الخاصة . ولاسيما قسوة الحياة ومشقتها . ومعاناة الضنك وسوء الحالة الاقتصادية . وكان كثير منهم يُلقي اللوم على الزمان ويصبّ حنقه على الدهر . مثل قول ابن نُباتة السعدي(٨١٣)

---

(١١١) ديوانه ص ٢٣١ .
(٨١٢) ديوانه ص ٢٩٧ .
(٨١٣) ديوانه ٢ : ٧٥ .

هي الخرقاءُ تنقضُ بعدَ نسجٍ ... فما فيها لحيٍّ من فلاحِ
يؤولُ به الشبابُ الى مشيبٍ ... ويسلمُهُ الغدوُّ الى الروّاحِ
وقد فُتِنَ الأنامُ بها وغُرّوا ... كما يُغترُّ بالحدقِ الملاحِ
وتأخذ مِن جوانبِنا الليالي ... كما أخذَ المساءُ من الصباحِ
أما في أهلِها رجلٌ لبيبٌ ... يحسُّ فيشتكي ألمَ الجراحِ ؟
أرى التشميرَ فيها كالتواني ... وحرمانَ العطيّةِ كالنجاحِ

ومَنْ لبسَ التراب كمن علاه ... فلا تغرُرْكَ انفاس الرِّياحِ
وكيفَ يكدُّ مهجتَهُ حريصٌ ... يرى الارزاقَ في ضربِ القداحِ

وكذلك راج شعر الحنين الى الوطن الذي تتَّضحُ فيه العاطفة وتتجلى فيه لوعة الفراق . فراق الوطن والاهل والاحباب . ونجد مثل هذا الغرض عند المتغربين من الشعراء مثل الامام الزمخشري الذي يحنُّ الى مسقط رأسه زمخشر حينما كان بعيداً عنها في مكة مجاوراً بيت الله الحرام (٨١٤) :

أفضت اليك شكاةَ الواجدِ الكمدِ ... فأشكِ يارَبُّ صنعَ الواحدِ الصمدِ
حُبُّ الدنوِّ من البيت الحرام رمى ... بالجمرِ فيها وحبُّ البعدِ عن بلدي
همّان ان تكشفنْ يارَبِّ خطبَهما ... شكرتُ مادام تجري الروحُ في جسَدي

وهام ابن سنان الخفاجي بحب الشام ، وحنَّ الى مواطنه حلب بعد ان طوحت به الغربة بعيداً عن اهله واخوانه . فقال في مستهل قصيدة(٨١٥) :

فؤاد يسو[illegible]سمُ بذكر الوطن ... ودمعٌ بعيد [illegible]
دليل [illegible] علم الساهرون ... [illegible]سير الصباح عصيّ الوسن

وللشاعر ابي اسحاق الغزي شعر كثير في الحنين الى الوطن . وذلك امر طبيعي نظراً لطول المدة التي قضاها في بلاد العجم . مثل قوله في قصيدة يذكر أيام صباه في غزّة . مسقط هامته ، ومقام هواه ، ومغنى اقاربه (٨١٦) :

مقامُ هوى قلبي ومسقط هامتي ... ومغنى صباباتي ومغنى اقاربي
ذكرت بذاك الربع عيشاً طويتُه ... على غرّة والعيش كسوةُ سالبِ

---

(٨١٤) الادب العربي في اقليم خوارزم ص ١٣٢ نقلا عن ديوان الزمخشري ، ورقة ٢٦ .
(٨١٥) ديوان ابن سنان ص ١١٣ .
(٨١٦) الحياة الادبية في الشام ص ١٥٥ نقلا عن ديوان الغزي ص ٢٠ .

ومن الاغراض الشعرية الواسعة في هذا العصر الرثاء . ويلاحظ ان المعاني فيه لاتكاد تخرج عما درج عليه الشعراء السابقون من ذكر مآثر الفقيد وما خلّف من حزن وأسى في القلوب . ويُعدُّ ابو الحسن التهامي من الشعراء المتميزين في الرثاء . فله اربع مرثيات في ابنه ابي الفضل تفيض بالصدق الممزوج بالالم الشديد . ولعل اكثرها شهرة قصيدته التي استهلها بقوله(٨١٧) :

حكمُ المنيّةِ في البريَّة جاري ماهذه الدنيـا بدارِ قرارِ
طُبِعَتْ على كدرٍ وأنتَ تريدها صفـواً مـن الاقذاءِ والاكدارِ
ومكـلّـفُ الايام ضدَّ طباعِها متطلـبٌ في الماءِ جذوةَ نارِ
والعيشُ نومٌ والمنيَّةُ يقظةٌ والمرءُ بينهما خيالٌ ساري
فاقضوا مآربكـم عجالاً انّما أعمارُكم سَفرٌ من الأسفارِ
ليس الزّمانُ وانْ حَرَصْتَ مسالماً خُلُقُ الزّمانِ عداوةُ الاحرارِ

وقد نالت هذه القصيدة استحسان ابي العلاء المعري . وكان يستنشدها من يرد عليه . وقد استنشدها التهامي نفسه دون ان يعرفه . فلما انشدها عرف انه التهامي . وشهد له بانه اشعر الشام . وعلل معرفته بالتهامي بقوله : « سمعت منه القصيدة سماعاً يدل على ان صاحبها بخلاف سماعي اياها من غيره(٨١٨) » . ورآها ابن خلكان في غاية الحسن(٨١٩) .

ومن الملاحظ في هذا العصر رثاء العلماء والادباء والبكاء عليهم بقصائد تصور خسارة الامة فيهم وخلو ساحة المعرفة منهم . ومن اوضح الامثلة على ذلك ماقاله ابن ابي حُصينة في رثاء ابي العلاء المعري(٨٢٠) :

العلم بعد ابي العلاء مُضيَّعُ والارضُ خاليةُ الجوانبِ بلقعُ
أودى وقد ملأ البلاد غرائبا تسري كما تسري النجومُ الطُلَّعُ
وعجبتُ ان تسعَ المعرةُ قبرَه ويضيقُ بطنُ الارضِ عنه الاوسعُ
تنصرمُ الدُّنيا ويأتي بعدَهُ أممٌ وانتَ بمثلهِ لاتسمعُ

---

(٨١٧) ديوانه ص ٤٧ .

(٨١٨) اوج التحري ص ١٣٧ .

(٨١٩) وفيات الاعيان ٢ : ٣٧٩ .

(٨٢٠) ديوان ابن ابي حصينة ١ : ٣٧٢ .

وكان لرثاء ابطال الحروب الصليبية وتمجيد مآثرهم نصيب وافر من الشعر . ولا سيما في رثاء عماد الدين زنكي . ونور الدين محمود . وصلاح الدين يوسف بن أيوب(٨٢١) . ولعل قصيدة العماد الاصبهاني التي بلغت مئتين واثنين وثلاثين بيتاً في رثاء صلاح الدين من اطول القصائد التي نظمت آنذاك . ومطلعها :

شملُ الهدى والملكُ عمّ شتاتهُ والدهرُ ساءَ وأقلعت حسناتهُ

انها قصيدة جيدة في نوعها . فهي تحكي ـ في معرض الحزن والاسى ـ قصّة بطل عاش حياته كلها في نضال وكفاح من اجل احقاق الحق وازهاق الباطل . ودفع الاذى عن الآمنين ورفع الحيف عن المظلومين .

بعد هذه الالمامة الموجزة في فنون الشعر نقف عند الشعر القومي . ووصف الطبيعة . وشعر التصوف . وقفة طويلة كما هو منصوص عليه في مفردات خطة الكتاب .

الشعر القومي :

وقعت الدولة العباسية بعد العز والرفعة والإباء والشمم تحت نير الحكم البويهي ثم السلجوقي . واستولى الاعاجم على مقاليد السلطة . واصبح بايديهم الحلُّ والشدُّ . ودب الطمع بين بعض رجال العصر آنذاك . فأُقتطعوا لانفسهم اجزاء من جسم هذه الدولة واقاموا عليها امارات مستقلة . وتضافرت ثورات شعوبية حاقدة على تقويض السلطان العربي الاسلامي . وقد هزّت هذه الاحداث المريرة مشاعر الشعراء الشرفاء ودفعتهم الى نظم الشعر المعبر عن الالم الذي اصابهم من جراء ذلك .

ان بوادر الشعر المعبر عن الوعي القومي ظهر في قصائد الشاعرين الطائيين ابي تمام وابي عبادة البحتري ، اذ نجد في شعر الاول اسماء عدد من القادة العرب الذين سطّروا اروع ملاحم البطولة والشجاعة والشهامة والفروسية . امثال الخليفة المعتصم بالله الذي لبى نداء المرأة العربية التي صرخت : وامعتصماه ! . وابي دُلف العجلي ومحمد بن حُميد الطائي اللذين حاربا بابك الخرمي ، وابي سعيد محمد بن يوسف الثغري القائد المظفر الذي بلغ اسوار القسطنطينية . وخالد بن يزيد البطل الشهم الذي قاتل الروم ببسالة . وكذلك تتجسد في شعر البحتري الروح العربية الاصيلة والدفاع عنها وعن قيمتها ومبادئها ورجالها . ونجد مثل هذا في شعر ابن

(٨٢١) ينظر ديوان العماد الاصبهاني ص ٢٥ ـ ٢٩ .

المعتز . ولا سيما ماقاله في الخليفة المعتضد . اذ « وجد فيه الشخصية المحببة اليه بما انطوى عليه من شجاعة فذّة وحنكة سياسية نادرة وكسر لشوكات كثير من الثائرين والخارجين(٨٢٢) .

ان التجزئة التي اصابت الامة آنذاك . وضياع وحدتها . وتشتت شملها . وذهاب هيبتها . اثار حفيظة الشعراء الغيورين . وكان ابو الطيب المتنبي من ابرز هؤلاء الشعراء . اذ نراه يتغنى بالمجد العربي . ويتوق ان يرى العرب سادة بلادهم . وحاكمي ديارهم . وقد انشد شعرهُ الذي يُعبر عن هذا الاحساس من خلال شخصية سيف الدولة الحمداني الذي « راى فيه رمزَ دولة العرب المفقودة ... والدرعَ الذي يحمى البلاد العربية ضد دولة الروم الشرقية ... ومدائحه له تُعَدُّ في الذروة لا من شعره وحده . بل من الشعر العربي عامة . فقد صوَّرَ فيها وقائعة وحروبه تصويراً تشيع فيه البهجة والاعتزاز بالعرب والعروبة(٨٢٣) » . مثل قوله :(٨٢٤)

رفعتْ بكَ العربُ العمادَ وصيَّرتْ قِمَمَ الملوكِ مواقد النيرانِ
أنساب فخرهمِ اليكَ وانما أنساب اصلهمِ الى عدنانِ

وقوله(٨٢٥) :

اذا العربُ العرباء(٨٢٦) رازَتْ نفوسَها فأنتَ فتاها والمليكُ الحلاحِلُ
أطاعتكَ في أرواحها وتصرَّفتْ بأمرك والتفَّتْ عليكَ القبائلُ

وكان المتنبي يرى ان امته لن يستقيم امرها وتستعيد مجدها التليد وايام عزها وفخارها المجيد مادام حكامها من غير اهلها(٨٢٧) :

وانما الناسُ بالملوك وما تُفلحُ عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ

ومن الشعراء الذين نلمس في شعرهم الغيرة على قومهم ابن نباته السَّعدي . اذ نراه يتألم من سيطرة الاعاجم ولا سيما في قصيدته التي يقول في مطلعها(٨٢٨) :

---

(٨٢٢) شعر ابن المعتز . القسم الثاني . ص ١٦٤

(٨٢٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٠٦

(٨٢٤) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٤٣٣

(٨٢٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٩٥.

(٨٢٦) العرب العرباء : القديمة الخالصة . رازت : اختبرت وجربت . الحلاحل : السيد .

(٨٢٧) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٢٠ .

(٨٢٨) ديوانه ١ : ٢٥٥ .

وبلغ الابيوردي القمة في الشعر القومي في قصيدته التي نظمها اثر المذبحة التي اقترفها الافرنج في القدس سنة ٤٩٢ للهجرة . ومطلعها(٨٣٥) :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عُرضةٌ للمراجم

اطلق الشاعر صيحته المدوية من اعماق قلبه المكتوي بنار الحزن والاسى على ماحلَّ بالقدس الشريف . وما اصاب مَنْ سكن في حماها . ونراه يشحذ العزائم . ويستنهض الهمم . ويثير الحفائظ . ويحذر الناس من وقائع ادهى واعظم . ومصائب انكى واجسم . انْ هم استكانوا الى الدعة والراحة . وجنحوا الى السلم . وخلدوا الى السكينة . واستظلوا بظل العيش الرغيد . دون الالتفات الى هبوات الغرب :

فأيها بني الاسلام . انَّ وراءَكم ... وقائع يُلحقنَ الذُرا بالمناسم(٨٣٦)
أتهويمةً في ظلِّ أمنٍ وغبطةٍ ... وعيشٍ كنوَّارِ الخميلةِ ناعم(٨٣٧)
وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها ... على هبواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ

وكشف الشاعر صورة دامية . مؤثرة ومثيرة . ليجلب انتباه الناس الى الخطر الذي ينتظرهم . والبلاء الذي سيداهمهم . والمذلة التي ستنتابهم . ان هم لم يهبوا بعددهم وعُددهم الى انقاذ القدس من الفئة الباغية . ولات ساعة مندم :

وتلكَ حروب مَنْ يغبْ عن غمارِها ... ليسلمَ . يقرعْ بعدَها سِنَّ نادمِ

استنفار الى الجهاد . وتحريض على اقتحام غمار هذه الحروب الاجماعية وعدم التخلُّف عنها طلباً للسلامة ، لانَّ الحرب الاجماعية تقاوم بمثلها . والا غاب الامة . ونزل البلاء في كلِّ من نكص عن القتال .

ويطيل الشاعر من حديث الظلم . والتهيب من الظالم . والميل الى السكون . ومغبَّة ذلك . ويكرر دعوته الى القيام بغارة شعواء . تعاضدها العزيمة والثبات . ويساندها الايمان بالحقِّ . وتؤازرها الكرامة والعزَّة . غارة تعطى الاعداء درساً . وتجعلهم يعضُّون على اصابعهم ندماً . ويقولون ليتنا لم نأت الى هذه الديار . ولم نفعل تلك الافعال التي تأباها الانسانية :

---

(٨٣٥) نفسه ٢ ، ١٥٦
(٨٣٦) ايها ، لغة في هيهات بمعنى بعد . الذرا ، المرتفعات . المناسم ، جمع منسم وهو خف البعير .
(٨٣٧) التهوية ، هز الراس من النعاس . الغبطة ، المسرة بالنعمة وحسن الحال . النوار ، زهرة الشجر .

دعوناكم ، والحربُ ترنو ملحّةً إلينا بألحاظِ النسورِ القشاعمِ
تراقبُ فينا غارةً عربيةً تُطيلُ عليها الرومُ عضَّ الأباهمِ

وتألم ابن الخياط الدمشقي على ضياع القدس ، مهوى افئدة المسلمين ، وقبلتهم الاولى ، ومسرى الرسول محمد بن عبدالله ، صلى الله عليه وسلم ، ونظم قصيدة تنم على تأثر عميق ، وانفعال شديد ، وهو ـ على مايبدو ـ متأثر بقصيدة الابيوردي التي سبق ذكرها ، قال فيها(٨٢٨) :

أنوماً على مثلِ هدِّ الصفاةِ ؟ وهَزْلاً ، وقد أصبحَ الأمْرِ جدّاً ؟
وكيف تنامونَ عن أعينٍ وَتَرْتُمْ ، فأسهرتموهنَّ حِقدا ؟

ومنها :

فكم من فتاةٍ بهم أصبحتْ تَدقُّ من الخوفِ نحراً وخدّا
وأمّ عواتقَ ما إنْ عَرَفْنَ حَرّاً ولا ذُقْنَ بالليلِ بَرْدا
تكادُ عليهنَّ من خيفةٍ تذوبُ وتَتْلَفُ حُزْناً ووجدا
فحاموا على دينكم والحريمِ محاماةَ مَنْ لا يرى الموتَ فَقْدا

إنه أنكر على المسلمين النوم الهانيء ، وشهاب الحرب يلمع ، والخصم لا يهجع . وصوّر الحالة النفسية آنذاك أصدقَ تصوير وأدقّه ، فالفتيات يلطمن خدودهنّ على ما دهاهنّ ، ويضربن على صدورهنّ من خوف ما سيداهمهنّ ، والأمهات أصابهنّ الذهول من الواقع الذي يعشن فيه ، فحرمن من راحة البال ، واطمئنان النفس ، لأنهنّ يخشين على بناتهن من السلب والهتك والهوان .

وحرّض الشاعر في قصيدته على النهوض والاستبسال لمواجهة الاعداء ، وقطع رؤوسهم ، وطردها من الأراضي التي دقّوا فيها أوتاد خيامهم ، وأقاموا عليها مستعمراتهم .

فدونكمُ ظَفراً عاجلاً لكم جاعلاً سائر الأرضِ مهدا
فقد أينعتْ أرؤسُ للفرنجِ فلا تُغفلُوها قِطافاً وحصدا

وفي عصر الحروب الصليبية في مصر والشام برز مجموعة من الشعراء تغنوا بأمجادهم السابقة ، وأظهروا مكانة العرب الأوائل وقوتهم وشهامتهم وغيرتهم على شرفهم وأرضهم(٨٢٩) . منهم الوزير المصري طلائع بن رُزّيك الذي حارب الصليبيين

---

(٨٢٨) ديوان ابن الخياط الدمشقي ص ١٨٢

(٨٢٩) ثمة نماذج كثيرة في بحثنا (القدس في شعر القرن السادس للهجرة) ، مجلة المورد ، العدد الأول ، سنة ١٩٨٢ .

وأوقع فيهم خسائر فادحة ، وكان يتألم أن تكون ديار العرب بيد الغاصبين من الفرنج ، مثل قوله(٨٤٠) :

والعُرْبُ أقتلُ داءٍ يهلكون بهِ   أنْ تملكَ الحكمَ في أعناقها عَجَمُ

وصف الطبيعة :

الوصف من الموضوعات الشعرية الهامة التي عالجها الشعراء منذ عصر ما قبل الاسلام ، وأخذ يتطور بمرور الزمن ، حيث اتسع أفقه ، وكثرتْ أشكاله وألوانه ، وقد وصل في العصر العباسي الثاني مرحلةً مزدهرةً ، شمل الإنسان والحيوان والنبات ، وجميع مظاهر الحياة الاجتماعية والحضارية ، وتناول الأدوات العلمية والكتابية ، والآلات الحربية والقتالية ...

لقد حظيت الطبيعة بنصيب وافر من الشعر ، اذ وصف الشعراءُ السحابَ والمطرَ والأنهار والبرك والرياض والأزهار والأشجار والثمار والليل والأفلاك ، والمآكل والمشارب ، والدور والقصور ، والفرش والأثاث وأدوات الزينة وسواها . وخير مثال للطبيعة الزاهية برياضها وأزهارها البهيّة وثمارها الشهيّة نجدها في قصيدة ابن وكيع التّنّيسي(٨٤١) :

أسفرَ عن بهجتِهِ الدّهرُ الأغرْ   وابتسمَ الرّوضُ لنا عن الزّهَرْ
أبدى لنا فصلُ الربيع منظراً   بمثلِهِ تُفتَنُ ألبابُ البشرْ
وشياً ولكنْ حاكَهُ صانِعُهُ   لا لابتذالِ اللبسِ لكنْ للنظرْ
عايَنَهُ طرفُ السّماءِ فانثنى   عِشقاً له يبكي بأجفانِ المطرْ
فالأرضُ في زي عروسٍ فوقَها   مِن أدمعِ القَطْرِ نِثارٌ مِن دُرَرْ
وشيٌ طواهُ في الثرى صوانُه   حتى إذا ملَّ من الطيِّ نَشَرْ
أما ترى الورد كخدّي كاعبٍ   راوَدَها ـ فامتنعتْ منه ـ ذَكَرْ
كأنَّما الخمرُ عليه نَفَضَتْ   صِباغَها أو هيَ منه تُعْتَصَرْ
أخجلَهُ النَّرجسُ إذ جادلَهُ   فاحمرَّ من فَرْطِ حياءٍ وخَفَرْ
قال له : العينُ وما الخدُّ لها   مُوازناً في عُظْمِ قَدْرٍ وخَطَرْ
ماذا الذي يُرجى لخدٍّ بَهجٍ   مُستحسنٍ صاحبُه أعمى البَصرْ ؟

---

(٨٤٠) ديوان طلائع بن رزيك ص ١٢٤ .

(٨٤١) ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر ص ٧٥ .

فاحمرَّ من خجلتِهِ إذ ظهرت والحقُّ لا يَدفعُ يوماً إنْ ظهرْ
وانظرْ الى النارنج في بهجتِهِ يلوحُ في أفنانِ هاتيكَ الشَّجرْ
مثلُ دنانيرِ نضارٍ أحمرٍ أو كعقيقٍ خُرِطتْ منه أُكَرْ (٨٤٢)
وانظرْ إلى المنثور في ميدانِهِ يرنو الى الناظرِ من حيثُ نظرْ (٨٤٣)
كجوهرٍ مختلفٍ ألوانُهُ أسلمهُ سِلْكُ نظامٍ فانتثرْ

ويسترسل الشاعر بعد هذه الابيات في قصيدة طويلة وبلغة سهلة مأنوسة يصف أنواعاً كثيرة من الأزهار والأثمار بألوانها البديعية ويقدمها للقارىء في ثوب مشرق بهيّ تطيبُ له النفس وينشرحُ له الصدر .

لم يترك الشعراء فاكهة الا وصفوها وصفاً دقيقاً وشبّهوها تشبيهات لطيفة تلذ بشكلها ولونها وطعمها كالنارنج والسفرجل والكمثرى والرمان والتفاح والعنب . ومثال على ذلك أرجوزة أبي الحسين الممشوق في المشمش (٨٤٤) :

أما ترى المشمشَ [illegible] الأدبْ مُشَطَّباً أكرمْ بها تيكَ الشُّطَبْ
مُثَقَّبَ الهاماتِ [illegible] غيرِ ثُقَبْ كأنَّها بنادقٌ من الذَّهبْ
قد صاغها صائغُها بلا تَعَبْ

واستحسن الشعراء منظر الأنهار والجداول والبحيرات وخرير المياه وانسيابها ووصفوها أحياناً [illegible] ضوء القمر الجميل في الليالي الصافية . قال أبو منصور الثعالبي : « وقد [illegible] في وصف القمر على الماء ... وأحسن ما سمعتُ فيه ـ على كثرته ـ قول [illegible] التنوخي :

أحسنْ [illegible] والدُّجى مَنصوبٌ والبدرُ في أُفُقِ السَّماءِ مُغرِبُ
فكأنَّه [illegible] بساطٌ أزرقٌ وكأنَّهُ فيها طرازٌ مُذْهَبُ »(٨٤٥)

وانبهر الشعراء بمنظر الثلج ، وتفننوا في وصفه ، وفي بيان جمال حباته الكروية البيضاء الشبيهة باللؤلؤ المنثور على بساط الأرض . منهم أبو بكر الصنوبري(٨٤٦) .

---

(٨٤٢) النضار : الذهب . الأكر : الكرات .

(٨٤٣) المنثور : نبات جميل طيب الرائحة . وله زهر مختلف ، بعضه ابيض وبعضه أصفر .

(٨٤٤) يتيمة الدهر ١ : ٣٠١

(٨٤٥) يتيمة الدهر ١ : ١٠٨

(٨٤٦) عده الدكتور سيد نوفل أول من تغنى بالثلج . ينظر : شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢١٥ .

وكشاجم(٨٤٧) . وأبو الفضل الميكالي(٨٤٨) . وأبو الحسن علي بن أبي الطيب الباخرزي(٨٤٩) . والصاحب بن عباد الذي أورد له الثعالبي عدة ثلجيات وعلّق عليها بقوله : سمعت أبا بكر الخوارزمي يقول : كل هذه الثلجيات عيال على قول الصنوبري :

ذهّـــبْ كؤوســـك ياغلا م فإنّــه يومٌ مُــفــضّــضْ
والـجوُّ يــجلى في الــبــيا ضِ وفي حُــلــيّ الدُرِّ يُــعْرضْ
أظــنــنــتَ ذا ثــلــجاً وذا ورداً مــن الأغــصانِ يُــنْــفضْ
وردُ الربــيــع مُــلوّنٌ والورد في كانونَ أبيض(٨٥٠)

وغُني الشعراء بفصول السنة من شتاء وربيع وصيف وخريف . وعقدوا مقارنات . وأقاموا مفاضلات بينها . ويُعدُّ ابن وكيع التِنيسي من كبار شعراء هذا اللون من النظم . إذ نجد له مزدوجة طويلة تجاوزت مئة بيت . تناول فيها سمات كلّ فصل ومزاياه وتأثيره على الناس بلغة ميسورة وأسلوب واضح وكأنه درس في الجغرافية والاجتماع . اليك ما قاله بعد أن استوفى حديثه الشيق عنها(٨٥١) :

دونـــكَ هذي صـــفةُ الزّمانِ مــشروحةً في أحــسنِ الــتبــيانِ
فأصغ نحو شرحها كي تسمعا ولا تــكــن لــحــقّــها مُــضــيّــعا
وارض بــتــقــليدي فــيــما قــلــتُــهُ فإنّــنــي أدرى بــمــا وصــفــتُــهُ
ولا تعارضْني في هذا العملْ فإنّــنــي شــيــخُ الــملاهــي والــغزلْ

والربيع سيد الفصول في الجمال واللهو والبهجة والحبور ؛ لذلك حظي بأوفر كمية من الشعر المنظوم في الوصف قال الصنوبري في تفضيله على سائر الفصول(٨٥٢) :

ما الدهرُ إلاّ الربيع المستنيرُ اذا أتى الربيعُ أتاك النّورُ والنُورُ
الأرضُ ياقوتةٌ . والـــــجوُّ لؤلؤةٌ والــنــبــت فــيروزجٌ . والــماءُ بــلّورُ
فيه لنا الوردُ منضودٌ مؤزّرٌ ما بين المجالس . والمنثور منثورُ

---

(٨٤٧) ديوان كشاجم ص ٢١١
(٨٤٨) يتيمة الدهر ٤ : ٣٧٢ .
(٨٤٩) ديوان الباخرزي ٢ : ٤٥٤ ، ٤٥٥ .
(٨٥٠) يتيمة الدهر ٣ : ٢٦٥ ، وينظر ديوانه ص ٢٥٥ .
(٨٥١) ابن وكيع التنيسي شاعر الزهر والخمر ص ٧٤
(٨٥٢) ديوان الصنوبري ص ٤٢ ، وينظر : من غاب عنه المطرب ص ٢٨ .

هذا البنفسجُ ، هذا الياسمينُ ، وذا الـ ... نسرينُ ، ذا سوسنٌ في الحسنِ مشهورُ
تظلُّ تنشرُ فيه السُّحبُ لؤلؤها ... فالأرضُ ضاحكةٌ ، والطيرُ مسرورُ
تبارك اللهُ ما أحلى الربيعَ فلا ... تُـغْـرَرْ فقائسُـهُ بالـصَّـيـفِ مـغرورُ

وكان حظ الدور والقصور كثيراً في أوصاف الشعراء ، فلهم فيه صور فنية رائعة ، وتشبيهات دقيقة بارعة ، تدلُّ على ذوق رفيع وخيال خصب ، وقد أورد الثعالبي بضعَ عشرة قصيدة(٨٥٣) سماها بـ « الداريات » تغنّى فيها الشعراء بالدار الفخمة التي شيدها الصاحبُ بن عباد ، منهم أبو العباس الضبي ، وأبو سعيد الرستمي ، وأبو الحسن الجرجاني ، وأبو القاسم الزعفراني ، وأبو القاسم بن أبي العلاء ، وأبو محمد بن المنجم ، وأبو العلاء الأسدي ، وأبو القاسم عبد الله بن محمد بن المعلّى ، وأبو عيسى بن المنجم ، وأبو الحسن الغويري ... وعلّق على الهواء المنعش والماء الجاري في ممرات هذه الدار والمناظر الجميلة التي ورد ذكرها في قصيدة أبي سعيد الرستمي بقوله : « وهو أحسن ما سمعتُ فيه على كثرتِه » ، منها الأبيات الآتية :

هواءٌ كأيامِ الهوى فرطَ رقَّةٍ ... وقد فقدَ العشّاقُ فيها العواذلا
وماءٌ على الرَّضراضِ يجري كأنَّه ... صفائحُ تبْرٍ قد سُبِكْنَ جداولا
كأنَّ بها من شدَّةِ الجري جِنَّةً ... فـقد ألـبـسـتـهـنَّ الرياحُ سلاسلا

وللآثار الشاخصة التي خلفتها الأمم البائدة نصيب في شعر الوصف ، ومن أجمل ماورد في ذلك قول الأرجاني في وصف تماثيل منحوتة رآها في سفح جبل بالقرب من مدينة يقال لها قرميسين ، منها :(٨٥٤)

رأينا عجيباً والزَّمانُ عجيبُ ـ ... رجالاً ، ولـكـن مالـهـنَّ قـلوبُ
تماثيلُ في صخرٍ نحيتٍ كأنها ... بنو زمنٍ لم يلفَ فيه أريبُ
يرينكَ من تحتِ الحوادثِ أوجهاً ... بها من تصاريفِ الزمانِ شحوبُ
وقاموا عـلى الاقدام لا يـعـتـريـهـم ... مدى الدَّهر من طولِ القيامِ لغوبُ
عليهم ثيابٌ ... مجتابٌ لابسٍ ... ولكن من الصخرِ النحيتِ مجوبُ
تعجبُ منها كيفَ جرَّ لمثلها ... ذيولٌ لهم أم كيفَ زُرَّ جيوبُ
وقد شخصتْ للناظرين بوادياً ... صدورٌ لهم من تحتها وجنوبُ
كما تصفُ الاعضاءَ يوماً غلائلٌ ... اذا كان فيها للرياحِ هبوبُ

---

(٨٥٣) يتيمة الدهر ٣ : ٢٠٧ ـ ٢١٨ .
(٨٥٤) ديوان الارجاني ١ : ١٤٠ .

لم يترك الشعراء شيئاً وقع بصرهم عليه الا وصفوه وتعاطفوا معه وشاركوه بمشاعرهم واحاسيسهم ، مثل الشمعة التى تناولوها بشعر رقيق ينم على صدق في التعبير ، كما نرى ذلك عند السري الرفاء، والصنوبري وأبي العلاء المعري ، والطغرائي ، والارجاني والحسن بن أسد الفارقي الذي قال فيها :(٨٥٥)

وندیمةٍ لي في الظلام وحيدةٍ   مثلي مجاهدةٍ كمثل جهادي
فاللون لوني والدموع كأدمعي   والقلبُ قلبي والسهادُ سهادي
لافرق فيما بيننا لو لم يكن   لهبي خفياً وهو منها بادي

لم يكتف الشعراء بوصف الطبيعة الساكنة بمظاهرها المختلفة ، بل التفتوا الى الطبيعة الحيّة ايضاً ووصفوا ماوقع بصرهم عليه من حيوانات وطيوور وحشرات مثل الحصان ، والناقة ، والكلب ، والذئب ، والأسد ، والفهد ، والفيل ، والهر ، والسمك ، والديك ، والببغاء ، والصقر ، والنمل ، والنحل ، والبعوض ، والبرغوث .... ولعل أطرف ما نلحظه في هذا اللون من الوصف « الفيليّات » ، وهي قصائد اتفقت في الوزن وهو « مجزوء الكامل » والقافية وهي « الدال » . تضافر مجموعة من الشعراء على نظمها .(٨٥٦) منها قصيدة ابي الحسن الجوهري التي تناولت الفيل ووصفت جميع أعضاء جسمه وصفاً ظريفاً منها الأبيات الآتية :

يزهى بخرطومٍ كمثـ   ـلِ الصَّولجانِ يردُّ رَدّا
مُتمرِّدٍ كالأفعوا   ن تمدُّه الرمضاءُ مدّا
أو كُمِّ راقصةٍ تُشيـ   ـرُ الى الندمانِ وجدا
وكأنّه بوقٌ تُحرّ   كُهُ لتنفخ فيه جدا
أذناه مروحتانِ أسـ   ـندتا الى الفودينِ عَقْدا
عيناه غائرتانِ ضيـ   ـقتا لجمع الضوء عَمْدا

الشعر الصوفي :

نما التصوف وتطوّر بعد أن غرس مبادئه أئمة كبار ، مثل ذي النون المصري (ت ٢٤٥) الذي فسّر اشارات المتصوفة وتحدث عن احوالهم ومقاماتهم ، وقد عدّه ابن تغري بردي رأس الطريقة الصوفية بمصر .(٨٥٧) وهو القائل :(٨٥٨)

(٨٥٤) ديوان الارجاني ١ : ١٢٠
(٨٥٥) الحسن بن أسد الفارقي ، حياته والصبابة من شعره ص ٨١ .
(٨٥٦) يتيمة الدهر ص ٣٣٢ - ٣٣٩ .
(٨٥٧) النجوم الزاهرة ٢ : ٣٢٠
(٨٥٨) حلية الاولياء ٩ : ٣٤٩

حسبُ المحبين في الدُنيا بأنَّ لهم   مَعْ ربهم سبباً يُدني الى سَبَبِ
قومٌ جسومُهم في الأرضِ ساريةٌ   نعم . وأرواحهم تختالُ في الحُجُبِ
لهفي على خلوةٍ منه تُسدِّدني   اذا تضرَّعتُ بالاشفاقِ والرغبِ
يارَبِّ يارَبِّ أنت اللهُ مُعتمدي   متى أراكَ جهاراً غير مُحتجبِ

ان سبيل الرؤيا عند ذي النون هو الخلوة والذكر الممتزج بالحبّ . ورؤية الله تتمُّ بالقلب عن طريق الحبّ . والرؤيا القلبية هذه لاتتعدى القرب من الله والانس به ، لأنه تعالى عن ان يحيط به شيء او أن يحدَّ بأمد او مقدار . وان تراه عين او يبلغه وهم . لانه تعالى عن الاشباه .(٨٥٩)

ومن رواد المتصوفة في العراق الحارث بن أسد المحاسبي (ت ٢٤٣) . ويعد كتاباه « الرعاية لحقوق الله » و « التوهم » من أهم الكتب التي تناولت الاخلاق وتطهير النفس .(٨٦٠) ويأتي بعد المحاسبي السريُّ السقطي (ت ٢٥١) شيخ المتصوفة في بغداد وامامهم في وقته وقد عرف بالمبالغة في رياضة النفس ومجاهدتها . وهو القائل : « مَنْ خاف الله خافه كلُّ شيء » .(٨٦١) . وسئل : كيف أنت ؟ فأنشأ يقول :(٨٦٢)

من لم يبت والحبُّ حشو فؤاده   لم يدر كيف تفتتُ الاكبادُ

واشتهر من المتصوفة يحيى بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨) وهو اول من حاضر الناس في التصوف .(٨٦٣) ومن أقواله : « منْ أشخص بقلبه الى الله انفتحت ينابيع الحكمة من قلبه وجرت على لسانه »(٨٦٤) . وقال في الحب :(٨٦٥)

نفس المحب الى الحبيب تطلَّعُ   وفؤاده من حبه يتقطعُ
عزُّ الحبيب اذا خلا في ليله   بحبيبه يشكو اليه ويضرعُ
ويقوم في المحراب يشكو بثه   والقلبُ منه الى المحبة ينزعُ

---

(٨٥٩) حلية الاولياء ٩ : ٢٨٨ . وينظر : الفكر الصوفي ص ٦٦

(٨٦٠) طبع الأول بتحقيق عبدالحليم محمود ، وطه عبدالباقي سرور ، نشرته دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد . وحقق الثاني آرثر اربري وطبع في القاهرة سنة ١٩٣٧ .

(٨٦١) طبقات الصوفية ص ٥٣

(٨٦٢) حلية الاولياء ١٠ : ١١٩

(٨٦٣) في التصوف الاسلامي وتاريخه ص ٢٠

(٨٦٤) حلية الاولياء ١٠ : ٥٢

(٨٦٥) نفسه ١٠ : ٦١

وعرف ابو حمزة محمد بن ابراهيم البغدادي (ت ٢٨٩) بالتصوف. قال عنه الخطيب البغدادي : « كان أستاذ البغداديين . وأول من تكلم ببغداد في صفاء الذكر . وجمع الهمة . والمحبة . والشوق . والانس . لم يسبقه الى الكلام بهذا على رؤوس الناس ببغداد أحد » .(٨٦٦) وقد ظهرت البواكير الاولى للنزوع نحو الاتحاد في شعره . سئل مرة : أيفزع المحب الى شيء سوى محبوبه ؟ فقالا : لا . انه بلاءٌ دائمٌ . وسرور منقطعٌ . وأوجاعٌ متصلة . لا يعرفها الاّ من باشرها . وأنشدَ :

يلاقي الملاقي شجوه دون غيره وكل بلاءٍ عند لاقيه أوجعُ(٨٦٧)

وأخذت معالم التصوف ومبادؤه تتضح يوماً بعد آخر . وازداد عدد المتصوفة وكثر مريدوهم . منهم : أبو الحسن لنوري (ب ٢٩٥) . والجنيد البغدادي(ت ٢٩٧) . وسحنون الخواص (ت ٣٠٣) . وأبو المغيث الحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩) . وأبو علي الروذباري (ت ٣٢٢) . وأبو بكر الشبلي (ت ٣٣٤) ...

كان الحلاج مثالا للمتصوف المتقشِّف الذي يرى ان درجة القداسة لا يتمُ احرازها الاّ بتجرع غصص الآلام « وأنَّ العلاقة الحقيقية بين الله والانسان هي علاقة الحب ليس غير . ومن اجل الحب خلق الله الانسان على صورته . وبناء على ذلك يمكن لهذا المخلوق ان يجد في نفسه حقيقة الصورة الالهية التي طبعها الله فيه . اذا هو نقى نفسه وطهَّرها . وبلغ بها أقصى درجات المعاناة من حب الله » .(٨٦٨) وكان يرى أن في العالم جاذبية فطرية تحركُ المخلوق للقاء الخالق . وتحركُ الخالق لحب المخلوق . باعتبارها جوهر الحركة في هذا الكون » .(٨٦٩) وقد قتل مصلوباً بسبب آرائه التي أنكرها علماء الشريعة ولم يجيزوها ولاسيما مسألة اعتقاده في الحلول والاتحاد .(٨٧٠) . مثل قوله :(٨٧١)

أنا من أهوى . ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
نحنُ . مذ كناّ على عهد الهوى تضربُ الأمثالُ للناس بنا
فاذا ابصرتني ابصرته واذا أبصرته أبصرتنا

---

(٨٦٦) تاريخ بغداد ١ : ٣٩٢ .

(٨٦٧) تاريخ بغداد ١ : ٣٩٢

(٨٦٨) الشعر الصوفي ص ٨١

(٨٦٩) الحلاج موضوعاً ص ١٨

(٨٧٠) ينظر كتابه : الطواسين ص ١٢٩ ـ ١٣٠ . وينظر : تاريخ متصوفة بغداد ٧٠ ـ ٧٩ .

(٨٧١) ديوان الحلاج ص ٥٥ .

أيّها السائل عن قصّتنا : لو ترانا لم تفرّق بيننا
روحه روحي . وروحي روحه مَنْ رأى روحين حلّت بدنا ؟!

وكان أبو بكر الشبلي زميل الحلاج وصديقه وقرينه في ميدان المجاهدة والرياضة والسلوك . وها هو ذا يلتقي معه في مقطوعة متنازعة بينهما . وهي :(٨٧٢)

ياموضع الناظر من ناظري ويا مكانْ السرّ من خاطري
ياجملة الكلّ التي كلّها أحبّ من بعضي ومن سائري
تراك ترثي للذي قلبه معلقٌ في مخلبيْ طائر ؟
موله حيرانُ مستوحشٌ ينهربُ من قفرٍ الى قفر
يسري وما يدري وأسراره تسري كلمح البارق الناثر
كسرعة الوهم لمن وهمه على دقيق الغامض الغابر
في لجّ بحرِ الفكر تجري به لطائف من قدرة القادر

ان تشدد رجال الدين لم يقض على الحركة الصوفية . بل بقيت رائجة عند طائفة من الناس . وظهرت كتب كثيرة في عقائدهم وافكارهم اخبارهم . مثل كتاب « اللمع » للسراج الطوسي (ت ٣٧٨) . وكتاب « التعرف لمذهب اهل التصوف » للكلاباذي (ت ٣٨٠) . وكتاب « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦) . وكتاب « حلية الاولياء » لابي نعيم الاصبهاني (ت ٤٣٠) .

ان عاطفة الحب ولواعج الشوق والهيام بارزة بشكل واضح في أغلب الشعر الصوفي . وكانت المرأة عند المتصوفة رمزاً موحياً دالاً على الحب الالهي . ذلك الحب الذي انكره علماء الشريعة . لأنه في رأيهم يقتضي تشبيه الله بخلقه . وقد اشتهر به الكثيرون امثال ابي الحسن النوري . وأبي منصور الحلاج . وابي العباس احمد بن سهل بن عطاء (ت ٣٠٩) . وابي علي الروذباري . واحمد بن محمد بن موسى المشهور بابن عريف (ت ٥٣٧) . وابي علي التلمساني (ت ٥٩٤) . وشهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي الملقب بالشيخ المقتول (ت ٥٨٧) . وقد عبر هذا الاخير بشعر حافل بالتلويحات والرموز الغزلية عن نظرية « الاشراق » التي تذهب الى « ان الله نور الأنوار . ومصدر جميع الكائنات . فمن نوره خرجت أنوار أخرى

---

(٨٧٢) ديوان ابي بكر الشبلي ص ١٠١ . ، ديوان الحلاج ص ٣٣ .

هي عماد العالم المادي والروحي . والعقول المفارقة ليست الا وحدات من هذه الأنوار . تحرك الأفلاك وتشرف عليها » .(٨٧٣) ولعلَّ قصيدته الحائية التي تداولها الصوفيون في أروقتهم من اجمل شعره الذي عبر به عن شوقه وحنينه وحالات وجده وهواجس نفسه . منها قوله :(٨٧٤)

أبداً تحنُّ اليكم الارواحُ ... ووصالكم ريحانها والراحُ
وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتاقكُم ... والى لذيذ لقائكُم ترتاحُ
وارحمنا للعاشقين تكلفوا ... ستر المحبة . والهوى فضّاحُ
بالسرِّ ان باحوا تباحُ دماؤهم ... وكذا دماءُ العاشقين تباحُ
واذا هُمُ كتموا تحدثُ عنهم ... عند الوشاةِ المدمعُ السحاحُ(٨٧٥)
وبدتْ شواهدُ للسقام عليهم ... فيها لمشكل أمرهم ايضاحُ
خفضُ الجناحِ لكم . وليس عليكم ... للصبِّ في خفضِ الجناح جناحُ(٨٧٦)
فالى لقاكم نفسه مشتاقةٌ ... والى رضاكم طرفُهُ طماحُ(٨٧٧)
عودوا بنورِ الوصلِ في غسقِ الجفا ... فالهجرُ ليلٌ والوصالُ صباحُ

وقد تطورَ شعر الحب الالهي وبلغ الذروة في النضوج والازدهار في مطلع القرن السابع للهجرة . وزعيمه في الأدب العربي أبو حفص عمر بن الفارض (ت ٦٣٢) الذي سندرس شعره بالتفصيل في ترجمته . وكذلك اشتهر محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨) بالشعر المليء بشوق المتصوفة وحنينهم وغرامهم ووجدهم . مثل قوله :(٨٧٨)

سلامٌ على سلمى ومن حلَّ بالحمىَ ... وحُقَ لمثلي . رقّةً أن يُسلما
وماذا عليها ان تردّ تحيةً ... علينا . ولكن لا احتكامَ على الدمى
سروا وظلامُ الليلِ أرخى سدوله ... فقلتُ لها صبّاً غريباً متيماً
احاطت به الاشواق صوناً وأرصدتْ ... له راشقاتُ النبلِ أيانَّ يمما

---

(٨٧٣) هياكل النور ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٢ .
(٨٧٤) معجم الادباء ٧ ، ٢٨٠
(٨٧٥) في رواية اخرى : السفاح
(٨٧٦) الجناح : بضم الجيم ، الاثم
(٨٧٧) في رواية اخرى : مرتاحة بدلاً من مشتاقة
(٨٧٨) ترجمان الاشواق ص ٢٥ .

فأبدت ، ثناياها ، وأومض بَارِقٌ   فلم أدر من شقّ الحنادسَ منهما
وقالتْ : أما يكفيه أني بقلبه   يشاهدُني في كلّ وقتٍ أما أما ؟

لقد عبر المتصوفة عن مواجدهم وأحوالهم بشعر يفيض بالفاظ المحبين وتعابيرهم . وقد أشار محيي الدين بن عربي الى هذا الامر . فقال في مقدمة كتابه ترجمان الاشواق : « لما نزلت مكة سنة خمس مئة وثمان وتسعين ... استخرتُ الله تعالى تقييد هذه الاوراق . وشرحتُ مانظمته بمكة المشرّفة من الابيات الغزلية في حال اعتماري في رجب وشعبان ورمضان أشير بها الى معارف ربانية . وأنوار الهية . وأسرار روحانية . وعلوم عقلية . وتشبيهات شرعية . وجعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل والتشبيب لتعشق النفوس بهذه العبرات فتتوفر الدواعي على الاصغاء اليها . وهو لسان كل اديب ظريف . وروحاني لطيف »(٨٧٩)

وتجدر الاشارة الى أنّ الخمرة عند المتصوفة كانت من رموز الوجد الصوفي والحب الالهي . وقد وصلت الينا نماذج خمرية كثيرة . نقرأ منها أبيات ابي مدين التلمساني (ت ٥١٤) من قصيدة طويلة : (٨٨٠)

أدرْها لنا صرفاً ودع مزجها عنّا   فنحنُ أناسٌ لا نرى المزج مذ كنّا
وغنّ لنا فالوقتُ ... طاب باسمها   لأنا اليها قد رحلنا بها عنا
عرفنا بها كل ... وجود ولم نزلْ   الى أن بها كل المعارف أنكرنا
هي الخمر لم ... ف بكرم يخصها   ولم يجلها راحٌ ولم تعرف الدنا
مشعشعة يكسو ... الوجوه جمالها   وفي كل شيء من لطافتها معنى
حضرنا فغبنا عند دور كؤوسها   وعدنا كأنا لاحضرنا ولا غبنا
وأبدت لنا في كل شيء اشارةً   وما احتجبت الاّ بأنفسنا عنّا
ولم تطق الأفهامُ تعبير كنهها   ولكنها لاذت بألطافها الحسنى
نصحتك لاتقصد سوى باب حانها   فمن وجد الأعلى فلا يطلب الأدنى
موانعنا ... حظوظ نفوسنا   فإن قطعت عنا اليها توصلنا
تجلت دُنوّاً واختفت بمظاهرٍ   وجلّتْ فما أغنى ودقت فما أسنى
وما الكونُ الاّ مظهرٌ لجمالها   ارتنا به في كلّ شيء بدا حسنا

---

(٨٧٩) ترجمان الاشواق ص ٧ ـ ١٠
(٨٨٠) الرمز الشعري عند الصوفية ص ٣٥٩ .

انّ هذه الخمرة التي انتشى بها ليست الخمرة المعصورة من كرم العنب التي تصرع الالباب ، بل هي الخمرة الالهية التي تساعده في رؤية نور الحق .

كان المتصوفة يؤثرون الاشارة على العبارة ، ويعمدون الى التلميح دون التصريح ، ستراً لحقائقهم ، وكتماً لأسرارهم ، وغيرةً على هذه الحقائق ؛(٨٨١) لذلك لا يمكن فهم الفاظهم ومصطلحاتهم التي لها مدلولات خاصة الاّ بالرجوع الى كتب التصوف مثل الرسالة القشيرية لعبد الكريم بن هوازن القشيري (ت ٤٦٥) ، واصطلاحات الصوفية لمحيي الدين بن عربي ، واصطلاحات الصوفية لعبدالرزاق بن جمال الدين الكاشي (ت ٧٣٠) ...

وأخيراً لابدّ من الاشارة الى أن فريقاً من المتصوفة انحرفوا عن طريق الصواب . ودخلت الاوهام والخرافات والاساطير بينهم ، وقد انبرى كثير من العلماء بالرد عليهم واظهار اخطائهم وتفنيد اقوالهم وبيان بدعهم ، منهم الامام الغزالي (ت ٥٠٥) وابو الفرج عبدالرحمن بن ابي الحسن علي المشهور بابن الجوزي (ت ٥٩٧) . وكان ابو البركات عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله الانباري (ت ٥٧٧) يميل الى التصوف وينبذ الخرافات والشعوذات . ومن جميل شعره في هذا المجال قوله :(٨٨٢)

دَع الفؤادَ بما فيه من الخُرَقِ   ليس التصوفُ بالتلبيسِ والخِرَقِ
بل التصوف صفو القلب من كدَر   ورؤيةُ الصَّفو فيه أعظمُ الخرقِ
وصبرُ نفسٍ على أدنَى مطامعها   وعن مطامعها في الخَلْقِ بالخلقِ
وتركُ دعوى بمعنى فيه حقَّقهُ   فكيف دعوى بلا معنىً ولا خِلقِ

---

(٨٨١) ينظر ، السهروردي ص ٤٩ ، وبحث الدكتور محمد مصطفى حلمي (كنوز في رموز) المنشور في الكتاب التذكاري ، محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده ص ٣٧ ــ ٦٦ .

(٨٨٢) انباه الرواة ٢ : ١٧١

الشعراء :

ابو الطيب المتنبي

٣٠٣ ـ ٣٥٤ هـ

لم يحظ شاعر من شعراء العرب بالاهتمام والدراسة قديماً وحديثاً بقدر ما حظي به ابو الطيب المتنبي . ولعلّ شهرته في مملكة الشعر جاءت من جودة نظمه الذي يُسحر القارىء ويجعله منقاداً له في رضىً واعجاب . يُضاف الى ذلك « أنَّه ينطقُ عن خواطر الناس » كما قال القاضي الفاضل .(٨٨٣)

سيرته :

أبو الطيب احمد بن الحسين بن مُرَّة بن عبدالجبار الجُعفي الكندي الكوفي . أو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجُعفي الكندي الكوفي .(٨٨٤) وجُعفي الذي ينسب اليه هو جُعفي بن سعد العشيرة من مُذْحِج بن كهلان من قحطان . فهو من أصل عربي قحطاني ، خالص النسب أباً وأماً .

فتح ابو الطيب عينيه على الدنيا سنة ٣٠٣ للهجرة في حي كندة بالكوفة . وهو حيٌّ نزله المهاجرون من العرب الذين نزحوا ايام الفتوح الى هذه البقاع . وهم من أصل يماني سموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الاولى للذكرى والحنين .(٨٨٥) وظنّ من لا تحقيق عنده أن المتنبي من قبيلة كندة . وفي شعره ذكريات في هذا الحي وكان مفارقاً له . قال يحنّ اليه :

أمُنسيَّ السَّكونَ وحَضرَموتا ووالدتي وكندة والسَّبيعا (٨٨٦)

كان المتنبي فقير المنشأ . قيل ان أباه كان يسمى عيداناً . وكان سقّاءً بالكوفة يستقي على بعيرٍ له . وفقدَ هذا الأبَ المعين على بؤس الحياة . ولا نعرف شيئاً عن والدته . ولعلها ماتت في حداثته . ولكن جدّته لأمه وهي عربية هَمْدانية كانت من النساء الصالحات سهرت على تربيته وتنشئته والاحتفاء به .

---

(٨٨٣) الوشي المرقوم ص ٥٧

(٨٨٤) وفيات الاعيان ١ : ١٢٠

(٨٨٥) المتنبي للدكتور زكي المحاسني ص ٢٢

(٨٨٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤٢٢ ، والاسماء المذكورة في البيت هي أماكن في الكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا يسكنونها

تعلم القراءة والكتابة في الكُتّاب . ولازم دكاكين الورّاقين وقرأ كثيراً من الكتب التي كانت تأتي اليها . وحضر حلقات العلماء والادباء . ولم تذكر المصادر الاساتذة الذين تتلمذ على ايديهم . وهذا مادفع طه حسين الى القول : « ان المتنبي قد نشأ في غير مدرسة . وتعلّم على غير معلم . ولم يأخذ ثقافته عن الاساتذة والنقّاد . وانما اخذها عن الكتب والصحف »(٨٨٧) وتردّدَ على البادية ووقف على اللغة الفصحى . وتمرَّس بالفروسية وفنون الحرب وضروبها .

زار بغداد وهو في ريعان الشباب . ووقف على معالمها . وشاهد الاعاجم وتنازعهم على السلطة . ورأى تضارب الآراء بين الناس . والخلافة غير قادرة على فرض هيبتها وهيمنتها . وقد آلمه ذلك وأحزنه . وأخذ يتنقل بين المدن . وزار الشام ورآها ليست بأحسن حال من العراق .

كان المتنبي كبير النفس . بعيد الهمة . ناقماً على أولئك الذين حكموا ديار العرب من غير أهلها . ثائراً في نفسه عليهم . وقد أراد أن يُحقق هذه الثورة . فاتصل بقبائل عربية في البادية . ودعا رجالاً منهم الى بيعته . فاستجابوا له . وخرج الى أرض سلمية من عمل حمص ليعلن ثورته . فلم يكد يُعلنها حتى أخذه لؤلؤ الغوري والتي الإخشيد على حمص وألقاه في غياهب السجن . وتلقّى الحبس متمسكاً بكبريائه وأنفته ونفسه العالية قائلاً :(٨٨٨)

كُنْ أيُها السِجنُ كيف شئتَ فقد ... وطّـنـتُ لـلـمـوتِ نـفـسَ مُـعـتـرِفِ
لو كان سُكناي فيكَ منقصةً ... لم يكن الدرُّ ساكن الصَّدَف

إنَّ روحه الوثّابة استكانتْ بعد أن ذاق مرارة الوحشة والغربة والجوع . وأوهن رجليه ثقلُ الحديد . وأخذَ يستعطفُ الحاكم أن يعفو عن ذنبٍ نواهُ ولم يفعله كما في قوله :(٨٨٩)

(٨٨٧) مع المتنبي ص ١١٣
(٨٨٨) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤٢٩ .
(٨٨٩) نفسه ١ : ٢١٩ .

دعوتــك عــندَ انــقــطاع الرَّجا ءِ والموتُ منّي كحبل الوريدِ
دعوتــك لــما براني البَلاءُ وأوهــنَ رِجلـيَّ ثِـقـلُ الـحديدِ
فــمالــكَ تــقـبــلُ زورَ الـكلامِ وقَدْر الـشَّهادة قَدر الـشُّهودِ
فلا تــسمعنَّ مــن الـكاشحينَ ولاتــعبأنَّ بــمحـكِ الـيهودِ
وكُنْ فارقاً بين دعوىٰ أردتُ ودعوى فـعـلـتُ بشأوٍ بـعـيد

رقَّ قلب الحاكم عليه ، وفكَّ أسره ، وأطلقَ سراحه ، فهام على وجهه يجوب الديار وهوقلق كأنما يترصَّدهُ المترصدون ، وقد عبَّرَ عن حاله بقوله : (٨٩٠)

أواناً في بيوت البدوِ رحلي وآونةً على قَتَدِ البعير(٨٩١)
أُعَرِّضُ للرِّماح الصُمِّ نحري وأنصِبُ حُرَّ وجهي للهجيرِ
وأسري في ظلام اللَّيلِ وحدي كأنــي مــنــه في قــمر مــنــير

وتختلف الأخبار في مسألة نبوته، منها ما يؤكدها، ويؤكد ادعاءه بعض المعجزات، وقد روى المعريُّ بعض أخباره تلك(٨٩٢) وقيل إنه لم يرَ حرجاً أن يشبه نفسه بالأنبياء . مثل قوله في أول شبابه : (٨٩٣)

ما مُقامي بأرض نخلةَ إلا كمقام المسيح بين اليهودِ(٨٩٤)
أنا في أمَّةٍ تدارَكـــــــــــها اللـــــهُ غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ

والمعن في هذين البيتين لايرى فيهما دعوةً الى النبوة ، وانما يرى أنه يشبه نفسه وهو مقيم بين قوم يعتقد أنهم أعداؤه بالمسيح عليه السلام حين أقام بين اليهود ، ويشبه غربته في قوم لاتجانسَ بينه وبينهم بغربةِ صالح عليه السلام الذي كان يعيش بين قوم لايرونَ رأيه وهم ثمود . (٨٩٥)

---

(٨٩٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٤٨ .

(٨٩١) الرحل : مايستصحبه الرجل من الأثاث ، والقتد : خشب الرحل .

(٨٩٢) رسالة الغفران ص ٤٢٢ .

(٨٩٣) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٠٦ .

(٨٩٤) نخلة : قرية لبني كلب قرب بعلبك .

(٨٩٥) ينظر : أبو الطيب المتنبي وماله وما عليه ص ٩ .

إن هذا اللقب « المتنبي » جاء من خصومه وحاسديه . وبقي مشتهراً به . وقد نفى عن نفسه تهمة النبوة ولم يرضَ بها(٨٩٦). أما من ذهب الى أنه من « النُّبوة والنُّباوة » أي المرتفع فلعل فيه شيئاً من الصحة . اذ كان معجباً بشجاعته وأدبه وآرائه التي دفعته الى الثورة وألقته في السجن . وقد تجاوز في شعره كلَّ حدٍ ممكن . من ذلك ما : قاله في صباه ارتجالاً :(٨٩٧)

أيَّ محلٍ أرتقي ... أيَّ عظيمٍ أتَّقي
وكلُّ ماقد خلقَ الـ ... ـلهُ وما لم يُخلقِ
محتقرٌ في هِمتي ... كشعرةٍ في مفرقي

مضى بعد خروجه من السجن الى شمال الشام . وليس له قرار . يقاسي الضرَّ وسوء الحال . واضعاً شعره بين أيدي الممدوحين .(٨٩٨) أمثال بدر بن عمار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية . ومساور بن محمد والي حلب . وسعيد بن عبيد الكلابي . والحسين بن عبيد الله من طغج . وعلى بن ابراهيم التنوخي . ومحمد بن زربق الطرسوسي وسواهم . وقد عَبَّرَ عن حاله بقوله :(٨٩٩)

الى كم ذا التخلّفُ والتّواني ؟ ... وكم هذا التَّمادي في التَّمادي ؟
وشُغْلُ النفس عن طلب المعالى ... ببيع الشِّعر في سُوقِ الكسادِ

ويشعر بالغربة ويعصرهُ الألم . بعدما رأى نفسه — وهو صاحب الهمة والعبقرية — مهانةً بين أُناس ساقتهم حظوظهم الى اعتلاء المناصب والتحكم في رقاب الناس . ونظم قصيدته الميمية المشهورة التي صبَّ فيها مايدور في صدره مِن همٍ . وأبانَ عن الواقع المرير الذي انتاب الأمة آنذاك . وأولها(٩٠٠)

فؤاد ماتُسلّيه المدامُ ... وعمرٌ مِثلُ ماتَهَبُ اللئامُ
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإنْ كانتْ لهم جثثٌ ضِخامُ

---

(٨٩٦) ينظر : الشعر في رحاب سيف الدولة ص ٦٥ .

(٨٩٧) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٨٢ .

(٨٩٨) مدح في هذه الفترة اثنين وثلاثين رجلا باربع واربعين قصيدة .

(٨٩٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٢٥ .

(٩٠٠) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٣٨ .

أرانــب غــير أنــهــم مــلوكٌ . مُــفــتــحة عــيونــهــمُ نيــامُ
بأجــسامٍ يَــحَرُّ الــقــتــل فــيــها وما أقرانها إلاّ الطّعامُ(٩٠١)

إلتجأ الى أبي العشائر الحمداني والي انطاكية من قبل سيف الدولة حاملاً معه همومه ومدحه بقصدتين وثماني مقطوعات . وعرف هذا الوالي منزلته العالية وقدرته الفائقة في نظم الشعر . فأكرمه وأنزله مقاماً محموداً . وحينما ورد سيفُ الدولة علي ابن حمدان الى أنطاكية سنة ٣٣٧ للهجرة قدّم أبو العشائر اليه المتنبي وأثنى عليه وعلى شعره. ولما سمع سيف الدولة ـ وهو شاعرٌ أيضاً ـ شيئاً من شعره راق له وأعجبه وحكم له بالجودة والتقدُّم . واصطحبه الى حلب وارتضى بشروطه :(٩٠٢) لايمانه بشاعريته الممتازة وعبقريته الفذّه . ونباهته الفريدة التي ستُعلي شأنه وتخلده .

وجد المتنبي في هذا الأمير العربي الغيور تجسيداً لآماله وأحلامه وطموحاته فأقام في رحابه معززاً مكرماً أكثر من تسعة اعوام. خصّهُ بغرر شعره الذي بلغ (٣٨) قصيدة و (٤١) مقطوعة . وفاز بجوائزه السنية التي لم يفز بها شاعر آخر . وقد أقرَّ بذلك في شعره مثل قوله :(٩٠٣)

تركتُ السُّرى خلفي لِمَنْ قلّ مالُهُ وأنعلتُ أفراسي بنُعماك عَسْجَدا
وقيدتُ نفسي في ذراك محبّةً ومَــنْ وجد الاحسانَ قيداً تقيَّدا

كان مجلس سيف الدولة محفلاً علمياً وأدبياً . ضمّ خيرة أرباب القلم آنذاك . أمثال أبي فراس الحمداني وأبي الفرج الببغاء . وأبي عبدالله الخليع . والوأواء الدمشقي. وأبي بكر وأبي عثمان الخالديين. والسري الرفّاء. وابن نُباته السعديّ. وأبي بكر الصنوبري . وأبي العباس النامي . وابن خالويه . وأبي الطيب اللغوي . وأبي الفتح بن جني . وأبي علي النحوي . والفارابي . وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ... وفي خضم هذا المحفل كان المتنبي يحتلُّ الصدارة ويحملُ لواء الامارة في الشعر وينالُ مالا يناله الآخرون من الامير . وقد شقّ على الادباء هذا الموقف

---

(٩٠١) بأجسام أي مع أجسام ، يحر يشتد ، يقول : انهم لا يحفلون إلا بالمأكل ومن ثم يموتون بالتخمة من كثرة الأكل لا في وقائع الحروب .

(٩٠٢) قيل ان المتنبي اشترط على سيف الدولة أن لا ينشده واقفاً حاسر الرأس ، بل يجلس اذا كان الأمير جالساً ، ويقف اذا كان واقفاً ويركب اذا كان راكباً .

(٩٠٣) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٩٤ .

فحسدوه . وناصبوه العداء وبيتوا له المكائد . وأخذ بعضهم يُقلل من شأنه عند سيف الدولة ويُوغر صدره عليه . حتى ان هذا الأمير لم ينتصف له حينما ضربه في مجلسه ابن خالويه بالمفتاح وشجَّ رأسه وأسال دمهُ على وجهه وثيابه بعد مشادة حادة في مسألة لغوية .(٩٠٤)

لقد أحسَّ بضعف مركزه في بلاط سيف الدولة لذلك قرَّر الانصراف عنه والرحيل الى بلد آخر . وكانت آخر قصيدة له في هذا الأمير سنة ٣٤٥ للهجرة ومطلعها :(٩٠٥)

عُقْبى اليمينِ على عُقْبى الوغى ندمُ ماذا يزيدُك في إقدامِك القسمُ

غادر حلب الى دمشق بنفس مكلومة وقلب جريح . ومنها ارتحل الى الفسطاط . وحلَّ في دار الإمارة . وماكاد يرى كافوراً حتى اشمأزت نفسه . وانتابنه آلام وهموم . ظهرت بوادرها في مقدمة قصيدته الأولى التي مدح بها هذا الأمير الجديد :(٩٠٦)

كفى بك داءً أنْ ترى الموت شافياً وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا
تمنيتها لمَّا تمنيت أنْ ترى صديقاً فأعيا أوعدوًّا مُداجيا

إنه يعجز في ايجاد الصديق المصافي والعدو المجافي . ويدفعه الزمن الخؤون الى رجل مامن مصاحبته بدُ . ونراه يظهر ألمه جلياً حينما يدخل على كافور ويراه قبيحاً وقد لبس نعلاً لم يُخفِ مابرجليه من شُقوقٍ . فيهجوه بأبيات يكتمها على وزن وقافية القصيدة السابقة أولها :(٩٠٧)

أريك الرِّضا لو أخفتِ النَّفسُ خافياً وما أنا عن نفسي ولاعنك راضيا

ويلمح بأولئك الذين فرطوا به وألجاوه الى رجل هو أجدر بالهجاء من المدح :

ولولا فُضُول النّاسِ جئتك مادحاً بما كنتُ في سرّي به لك هاجيا
فأصبحتَ مسروراً بما أنا مُنْشِدٌ وإن كان بالانشادِ هجوُك غاليا

كان المتنبي يطمح في ولاية عند كافور الاخشيدي . وقد لمح بذلك في شعره . ثم آل هذا التلميح الى التصريح مثل قوله :(٩٠٨)

---

(٩٠٤) ينظر الصبح المنبي ص ٨٧ .

(٩٠٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٩٤ .

(٩٠٦) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٥٠٩

(٩٠٧) نفسه ٢ : ٥٢٠ .

(٩٠٨) نفسه ١ : ١٢٧ .

أبا المِسْك هل في الكأسِ فضلٌ أنالُهُ؟ فإني أغنّي منذ حينٍ وتشربُ
وهبتَ على مقدار كَفَّيْ زمانِنا ونفسي على مقدارِ كفيك تطلبُ
إذا لم تَنُطْ بي ضيعةً أو ولاية فجودُك يكسوني وشُغْلك يَسْلُبُ

تغاضى عنه كافور ولم يحقق مطالبه . وقال لبعض بطانته : هو في الفقر وعدم العون سمت به نفسه الى النبوة فكيف يكون أمره اذا أصاب الولاية (٩٠٩) ؟

ضاقت نفسه في مصر بعد أن أخفق في الوصول الى مراده . وقد أمضى فيها أربعة أعوام وستة أشهر . مدح فيها كافوراً بتسع قصائد ومقطوعتين . وعزم على الرحيل . واستاذن كافوراً في ذلك . فلم يأذن له . ووضع عليه الرَّصْد . ونشر حوله العيون ؛ لأنه كان يعلم أنَّ وراء هروبه هجاءً حاداً . وحصل الذي كان يتوقعه كافورا . إذ هرب المتنبي سراً وفي غفلةٍ منه في ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ للهجرة متوجهاً نحو مسقط رأسه الكوفة . وقد حاول كافور الظفر به . فلم يفلح ولم ينج من لسانه . اذ هُجي بقصيدة تتوشحُ بالسُّخطِ والكُره . أولها : (٩١٠)

عيدٌ بأيةِ حالٍ عُدتَ ياعيدُ بما مضى أمْ لأمرٍ فيكَ تجديدُ
أما الأحبةُ فالبيداءُ دونهمُ فليتَ دونكَ بيداً دونها بيدُ

وفيها يشكو ما أصابه من ضرٍ وقهرٍ في رحلته الى مصر :

ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبه إني بما أنا باكٍ منه محسود
أمسيتُ أروحَ مثرٍ خازناً ويداً أنا الغنيُّ وأموالي المواعيدُ
إنّي نزلتُ بكذّابين ضيفهمُ عن القِرى وعن الترحال محدودُ
جودُ الرِّجالِ من الأيدي وجودُهمُ مِن اللسان فلاكانوا ولا الجودُ

وصل الكوفة منزله الأول سنة ٣٥١ للهجرة بعد فراقٍ طويل دام ستة عشر عاماً . وأقام فيها . ثم زار بغداد ليرى ما حلَّ بها بعد أن تقاسم الأعاجمُ المكاسبَ والمغانمَ فيها . وكان ذلك زمن معز الدولة البويهي ووزيره الحسن بن محمد المعروف بالمهلبي . وقد نقم هذا الوزيرُ منه بعد أن يئس أن يسمع قصيدةً في مدحه . وألب عليه الشعراء الهجّائين مثل ابن حجاج وابن لنكك البصري . وحرَّض عليه من

(٩٠٩) المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ص ٢٠٠ ، وينظر ، الواضح في مشكلات شعر المتنبي ص ١٠ ، وخزانة الادب للبغدادي ٢ : ٣٥١ ، وكافوريات المتنبي ص ١٦١ ـ ١٦٣ .

(٩١٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٧٠ .

الأدباء اللغويين أبا علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي .(٩١١) . ولكن المتنبي كالصخرة الصّماء لم يكترث بهم ولم يلتفتْ إليهم . وقيل له في ذلك . فقال :(٩١٢)

واذا أتتكَ مذمَّتي من ناقصٍ فهي الشَّهادةُ لي بأنّي كاملُ

وعاد الى الكوفة محزوناً على ما أصاب الأمة من ظلمٍ وتعسُّفٍ . وجاءه في سنة ٣٥٢ للهجرة رسولٌ من سيف الدولة ومعه هديةٌ يطلب منه العودة الى حلب . فقبل الهدية ومدحه بقصيدة دعاه فيها الى الانقضاض على حكام بغداد المستعجمين . منها قوله :(٩١٣)

أنـــت طولَ الــحــياةِ للرومِ غازٍ فمتى الوعدُ أنْ يكون القُفولُ ؟

وسِوى الرُّومِ خلف ظهرك رومٌ فـعـلى أي جانـبـيـك تـمـيـلُ (٩١٤)

لم يُشِرْ الى العودةِ الى حلب . وكأنّ نفسه الأبية لم تأذن له بذلك . وأكبر الظن أنه كان لايزال يذكر صنيع الوشاة والكائدين من حول الأمير الحمداني .(٩١٥) . بدليل قوله في مطلع قصيدة بعث بها الى هذا الأمير جواباً على رسالة أخرى جاءته منه سنة ٣٥٣ للهجرة يسأله فيها المسير إليه :(٩١٦)

فـهـمـتُ الـكـتابَ أبرَّ الـكـتـبْ فَـســمْعاً لأمر أمـيـر الـعـربْ

وطوعاً لــه وابــتــهاجاً بــه وإنْ قَـصَّرَ عـمَّا وجـبْ

وماعاقــنــي غــيرُ خوف الوشاةِ وإنَّ الوشايات طُرْقُ الكــذب

---

(٩١١) له ثلاثة مصنفات في نقد المتنبي ، الأول ، المخاطبة في إذاع المتنبي ، احتفظ لنا بها ياقوت في معجم الأدباء . الثاني ، الرسالة الحاتمية وهي مطبوعة . الثالث ، الموضحة ، وهي مطبوعة .

(٩١٢) شرح ديوان المتنبي ٢ ، ١٨٤ .

(٩١٣) نفسه ٢ ، ١١٨ .

(٩١٤) أي ان خلف ظهرك روماً سوى الروم ــ يريد آل بويه ــ أي أن هنالك أعداء لله كالروم فليس أعداؤك الروم حسب وانما أعداؤك كثير فايهم تقاتل ؟

(٩١٥) ينظر فصول في الشعر ونقده ص ١٠٢ .

(٩١٦) شرح ديوان المتنبي ١ ، ٦٩ .

ووصل إليه في أواخر سنة ٣٥٣ للهجرة كتاب من ابن العميد وزير عضد الدولة يدعوه فيها لزيارة «أرجان». فارتحل اليه لأول سنة ٣٥٤ للهجرة، ووجد عنده إكراماً بالغاً وتقديراً فائقاً ومدحه بأربع قصائد.

وكان الصاحب بن عباد يطمح في زيارة المتنبي إياه ليحظى بمديحه. وكتب إليه يُلاطفه ويحبب اليه السفر الى «أصبهان». ولكن المتنبي لم يُجبه. فكان ذلك سبب عداوة الصاحب له والطعن فيه وتاليف رسالة بعنوان «الكشف عن مساويء شعر المتنبي»(٩١٧). ودعاه عضد الدولة وهو في «شيراز». ولبّى الدعوة. ولقي حفاوةً كبيرةً ومالاً وفيراً قُدّر بأكثر من مئتي ألف درهم. ونظم في مدحه ثماني قصائد. ثم استأذن بالعودة الى العراق فأذن له وسار بمواكبه وأحماله الى الأهواز ثم واسط. وفي طريقه الى بغداد خرج عليه فاتك بن أبي جهل الاسدي. وهو ابن اخت ضبّة الكلابي القرمطي الذي نال المتنبي من عرضه بهجائه المقذع. وعرض له بالقرب من النعمانية في موضع يقال له الصافية شرقي نهر دجلة على نحو ستة عشر فرسا من بغداد. وكان مع المتنبي ابنه مُحَمّد وغلامه مفلح. ووقع بينهم شيء من قتال. وأخيراً قتل المتنبي وابنه وغلامه. وكان ذلك لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ٣٥٤ للهجرة(٩١٨).

الأغراض التي عالجها:

نطق المتنبي بالشعر منذُ صباه ورافقه. وماسلاه الى زمن انقضاء أجله عبّر به خير تعبير عن حياته الخاصة. ومكابداته. وتطلعاته. ومشاهداته في الديار التي زارها وأقام طويلاً فيها. والتي مرّ بها ومكث فيها قليلاً. وأحداث عصره. وخواطره التي تموج بها نفسه. وآرائه التي جاءت ثمرة لتجاربه.

مديحه:

برع المتنبي في المديح براعة فائقة. وأجاد فيه أيما إجاده. بلغ فيه شأواً بعيداً في حسن ديباجته. ولطافة صياغته. وجمال عرضه. وقد تسابق الملوك والامراء الى اكتسابه ونيله. لانه يرفع من شانهم. ويخلّدهم خلود الدهر.

---

(٩١٧) طبع الكتاب في بغداد بتحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين سنة ١٩٦٥.

(٩١٨) ينظر تفاصيل مقتله في كتاب ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ص ٢٥٠ ـ ٢٦٨.

إن القسم الأكبر من مدائحه كان في الامير العربي الشهم سيف الدولة الحمداني فهو معجب به اعجاباً لاحد له . لذلك جاء مديحه فيه صادقاً منبعثاً من أعماق فؤاده . اذ يقول له :(٩١٩)

وماقِستُ كلَّ ملوكِ الأرضِ فدعْ ذكرَ بعضٍ بمن في حَلَبْ
ولو كنتُ سميتُهم باسمِهِ لكان الحديدَ وكانوا الخَشَبْ
أفي الرأي يُشبَهُ أم في السَّخا ء أم في الشَّجاعةِ أم في الأدبْ
مباركُ الاسمِ أغرُّ اللَّقبْ كريمُ الجِرشي شريفُ النَّسبْ(٩٢٠)
أخو الحربِ يُندِمُ مما سَبى قناهُ ويخلعُ ممَّا سَلَبْ

لقد دفعه هذا الاعجابُ الى الغلو والمبالغة . فها هو ذا يجعله أعظم ملوك الأرضِ نباهةً ورجاحةً وشجاعةً :(٩٢١)

تجاوزت مقدار الشَّجاعة والنُّهى الى قول قومٍ أنتَ بالغيب عالمُ

ومثل قوله :(٩٢٢)

فتى الخيلِ قد بلَّ النجيعُ نحورها يطاعنُ في ضَنْكِ المُقامِ عصيبِ
يعافُ خيامَ الرَّبطِ في غزواته فما خيمُهُ اِلاَّ غبارُ حروبِ

إنَّ بطله شجاع همام . ثابت طعَّان في المآزق الصعبة . محارب صنديد في المواقف الشديدة . لايخشى الرَّدى ولا يهاب العِدى . كأنه في جفن الموت . والموت غافل عنه لا يراه :(٩٢٣)

وقفت وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنَّكَ في جفنِ الرَّدى وهو نائمُ
تمرُّ بكَ الابطالُ كلمى هزيمةً ووجهكَ وضاحٌ وثغرك باسمُ

إنَّ صورة بطلهِ مشرقة بهية دائما « وقد أخذت هذه الصورة جهداً كبيراً منه واستغرقت قسماً ضخماً من شعره . مما يدلُ على أنَّ هذه الصفة قد استولتْ على

(٩١٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ٧١ .
(٩٢٠) كريم الجرشي : أي النفس .
(٩٢١) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٧٥ .
(٩٢٢) نفسه ١ : ٣٨ .
(٩٢٣) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٧٣ .

قلبه . وحازتْ معظم إعجابه . عندما رأى أمير حلب يقفُ كل جهوده لدفاع الروم عن بلاد الاسلام ، وردّ هجمات المغيرين عن تلك الأرض العزيزة من أرض الوطن العربي الكبير »(٩٢٤)

ويعدّ بدر بن عمار حاكم طبرية من قبل الإخشيديين الشخصية العربية الثانية التي حظيت بمديح الشاعر ، إذ أحبَّ المتنبي هذه الشخصية التي عُرفتْ بالشهامة والجود والشجاعة مثل قوله :(٩٢٥)

يابدرُ يابــحرُ . ياغــمامةُ . يا ليثَ الشرى ياحِمامُ . يارَجلُ
إنَّ الــبنانَ الذي تــقــلّــبُــه عــندك في كــلِّ موضــعٍ مَــثَــلُ
أنتَ نقيضُ اسمه اذا اختلفتْ قواضبُ الــهنـدِ والــقــنا الذُّبــلُ
أنتَ لعمري البدرُ المنير ولـ كنك في حومه الوغى زُحَلُ
مــثــلــك يابدرُ لايــكونُ ولا تــصــلــحُ إلاّ لِمثــلــكَ الدُّوَلُ

وثمة أسماء كثيرة في ديوانه لهم مدائح تتراح بين الكثرة والقلة . أمثال أبي العشائر الحمداني ، والحسن بن طُغج ، وعضد الدولة ، وكافور الاخشيدي ، وابن العميد وأبي شجاع فاتك والمغيث بن علي العجلي ، وعبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي وسواهم ، ولكن أكثر مايستجلب انتباه القاريء من هؤلاء الممدوحين هو كافور بن عبدالله الاخشيدي صاحب مصر والشام والثغور والحرمين . اذ جاءه المتنبي مُغاضباً لسيف الدولة وقدَّم بين يديه عدة قصائد بلغ عدد أبياتها سبعة وستين وثلاث مئة بيت ظاهرها مديح ـ كما يرى كثير من الدارسين ـ وباطنها هجاء . ولعل اكثر هذه القصائد اثارةً التي يقول في أولها :(٩٢٦)

أُغالبُ فيكَ الشوق والشوق أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجرِ والوصلُ أعجبُ
أما تَغْلطُ الأيامُ فيَّ بأنْ أرى بغيضاً تنائي أو حبيباً تُقرِّبُ

إنه مطلع غريب . ولاندري كيف سكت كافور وصبر عليه ؟ ! فهو يغالب الحنين والحنين يغلبه . ويعجب من هجر كافور ، ولكن وصله أعجب . ويتساءل : أفلا يغلط الدهر مرّة فيبعد البغيض ويدني الحبيب ؟ إنه في الغالب أراد بالبغيض كافوراً وبالحبيب سيف الدولة . ويقول في القصيدة نفسها :

---

(٩٢٤) من النقد والادب للدكتور احمد أحمد بدوي ، المجموعة الرابعة ص ١٠ .
(٩٢٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ١٥٤ .
(٩٢٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٢٢

ويُغنيك عما يُنْسَبُ الناسُ أنَّه ... اليك تناهى المكرماتُ وتنسبُ
وأيُّ قبيلٍ يستحقُّك قدرُهُ ... معدُّ بنُ عدنانٍ فداكَ ويَعرُبُ
وماطربي لمّا رأيتك بِدعةً ... لقد كنت أرجو أن أراكَ فأطربُ
وتعذُلُني فيك القوافي وهمتي ... كأني بمدحٍ قبلَ مدحِك مذنبُ
ولكنَّه طالَ الطريقُ ولم أزلْ ... أُفتشُ عن هذا الكلامِ ويُنهبُ

لقد كان ذكياً في جعل شعره يدور في معينين ظاهر وباطن. فهو « يمدحه ظاهراً بأنه غني عما ينسب الناس بما يتناهى إليه من المكرمات ومايتنسب به اليها. وهو هجو صريح وغمز واضح لأنه أشبه بنفي النسب عنه. ويمعن في السخرية منه إذ يصوره لنفسه أعلى من كل قبيل، حتى إنه ليس هناك من القبائل من تستحق أن يشرف بانتسابه إليها ويجعل معد بن عدنان ويعرب فداء له. وقد ذكر أبو الطيب أن هذا القول لو قلب لكان هجاء. ويعود الى المعنى الذي طرقه من قبل عن طربه وبهجته عندما راه. فيصور وكأنه قرد يأتي من الحركات مايبعثُ الطرب في النفوس. حتى ان ابن جني عندما قرأ هذا البيت على أبي الطيب قال له: ما زدت عن أن حتى ان ابن جني عندما قرأ هذا البيت على أبي الطيب قال له، مازدت عن أن جعلتَ الرجل أبازنةٍ - وهي كنية القرد - فضحك. ويعمد الى إهانته بتجسيم القوافي وهمته شخوصاً تتيه على كافور وتتلوم الشاعر على انحداره الى مدحه ولكنه يستتم البيت بما يغطي هذه الاهانة المرة كما لاحظ الواحدي الذي ذكر أن المصراع الأول هجاء صريح لولا الثاني. ويفصح عن ضجره مموهاً بأنه انما يتحدث عن الماضي معلناً أنَّ الطريق قد طال وأن شعره دون مكافاته التي ينتظرها ينهب منه نهباً دون وجه حقٍ. وينتهي الى الفخر عليه بسيرورة شعره وذيوعه مهدداً بأن لاشيء يمكن أن يعوق وصوله الى أقصى الشرق وأقصى الغرب سواء في البدو أم في الحضر »(٩٢٧)

إنَّ مدائحه في جملتها رصينة وقوية كأنه سلاسل تأخذ بعضها برقاب بعض، تتقدّمها افتتاحيات مناسبة. وهي في الغالب تتحدث عن خواطر النفس. أو بكاء الديار والوقوف على الاطلال ووصف البيد والقفار التي قطعها الى الممدوح. أو

(٩٢٧) كافوريات أبي الطيب ص ١٧٤

الوصف ، أو الغزل والذكرى وهي على العموم مستساغة تتسم بايقاعات وجدانية ينساب من خلالها الى الغرض الأساس .

هجاؤه :

أنزل أبو الطيب المتنبي صواعق مُحرقة على رؤوس أولئك الذين كادوا له ، أو خيبوا آماله ، أو نغَّصُوا حياته . وأطلق سهاماً حامية الى قلوبهم لتكويها وتمزقها . ومما يؤاخذ عليه أنه يسفُ أحياناً ويفحش ويستعرض السوءات بألفاظ نابية وصريحة بلا تلميح أو ايماء ، كما فعل مع ضبَّة بن يزيد العُتبي ، فانه هجاه بقصيدة ينبو بهاالسمع .(٩٢٨) . وكذلك مافعله مع اسحاق بن ابراهيم بن كيغلغ في قصيدة ، منها هذه الأبيات التي تجاوزنا فيها عن الاقذاع المكشوف(٩٢٩) :

ومن البليةِ عذلُ من لايرعوي　　عن غيّه وخطابُ من لايفهمُ
يمشـــي بأربعةٍ على أعقابهِ　　تحت العلوج ومن وراء يُلجمُ
وجفونُهُ ماتستقرُ كأنَّها　　مطروفةٌ أو فُتَّ فيها حِصْرِمُ
وإذا أشارَ مُحدِّثاً فكأنَّهُ　　قردٌ يُقهقِهُ أو عجوزٌ تلْطِمُ
يَقْلي مُفارقةَ الأكفِّ قَذالُهُ　　حتى يكادُ على يدٍ يتعمَّمُ
وتراهُأصغر ماتراه ناطقاً　　ويكون أكذبَ مايكون ويقسِمُ

وله أهاج في كافور الإخشيدي بعد أن تحوّل عنه وارتحل عن مملكته ، ولعل من أكثر قصائده شهرةً في هذا المجال داليتُه التي قالها بعد هروبه من مصر في ليلة عيد الأضحى ، وهي بعيدة عن الفن الرفيع الذي نلاحظه في أغراضه الأخرى ، منها الأبياتِ الآتية (٩٣٠)

انـي نزلتُ بكذّابين ضيفهمُ　　عن القرى وعن التَّرحالِ محدودُ
جودُ الرِّجالِ من الأيدي وجودهمُ　　من اللّسانِ فلا كانوا ولا الجودُ
ما يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسهمِ　　الّا وفي يدهِ من نتْنها عودُ

(٩٢٨) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٤١ .
(٩٢٩) نفسه ٢ : ٢٨٥ .
(٩٣٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٧٢

رثاؤه :

شارك المتنبي في الرثاء بمجموعة قصائد . ولعلَّ من اجلّها وأكثرها إثارةً مرثيتين . أولاهما في جدّته التي عُنيت بتربيته . وأظلّته بعطفها وحنانها . بعد وفاة أمه وهو حَدَث صغير . والثانية في خولة المعروفة بست الناس أخت سيف الدولة لِما كانت عليه من صفات حميدة . ولِما لها من فضل وإحسان مع أهلها على المتنبي مدّة إقامته بحلب . لقد رثاها وفاءً ؛ لأنها كانت تُمثّل الفتاةَ العربيةَ الأصيلةَ المعروفة بكرمها ونبلها وإبائها . بخلاف من ذهب الى انه كان يحبها ويعشقها .(٩٣١)

كان المتنبي يحبُ جدّته وهي تحبه . وحينما فارقها تألمتْ وجزعتْ وكادتْ أن تيأس بعد طول الغيبة . فكتب اليها كتاباً فرحتْ به وأكبّتْ على تقبيله حتى أصابتها الحمى من فرط السرور فماتتْ . وكان لهذه الحادثة أثر كبير في نفسه . دفعته الى نظم قصيدة تطفح بالحزن والأسى على فقيدته . منها قوله(٩٣٢) :

لكِ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها قتيلةِ شوْقٍ غيرِ مُلْحِقها وَصْما
أحنُّ إلى الكأس التي شَرِبتْ بها وأهوى لمثواها التُّرابَ وما ضَمَّا
بكيتُ عليها خِيفةً في حياتِها وذاقَ كِلانا ثُكلَ صاحبِهِ قِدْما
أتاها كتابي بعدَ يأسٍ وترحةٍ فماتتْ سروراً بي فمتُّ بها غمّا
حرامٌ على قلبي السُّرورُ فإنّني أعُدُّ الذي ماتتْ به بعدها سُمّا

أما قصيدته في خولة فهي تُعبر عن عاطفة صادقة . وحُزن عميق . وألم شديد . وقد استهلّها بمطلع رائع وجميل هو أقرب الى المديح منه الى الرثاء(٩٣٣) :

يا أُختَ خيرِ أخٍ يابنت خيرِ أبٍ كنايةً بهما عن أشرف النسبِ

وفي القصيدة بيتان يُستشهدُ بهما كثيراً في مواقف الحزن حتى سارا سير الأمثال في حياة المتنبي نفسه كما يقول الدكتور طه حسين(٩٣٤) .

---

(٩٣١) انظر اسماء هؤلاء الباحثين في كتاب ، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٩٣٢) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٦٤ .

(٩٣٣) نفسه ١ : ٦٢ .

(٩٣٤) مع المتنبي ص ٢١٢ .

طَوَى الجزيرةَ حتى جاءَني ، خَبَرٌ   فزِعْتُ فيه بآمالي الى الكذبِ
حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُهُ أملاً   شَرِقتُ بالدَّمعِ حتى كاد يَشْرَقُ بي

ونراهُ يُعزّي سيفَ الدولة ويُسمّيه « فتى الفتيان » بفقيدته الغالية التي كانت فخر الفتيات الماجدات . فهي من اللواتي يطلبنَ المجدَ والعُلى والسؤدد بخلاف اللواتي ينشدنَ اللذَّة واللهو واللعب :

أرى العراقَ طويلَ الليلِ مُذْ نُعيتْ   فكيفَ ليلُ فتى الفِتيانِ في حلبِ
يظنُّ أنَّ فؤادي غيرَ ملتهبٍ   وأنَّ دمعَ جفوني غيرَ منسكبِ
بلى وحرمةِ من كانتْ مراعيةً   لـحرمةِ الـمـجدِ والـقُـصَّادِ والأدبِ
وهمُّها في العُلى والمجدِ ناشئةً   وهمُّ أترابها في اللهوِ واللَّعبِ
وإنْ تكنْ خلقتْ أنثى لقد خلقتْ   كريمةً غير أنثى العقلِ والحسبِ

وتجدر الاشارة الى أن المتنبي رثى أُخت سيف الدولة الصُغرى قبل وفاة خولة بثمانية أعوام بقصيدة مطلعها(٩٣٥) :

إنْ يكن صَبْرُ ذي الرزيَّة فَضْلا   تــكُــنِ الأفــضــلَ الأعزَّ الأجلّا

وضمن هذه المرثاة كسائر مراثيه الأخرى ، نظرات ثاقبة وخطرات قيمة مثل قوله :

ألذُّ الـعـيـش صــحّةٌ وشــبابٌ   فإذا ولّـــيا عـــن الـــمرء ولّى
أبدًا تــــستردُّ ما تـهــبُ الدُّنـ   ـيا فيا ليت جُودها كان بُخلا

غزله :

انصرف المتنبي منذ مطلع شبابه الى طلب المجد والعلى ، والانشغال بمشكلات قومه الذين عاشوا تحت وطأة الظلم والقهر ، ولم يلتفت الى الغانيات ولم يحفل بمعاشرتهن والتغزل بهنّ . وقد وضّح السبب بنفسه فقال(٩٣٦) :

---

(٩٣٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٩٦ .
(٩٣٦) نفسه ١ : ٢٧١ .

رثاؤه :

شارك المتنبي في الرثاء بمجموعة قصائد . ولعلَّ من اجلّها وأكثرها إثارةً مرثيتين . أولاهما في جدّته التي عُنيت بتربيته ، وأظلّته بعطفها وحنانها . بعد وفاة أمه وهو حَدَث صغير . والثانية في خولة المعروفة بست الناس أُخت سيف الدولة لِما كانت عليه من صفات حميدة . ولِما لها من فضل وإحسان مع أهلها على المتنبي مدّة إقامته بحلب . لقد رثاها وفاءً ؛ لأنها كانت تُمثّلُ الفتاةَ العربيةَ الأصيلةَ المعروفة بكرمها ونبلها وإبائها . بخلاف من ذهب الى انه كان يحبها ويعشقها .(٩٣١)

كان المتنبي يحبُ جدّته وهي تحبه . وحينما فارقها تألمتْ وجزعتْ وكادتْ أن تيأس بعد طول الغيبة . فكتب اليها كتاباً فرحتْ به وأكبّتْ على تقبيله حتى أصابتها الحمى من فرط السرور فماتتْ . وكان لهذه الحادثة أثر كبير في نفسه ، دفعته الى نظم قصيدة تطفح بالحزن والأسى على فقيدته . منها قوله(٩٣٢) :

لكِ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها ... قتيلةِ شَوْق غيرِ مُلْحِقها وَصْما
أحنُّ إلى الكأس التي شَربتْ بها ... وأهوى لمثواها التّرابَ وما ضَمَّا
بكيتُ عليها خِيفةً في حياتِها ... وذاقَ كِلانا ثُكلَ صاحبِهِ قِدْما
أتاها كتابي بعدَ يأسٍ وترحةٍ ... فماتتْ سروراً بي فمتُّ بها غمّا
حرامٌ على قلبي السُّرورُ فإنّني ... أعدُّ الذي ماتتْ به بعدها سُمّا

أما قصيدته في خولة فهي تُعبر عن عاطفة صادقة . وحُزن عميق . وألم شديد . وقد استهلّها بمطلع رائع وجميل هو أقرب الى المديح منه الى الرثاء(٩٣٣) :

يا أُخت خيرِ أخٍ يابنت خيرِ أبِ ... كنايةً بهما عن أشرف النسبِ

وفي القصيدة بيتان يُستشهدُ بهما كثيراً في مواقف الحزن حتى سارا سير الأمثال في حياة المتنبي نفسه كما يقول الدكتور طه حسين(٩٣٤) .

---

(٩٣١) انظر اسماء هؤلاء الباحثين في كتاب ، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٧٣، ٧٤ .
(٩٣٢) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٦٤ .
(٩٣٣) نفسه ١ : ٦٢ .
(٩٣٤) مع المتنبي ص ٢١٢ .

لولا العُلى لم تجبْ بي ما أجوبُ بها وجناءُ حَرْفٌ ولا جرداءُ قيدودُ(٩٣٧)
وكان أطيبَ مِن سيفي معانقةً أشباهُ رونقِهِ الغيدُ الأماليدُ(٩٣٨)
لم يترِكِ الدهرُ من قلبي ولا كَبِدي شيئاً تُتَيِّمُهُ عينٌ ولا جِيدُ

ومع ذلك نجد له غزلاً رقيقا شفافاً . ولا سيما في مطالع قصائده . وقد ذهب بعض الباحثين ـ كما ذكرنا سابقاً ـ الى أنه كان يحب خولة أخت سيف الدولة . وهو في تقديرنا ظنٌّ لا يستند الى دليل ثابت ومقنع . ولعلَّ قدرته الفائقة في التحدُّث بلغة العشق والغرام هو الذي دفع هؤلاء الباحثين الى القول بأنه كان محباً عاشقاً . مثل قوله في صباه في مطلع قصيدة يمدح بها أبا المنتصر شجاع بن محمد الأزدي(٩٣٩) :

أرَقٌ على أرقٍ ومثلي يأرَقُ وجوًى يزيدُ وعَبرةٌ تترقرقُ
جهدُ الصَّبابةِ أن تكون كما أرى عينٌ مسهَّدةٌ وقلبٌ يخفقُ
ما لاح برقٌ أو ترنَّمَ طائرٌ إلاّ انثنيتُ ولي فؤادٌ شيِّقُ
جَرَّبتُ من نارِ الهوى ما تنطفي نارُ الغَضى وتكلُّ عما تُحرقُ
وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذقتُهُ فعجبتُ كيف يموتُ مَنْ لا يعشقُ

وكان ذوق المتنبي بدوياً . يميل الى الجمال البدوي الطبيعي البعيد عن البهرجة والافتعال والزينة المصطنعة الممقوتة . مثل قوله (٩٤٠) :

ما أوجُهُ الحَضرِ المستحسناتُ به كأوجهِ البدوياتِ الرَّعابيبِ(٩٤١)
حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حُسْنٌ غيرُ مجلوبِ(٩٤٢)

---

(٩٣٧) الوجناء : الناقة الصلبة الشديدة . الحرف : الضامرة . الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . القيدود : الطويلة العنق .
(٩٣٨) الغيد : جمع غيداء ، وهي المتثنية لينا . الأماليد : الناعمات المستويات التامات . يقول : لولا طلب العلى لم أختر معانقة السيف وأعدل عن النساء الحسان اللواتي يشبهن رونقه في بياض البشرة .
(٩٣٩) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤٧٧ .
(٩٤٠) نفسه ١ : ١١٦ .
(٩٤١) الرعابيب : جمع رعبوبة ، وهي المرأة الطويلة الممتلئة .
(٩٤٢) يقول : ان حسن أهل الحضارة متكلف مجلوب بالحيلة والعلاج . أما حسن البدويات فهو خلقة . لا يعرفن التكلف والحسن المجلوب بالاحتيال .

وصفه :

لم يكن أبو الطيب المتنبي مكثراً في الوصف ، وقد جاء به في مطالع القصائد أو في ثناياها ، فإنه وصف نفسه في تعاليها وشموخها وطموحها . ووصف أخلاق الناس وطبائعهم ، وبعض مظاهر الطبيعة ، والوقائع والحروب التي شاهدها مع سيف الدولة ...

إنَّ حظ الطبيعة قليل في شعره ، مع إنه عاش في أجواء جميلة ، فله أبيات في وصف بحيرة طبرية ذات الماء الهادىء والغور الدافىء(٩٤٣) . وكذلك وصف شعب بوّان الذي يقع في أحضان الطبيعة الساحرة ، فها هو ذا يصف تساقط قطرات الندى من أغصان الاشجار على أعراف الخيل وهو سائر في هذا الشعب وكأنّها حَبّاتُ جمانٍ بديعة . وظلال هذه الأشجار تقيّة حرَّ الشمس ما خلا أقباس من الضياء تطالعه كالدنانير ولكنها لا تُمسَكُ باليد ، ويُسحره منظر الثمار المتدلية الجنية وصوت المياه المنسابة على الحصى الذي يشبه صوت الحلي في معاصم الحسان(٩٤٤) :

غدونا تَنفضُ الأغصانُ فيها ... على أعرافها مثل الجُمانِ
فسرْتُ وقد حجبن الشمس عنّي ... وجئن من الضّياء بما كفاني
وألقى الشرقُ منها في ثيابي ... دنانيراً تَفِرُّ من البنانِ
لها ثمرٌ تُشيرُ إليكَ منها ... بأشربةٍ وقفن بلا أوانِ
وأمواهٌ تَصِلُّ بها حصاها ... صليلَ الحَلي في أيدي الغواني

ومن بارع وصفه الذي تناقلته الكتب الأدبية وصف الحمى التي شبهها بالفتاة الحسناء التي لا تخلِفُ مواعيدَ زيارتها في الليل(٩٤٥) :

وزائرتي كأنَّ بها حياءً ... فليس تزورُ إلاّ في الظَّلامِ
بذلتُ لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتتْ في عظامي
كأنَّ الصبحَ يطردُها فتجري ... مدامعُها بأربعةٍ سجامِ
أُراقبُ وقتها من غير شوقٍ ... مراقبةَ المشوق المستهامِ
ويصدقُ وعدُها والصِّدقُ شرٌّ ... إذا ألقاكَ في الكُرَبِ العظامِ

---

(٩٤٣) ينظر شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٢٦ .

(٩٤٤) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٤٨٢ .

(٩٤٥) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٤٠٠ .

اما الوقائعُ والحروبُ فكان بارعاً في وصفها. مجيداً في تصويرها ونقلها للقاريء(٩٤٦). مثل قوله في وصف الفرسان الشجعان الذين تراهم قليلين في عددهم، كثيرين عند لقاء الأعداء:(٩٤٧)

سأطلبُ حقي بالقنا ومشايخٍ كأنَّهم مِن طولِ ما التثموامُرْدُ
ثقالٍ اذا لاقوا خِفافٍ اذا دُعوا كثيرٍ اذا شدُّوا قليلٍ اذا عُدُّوا

وانظر الى هذا الجو الرائع الذي أبدع المتنبي في تصويره في لوحة كاملة تشغل العين والسمع والنفس(٩٤٨):

اتوكَ يجرُّون الحديدَ كأنَّهمْ سروا بجيادٍ ما لهنَّ قوائمُ
إذا برقُوا لم تُعرفِ البيضُ منهمْ ثيابهمُ من مثلِها والعمائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ وفي أُذُنِ الجوزاءِ منه زمازمُ

فخره :

كان المتنبي معتداً بنفسه. فخوراً. لا يطأطيء رأسه لأحد مهما كانت منزلته. ويلاحظ القاريءُ بوضوح هذه الظاهرة في شعره. ولا سيما في مديحه. كي لا يقال انه سائل ذليل أو محروم هو أقل منهم قدراً. وقد ذهبَ أحدُ الباحثين الى انه « كان ناقماً على الناس، لأنه يحبُّ نفسه. ولذا كان يُصور نفسه دائماً بصورة المحسود المغبون. والناس من حوله حسدة ظالمون. أقزام يقحمون أنفسهم في مواكب العمالقة (٩٤٩) ». ولعل هذه النقمة ـ كما نرى ـ متأتية نتيجة انتكاسه في الحصول على مطالبه التي كان يسعى من أجلها ولم ينلها. إضافة الى أنه كان يرى أناساً لا يضاهونه في شخصيته وعلمه ومؤهلاته قد أخذوا مواقع متميزة في الحياة لا تليق بهم.

افتخر المتنبي بنفسه كثيراً مثل قوله(٩٥٠)

لا بقومي شَرُفْتُ بل شرفوا بي وبنفسي فخرْتُ لا بجدودي
إنْ أكنْ مُعجباً فعُجْبُ عجيبٍ لم يجدْ فوقَ نفسِهِ مِن مزيدِ

---

(٩٤٦) ينظر فصل «شعر الحرب عند المتنبي» في كتاب شعر الحرب في أدب العرب ص ٢٦٢-٢٨٩.
(٩٤٧) شرح ديوان المتنبي ١ : ٢٣٧ .
(٩٤٨) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٢٧٢ .
(٩٤٩) الشعر العربي بين الجمود والتطور ص ١٤٢ .
(٩٥٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٠٨ .

وافتخر بعلو همته ورفعة مكانته(٩٥١) :

اذا غامرتَ في شرفٍ مرومِ فلا تقنع بما دون النُّجومِ
فطعمُ الموتِ في امرٍ صغيرٍ كطعم الموت في امرٍ عظيمِ

وتباهي بعلمه وادبه(٩٥٢) :

انا الذي نظر الاعمى الى ادبي واسمعتْ كلماتي مَنْ به صَمَمُ
انامُ ملءَ جفوني عن شواردها ويسهرُ الخَلْقُ جرّاها ويختصمُ

واشاد بقوته وجلادته وكثرة صبره(٩٥٣) :

اطاعنُ خيلاً من فوارسها الدّهرُ وحيداً وما قولي كذا ومعي الصّبرُ
وأشجعُ منّي كلَّ يوم سلامتي وما ثبتتْ الاّ وفي نفسها أمرُ
تمرستُ بالآفات حتى تركتُها تقول اماتَ الموتُ ام ذُعِرَ الذُّعر

لقد كثر زهوه، واسرف في التحدُّث عن نفسه. واشتد غروره وتعاليه وشعوره بالعظمة والقوة. حتى انه قال مخاطباً سيف الدولة(٩٥٤) :

وما انا إلاّ سمهريٌّ حملته فزيَّن معروضاً وراعَ مُسدَّدا
وما الدّهرُ الاّ من رواةِ قلائدي اذا قلتُ شعراً اصبحَ الدّهرُ مُنْشدا
فسار به من لا يسير مشمراً وغنّى به من لا يُغنّي مُغرِّدا

أجزني اذا انشدتَ شعراً فانّما بشعري اتاك المادحون مُرَدَّدا
ودَعْ كلَّ صوتٍ غير صوتي فانني انا الصائحُ المَحكيُّ والاخرُ الصَّدى

حكمه :

عاصر المتنبي فترة عصيبة من حياة امتنا في النصف الاول من القرن الرابع للهجرة. وقد اكتسب تجربة طويلة من مشاهدته للناس وتأمله في الاحداث. وكانت حصيلة تلك التجربة، الى جانب ثقافته العميقة، حكماً بليغة سارت على الالسنة حتى قيل: « ماجتمع اثنان يتحدثان الاّ كان المتنبي ثالثهما ».

(٩٥١) شرح ديوان المتنبي ٢ : ٣٧٨
(٩٥٢) نفسه ٢ : ٢٦٠
(٩٥٣) نفسه ١ : ٢٥٢
(٩٥٤) نفسه ١ : ١٩٣ .

جاءت حكمه ضمن القصائد متلاحمة مع معانيها . لايحسُّ القارئ بأنها غريبة او دخيلة . بل يراها ركائز جيدة تدعم معانيه وافكاره . واليك من ابياته التي اجراها مجرى الامثال في الحكم والاخلاق والتربية :(٩٥٥)

أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزَّمان كتابُ

وقوله :

وكلُّ امرئٍ يُولي الجميل محبَّبٌ وكلُّ مكانٍ ينبتُ العِزَّ طَيِّبُ

وقوله :

اذا انتَ اكرمتَ الكريمَ ملكتهُ وان انت اكرمت اللئيم تمرَّدا

وقوله :

ومنْ يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يجدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وقوله :

خليلكَ انتَ لامَنْ قلتَ خِلِّي وانْ كَثُرَ التجمُّلُ والكلامُ

وقوله :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليه مالجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ

ومن انصاف الابيات قوله(٩٥٦) :

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ

اذا عَظُمَ المطلوبُ قلَّ المساعِدُ

أنا الغريقُ فما خوفي من البَلَلِ

ليس التكحُّلُ في العينينِ كالكَحَلِ

وتجدر الاشارة الى ان المتنبي لم يكن فيلسوفاً . وانما له نظرات عميقة وحكيمة نظمها في اسلاك متينة وجذابة . اما ماذهب اليه ابو علي محمد بن الحسن الحاتمي ان حكمه كلها مقتبسة من ارسطو . فاننا لاننكر تأثره بهذا الفيلسوف في حكمه التي تسربت الى اللغة العربية عن طريق الترجمة . ولكننا لانستطيع أنْ نُجرِّدَ الحكمَ كلها منه . فهو لبيبٌ فطنٌ . له تجاربه الخاصة . وقد تَلْتقي مجموعةٌ من هذه التجارب مع تجارب الاخرين .

---

(٩٥٥) ينظر شرح ديوان المتنبي ١ : ١٢٨ ، ١٢٥ ، ١٩١ . ٢ : ١٦٢ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ .

(٩٥٦) ينظر شرح ديوان المتنبي ١ : ١٧٩ ، ١٨٣ . ٢ : ٦٥ ، ٧٢ .

مميزات شعره :

يعدُّ ابو الطيب المتنبي من فحول الشعراء ، وفرسان البيان ، الذين انجبتهم الامة العربية . شغلَ الباحثين والنقاد في عصره وبعده ، وصدق ابن رشيق في قوله : « ملأ الدُّنيا . وشَغلَ الناس(٩٥٧) » . ولا عجب حين قال المتنبي(٩٥٨) :

وتركُكَ في الدنيا دويًا كأنَّما ... تداول سمعَ المرء انملُةُ العَشْرُ

انه حقاً ترك دوياً . وخلقَ ضجَّةً . واكبر شاهد على ذلك وفرة شروح ديوانه ، وكثرة الدراسات والبحوث التي كتبت في سيرته وشعره بين مادح وقادح . وحسبنا قول ابي منصور الثعالبي : « ليس اليوم مجالس الدرس ، اعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس . ولا اقلام كتاب الرسائل . اجرى به من السن الخطباء في المحافل . ولا لحون المغنين والقوّالين . اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد الفت الكتب في تفسيره ، وحَلّ مشكلة وعويصه ، وكُثّرت الدفاتر على ذكر جيدة ورديئة . وتكلَّمَ الافاضلُ في الوساطة بينه وبين خصومه . والافصاح عن ابكار كلامه وعونه(٩٥٩) . وتفرقوا فرقاً في مدحه والقَدْح فيه والنضْح(٩٦٠) عنه . والتعصب له وعليه . وذلك اول دليل دلَّ على وفور فضله . وتقدم قدمه ، وتفرده عن اهل زمانه . بملك رقاب القوافي . ورقّ المعاني . فالكامل من عدت سقطاته . والسعيد من حُسِبتْ هفواته . وما زالت الاملاك تهجى وتمدح(٩٦١) » .

كان المتنبي ذكياً فطناً ذا ثقافة عالية . استطاع(٩٦٢) ان يجمع في شعره بين الصنعة والطبع . وان يوفّق بين الاحساس والخيال . وان يوائم بين العلم والتجربة . ويلائم في اغلب شعره بين المطلع والتخلص والخاتمة . ومن اظهر مزايا شعره الشرح والتوليد . والميل الى الاسلوب الخطابي . والمبالغة التي تخرج احياناً الى المستحيلات . قال ابن رشيق القيرواني : « فاذا صرت الى ابي الطيب صرت الى اكثر الناس غلواً . وابعدهم فيه همَّةً . حتى لو قَدر ماأخلى منه بيتاً واحداً . وحتى تبلغ به الحال الى ماهو عنه غنى . وله في غيره مندوحة . كقوله :

---

(٩٥٧) العمدة ١ : ١٠٠

(٩٥٨) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٥٢

(٩٥٩) العون : المتزوجات من النساء

(٩٦٠) النضح عنه : اراد الدفاع عنه

(٩٦١) يتيمة الدهر ١ : ١٢٧ .

(٩٦٢) ينظر : ثقافة المتنبي واثرها في شعره ص ٢٥ ـ ٢٦٧

يترشفنَ مِن فمي رشفاتٍ   هنَّ فيه احلى من التَّوحيدِ

وان كان له في هذا تأويل ومخرج بجعله التوحيد غاية المثل في الحلاوة بفيه.

وقوله :

اذا قلته لم يمتنعْ من وصولهِ   جدارٌ مُعلًى او خباءٌ مطنب

فما وجه الخباء المطنب بعد الجدار المنيف ؟ بينا هو في الثريا صار في الثرى ! وانما اراد الحاضرة والبادية(٩٦٣) » .

ومن مميزات شعره التماسك الشديد . والترابط الوثيق . وتسلسل الافكار وتناسقها وتأييدها بالحجج المنطقية والبراهين العقلية . مثل قوله معاتباً سيف الدولة :(٩٦٤)

ياأعدل الناسِ الاّ في معاملتي   فيكَ الخصامُ وانت الخصمُ والحكمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً   أنْ تحسبَ الشحمَ فيمن شحمَه ورَمُ
وما انتفاعُ اخي الدنيا بناظره   اذا استوتْ عندهُ الانوار والظُّلَمُ

ويلاحظ انه كان يميل احياناً الى التعقيد . واستخدام الالفاظ الغريبة . والتصرف في اللغة . واستعمال مصطلحات المنطق والفلسفة . واخذ معاني السابقين وصياغتها باسلوبه الخاص(٩٦٥) . واللعب بالالفاظ مثل قوله مخاطباً كافوراً الاخشيدي :(٩٦٦)

جرى الخُلفُ الاّ فيك أنكَ واحدٌ   وانّكَ ليثٌ والملوك ذئابُ
وأنّكَ انْ قُويست صَحَّفَ قارئٌ   ذئاباً ولم يخطيءْ فقال ذبابُ

امـا موسيقى شعره فكان رائعاً . وقد جاء ذلك من اختياره الجيد للاوزان والقوافي وملاءمتها للالفاظ والمعاني . الى جانب استخدام بعض الالوان البديعية مثل التصريع والجناس وحسن التقسيم ... فمن شواهد الجناس قوله(٩٦٧) :

---

(٩٦٣) العمدة : ٢ : ٦٣

(٩٦٤) ينظر ديوان المتنبي ٢ : ٢٦٠

(٩٦٥) ينظر الفصل الذي عقده الثعالبي بعنوان « صدر من سرقات المتنبي » في كتابه يتيمةالدهر ١ : ١٤٨ ـ ١٥٤ . و « سرقات المتنبي » في كتاب الوساطة للجرجاني ص ٢١٦ ـ ٤١١ .

(٩٦٦) شرح ديوان المتنبي ١ : ١٣٩

(٩٦٧) شرح ديوان المتنبي ١ : ٤١٨

مُنعَّمةٌ ممنَّعةٌ رواحٌ يُكلِّفُ لفظها الطيرَ الوقوعا

ومن سياق العدد قوله(٩٦٨) :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرُمحُ والقِرطاسُ والقلمُ

---

(٩٦٨) نفسه ٢ ، ٢٦٢

ابو فراس الحمداني

٣٢٠ ـ ٣٥٧ هـ

كانت مملكة الحمدانيين تمتد بين الموصل وحلب وديار بكر، ومن اقدر رجالها ابو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان المشهور بسيف الدولة. اشتهر ـ الى جانب انتصاراته المتوالية على الروم ـ بحب العلم والادب. قال الثعالبي: «لم يجتمع قط بباب احد من الملوك ـ بعد الخلفاء ـ مااجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر(٩٦٩)» وذكر الغَزْوَلي انه قد «اجتمع له مالم يجتمع لغيره من الملوك. كان خطيبه ابن نُباته الفارقي، ومعلمه ابن خالويه. ومطربه الفارابي، وطباخه كُشاجِم، وخُزَّان كتبه الخالديَّان والصنوبري، ومُدَّاحه المتنبي والسلامي والوأواء الدمشقي والببغاء والنامي وابن نباته السعدي والصنوبري وغير ذلك(٩٧٠)» وقد ضمت الاسرة الحمدانية مجموعة من الشعراء المجيدين، وفي مقدمتهم الامير الفارس الشاعر الحارث بن سعيد بن حمدان المعروف بأبي فراس.

سيرته:

الحارث بن سعيد بن حمدان. غلبت عليه كُنيته «أبو فراس»، وهي كنية الاسد. حتى كاد لا يعرف الأ بها. ولد في مدينة الموصل سنة ٣٢٠ للهجرة. ولم يحظ برعاية ابيه، لانه قُتل سنة ٣٢٣ للهجرة وكان والياً على الموصل من قبل الخليفة المقتدر. وتربى في بلاط ابن عمه سيف الدولة امير حلب تربيةً صالحة فيها علمٌ وأدبٌ وفروسيةٌ. وكانت امه الى جواره تنظر اليه بعطفها وحنانها.

عاش في بلاط الامارة بحلب معززاً مكرماً. يتتلمذ على خيرة الاساتذة، ويتدرب على اساليب الفروسية وفنون القتال على يد فرسان مهرة «وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس. ويميزه بالاكرام على سائر قومه. ويصطنعه لنفسه. ويطحبه في غزواته. ويستخلفه على أعماله» (٩٧١) وحينما أشتدّ ساعده وقوي عوده اتجهت نفسه وهو في السادسة عشرة من عمره الى التطلع للامارة،

---

(٩٦٩) يتيمية الدهر ١ : ٢٧

(٩٧٠) مطالع البدور ٢ : ١٧٦

(٩٧١) يتيمة الدهر ١ : ٤٨

فقلّده سيف الدولة ، بعد أن اطمأن الى قدرته في القيادة والادارة ، منبجَ وحرّان واعمالهما جميعاً .(٩٧٢) واخذ يمدح ابن عمه بعد هذا الأمر ويشيد بمآثره ، مثل قوله :(٩٧٣)

وأتبعُ فعلَتَهُ في كلّ أمرٍ وأجعلُ فضلهُ ، ابداً ، اماما
وقد أصبحتُ منتسباً اليه وحسبي أنْ أكونَ لهُ غلاما
أراني كيفَ أكتسبُ المعالي وأعطاني . على الدهرِ ، الذماما
وربّاني ففقتُ بهِ البرايا وأنشأني فسُدتُ الأناما
فعمرهُ الالهُ لنا طويلاً وزادَ اللهُ نعمتَهُ دواما

تعددت مظاهر حياة أبي فراس بعد توليه الحكم ، فنراه تارةً يقارع البيزنطيين ويذود الديار من هجماتهم ، وتارةً اخرى يلهو ويتصيد أو يجلس مع الادباء ويحاورهم ويتناشد معهم الأشعار . ويروى أنه وقع في الأسر سنة ٣٥١ للهجرة في اثناء خروجه للصيد ، اذا التقى بابن أخت ملك الروم الذي خرج في ألف فارس الى نواحي منبج وكان ابو فراس مع سبعين فارساً فنشبت بينهما معركة غير متكافئة في العدد والعُدد ، كانت الغلبة للخصوم ، بعد ان أثخن ابو فراس الجراح فيهم ، ثم أسر(٩٧٤) وقد أشار الى ذلك في أول قصيدة قالها في الأسر :(٩٧٥)

ولا كنتُ ألقى الألف زرقاً عيونها بسبعينَ فيهم كلُّ أشأمَ أنكدِ
يقولون : جنّب عادةً ماعرفتَها شديدٌ على الانسانِ مالم يُعوَّدِ
فقلتُ : أما واللهِ لا قال قائلٌ : شهدتُ له في الحربِ ألأمَ مشهدِ
ولكن سألقاها ، فأمّا منيةٌ هيَ الظنّ ، أو بنيانُ عزٍ مرطَّدِ

نقل بعد أسره الى سجن في « خرشنة » وكانت جراحه تؤذيه ، فكتبَ الى امه ، وهي ملاذه الاول ، مايعاني من الام وأحزان :(٩٧٦)

---

(٩٧٢) زبدة الحلب ١ : ١١٩ .

(٩٧٣) ديوانه ص ٢٦٧

(٩٧٤) ينظر نشوار المحاضرة ١ : ١١١ ، تجارب الامم ٢ : ١٩٢ ، الكامل لابن الاثير ٥ : ٧ ، زبدة الحلب ١ : ١٣١ .

(٩٧٥) ديوانه ص ٨٥ .

(٩٧٦) ديوانه ص ٢٢٢ .

مصابي جليلٌ ، والعزاءُ جميلُ وظني بأنّ اللهَ سوفَ يُديلُ
جراحٌ ، تحاماها الأساةُ ، مخوفةٌ وسقمان : بادٍ منهما ودخيلُ
وأسر أقاسيه ، وليلٌ نجومهُ أرى كلّ شيءٍ ، غيرهنّ ، يزولُ
تطول بي الساعات ، وهي قصيرةٌ وفي كلّ دهر لاسرك طولُ

ثقل عليه السجنُ ، وبرّح به الشوقُ . وانحله الألمُ . ولاسيما بعد أن وضعوه في مكان ضيق وألبسوه الثياب الخشنة . فكتب الى سيف الدولة قصيدةً يبدو من كلماتها أنه يعاتبه :(٩٧٧)

اين المعالي ، التي عرفت بها تقولُها دائماً وتفعلُها ؟
ياواسع الدار ، كيف تُوسعُها ونحنُ في صخرةٍ تُزلزلُها ؟!
ياناعمَ الثوبِ ، كيف تُبدلُه ثيابنا الصوفُ مانبدلُها ؟!
ياراكبَ الخيلِ ، لو بَصُرتَ بنا نحملُ أقيادنا وننقلُها
رأيت في الضُرّ اوجهاً كرمتْ فارقَ فيك الجمالَ اجملُها
قد أثّر الدهرُ في محاسنها تعرفُها تارةً وتجهلُها

وتمّ فداؤه بعد أربعة أعوام شداد ، ولا نظنُ الابطاء في فكِ أسره كان يعود الى تغيُر قلب سيف الدولة عليه كما ذهب بعض الباحثين .(٩٧٨) . بل السبب أن الروم كانوا يحتجزون عدداً كبيراً من اسرى المسلمين . ولم يكن بمقدور سيف الدولة أن يفديهم جميعاً لضيق مابيده من مال . ولم يُردْ أن يفكَّ أسر أبي فراس مع فئة قليلة دون ذلك العدد الهائل وحينما توفر لديه المال الكافي سنة ٣٥٥ للهجرة تمت المفاداة .(٩٧٩) . وكان من بين الأسرى ابو فراس . ومحمد بن ناصر الدولة . والقاضي ابو الهيثم عبدالرحمن بن القاضي ابي حصين .

عاد أبو فراس الى حلب ليعيش بين أهله وذويه . وقد عرف من كان معه ومن كان عليه . . وشاءت الاقدار أن يتوفى سيف الدولة بعد سنة من هذه العودة أي في اوائل سنة ٣٥٦ للهجرة . فأخذ ابو فراس يطالب بالامارة . فدخل حمص وأقام بها يصرف امورها مما أوغر عليه صدر ابن اخته ابي المعالي بن سيف الدولة . فأوفد له جيشاً حاصره حتى قتل قرب حمص سنة ٣٥٧ للهجرة .

---

(٩٧٧) ديوانه ص ٢٤٢

(٩٧٨) شاعر بني حمدان ص ٧٢

(٩٧٩) نشوار المحاضرة ١ : ٢٨١ ، وينظر الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ٨٤ ، وابو فراس الحمداني للدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي ص ١١٤ .

شعره :

وصل الينا ديوانُ أبي فراس وشرحُه برواية معلمِهِ أبي عبدالله الحسين بن خالويه . والقاريءُ في هذا الديوان يتنقّلُ بين الفخر والحماسة ، والمديح ، والرثاء ، والغزل ، والوصف ... وهو في أغلبها مُجيدٌ مبدعٌ ، يجمع بين السهولة والجزالة والحلاوة .

كان لقومه مجداً عظيماً في المآثر الحميدة والسجايا النبيلة الى جانب شيم الفتوة والفروسية والنضال ، وهم كما قال(٩٨٠) :

لئن خُلِقَ الأنام لحسوِ كأسٍ ... ومزمارٍ وطـــنـــبورٍ وعُود
فـلـم يُـخـلـقْ بـنو حـمدان الاّ ... لمجدٍ ، أو لبأس او لجود

عاش في كنف ابن عمه الفارس المقدام سيف الدولة ، وتعلم في شبابه فنون القتال وضروب المجالدة والمصاولة ، وقد بالغ حين جعل تمائم الاطفال في قومه من الرماح والسيوف :(٩٨١)

ونحن أناسٌ ، يعلم الله أننا ... اذا جمع الدهرُ الغشومُ شكائمهْ
اذا وُلِدَ المولود منا فانمّا الـ ... أسنةُ والـبـيـضُ الرّقاقُ تـمائـمـهْ

ويكثر من الافتخار بنفسه ، ومكانته بين قومه ، في قِرى الضيوف ، ومحاربة الاعداء ، ضرباً بالسيوف :(٩٨٢)

سلي فتياتِ هذا الحيِّ عني ... يقلنَ بما رأينَ وما سمعنهْ
ألـسـتَ أمدّهـمْ لذويّ ظِلاً ... ألـسـتُ أعدّهـم لـلـقومِ جـفْـنـهْ
ألـسـتُ أقرّهـم بالـضّيـفِ عـينـاً ... ألستَ أقرّهم في الحرب لُهْنَهْ(٩٨٣)
متى مايدنُ من أجلِي كتابي ... أمـتْ بـيـن الأعـنّة والأسـنّة
وموتٌ في مـقام الـعزّ أشـهى ... الى الفرسان من عيشٍ بمُهنَهْ(٩٨٤)

---

(٩٨٠) ديوانه ص ٩٧
(٩٨١) ديوانه ص ٢٨٩
(٩٨٢) ديوانه ص ٢٩٢
(٩٨٣) اللهنة : الطعام الذي يتعلل به قبل الغداء
(٩٨٤) المهنة : الامتهان والذل

ان شعره أنشودة في الفتوة والفروسية والاقدام . ولا عجب حين ينعته ابن شرف القيرواني بفارس الميدان وصاحب الضرب والطعان(٩٨٥) . ويسميه الدكتور زكي المحاسني شاعر الفرسان وفارس الشعراء .(٩٨٦)

وومما يلاحظ أن فخره في الغالب يأتي ممزوجاً بمديحه الذي خصَّصَهُ لقومه وأقاربه . ولاسيما لأميره الهمام سيف الدولة الذي فاق الناس سياسةً ورياسةً وجوداً وبطولةً وفروسيةً . مثل قوله :(٩٨٧)

ولـي عـنـدَ الـعُداةِ بـكـلِّ أرضٍ ... ديون في كـفالاتِ الرماح
اذا الـتـفـتْ عـلـيَّ سراةُ قومـي ... ولاقـيـنـا الـفوارس في الـصَّباح
يخفُّ بها الى الغمَراتِ طود ... من الأطوادِ ممتنع النواحي
أشدُّ الـفارسـين وَان أبرَوا ... أخفُّ الـفارسـين الى الـصِّياح
لـسـيـفِ الدولةِ الـقِدْحُ المـعلَّى ... اذا استبقَ الملوكُ الى القداح
أسيفَ الدولةِ الـحـكـمَ المرجَّى ... أفي مدحي لقومي من جناح ؟

لقد اصبح الشعر عنده عنصراً من عناصر الفروسيةاو عنصراً مكملا لها . فلا غرابة حين نجد لغة الحماسة تسري الى شعره في مواقف الحزن والاسى واللوعة . مثل قوله في رثاء ابن عمه أبي وائل تغلب بن داود :(٩٨٩)

ما أنا أبـكـيـهِ . ولـكـنَّـما ... تبكيه أطرافُ الـقـنا الذابـلِ
دانٍ الى سُبْلِ الندى والعُلى ... ناءٍ عن الـفـحشاءِ والـباطـلِ
ارى المعالي . اذ قضى نحبهُ ... تـبـكـي بـكاءَ الوالـهِ الـثاكـلِ
الأسدُ الـباسـلُ والـعارض الـهـاطـلُ عـنـد الزمـنِ الماحـلِ
كان ابن عمي . ان عرا حادثٌ ... كالـلـيـثِ أو كالـصَّارم الـصاقـلِ

ونجد لغة الفروسية أيضاً في غزله الذي شغل حيزاً بارزاً في ديوانه . فها هو ذا يجعل للهوى خيولاً مغيرة . وقناً هي كتب الغرام . وسيوفاً هي رسائله ولواحظه . وسهاماً هي الفاظه . ويصور مواقع الحب كثيرة القتلى دون ان يشهر سيف أو يهتز رمح :(٩٩٠)

(٩٨٥) اعلام الكلام ص ٢٥
(٩٨٦) شعر الحرب في أدب العرب ص ٢٥٠
(٩٨٧) ديوانه ص ٦٨
(٩٨٨) ينظر ابو فراس الحمداني للدكتور النعمان القاضي ص ١٤٩
(٩٨٩) ديوانه ص ٢٠٦ .
(٩٩٠) ديوانه ص ٢١٥ . وينظر ابو فراس الحمداني للدكتور النعمان القاضي ص ٢٧٢ .

كأنَّ ابنةَ القيسيِّ في أخواتِها خذولٌ تراعيها الظِّباءُ الخواذلُ(٩٩١)
وهبتُ سُلوّي ، ثم جئتُ أرومُهُ ومن دون مارمتُ القنا والقنابلُ(٩٩٢)
هوانا غريبٌ شُزَّبُ الخيلِ والقنا لـنا كُـتُـبٌ والـباتراتُ رسائـلُ
أغرنَ على قلبي بخيلٍ من الهوى فـطاردَ عـنـهـنَّ الـغزالُ المـغازلُ
بأسهمِ لفظٍ ، لم تركبْ نصالها وأسياف لحظٍ ، ماجلتها الصياقلُ
وقائعُ قتلى الحبِّ فيها كثيرةٌ ولم يشتهرْ سيفٌ . ولا هُزَّ ذابلُ
أراميـتـي كـلُّ الـسِّهام مـصيـبةٌ وأنت ليَ الرامي وكلي مَقاتِلُ

ولأبي فراس شعر في الوصف . وهو قليل . لم يأت فيه بشيء جديد . من ذلك قوله . وقد جلس في بستانٍ بديعٍ بأشجاره وأزهاره . والماء صافٍ في برك جميلةٍ تهبُّ عليه الرياح فتجعله شبيهاً بحلقات الدروع :(٩٩٣)

أنـظرْ الى زهرِ الرَّبـيـع والماء في بِركِ الـبـديـع
واذا الرِّياحُ جَرَتْ عَـلـيـ ـهِ في الذَّهاب وفي الرجوعِ
جرتْ عـلـى بـيـضِ الـصـفا ئـح بـيـنـنا حَـلَـقَ الدروعِ

ولعل رومياته التي نظمها حينما كان أسيراً من أوجود الشعر الذي اتحف به الأدب العربي وهي « لباب شعره . وصفوة انتاجه »(٩٩٤) حتى قال بلاشير : « وقصائد الروميات ممتازة ببساطتها . وجزالتها . وبالعاطفة الانسانية التي تسودها . وهي التي جعلت أبا فراس سيد شعراء العاطفة الإنسانية وليس في عصره فحسب . بل في كافة عصور الأدب العربي »(٩٩٥) وقد تنوعتْ ألحانه الرقيقة التي شدا بها في أسره بين الفخر والحماسة والحنين الى الأهل والاصحاب والشكوى والرثاء والغزل والحكمة ... ولعلَّ أجمل رومية تحمل دفق العاطفة وفيض الخاطر قصيدته التي يقول في مطلعها :(٩٩٦)

أراكَ عصيَّ الدَّمعِ شيمتُكَ الصَّبرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ

---

(٩٩١) الخذول : الظبية المتخلفة عن صواحبها المنفردة عن القطيع .
(٩٩٢) القنابل : الواحد القنبل والقنبلة . الطائفة من الناس او الخيل .
(٩٩٣) ديوانه ص ١٨٩
(٩٩٤) في الادب العباسي ص ٢٩٩ .
(٩٩٥) الادباء العشر ص ٢٨٢
(٩٩٦) ديوانه ص ١٥٧

ومنها :

سيذكرني قومي اذا جدّ جدُّهم وفي الليلةِ الظلماءِ يفتقدُ البدرُ
فانْ عشتُ فالطعنُ الذي يعرفونه وتلك القنا والبيضُ والضُمَّرُ الشُقرُ
وان متُّ فالانسانُ لابدّ ميّتٌ وانْ طالتْ الايامُ وانفسحَ العمرُ
ولو سدّ غيري ماسددتُ اكتفوا بها وما كان يغلو التبرُ لو نَفَقَ الصُفرُ
ونحن أناسٌ لا توسُّطَ عندنا لنا الصدر دونَ العالمينَ أو القبرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسُنا ومنْ خطبَ الحسناءَ لم يَغلها المهرُ
أعزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العلى وأكرمُ من فوق التراب ولا فخرُ

انها صادرة عن معاناة صادقة . ترفدها تجربة شعورية مريرة . منبعثة من فؤاد مكلوم . ونفس هدّها الحزن . وانهكها الألم . ونفّر البعادُ الكرى عن عيني صاحبها . كما يقول في رومية أخرى :(٩٩٧)

أبيتُ كأني للصبابةِ صاحبٌ وللنوم مذبانَ الخليطُ مُجانبُ
وكم من حزينٍ مثلِ حزني ووالهٍ ولكنني وحدي الحزينُ المراقبُ
ولستُ ملوماً انْ بكيتكَ من دمي اذ قعدتْ عني الدُموعُ السَّواكبُ

لقد أحاطت برومياته مشاعر وأحاسيس نابعة من الحالة المأساوية التي عاشها تحت وطأة الألم . وعذاب الأسر . ومرارة الاغتراب . في خلال الأعوام الأربعة التي قضاها مُصفَّداً بين جدران السجن .

ان شعر أبي فراس – على العموم – وجداني يتسم بالعذوبة واليسر وقوة التأثير في المتلقي . وحسبنا قول أبي منصور الثعالبي : « وشعره مشهورٌ . سائر بين الحسن والجودة . والسهولة والجزالةِ . والعذوبةِ والفخامةِ . والحلاوة والمتانةِ . ومعه رواء الطبع . وسمة الظرف . وعزّة الملك . ولم تجتمع هذه الخلال قبله الاّ في شعر عبدالله ابن المعتز ... وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز » (٩٩٨) .

ونختتم هذه الترجمة الوجيزة بقول الدكتور زكي مبارك : « أبو فراس الوتر الحنّان الذي خلّد على الدهر مجدَ الألم ومجد الأنين . أبو فراس الذي أبكى كلّ عينٍ . وأحزن كل قلبٍ . وشغل كلّ بالٍ . ابو فراس الأسد الذي استعذب الدمع بعد الزئير . وعلّمته الليالي كيف تعصف الخطوب بأحلامِ الرجال »(٩٩٩) .

(٩٩٧) ديوانه ص ٢٥

(٩٩٨) يتيمة الدهر ١ : ٤٨

(٩٩٩) الموازنة بين الشعراء ص ٢٠٥

أبو بكر الصنوبري

؟ ـ ٣٣٤ هـ

اشتهر كثير من الشعراء في أدبنا العربي بلون من ألوان الأدب أو بشكل من أشكاله ، مثل أبي نواس في خمرياته ، وأبي العتاهية في زهدياته ، وأبي فراس في رومياته ، والشريف الرضي في حجازياته ، والصنوبري في روضياته ...

سيرته :

هو احمد بن محمد بن الحسن بن مرّار الضبّي(١٠٠٠) ، يكنّى أبا بكر ، وقد غلبت عليه نسبة « الصنوبري » ، زعم هو نفسه أنَّ جده « كان صاحب بيت حكمة من بيوت حِكَم المأمون فجرت له بين يديه مناظرةٌ ، فاستحسن كلامه وحدَّة مزاجه وقال له : « إنَّكَ لصنوبري الشكل ، يريد بذلك الذكاء وحدَّة المزاج(١٠٠١) » ، وقيل : انه لقب به اشارة الى صورته المخروطية التي تشبه ثمرة شجرة الصنوبر(١٠٠٢) ، ونراه يفخر بهذا اللقب في شعره قائلاً :(١٠٠٣)

اذا عُزينا الى الصنوبر لم نُعْزَ الى خامل من الخشب
لا بل الى باسق الفروع علا مناسباً في أرومة الحسب

أما نسبه الى قبيلة ضبَّة العربية المشهورة فقد افتخر به فقال(١٠٠٤) :

لو لم يكنْ لي في ذؤابة خِنْدفٍ نَسَبٌ سوى الآدابِ كنتُ عريقا
أوَ لستُ أطولها فروعاً في العُلى وأمدَّها في المكرماتِ عروقا
نحنُ الذين بَنَتْ لنا آباؤنا مجداً يجوزُ بناؤهُ العَيُّوقا(١٠٠٥)

(١٠٠٠) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١ : ٤٥٦ ، الوافي بالوفيات ٧ : ٣٧٩ ، فوات الوفيات ١ : ١٢٢ .

(١٠٠١) ديوان الصنوبري ص ٥ .

(١٠٠٢) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٣٦٤ تاريخ الأدب العربي ، العباسي الثاني ص ٢٤٧ .

(١٠٠٣) ديوان الصنوبري ٤٥٩ .

(١٠٠٤) ديوان الصنوبري ص ٤٠٤ .

(١٠٠٥) العيُّوق : كوكب مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال .

نغشى البلادَ بعارضٍ متراكمٍ   مُلِئتْ ذُراهُ صواعقاً وبروقاً
قوم اذا دلفوا لحربٍ مَزّقوا   هامَ العِدا بسيوفهم تمزيقاً
فغدوا : فريقاً يقتلون اذا همُ   راموا النزولَ ، ويأسرون فريقاً

وُلِدَ الصنوبري في أنطاكية ، ونشأ وكَبُرَ في حلب ، ولم تُشر المصادر الى سنة ولادته والى طبيعة الدراسة التي تلقاها . ولكن القاريء يستدلُ من مراجعة شعره انه كان عارفاً بعلوم اللغة العربية وآدابها معرفةً جيدة ومتقنة . وقد شهد الذين ترجموا له بتفوقه في ميدان المعرفة . قال أحدهم : كان إماماً بارعاً في الأدب ، فصيحاً مفوهاً(١٠٠٦) .

أجاد نظم الشعر وأحسن انشاده . وأخذ يتنقلُ بين المدن الرئيسة مثل دمشق والموصل وحمص وطرابلس والرقة .. ويُقدِّمُ شعره بين يدي أمرائها وكبار رجالها ثم يعود الى حلب . وقد تعرَّف على سيف الدولة في الموصل قبل تأسيس دولته في حلب(١٠٠٧) ومدحَهُ بشعره وأشاد ببطولته حينما كان يُنازل الروم مع الجيش الذي يذهب لحماية الثغور وردِّ كيد المعتدين على الديار الاسلامية .

وعندما تولىَّ سيف الدولة حلب . قرَّبَ اليه الشعراء وأكرمهم ، وكان الصنوبري واحداً منهم ، اذا اتخذه نديماً من أخلص ندمائه ، وجعله أميناً على مكتبته في قصره .
عاش الصنوبري في يسر ونعيم في قصر منيف يحيط به بستان كبير فيه أنواع الأشجار والأزهار والرياحين ، وكانت له صلات كثيرة وصداقات وثيقة مع عدد من العلماء والأدباء . مثل الشاعر كشاجم ، والعالم اللغوي على بن سليمان بن الأخفش الصغير .
وتوفي سنة ٣٣٤ للهجرة وقد ناهز الستين(١٠٠٨) .

شعره :

كان الصنوبري مكثراً في نظم الشعر ، وقد عُني به الكثيرون وهو على قيد الحياة ورووه عنه ، منهم تلميذه الشاعر أبو العباس الصُّفري وعنه رواه القاضي أبو

(١٠٠٦) النجوم الزاهرة ٣ : ٢٨٧ .
(١٠٠٧) وصف الطبيعة في شعر الصنوبري ، فواز أحمد طوقان ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، م ٤٤ / ٣ : ٥٧٦ .
(١٠٠٨) العصر العباسي الثاني ص ٣٥٢ ، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني ص ١٠٦ .

عمر عثمان بن عبدالله الطرسوسي(١٠٠٩) . واهتم به معاصره أبو بكر الصولي فجمعه ورتّبه حسب الحروف الهجائية في مئتي ورقة(١٠١٠) . ولم يصل من هذا الديوان إلاّ جزء يشتمل على شعره من قافية الراء حتى القاف . واضاف اليه محققه تكملة للشعر الذي وجده في المصادر المخطوطة والمطبوعة . ثم قام باحثان آخران بصنع تتمة له ونشراها في كتاب مستقل (١٠١١) .

اتصل الصنوبري بكثير من رجال عصره ، وخصهم بمديحه . وامتاح فضلهم ونوالهم . وكان معجباً بسيف الدولة وشجاعته وشهامته وقوة ارادته وحسن بلائه في محاربة الروم مثل قوله(١٠١٢) :

تركتَ الرومَ : بعضهمُ قتيلٌ　　يمجُّ دماً وبعضهمُ أسيرُ
ولما طارَ بأسكَ أمسِ فيهم　　هفوا جَزَعاً كما تهفو الطيورُ
فقد ماتوا وما قُبروا ولكنْ　　كأنَّ بيوتَهُمْ لهمُ قبورُ
لسيفِ الدولةِ السيفِ الذي للـ　　ـمنايا في غِرارَيْهِ زئيرُ

هذه الأبيات كما يلاحظ خلت من التجديد والابتكار ، وهي واضحة المعنى ، سهلة الالفاظ ، تتلائم مع القافية ذات الجرس المختار . ومن الذين مدحهم بكثرة . وأسبغ عليهم هالةً من الجلالة والعظمة أبو الحسين علي بن محمد بن حمزة الهاشمي . وكان موسراً له ضياع يتوسّطها قصر جميل تحف به الرياض البديعة في مكان يسمّى « فارت » . وكان الصنوبريُّ يزوره بين حين وآخر ويجالسه ويتنعّمُ معه بأطايب الحياة وينال رفده . ويقدّم بين يديه شعره . مثل قوله من قصيدة عينية تجاوزت سبعين بيتاً(١٠١٣) :

يومٌ بفارتَ حُسنُه لا يُدفَعُ　　يومٌ أغرُّ منَ الزّمانِ مُلَمَّعُ
جالستُ فيه أبا الحسين بمجلسٍ　　خِلَعُ الرَّبيعِ على رُباهُ تُخلَعُ
جلساؤه فيه هزبرٌ ضيغمٌ　　وغضنفرٌ ضارٍ وأغلبُ أروعُ

(١٠٠٩) ينظر ديوان الصنوبري ص ١٨٧ هامش ٢
(١٠١٠) الفهرست ص ٢٣٩ .
(١٠١١) . حقق الديوان وصنع له تكملة الدكتور احسان عباس (بيروت ١٩٧٠) ، أما التتمة فهي من صنع لطفي الصقال ودرية الخطيب (حلب ١٩٧١) .
(١٠١٢) ديوان الصنوبري ص ٧٤ .
(١٠١٣) ديوان الصنوبري ص ٢٢٤ .

فخلعتُ فيه عِذارَ لهوٍ لم يكن في غيره مِن قبلِ ذلكَ يخلعُ

وأخذ الرثاء مكاناً كبيراً في ديوانه . ولا سيما في بنته « ليلى » التي رثاها بقصائد ومقطوعات تطفح بالحزن والأسى وتمتليء بالبكاء والأنين . يستبكي فيها كلَّ شيء حتى الطيور(١٠١٤) :

سأبكي . مابكي القمريُّ . بِبنتي ببحرٍ من دموعي بل بحورِ
ألستُ أحقُّ أنْ أبكي عليها اذا بكتِ الطيورُ على الطيورِ

وكانت ليلى هذه ابنته الوحيدة ؛ ولذلك كان مصابه فيها كبيراً . وقد زيَّنَ قبَّة قبرها بباب قِنسرين بحلب بأبيات من نظمه يتجلَّى فيها الألم العميق الصادق . اذ جعل على كل جانب من جوانب القبة الستة بيتين(١٠١٥) . من ذلكَ قوله :

آنـــس الله وحـــشـــتـــكَ رحـــمَ الله وَحْدَتـــك
أنـــتِ في صـــحـــبةِ الـــبِلى أحـــسـنَ الله صـــحـــبتـــك

وكلن مرهف الحِسّ . بارعاً في التعبير عن خوالج نفسه . فمن جميل غزله الذي صوَّرَ فيه شوقه وحنينه قوله في الأبيات الآتية ؛ ويلاحظ القاريءُ فيها تفننه بالصورة ومزجها بألوان لطيفة في تشكيل جزئياتها(١٠١٦) :

تزايدَ ماألقى . فقد جاوزَ الحدا وكان الهوى مَزْجاً فصار الهوى جِدّا
وقد كنتُ جَلْداً ثم أوهنني الهوى وهذا الهوى مازال يستوهنُ الجلدا
فلا تعجبي من غُلْبِ ضعفكِ قُوَّتي فكم مِن ظِباءٍ في الهوى غلبتْ أُسدا
غلبتم على قلبي فصرتمْ أحقَّ بي وأملكَ لي مِنّي فصرتُ لكم عبدا
جرى حُبُّكمْ مجرى حياي ففقدكم كفقدِ حياتي . لارأيتُ لكم فقدا

وله شعر في وصف الخمرة يقترن بالغزل . وقد مضى فيه على سُنن معاصريه من الاكثار من التشبيهات . وذكر أوصاف السُّقاة ومفاتنهم وجمال هيئاتهم وأثرهم في نفوس الشاربين . ويبدو أنه قد أقلع عن ذلكَ في وقت مبكر . وربما كان لموت ابنته ليلى أثر في ترك اللذة واللهو والشرب . اذ نراه يقول(١٠١٧) :

(١٠١٤) ديوان الصنوبري ص ١٠٤ .
(١٠١٥) ديوان الصنوبري ص ٥١٤ ، وينظر تهذيب ابن عساكر ١ : ٤٥٦ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٤ : ٢٤ .
(١٠١٦) ديوان الصنوبري ص ٤٧٢ .
(١٠١٧) ديوان الصنوبري ص ٢٥٨

كـنـتُ أحِـبُّ الـنـبـيذَ جِدّا | فـصارَ حُـبّـي الـنـبـيذَ بُـغْـضا
فلســتُ أرضاهُ لـي شراباً | والـحـمدُ للهِ ، لـســتُ أرْضى

وينتقل الى نظم أشعار في الزهد ، يدعو فيها الى نبذ المعاصي والكف عن الآثام ، ويدعو الى التوجه نحو الطريق القويم والسلوك السليم . مثل قوله :(١٠١٨)

فأكثرْ ما استطعتَ الحلمَ ، اني | رأيتُ الحلمَ مِن كرمِ الطباعِ
ولا تـعـجـلْ اذا حاولـتَ أمراً | تنلْ مارُمْتَ مِن غيرِ امتناعِ
وما لم تستطِعْهُ فعدّ عنه | وأوضعْ في سبيلِ المستطاعِ
فرزقكَ سوفَ تدركُهُ جميعاً | ولو أضحى بأفواهِ السِّباعِ
فلا تتبعْ أخاسَفَهٍ ودَعْهُ | وكنْ للحرِّ دهرَكَ ذا اتباعِ

انَّ شهرة الصنوبري ماجاءت الا من الشعر الذي خصَّ به الطبيعة . « حتى ضُرِبَ المثل بروضياته . وحقاً كان ابن الرومي مشغوفاً بالطبيعة ووصف الرياض في الربيع . ولكنه لم يَعِشْ لهذا الموضوع معيشة الصنوبري ولا اتخذ له بستاناً يزرع فيه الورود والرياحين والأزهار ، ويتعهدُها تعهدَ المحب الوامق كما صنع الصنوبري . فهو بحق شاعر الطبيعة ، عاش يتغذى خياله وروحه منها ، واصفاً لحدائقها وبساتينها ورياضها . حتى ليصبح ذلك كل شغله وكل وكده من حياته »(١٠١٩) ولذلك عدَّ آدم متز أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي(١٠٢٠) .

لقد هام بالطبيعة ، وانجذب اليها ، وتعاطف معها ، وتجاوب معها تجاوباً وجدانياً ، وامتزج بها حتى أصبح جزءاً متماسكاً منها ، وقد لمس ذلك صديقه الحميم كشاجم ، وقال له(١٠٢١) :

فألهـتـكَ بسـاتيـنُـ | ـكَ ذاتُ النور والزهرِ
وما شيدتَ للخلـ | ـوة من دارٍ ومن قصرِ
وما جمعتَ من غرسٍ | ومن حَرْثٍ ومن بذرِ
ونارنج وريحانٍ | جنيّ طيبِ النشرِ

(١٠١٨) ديوان الصنوبري ص ٣٢٢ .
(١٠١٩) تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ص ٣٦٣ .
(١٠٢٠) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٤٣٠ .
(١٠٢١) ديوان كشاجم ص ٢٢٩ .

كان مولعاً بالربيع ، ينتظره بشوق ولهفة « لأنه يُرضي حاسته البصرية المفتونة باستجلاء الألوان ، النهمة الى النُور والنَور ، كما يُرضي أذنه التي تطربها أصوات الطبيعة يغنيها القمري والفاختة ... أكثر مما يطربها العود والطنبور ، وكما يرضي أنفه الذي يمتليء بأريج الربيع فلا يجد معنىً للمسكِ من بعده ولا للكافور ، وكما يُرضي بعد ذلك كل نفسه فتطمئن اليه »(١٠٢٢) ، مثل قوله(١٠٢٣) :

يارِيمُ قومي الآنَ ويحكِ فانظري ... ماللرُّبى قد أظهرتْ إعجابها
كانتْ محاسنُ وجهها محجوبةً ... فالآنَ قد كشفَ الربيعُ حجابَها
وردٌ بدا يحكي الخدودَ ونرجسٌ ... يحكي العيونَ اذ رأتْ أحبابَها
والزُرعُ شِبْهُ عساكرٍ مصطفَّةٍ ... قد فوّقتْ عن قسيها نُشّابَها
والسّروُ تحسبه العيونُ غوانياً ... قد شمّرتْ عن سوقها أثوابَها
وكأنَّ إحداهنَّ من نفحِ الصَّبا ... خودٌ تلاعبُ مَوْهِناً أترابَها
والنهرُ قد هَزَّتْهُ أرواحُ الصَّبا ... طرباً وجَرَّتْ فوقهُ أهدابَها
لو كنتُ أملكُ للرياضِ صيانةً ... يوماً لما وطِئَ اللئامُ تُرابَها

إنَّ لوحاته في الرياض الناضرة جميلةٌ وبهية تستجذب الرائي وتُسحره ؛ لأنها مرسومة بيدٍ ماهرة تعرف كيف تُشاكل بين الألوان وتستجليها واليكَ الأبيات الآتية وهي تعطيك مجموعةً من الأزهار في تشكيل لطيف بين أقحوان ، وسوسن ، وشقيق ، وبهار ، وآذريون ، ونرجس ، وخيري ، ونسرين ، وورد ، وياسمين ، وخزامى ، وقيصوم (١٠٢٤) :

اقحوان وسوسنٌ وشقيقٌ ... وبهارٌ يُجنى وآذريونُ
وبدا النرجسُ البديعُ كأمثا ... لِ عيونٍ ترنو اليها عيونُ
ماترى جانبَ الهنيِّ وقد اشـ ... ـرقَ فيه الخيريُّ والنسرينُ
صاحَ فيه الهزارُ ، ناحَ به القمـ ... ـريُّ ، غنّى في جوّه الشفنينُ
فلهذا قيصومُهُ وخزاما ... هُ وذا الوردُ فيه والياسمينُ

(١٠٢٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢٠٦ .

(١٠٢٣) ديوان الصنوبري ص ٤٥٤ .

(١٠٢٤) ديوان الصنوبري ص ٤٩٥ .

وحظيت المياه . متمثلة في السحاب والأنهار والغدران والسواقي والجداول والبرك . بنصيب كبير من شعر الصنوبري . فها هو ذا يصف بركة وصفاً جميلاً يذكرنا فيها بأبيات أبي عبادة البحتري في وصف بركة المتوكل . وقد حالفه التوفيق في عرض صورتها(١٠٢٥) :

سقى حلباً سافك دمعه … بطيء الرقوء اذا ما سفك
ميادينه بسطهن الرياض … وساحاته بينهن البرك
ترى الريح تنسج من مائه … دروعاً مضاعفة أو شبك
كأنَّ الزجاجَ عليها أذيب … وماءَ اللجين بها قد سُبك
هو الجوُّ من رقّة غير أنّ … مكانَ الطيور يطيرُ السمك
وقد نُظِمَ الزهرُ نظمَ النجوم … فمفترقُ النظمِ أو مشتبك
كما درّجَ الماءَ مرُّ الصَّبا … ودبَّجَ وجه السَّماءِ الحبك

وفتح الصنوبري الباب للشعراء في وصف الثلج والتغني بجمال منظره . ولا سيما حينما يتساقط على الأرض كاللؤلؤ المنثور أو القطن المندوف . وهذا ماأكده الدكتور سيد نوفل بقوله : « ويُعدُّ الصنوبري أول من تغنّى بالثلج وبدائعه »(١٠٢٦) . مثل قوله(١٠٢٧) :

تعالى الله خالق كل شيء … بقدرته وباري كل نفس
لقد أضحى جميعُ الأرضِ تجري … كواكبُهُ بسعدٍ لا بنحس
ألم ترَ كيف قد لبستْ رُباها … من الثلج المضاعف أيّ لبس
ثياباً لاتزالُ تذوبُ ليناً … اذا الأيدي غرضْنَ لها بلمس
كأنَّ الغيمَ مما بثَّ منه … على أرجائها أنداف بُرس

نالت الثلجيات اعجاب شعراء العراق . وكان الوزير الحسن بن محمد المهلبي في بغداد ينشر في مجالسه قصائد الصنوبري وينسج على منوالها(١٠٢٨) .

(١٠٢٥) ديوان الصنوبري ص ٤٨٤ .

(١٠٢٦) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢١٥ . وينظر فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص ٦٥٦ . اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري ص ٢٦٤ .

(١٠٢٧) ديوان الصنوبري ص ١٧٩ .

(١٠٢٨) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ ، ٤٧٢ . وتنظر أبيات المهلبي في وصف الثلج في يتيمة الدهر ٢ ، ٢٢٨ .

لقد كان الصنوبري متدفقاً في عطائه الشعري بأسلوب واضح جلي ، لا لبس فيه ولا غموض ، وكانت الألفاظ والمعاني متناسقه عنده الى جانب توافقهما مع الموسيقى ، وكثيراً مايستعين بالتشبيهات والاستعارات في تحسين صوره وتوضيحها مع استخدام المحسنات البديعية ولا سيما الجناس .

السريُّ الرفّاء

؟ ـ ٣٦٢ هـ

في ظل الدولة العباسية التي بسطت نفوذها على العراق وبلاد فارس وما وراء النهر حتى حدود الصين شرقاً ، وبلاد الشام والجزيرة وجزء من شمال افريقيا غرباً ، برزت مدن كثيرة لاتقل شأناً عن بغداد ، واصبح لها دورٌ بارز في مجالي العمران والثقافة ، يؤمها الداني والقاصي للتفيؤ في ظلالها والتزوُّد بزاد المعرفة من مدارسها ومنْ قطن فيها من العلماء والادباء ، والموصل احدى هذه المدن التي انجبت نخبةً طيبة من العلماء الفضلاء ، والادباء الاجلاء ، منهم اديبنا السَّريُّ الرفّاء

سيرته :

هو السريُّ بن احمد بن السريِّ الكندي ، يكنّى ابا الحسن ، ويُعرف بالسريِّ الرفُّاء ، لأنه كان يرفو الثياب ويطرزها في صباه (١٠٢٩) ، وقد اشار الى هذه المهنة في شعره ، فقال : (١٠٣٠)

وكانتِ الابرةُ فيما مضى صائنةً وجهي واشعاري
فأصبحَ الرِّزقُ بها ضيقاً كأنَّه من ثُقبها جاري

وهو عربيٌّ من قبيلة كندة المشهورة ، وقد افتخر بها في شعره(١٠٣١) ، ولد في مدينة الموصل في العقد الاول من القرن الرابع للهجرة ، وتعلّم القراءة والكتابة في الكتاتيب ، ثم درس القرآن الكريم والحديث الشريف وشيئاً من النحو واللغة والادب ، وحينما اشتغل في احد دكاكين الرفائين لم ينقطع عن التعلم والتثقف وحضور مجالس العلماء والادباء والافادة منهم ، وكان ينتهزُ الفرص لمطالعة الكتب وحفظ الشعر حتى برز شاعراً متمكناً من ناصية القريض .

وجد السريُّ الرفّاء نفسه غريباً بين الذين يزاولون مهنته ، وانها لاتدرُّ عليه المال الكافي لعيشه ، فبدأ يحتقرها ، واخيراً تركها واحترف مهنة صيد السمك ، وله

(١٠٢٩) يتيمة الدهر ٢ : ١١٧ ، وفيات الاعيان ٢ : ٣٥٩

(١٠٣٠) ديوانه ٢ : ٢٨٩

(١٠٣١) ينظر ديوانه ٢ : ٣٦٤

ابيات من قصيدة يشير فيها الى الشبكة التي كان يستخدمها وهي عتيقة بالية غبراء(١٠٣٢) :

وشاحب اللبسة والاعضاء ... أشعث نائي العهد بالرخاء
أفضى به العُدْمُ الى الفضاء ... فوجهه للضحِّ والهواء(١٠٣٣)
أغبرَ يحوي الرزقَ من غبراء ... خفيفةٍ ثقيلةِ الارجاء
كأنها هلهلةُ الرداء ... كلفها لخط بناتِ الماءِ
فأقبلتْ تملأ عينَ الرائي ... بكلِّ صافي المتنِ والأحشاء
أبيضَ مثلِ الفضةِ البيضاءِ ... او كذراعِ الكاعبِ الحسناء

ويبدو ان هذه المهنة ايضاً لم تُجده نفعاً . فاعتزلها . وانصرف الى الشعر يمدح ويتكسب به . وكانت اول صلته بناصر الدولة واولاده من الامراء الحمدانيين في الموصل . ونال منهم العطايا والهدايا . ولكن سرعان ماحسده الشاعران الموصليان الاخوان ابو بكر محمد . وابو عثمان سعيد . ابنا هاشم الخالديان . واخذا يكيدان له ويوغران صدور ممدوحيه. وافلحا في سعيهما المقيت. حيث قُطِعَتْ عنه المعونة وساءت حالته. واضطر الى مغادرة الموصل الى حلب هرباً من شرّ هذين الخصمين. قال ابو منصور الثعالبي : « ولم يزل في ضنكٍ من العيش الى ان خرج الى حلب . واتصل بسيف الدولة . واستكثر من المدح . فطلع سَعْدُهُ بعد الأفول . وبَعُدَ صيته بعد الخمول . وحَسُنَ موقع شعره عند الامراء من بني حمدان ورؤساء الشام »(١٠٣٤)

لم تدم ايام النعيم طويلاً في حلب . حيث تبعه الخالديّان . واخذا يُشعلان نار الحقد والكراهية عليه . واستطاعا بما أوتيا من لباقة وحسن منادمة من تقليل شأنه عند سيف الدولة وابعاده عن مجلسه وحرمانه من كرمه . وقد اشار في قصيدة له الى ذلك . فقال :(١٠٣٥)

علامَ حرمتني انشادَ شعري ... لديكَ وقد تناشدهُ الانامُ
ولي فيك التي تُلغي القوافي ... اذا ذكرتْ ويُطَّرَحُ الكلامُ
تُقصّرُ عن مداها الريحُ جَرْياً ... وتعجزُ عن مواقعها السّهامُ

(١٠٣٢) ديوانه ١ : ٢٧٣

(١٠٣٣) الضح : الشمس ، وقيل هو ضوؤها .

(١٠٣٤) يتيمة الدهر ٢ : ١١٩

(١٠٣٥) ديوانه ٢ : ٦٢٢

تـنـاهــتْ حُـسْـنـهـا شَادٍ وحادٍ　　فَـحُـثَّ بـهـا الـمـطـايا والْمدامُ
لكَ النِّعَمُ التي جلَّتْ ولكنْ　　دُنُوِّي مـنـكَ والـقربُ الـتَّـمـامُ
وتـشريـفـي الـقـيامَ ازاءَ مَـلْـكٍ　　مـلوك الـعالـمـيـنَ لـه قِـيامُ
واحـضاري اذا حَـبَّرتُ مدحـاً　　لـتـسـمـعَ ماأُحَبِّرُ والـسَّلامُ

لم ينفع هذا العتاب على نفور الامير منه ومنعه من انشاد شعره بين يديه . وبقي في حلب مجابهاً خصميه الخالديين بالهجاء . ولكن وجد نفسه في آخر الامر في حرج . فخرج الى بغداد في اواخر سنة ٣٤٩ للهجرة .

اتصل في بغداد بكبار رجال الدولة مثل الوزير الحسن بن محمد المهلبي والكاتب ابي اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي . واصبح في رغدٍ من العيش . ولم يكن يعلم ما تخبيءُ له الايام من شرور . اذ جاءَه نبأ مقدم الخالديين الى بغداد واتصالهما بالوزير المهلبي . وقد حققا نواياهما . حيث نجحا في ابعاده عن هذا الوزير وعن كبار كتابه .

عاش بعد ذلك فقيراً بائساً لايستطيع دفع ايجار داره(١٠٣٦) والتجأ الى مهنة الوراقة . واخذ ينسخ الكتب ويبيعها ويقتات من ريعها الى ان ادركته المنية سنة ٣٦٢ للهجرة(١٠٣٧) . وترك من بعده ديواناً شعرياً . وكتاب « المحب والمحبوب والمشموم والمشروب » وكتاباً آخر باسم « الديرة » لم يصل الينا .

شعره :

كان السريُّ الرفَّاء شاعراً مجيداً . قال ابن النديم : « السريُّ بن احمد الكندي من اهل الموصل . شاعر مطبوع .... عمل شعره قبل موته نحو ثلاث مئة ورقة . ثم زاد بعد ذلك . وقد عمله بعض المحدثين الادباء على الحروف(١٠٣٨) » . لقد كثرت نسخ ديوانه بين الايدي آنذاك ، لانه كان ينسخه بنفسه ويبيعه عندما افتقر في ايامه الاخيرة في بغداد(١٠٣٩) .

(١٠٣٦) تاريخ بغداد ٩ ، ١٩٤
(١٠٣٧) المنتظم ٧ : ٦٣ ، معجم الادباء ٤ : ٢٢٦
(١٠٣٨) الفهرست ص ٢٤١
(١٠٣٩) ينظر تاريخ بغداد ٩ : ١٩٤

طرق الموضوعات الشعرية المعروفة من مديح وهجاء ورثاء وغزل ووصف وفخر وعتاب واعتذار وحكمة، وقد اجاد في جميعها ونال اعجاب الدارسين. قال ابو منصور الثعالبي: «السريُّ وما ادراك من السريّ؟ صاحب سر الشعر، الجامع بين نظم عقود الدرِ، والنفث في عُقد السِّحرِ، ولله درُّه ماأعذبَ بحره، وأصفى قطره واعجبَ أمره!(١٠٤٠)». وقال فيه ابو هلال العسكري: «وليس فيمن تأخّرَ من الشاميين اصفى الفاظاً مع الجزالة والسهولة وألزم لعمود الشعر منه(١٠٤١)».

نظم السريُّ الرفّاء شعراً كثيراً في المديح، وقد افرغ في كثير منه جلَّ طاقته الفنية، كي يستطيع أنْ يجاري الشعراء المدّاحين الكبار امثال ابي الطيب المتنبي، وابي العباس النامي، وابن نُباتة السعدي، وابي الفرج الببغاء، والوأواء الدمشقي... فها هو ذا يشارك الشعراء في مدح سيف الدولة الحمداني، مظهراً دوره النضالي في حماية تربة الوطنِ، ومبيناً كفاحه في مواجهة الروم(١٠٤٢):

يَغشى القراعَ فينثني وسماتُهُ	في غربِ مُنْصُلِهِ وفي جلبابِهِ
كالليثِ آثارُ اللقاءِ مُبينةٌ	في لبدتيهِ وفي شبا انيابِهِ
علمتْ ملوكُ الرومِ أنَّ حياتها	ومماتَها في عفوِه وعقابِهِ
في كلِّ عامٍ غزوةٌ يقضي بها	وَطَراً لهُ وينالُ من آرابِهِ
أوفى فسدَّ شعابَهم بعرمرمٍ	يَنسي الفضاءَ الرَّحبَ سيلُ شعابِهِ
كالطَّودِ لا يثنيهِ عن مُتَمنِّعٍ	حتى يكفَّ رقابَهُ برقابِهِ
تُزجي المنونَ جيادُه محزومةً	بالحزمِ او يَحدى الرَّدى بركابِهِ

بهذا الأسلوب الفخم يُعظِّمُ فارسه الشجاع، ويُعلي من شأنه، ويجعله كالطود الأشم في الصمود والمقاومة. ونجد في ديوانه مدائح للأمراء الحمدانيين الآخرين وكذلك لشخصيات كثيرة في حلب والموصل وبغداد. وهو في جميعها يُشيد بجودهم وكرمهم وحميد صفاتهم كي ينال رضاءهم ثم عطاءهم.

وحينما شقَّ طريقهُ الى رحاب المجد عن طريق الشعر الجيد نافسه الكثيرون وانقلب بعضهم الى خصوم يعادونه، وينتقصون من قيمته ويغضون من قدره. مثل

(١٠٤٠) يتيمة الدهر ٢: ١١٧.

(١٠٤١) ديوان المعاني ٢: ١٧.

(١٠٤٢) ديوانه ١: ٣٧٢.

الخالديين ، وأبي العباس النامي ، وعلي بن العصب الملحي .. واليك الابيات الاتية في هجاء الخالديين بعدما سمع انهما متوجهان الى بغداد ، مُحذراً إياهما من مغبّة الرجوع الى المعاداة :(١٠٤٣)

انّي نبذتُ على السواء إليكما   فتأهّبا للفادح المنتابِ
نصبتُ مجانيقَ الهجاءِ وإن رأتْ   لكما ضُؤولةَ منصبٍ ونِصابِ
فإذا أصابكما غضابُ سهامِها   غَبَرتْ مدى الأيامِ غُبْرَ غِضابِ
فلتلفحنكما سمائمُ منطقي   ولتغرقنكما سيولُ شِعابي
ولأضربنكما على ما خُيِّلتْ   بصوارمٍ للشعر غيرِ نوابي
فأُريكما الدُّنيا به مغبرةً   حتى تظنَّا اليوم يومَ ضبابِ

وله شعر لطيف في الغزل ، صوّرَ فيه وجده وهيامه بلغة رقيقة شفافة تهزُّ السامع بمعانيها السامية ، مثل قوله في الأبيات الآتية التي عدّها ياقوت الحموي من غرر شعره الغزلي ، وقد جاءت في مطلع قصيدة مدح بها أبا الهيجاء حَرْب بن سعيد بن حمدان :(١٠٤٤)

بلاني الحبُّ فيكِ بما بلاني   فشأني أن تفيضَ غروبُ شاني
أبيتُ الليلَ مرتقباً أناجي   بصدقِ الوجدِ كاذبةَ الأماني
فتشهدُ لي على الأرقِ الثُّريا   ويعلمُ ما أُجِنُّ الفرقدانِ
ومذهبةُ الخدودِ بجلّنارٍ   مُفضضةُ الثُّغورِ بأقحوانِ
سقانا اللهُ من ريّاكِ ريّا   وحيّانا بأوجهِكِ الحسانِ
ستصرفُ طاعتي عمن نهاني   دموعٌ فيكِ تَلْحَى مَنْ لحاني
ولم أجهلْ نصيحتهُ ولكن   جنونُ الحبِ أحلى في جَناني

وشارك في شعر الرثاء ، وهو لم يأتِ فيه بجديد ، بل قلّد القُدامى في معانيهم وصورهم ، ولعل أجود ما قال في هذا المجال قصيدة في رثاء قوم من بني شيبان صُلبوا وكان فيهم صديق مخلص له يكنّى أبا الفضل ، وكان الوقت شديد الحر فلما ضُربت أعناقهم جادت السماء بوابل مدرار من المطر(١٠٤٥) :

(١٠٤٣) ديوانه ١ : ٤١٩ .

(١٠٤٤) ديوانه ٢ : ٧١١ ، معجم الأدباء ٤ : ٢٢٨ .

(١٠٤٥) ديوانه ٢ : ٦٠٠ .

أبا الفضلِ غالتكَ الخطوبُ ولم يكنْ لَيِعْدَمَ ذو الإفضالِ منها الغوائلا
فأصبحتَ مسلوبَ القميصِ وطالما حملتَ على قُمْصِ الحديدِ الحمائلا
وحولكَ من بكرِ بن وائلِ فتيةٌ إذا عُدَّ أهلُ الفضلِ كانوا الأوائلا
أصابهم ريبُ الزمانِ وإنما أصابَ من العليا سناماً وكاهلا
كأنهم في اللّيلِ ركبٌ تحيَّروا فجذوا من السير الحثيثِ الحبائلا
تلقاهم حرُّ الهجيرِ برأفةٍ تخيّلُ أوقاتَ الهجيرِ أصائلا
وأضحى الحيا في غيرِ حينِ أوانهِ رذاذاً على تلكَ الجسومِ ووابلا
كأنَّ السماءَ استعبرتْ لمصابهم فما ملكتْ فيه الدُّموعَ الهواملا

وبلغ في شعر الوصف ذُروةَ نظمه . إذ أبدعَ في وصف الطبيعة وما فيها من مناظر خلّابة . وأجادَ في تصوير مظاهر الحياة آنذاك . وأحسنَ في تناول الأطعمة والأشربة ووصفها . ونستطيع القول : إنه أحد المبرزين ، شأنه في ذلك شأن الآخرين المشهورين في هذا الفن مثل الصنوبري وكشاجم . ولعل في قول أحد الباحثين مبالغة : « إنه أعظم وصافي القرن الرابع إن لم يكن أعظمهم(١٠٤٦) » .

كان معجباً بشعر أبي نواس ، مفتوناً به . وقد عبَّرَ عن ذلك في وصف الهلال حين بدا في كبد السماء الزرقاء ، مشبهاً به طرفَ الطوق الجميل في عنق الفتاة الحسناء(١٠٤٧) :

ألا عُدْ لي بباطيةٍ وكاسِ ورُعْ همّي بإبريقٍ وطاسِ
وذاكرني بشعرِ أبي نُواسِ على روضٍ كشعرِ أبي نواسِ
وغيمٍ مرهفاتُ البرقِ فيه عوارٍ والرِّياضِ به كواسي
ولاحَ لنا الهلالُ كشطرِ طوقٍ على لبّاتِ زرقاءِ اللّباسِ

انه كثيراً ما يُشبه مظاهر الحسن والجمال في الطبيعة بالحسناوات اللواتي يبهرن الناظرين بمفاتهنَّ وزنتهنَّ . مثل قوله في تصوير لطيفٍ لمنظر الثلج(١٠٤٨) :

(١٠٤٦) السري الرفاء ، يوسف أمين قصير ، ص ٤٦ .
(١٠٤٧) ديوانه ٢ : ٣٢٧ .
(١٠٤٨) ديوانه ٢ : ٥٨٢ .

كأنَّ ذُرا الغصونِ لبس منه   حُلِي الـكافورِ، ربَّاتُ الـحِجالِ
تلألأتِ الرُّبى لمـا علاها   كأنَّ على الرُّبى أثوابَ آلِ
تـجولُ الـعيـنُ فـيـها وهـي فـيـه   كشهبِ الخيلِ زُحْنَ بلا جلالِ

وكان يهوى الأماكن القريبة من الأنهار. ولذلك كثر وصفه للأشياء التي تُحيط بها كالأشجار والأزهار والثمار. أو التي تقوم عليها كالجسور والدواليب، او التي تجري فيها كالسفن والقوارب. وامتاز بلون طريف آخر يتصل بالانهار وهو وصف السمك. فانه كانَ يُبكِّرُ لصيده مسروراً مع طلوع الفجر، ويتمتَّعُ بمنظر الطبيعة الساحر. واليك اللوحةَ الاتيةَ التي تكشفُ لك عن صيادٍ ماهرٍ يُلقي شباكه في النهر ويستخرج سمكاً شبيهاً بالمُدَى أو بصغار الخناجر(١٠٤٩):

قد أغتدي نشوانَ من خمرِ الكرى   أسحبُ بُرديَّ على بردِ الثَّرَى
والصُّبحُ خَيْلٌ بينَ أحشاءِ الدُّجى   والريحُ كالراحِ نأى عنها القَذَى
يـنـسـمُ ريَّاها على زهرِ الرُّبى   بذاتِ أحداقٍ ترى ما لا يُرَى
مُلاءةٍ ما نُـسِـجـتْ لـتُرتدى   تُريكَ ضعفاً ظاهراً وهو قُوَى
وجمةٍ تحسـبُها العـيـنُ بِلَى   غـبراء كالدِّرعِ تـغـشَّاها الـصَّدا
تـعومُ في أبـيـض كالآلِ صَـفا   ترسبُ في أحشائِه صفرُ الحشا
فـتـعـتـلـي ... بأحشاءِ ملا   تضحكُ عن مثلِ صغيراتِ المُدَى
كأنَّـهـا عِـقْـدُ لآلٍ قد وَهَى   يومضُ فيها كالحُسامِ المنتضى

وتجدر الإشارة في هذه الدراسة الموجزة الى شعره الذي نظمه شوقاً وحنيناً الى الموصل. فلو أمعنا النظر في القصائد التي خصَّصها لهذا الغرض لرأيناها تتدفَّقُ بعواطف جيَّاشة. مما يدلُّ على تعلقه الشديد بمسقط رأسه ومرتع صباه ومربع شبابه، ووفائه للمدينة التي درج في أكنافها وشمَّ عبير العطر الفواح من المروج والحدائق التي تحيط بها. ونختار للقارىء الأبيات الآتية التي تُعبِّر بصدق وحرارة عن ألمه لفراق منزله الأول(١٠٥٠):

(١٠٤٩) ديوانه ١ : ٢٨٩ .
(١٠٥٠) ديوانه ٢ : ٧٥٦ .

لا أزجرُ الدَّمعَ إنْ هَمَتْ سواكبُهُ والنَّفسُ قد بعدتْ منها أمانيها
سقى رُبى الموصل الزهراء من بلدٍ جودٌ من الغيثِ يحكي جودَ أهليها
أأندبُ العيشَ فيها أم أنوحُ على أيامها أم أعزّي عن لياليها ؟
أرضٌ يحنُّ إليها من يفارقُها ويَحمدُ العيشَ فيها من يُدانيها
ميثاءُ طَيِّبةُ الأنفاسِ ضاحكةٌ تكادُ تهتزُّ عُجباً من نواحيها (١٠٥١)
تشقُّ دجلةُ أنوارَ الرِّياضِ بها مثل الصُّفيحةِ مصقولاً حواشيها
لا أملكُ الصَّبرَ عنها إنْ نأيتُ ولو عُوِّضتُ عن ظِلِّها الدُّنيا وما فيها

لقد جاءَت قصائده في الحنين الى الموصل حزينةً باكيةً . مصوغةً بأحسن أسلوب وأجوده . وقد عدَّها أحد الباحثين « صورةً ناطقةً بأبدع ما أنتجه الشاعر وألمع ما دبجته قريحته »(١٠٥٢) .

والى جانب ما ذكرنا من أغراض نجد له شعراً في العتاب والاعتذار والاخوانيات والحكم . وهو في جميعها لا يهبط عن المستوى الذي شاهدناه في النصوص الشعرية السابقة .

إنَّ شعرَ السريِّ الرفَّاء على العموم يجري مع الطبع ، ويسيرُ في طريق سهل منبسط لا أثر للتعقيد والالتواء فيه . وخياله خصب وواسع أشبه بكبار الشعراء ، ولاسيما في ميدان الوصف ، ولغته سليمة وفصيحة ، وصنعته الفنية مقبولة تعجب القاريء . ولعلَّ قوله الآتي مصداق لطبيعة شعره(١٠٥٣) :

فهو مِثلُ المُدامِ بينَ صفاءٍ وبهاءٍ ونفحةٍ ومذاقِ
منطقٌ يُخجلُ الرَّبيع اذا حلَّ عليه السَّحابُ عَقْدَ النِّطاقِ
عربيٌّ روائحَ الشِّيحِ والقيصومِ منه والشَّثِّ والطبَّاقِ(١٠٥٤)
سائلٌ من شِعابِ وجرة ثاوٍ بينَ أجراعِها وبينَ البُراقِ
فهو ما شِئتَ من هديرِ قُرومٍ وهو ما شِئتَ من حنين نِياقِ

(١٠٥١) الميثاء : الأرض السهلة ، وقبل الرابية الطيبة .
(١٠٥٢) السري الرفاء ، للدكتور حبيب حسين الحسني ، ص ٢٢٥ .
(١٠٥٣) ديوانه ٢ : ٤٩٧ .
(١٠٥٤) الشيح والقيصوم والشث والطباق : نباتات معروفة بناحية الحجاز

الشريف الرضي

٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ

القرن الرابع للهجرة ـ على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية فيه بعد دخول البويهيين العراق ـ حافل بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة ، زاخر بعدد كبير من العلماء والادباء والفقهاء ، زاهر بالمكتبات التي تعج بالكتب في مختلف فنون العلم والأدب والتاريخ والطب والفلسفة .. حتى إن الشريف الرضي الذي سنترجم له في الصفحات الآتية كانت له دار سماها دار العلم ، هيأ لها كل مستلزمات الدراسة وأسباب الراحة .

سيرته :

هو أبو الحسن ، الشريف الأجل ، الملقب بالرضي ، محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنه ، وأمّه السيدة فاطمة بنت الحسين بن أحمد بن الحسن الناصر الذي يرجع نسبه الى الامام علي رض الله عنه .

ولد في بغداد بجانب الكرخ سنة ٣٥٩ للهجرة(١٠٥٥) ، ونشأ في بيت عزّ وشرف ، وفي بيئة علمية وأدبية ، وقد توجّه منذ الصغر مع أخيه الشريف المرتضى نحو التعلّم والتثقّف ، وتتلمذ على أساتذة أجلاء كثيرين في مختلف العلوم(١٠٥٦) ، من ابرزهم ابو سعيد السيرافي النحوي المشهور ، وأبو الفتح عثمان بن جني اللغوي النحوي ، وأبو علي الحسن بن أحمد النحوي ، وأبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري الفقيه المالكي ، ومحمد بن عمران المرزباني ، والشيخ المفيد ابو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن المعلم ، وابن نُباتة الفارقي ...

شبّ الشريف الرضي عالماً شاعراً ، طموحاً الى المجد ، نزّاعاً الى العلى ، والقارىء في شعره يلمس ذلك بوضوح ، مثل قوله(١٠٥٧) :

(١٠٥٥) المحمدون من الشعراء ص ٢٤٤ .

(١٠٥٦) الغدير ٤ : ١٨٣ ـ ١٨٥ ، الحماسة في شعر الشريف الرضي ٨٢ ـ ٨٦ .

(١٠٥٧) ديوانه ١ : ٢٥٤ .

لا هَمَّ قلبي بركوبِ العُلى يوماً ولا بلَّ يَدَيَّ السماخ
إنْ لم أنلْها باشتراطٍ كما شئتُ على بيضِ الظُبا واقتراح
أفوزُ منها باللُبابِ الذي يُغني الأماني نيلُهُ والصُراخ
لا بدَّ أن أركبها صعبةً وَقاحةً تحتَ غُلامٍ وَقاح

ولعله كان يبغي الرئاسة لينقذَ أمَّتَهُ من السقوط في الهاوية ولا سيما بعد أن هان أمر الخلفاء العباسيين وأصبحوا لعبةً بيد الأعاجم . ها هو ذا يصرح بملء فمه عن نيته فيقول(١٠٥٨) :

سأخطبها بحدِّ السيفِ فعلاً إذا لم يُغنِ قولٌ أو خِطابُ
وآخُذُها وإنْ رَغِمَتْ أنوفٌ مُغالبةً وإنْ ذَلَّتْ رِقابُ
وإنَّ مُقامَ مِثلي في الأعادي مُقامُ البدرِ تنبحُهُ الكِلابُ
رموني بالعيوبِ مُلفَّقاتٍ وقد علموا بأنّي لا أُعابُ

كان الشريف الرضي الى جانب ما يحمله من اباء وعزّة وشمم ، موصوفاً بالعفّة والورع والتدين ، ووصف أيضاً بالجود والحَدَب على قومه ومن اتصل به من الناس(١٠٥٩) . وسمت مكانته ، وعلت منزلته عند الخاصة والعامة ، وقد أمر بهاء الدولة البويهي أن تكون مخاطباته بعنوان : الشريف الأجل ، ثم خلع عليه لقب الرضي ، وشغل منصب نقابة الطالبيين ، والنظر في المظالم ، وامارة الحج ، والنظر في أمور المساجد بمدينة السلام .

عاصر الشريفُ الرضي ثلاثة خلفاء : المطيع لله ، والطائع لله ، والقادر بالله . قضى من عمره أربع سنوات في عهد المطيع ، وثمانية عشر عاماً في ظل الطائع ، وخمسة وعشرين عاماً من مدة حكم القادر وكان في عهد المطيع طفلاً . أما في عهد الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ) فكان شاباً يافعاً . وكانت علاقتهُ به طيبة ولا سيما بعد أن أطلق سراح والده من السجن الذي وضعه فيه عضد الدولة تنفيذاً لخطته في القضاء على مَنْ يخشى بأسهم على ملكه . وحينما جاء القادر الى الخلافة لم تنقطع صلته بدار الخلافة ، بل قدَّمَ مديحه لهذا الخليفة وكسب رضاه . وكانت له صلات ببعض الأمراء والوزراء بحكم مكانته في أسرته . فمن الأمراء شرف الدولة وبهاء الدولة البويهيَين ، ومن الوزراء الصاحب بن عبَّاد ، وعبد العزيز بن يوسف .

(١٠٥٨) ديوانه ١ : ١٢٧ .

(١٠٥٩) ينظر المنتظم ٧ : ٢٧٩ ، شرح نهج البلاغة ١ : ٣٢

وكان الشريف الرضي ـ على كثرة مشاغله ـ دؤوباً في التأليف والتصنيف ، وقد ترك آثاراً جليلة وقيمة(١٠٦٠) ، من أهمها : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وتلخيص البيان عن مجازات القرآن ، ومجازات الآثار النبوية ، وخصائص الأئمة ، ونهج البلاغة ، وديوان شعره .

توفي الشريف الرضي يوم الأحد السادس من شهر المحرم سنة ٤٠٦ للهجرة . ورثاه ثلاثة شعراء كبار : الشريف المرتضى ، والوزير أبو القاسم الحسين بن علي ، ومهيار الديلمي .

شعره :

كان الشريف الرضي شاعراً فصيحاً ، كما كان كاتباً مترسلا ، وإماماً في النحو واللغة والتفسير . قال الشعر بعد أن جاوز العشرين من سني عمره بقليل كما ذكر الثعالبي(١٠٦١) ، واستمر في نظمه طيلة حياته ، وكانت آخر قصيدة له في رثاء صديقه أحمد بن علي البتّي في شعبان سنة ٤٠٥ للهجرة ، أي قبل وفاته بعدة أشهر . وقد صنع ديوانه أبو حكيم عبد الله بن ابراهيم الخيري (ت ٤٧٦ هـ) مرتباً على الأغراض ، فجعل باباً للمدح ، وباباً للافتخار وشكوى الزمان ، وباباً للمراثي ، وباباً للنسيب ، وباباً للفنون المتنوعة ، ورتبَ القصائد في داخل كل باب على القوافي حسب حروف الهجاء . وقد عدل مَنْ جاء بعد أبي حكيم الى ترتيب الديوان كله حسب حروف الهجاء .

أخذ المديح قسطاً وافراً من شعره ، خصَّصه للكثيرين من أفراد أسرته ، وأصدقائه ، وأرباب السلطة وأصحاب السلطان . وقد جاء بعضه خالياً من الصدق ، وإن ظهر في اطار فخم مجمَّل بحلية الألفاظ . وقد اعترف الرضيُّ نفسه بأنه كان يُهذِّبُ خواطره في مدح اللئام ، فتأتي المعاني مُغلَّفةً بثوب الصدق ، ولعله فعل ذلكَ دريئةً من أذى المتسلطين على الحكم آنذاك(١٠٦٢) :

أُهذِّبُ في مدحِ اللئامِ خواطري ... فأَصْدُقُ في حُسنِ المعاني ، وأكذبُ

(١٠٦٠) ينظر الغدير ٤ : ١٨٦ ـ ٢٠٠ ، الشريف الرضي وجهوده النحوية ٢٢ ـ ٢٨ .
(١٠٦١) يتيمة الدهر ٣ : ١٣٦ .
(١٠٦٢) ديوانه ١ : ١١٢ .

مدح الشريف الرضي من الخلفاء الطائع لله والقادر بالله . ومن بني بويه شرف الدولة وبهاء الدولة . ومن الوزراء أبا منصور محمد بن الحسن بن صالح ، وأبا علي الحسن بن حمد بن أبي الزمان . وأبا سعيد بن خلف ، والصاحب بن عباد وسواهم . ومن أصدق مدائحه وأخلصها ما قاله في أبيه الحسين ، وخاله أحمد بن الحسين وفي صديقيه الحميمين أبي اسحاق الصابي ، وأبي الحسن أحمد بن علي البتّي الكاتب.

إن أكبر حادثة أثرت في نفسه أبلغ الأثر سجن ابيه في بلاد فارس(٣٦٩-٣٧٥هـ) ومصادرة أملاكه . فراح يمدحُ هذا الأب بقصائد كثيرة ، وهي تنقسم الى ثلاث طوائف ، الطائفة الاولى في التوجُّع لأبيه وهو سجين ، والطائفة الثانية في تهنئة أبيه بالخلاص وورد أملاكه اليه . وطائفة الثالثة في تهنئته بالأعياد بعد أنْ لانَ الزمانُ ، ولكل طائفة من هذه الاشعار خصائص ؛ فالطائفة الاولى تُصور الحزن والجزع والتفجع ، والثانية يغلب عليها الإنفتاح والإنشراح ، والثالثة تخلع على أبيه رداء الملوك ، فهو يدخل عليه في كلِ عيد بقصيدة كما يصنع الشعراء في تحيةِ الخلفاء والملوك(١٠٦٣) . وكانت أول قصيدة قالها في مدح أبيه مطلعها :(١٠٦٤)

نُصافي المعالي ، والزَّمانُ معاندٌ ونَنهضُ بالآمال ، والجَدُّ قاعِدُ

تقع القصيدة في ثمانية وسبعين بيتاً . وهي - وإن كان الرضي في أول نظمه للشعر - جيدة في عرض معاناة الألم والغربة بعد غياب والده . وقد تحدَّث في بعض أبياتها حديث الحكماء :

ينالُ الفتى مِن دهرِه قَدْرَ نفسِهِ وتأتي على قدرِ الرجالِ المكابدُ
فدىً لكَ يامجدَ المعالي وبأسها فِعالُ جبانٍ شجعتهُ الحقائدُ
فما تركت منك الصوارمُ والقنا ولا أخذتْ منكَ الحسانُ الخرائدُ
عُزِلتَ ولكن ماعزلتَ عن الندى وجودكَ في جيد العُلى لكَ شاهدُ

وحينما أطلق سراحهُ ، وبارحَ السجن ، ووصل الى بغداد ، رآه وخفق قلبهُ وانهلت مدامعه فرحاً . وقابله بقصيدة تتشح بالسرور ، منها قوله :(١٠٦٥)

(١٠٦٣) ينظر عبقرية الشريف الرضي ١ : ١٠٦
(١٠٦٤) ديوانه ١ : ٣٠٥ .
(١٠٦٥) ديوانه ١ : ٧٧

مازالَ منكَ على النائباتِ ... مقامٌ عظيمٌ ويومٌ عصيبُ
فيومٌ حسامكَ فيه الخطيبُ ... ويومٌ لسانكَ فيه الخطيبُ
طلبت لنفسكَ . فاطلبْ لنا ... من العزِّ ، انّ المحامي طَلُوبٌ
وان كنتَ تأنفُ عن حُبِّهِ ... فانَّ العلاءَ الينا حبيبُ
وما نحن أنتَ ، وكلٌّ الى ... دعاء العُلى طربٌ مستجيبُ

انه يريد جاه أبيه طريقاً الى « العز » . يريد نصيبه الخاص منه ، لانّ عز الأب ليس ملكاً للابن ، وقوله « وما نحن أنت » وهو في السابعة عشرة من عمره يدلُّ على نحو من الشعور بالاستقلال الذاتي يحسن بنا أن لا نغفله(١٠٦٦) .

انّ شخصية الرضي بارزة في مدائحه ، تظهر شامخة أبية ، تطلب العزْ والرفعة . مثل قوله من قصيدة في مدح الصاحب بن عباد :(١٠٦٧)

فاني رأيتُ السيفَ أنصرَ للفتى ... اذا قالَ قولاً ماضياً أو توعّدا
أرى بين نيلِ العزِّ والذلِّ ساعةً ... من الطعنِ تقتادُ الوشيجَ المقصّدا
فمن أخرتهُ نَفسُهُ مات عاجزاً ... ومن قدّمتهُ نفسُهُ مات سيّدا
اذا كان إقدامُ الفتى ضائراً له ... فما المجدُ مطلوباً ولا العز مفتدى

ان فخره بنفسه ، وزهوه بمقامه وشعره وشجاعته وفروسيته ومضاء عزمه وقوة ارادته ، كثير في شعره ، ولعل قصيدته الحماسية الآتية خير دليل على ذلك . ومطلعها :(١٠٦٨)

نبهتهم مثل عوالي الرماح ... الى الوغى قبل نموم الصّباح
فوارسٌ نالوا المنى بالقنا ... وصافحوا اعراضهم بالصّفاح

ومنها :

وخطةٍ يضحكُ منها الرّدى ... عسراء تبري القومَ بري القِداح
صبرتُ نفسي عند أهوالِها ... وقلتُ : من هبوتها لا بَراح
إما فتىً نالَ العُلى فاشتفى ... أو بطلٌ ذاقَ الردى فاستراح

(١٠٦٦) ينظر الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ، ص ٣٧
(١٠٦٧) ديوانه ١ : ٢٨١
(١٠٦٨) ديوانه ١ : ٢٥٤

وقد أحسن الدكتور زكي مبارك في قوله ، « ان هذا القصيد خليق بأن يكون نشيد الفتوة العربية ، وأهلٌ لأن يحفظه جميع الشبان في سائر البلاد العربية ، فهو جذوةٌ من الفتوة ، وقبَسٌ من الرجولة ، وشهابٌ من العزم المصمم الذي يطيح المصاعب والأهوال »(١٠٦٩)

كان الشريف الرضي يعتزُّ بقومه ويفخر بأرومتهم .(١٠٧٠) ويريد لهم السمو والمقام الرفيع ، ويُسمّي نفسه « الفتى العربي » ، كما ورد في المقطوعة الآتية :(١٠٧١)

اني لأكرمُ نفسي أنْ يقالَ جنى على الفتى العربيّ الخردُ العُرُبُ
اني على شغفي بالحبِّ معتذر من أن يقال شجاعٌ فلّهُ الوصبُ
إنا معاشرٌ لاتبلى مطارفنا الآ وهنّ لطلاب الندى سلبُ

انه يريد من الفرد العربي أن يكون شجاعاً ماضياً مثل سيفه كي لاينكره الاجداد الذين عرفوا بالشهامة والاقدام والنبل والغيرة :(١٠٧٢)

اذا عربي لم يكن مثلَ سيفه مضاءً على الاعداء أنكره الجدُّ

وترى الشريف الرضي ـ وان كان نزّاعاً الى المجدِ ـ يصبو الى الجمال ، ويتغزل بالمرأة الحسناء بقلبٍ رقيق . قال الباخرزي ، « له شعر اذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه ، واذا نسب انتسب الرقة الى نسيبه ، وفاز بالقدح المعلى من نصيبه » .(١٠٧٣) .

انّ غزله الجميل المتمثل بقصائده المعروفة بالحجازيات(١٠٧٤) في غاية الرقة والعذوبة ، « قالها في أماكن لايحلُّ فيها الرفثُ ولا الفسوقُ ، وقالها وهو نقيب الأشراف وامام الحج ، لكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها وبفورانها فما استطاع لها كتماناً ، فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة ، فغفر له معاصروه هتافه للجمال واشادته بصبوات نفسه ولوعات هواه »(١٠٧٥) .

(١٠٦٩) عبقرية الشريف الرضي ١ : ١٨١
(١٠٧٠) ينظر الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي ص ٧٩ ـ ٨٧ .
(١٠٧١) ديوانه ١ : ١٩٠
(١٠٧٢) ديوانه ١ : ٣٢٥
(١٠٧٣) دمية القصر ١ : ٢١١ .
(١٠٧٤) ينظر الشريف الرضي ، دراسات في ذكراه الالفية ص ٦ ـ ٢٢ .
(١٠٧٥) في موكب الخالدين ص ٦٦ .

أنّ غزله يمتاز بسمو العاطفة . والوقار والعفّة . الى جانب « جمال الانسياب ، وحلاوة الموسيقى – في أغلب الأحيان – وهو من أقرب فنونه الى البساطة البدوية التي تتجلّى في شعر العذريين وعشاق الاعراب ، رجالاً ونساءً . وفيه نفحة من نفحاتهم في الحنين الى المرابع ومعاهد الصبوات » .(١٠٧٦) . وقد سار غزله بين عشاق الادب وحفظوه ورددوه في محافلهم ومنتدياتهم . ومن بديع قصائده الكافية التي عارضها كثير من الشعراء(١٠٧٧) وهي :(١٠٧٨)

ياظبيةَ البانِ ترعى في خمائلهِ	ليهنكِ اليومَ أن القلبَ مرعاكِ
الماء عـــندكِ مـــبذولٌ لـــشاربـــهِ	وليس يُرويكِ إلاّ مدمعي الباكِ
هَبَّتْ لنا من رياحِ الغورِ رائحةٌ	بـــعد الرُقادِ عرفـــناها بريّاكِ
ثم انثنينا . اذا ما هَزّنا طَرَبٌ	عـلى الرحالِ . تـعـلـلـنا بذكراكِ
سهم أصابَ وراميهِ بذي سلمٍ	من بالعراقِ . لقد أبعدتِ مرماكِ
وعدٌ لعينيكِ عندي ماوفيت به	ياقربَ ماكذَبتْ عيني عيناكِ
حكت لحاظُكِ ما في الريم من مُلَحٍ	يومَ اللقاء فكان الفضلُ للحاكي
كأنّ طرفكِ يوم الجِزعِ يُخبرنا	بما طوى عنكِ من أسماءِ قتلاكِ
أنتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له	فما أمرّكِ في قلبي وأحلاكِ
عندي رسائل شوقٍ لستُ أذكرها	لولا الرقيب لقد بلغتُها فاكِ
سقى منى وليالي الخيفِ ماشربتْ	مـــن الـــغـمامِ وحـــيّاها وحـــيّاكِ
اذ يلتقي كلُّ ذي دَيْنٍ وماطلهُ	منّا . ويجتمعُ المشكو والشاكي
لما غدا السِّربُ يعطو بين أرحلنا	ماكان فيه غريم القلب الأكِ
هامتْ بكِ العينُ لم تتبع سواكِ هوىً	من علّم البين أنّ القلب يهواكِ

وكان الشريف الرضي من الشعراء المجيدين في فن الرثاء . المحسنين في اظهار اللوعة والأسى على الراحلين . قال الثعالبي : « ولستُ أدري في شعراء العصر أحسن تصرفاً في المراثي منه » .(١٠٧٩) . وسمّاه الدكتور محمد عبدالغني حسن « شاعر الدموع »(١٠٨٠) . وعقد الدكتور احسان عباس فصلاً عن رثائه بعنوان « النائحة الثكلى »(١٠٨١) ومن ينظر في ديوانه يجدُ كمية المراثي كبيرة . وهي في رثاء أهل

(١٠٧٦) الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ٢٢٥

(١٠٧٧) ينظر الوافي بالوفيات ٢ : ٣٧٨ ، فهرس ابن خير ص ٤٢٤

(١٠٧٨) ديوانه ٢ : ١٠٧

(١٠٧٩) يتيمة الدهر ٣ : ١٤٩

(١٠٨٠) الشريف الرضي للدكتور محمد عبدالغني حسن ، ص ٧٠ .

(١٠٨١) الشريف الرضي للدكتور احسان عباس ص ١٩٢ – ٢٢٢ .

بيته . ورثاء الاصدقاء والرؤساء والملوك . وتعدُ مرثيته لأمه من المراثي الحارة التي تفيض بالشعور الصادق . وتعبر عن نفس مجروحة . وتبعث في القلب حزناً وتجعل القاريء يشاركه في مصابه الأليم . ونوردُ هنا الأبيات الاولى منها :(١٠٨٢)

أبكيكِ لو نقعَ الغليل بكائي ... وأقولُ لو ذهب المقالُ بدائي
وأعوذ بالصبر الجميلِ تعزّياً ... لو كان بالصبر الجميل عزائي
طوراً تكاثرني الدُّموعُ وتارةً ... آوي الى أُكرومتي وحيائي
كم عبرةٍ موهتُها بأناملي ... وسترتُها متجملاً بردائي
ما كنتُ أذخرُ في فِداكِ رَغيبةً ... لو كان يرجعُ ميتٌ بفداءِ
لو كان يُدفعُ ذا الحمامُ بقوةٍ ... لتكدستْ عُصَبٌ وراء لوائي

وكثيراً مايعبر في مراثيه عن آلامه وهمومه . ويرسل في ثناياها حكماً وأمثالاً تدل على نظرات عميقة في الحياة . مثل قوله من قصيدة يعزي فيها الخليفة عن عمر ابن اسحاق بن المقتدر سنة ٣٧٧ للهجرة :(١٠٨٣)

ولا ترجُ أنْ تُعطى من العيشِ كثرةً ... فكلُّ مقامٍ في الزمانِ قليلُ
ومن نظرَ الدنيا بعينِ حقيقةٍ ... درى أنَّ ظِلًّا لم يزل سيزولُ
اذا لم يكن عقلُ الفتى عون صبره ... فليس الى حسن العزاء سبيلُ
وانْ جَهِلَ الاقدار والدهرَ عاقلٌ ... فأضيعُ شيءٍ في الرجالِ عقولُ
وموتُ الفتى خيرٌ له من حياته ... اذا جاور الأيام . وهو ذليلُ

وهكذا كان الشريف الرضي . متمكناً من ناصية القريض . في كل أغراضه . تراه يجيدُ عرض فكرته في بناء سليم . وأسلوب رشيق . وطرح شيق . ويحسن التوازن والتقابل بين الألفاظ والعبارات . كما يحسن اتيان التشبيهات والصور في مواضعها وتتجلى في شعره روح البداوة ممزوجة بروح الحضارة . ولا عجب حين يضع شعره في موازاة شعر الفرزدق وجرير في قوله :(١٠٨٤)

(١٠٨٣) ديوانه ٢ ، ١٩١

(١٠٨٤) ديوانه ١ ، ٤٢١

وقصيدةٍ عذراءَ مِثـلِ تألقِ الروضِ النَّضير
فرِحتْ بمالكِ رقِّها فرحَ الخميلةِ بالغدير
وكأنه في رصفها جارُ الفرزدق أو جرير

وتجدر الاشارة الى أنَّ شعره يتميز بضبط عروضي محكم ، وهندسة موسيقية تدل على رهافة حسّه ، وبراعته في السيطرة على نظام البيت الشعري وفق القواعد والأصول (١٠٨٥) .

(١٠٨٥) تنظر الحماسة في شعر الشريف الرضي ص ٢٢٩ ـ ٢٢٤ .

أبو العلاء المعري

٣٦٣ ـ ٤٤٩ هـ

سيرته :

هو أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان ، ولد يوم الجمعة لثلاث ايام مضت من شهر ربيع الاول سنة ٣٦٣ للهجرة بمعرة النعمان القريبة من حلب ، من اسرة عربية يرجع نسبها الى قبيلة تنوخ اليمانية . قال ابن العديم : « وتنوخ اكثر العرب مناقب وحسباً ، ومن أعظمها مفاخرَ وأدباً ، فيهم الخطباء العظماء ، والبلغاء الشعراء »(١٠٨٦) . وكانت أمه بنت محمد بن سبيكة من بيت مشهور من بيوتات حلب .

كانت أسرته مليئة بالأمجاد من قضاة وحكّام ورجال ثروة ، فأبوه من العلماء وجده وأبو جده تولوا قضاء المعرّة ، وبقي القضاء في بني اخيه الى أن دخلها الفرنج سنة ٥٩٢ للهجرة . وكان له أخوان شاعران هما أبو الهيثم عبدالواحد ، وأبو المجد محمد ، وأورد ياقوت الحموي اسماء الشعراء المشهورين من ابناء اسرته مع نماذج من شعرهم (١٠٨٧).

حُرم أبو العلاء من نعمة البصر وهو في الرابعة من عمره بعد اصابته بمرض الجدري وكانت لهذه الصدمة اثر كبير في فكره وسلوكه طيلة أيام عمره ، وقد أشار في احدى رسائله الى عماه ، فقال : « وقد علم الله ان سمعي ثقيل ، وبصري عن الابصار كليل ، قضي عليّ وأنا ابن أربع ، لا أفرّق بين البازل والرّبع ، ثم توالتْ محني ، فأشبه شخصي العود المنحني »(١٠٨٨) .

كان والده المعلم الاول له ، اذ رسم له طريق الدرس وتحصيل العلم ، وأقرأهُ القرآن ، وعلّمه النحو واللغة والأدب . ثم تتلمذ على جماعة من علماء المعرة مثل أبي بكر محمد بن مسعود النحوي ويحيى بن مسعر التنوخي ، وانتقل الى حلب وبها اخواله من آل سبيكة من أصحاب الثراء والسخاء ، فاتصل بمحمد بن عبدالله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب المتنبي ، والتقى بتلاميذ ابن خالويه وابن جني واستمع الى ماكانوا يرددون من علوم في اللغة والادب والصرف ، وكذلك اتصل

(١٠٨٦) الانصاف والتحري ص ٤٨٩ (ضمن كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء) .

(١٠٨٧) معجم الادباء ١ : ١٦٢ ـ ١٦٩ .

(١٠٨٨) معجم الادباء ١ : ١٩٨ . البازل : البعير في تاسع سنيه . الربع : الفصيل .

بتلاميذ الفارابي وتلقّف منهم علوماً في الفلسفة . وبعد عشر سنوات من اقامته بحلب ينهل من موارد المعرفة انتقل الى انطاكية واتصل بعلمائها وتردّد على مكتباتها ، ثم بارحها الى اللاذقية واستمع فيها الى الذين كانوا يتدارسون العلوم الدينية والمعارف الفلسفية ، ومنها عاد الى مسقط رأسه معرّة النعمان .

ولما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره قام برحلة الى بغداد في أواخر سنة ٣٩٨ للهجرة ودخلها في اوائل سنة ٣٩٩ للهجرة ، وأقام فيها سنة وسبعة أشهر ليستزيد من طلب العلم ويستكثر من شيوخه على عادة رجال عصره ويبتعد عن الحالة السياسية السيئة التي كانت عليها الشام آنذاك وبعد أن حقّق غايته في مراجعة خزائن الكتب ومشافهة العلماء والادباء قرّر العودة الى معرة النعمان .(١٠٨٩) ولعل عسر اليد ، لأنه كان أبياً لا يقبل معونة من أحد اضافة الى ما وصل اليه من خبر مرض امه ، عجل في هذه العودة . أمّا ما يرويه ياقوت الحموي أن لشريف المرتضى أهانه وأمر بطرده من مجلسه فلا يطمئن الى صحته .(١٠٩٠) وننقل هنا ماقاله المعري في رسالته الى خاله من اكرام البغدادين له وحزنهم على فراقه : « ورعاية الله شاملةٌ لمن عرفتهُ ببغداد . فلقد أفردوني بحسن المعاملة . وأثنوا عليّ في الغيبة . واكرموني دون النظراء والطبقة . ولما آنسوا تشميري للرحيل . واحسوا بتأهّبي للظعن أظهروا كسوف بال . وقالوا من جميل كلّ مقال . وتلفعوا من الأسف ببرد قشيب . وذرفت عيون اشيائخ شيب » وقال في ختام رسالة أخرى : « ويحسن الله جزاء البغداديين . فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم . وعرضوا عليّ أموالهم عرض الجد فصادفوني غير جذل بالصفات . ولا هش الى معروف الأقوام . ورحلت وهم لرحيلي كارهون ، وحسبي الله وعليه يتوكل المتوكلون »(١٠٩١) .

اختار بعد عودته العزلة الا عن تلاميذه وقاصديه ، وسمى نفسه « رهين المحبسين » ، اي العمى ولزوم البيت . وقال في ذلك :(١٠٩٢)

أراني في الثلاثة من سجوني ... فلا تسأل عن النبأ النبيث(١٠٩٣)
لفقدي ناظري ولزوم بيتي ... وكون النفس في الجسد الخبيث

(١٠٨٩) ينظر : دار السلام في حياة ابي العلاء ص ٢٨
(١٠٩٠) ينظر : معجم الادباء ١ : ١٩٩
(١٠٩١) رسائل ابي العلاء المعري ١ : ٢٠٣ ، ٢٢٢
(١٠٩٢) اللزوميات ١ : ٢٤٩
(١٠٩٣) النبيث : الشرير وهو ايضاً من نبث التراب : اخرجه ونبث عن السر : بحث عنه .

وبذلك أضاف سجناً ثالثاً . وهو الحياة ذاتها اي كون نفسه محبوسة في جسده ويبدو أن صدقه وصراحته خلقا له مشكلات واستفزا الكثيرين من حساده لرميه بالتهم وتحريض الناس عليه . لذا آثر العزلة والاعتكاف في منزله (١٠٩٤).

لبث تسعاً واربعين سنة في محبسه بمعرة النعمان . لم يغادره الاّ مرة واحدة لم تتكرر . حين حمله قومه على الخروج ليشفع لهم لدى أسد الدولة صالح بن مرداس صاحب حلب وكان قد خرج الى المعرّة ليخمد حركة عصيان من أهلها (١٠٩٥).

جلس في داره على طريقة الفلاسفة المتقشفين . منصرفاً الى التأليف والتصنيف والتدريس . قال ابن العديم : « ومازالت حرمةُ ابي العلاء في علاء . وبحر فضله مورداً للوزراء والامراء . وما علمتُ أنّ وزيراً مذكوراً . وفاضلاً مشهوراً . مرّ بمعرة النعمان في ذلك العصر والزمان . الاّ وقصده واستفاد منه . أو طلب شيئاً من تصنيفه . أو كتب عنه »(١٠٩٦)

وطال به العمر . وناء بأثقال الشيخوخة . ووهن جسده . وتخاذلت اعضاؤه . فما عاد يستطيع النهوض الاّ بمعاونة سواه . وعجز عن القيام للصلاة فانما يصليها قاعداً .(١٠٩٧) وفي شهر ربيع الاول سنة ٤٤٩ للهجرة خبث تلك الجذوة تاركاً وصيته . ان تكتب على قبره :

هذا جناهُ أبي عليّ وما جنيتُ على أحد

وشيعوه الى مثواه الأخير في حشد غفير من أهل العلم والأدب . ورثاه اربعة وثمانون شاعراً :(١٠٩٨)

آثاره :

كان أبو العلاء عالماً جليلاً واديباً فاضلاً . ذكر ابن العديم منْ قرأ عليه وروى عنه من العلماء والادباء والمحدثين . وقال معقباً على اسمائهم : « هؤلاء كلهم أئمة وقضاة وعلماء اثبات . وأدباء رواة وحفّاظ ثقات . رووا عن أبي العلاء وكتبوا عنه

(١٠٩٤) ينظر : الفكر الديني عند أبي العلاء المعري ص ٦٩

(١٠٩٥) تنظر التفاصيل في كتاب ، مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ١٧٥ ـ ١٧٩

(١٠٩٦) الانصاف والتحري ص ٥٦٥ .

(١٠٩٧) مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ٢٧٠

(١٠٩٨) معجم الأدباء ١ : ١٧١ .

واخذوا العلم واستفادوا منه ، لم يذكره أحد منهم بطعنٍ ، ولم ينسب حديثه الى ضعفٍ ولا وهنٍ »(١٠٩٩)

ان مصنفات ابي العلاء كثيرة ونافعة . قال ابن فضل الله العمري ، « اني وقفتُ على جملةٍ من مصنفات عالم معرة النعمان ، أبي العلاء احمد بن عبدالله بن سليمان المعري ، فوجدتها مشحونةً بالفصاحة والبيان ، مودعةً فنوناً من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب ، مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب ، لايجد الطامح فيها سقطةً ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة »(١١٠٠) . وقد أحسن أحد الباحثين المعاصرين في الالمام بأسماء كتبه ورسائله .(١١٠١) واليك المطبوع منها : رسالة الصاهل والشاحج ، رسالة الهناء ، رسالة الغفران ، رسالة ابن القارح ، رسالة الاخرسين ، رسالة الملائكة ، رسائل ابي العلاء المعري ، رسالة في تعزية ابي علي الرجال ، زجر النابح ، عبث الوليد ، الفصول والغايات ، مُلقى السبيل ، سقط الزند ، اللزوميات ، الدرعيات ، شرح ديوان ابن أبي حصينة ....

شعره :

عرف أبو العلاء بحدة الذكاء ، وقوّة الحافظة ، وتوقُّد الخاطر ، وكثرة الحفظ ، وسرعة البديهة . قال ابن العديم : « كان ابو العلاء على غايةٍ من الذكاء والحفظ قيل له : بِمَ بلغتَ [illegible] الرتبة في العلم ؟ فقال : ماسمعتُ شيئاً الا وحفظته ، وما حفظتُ شيئاً فنسيته »(١١٠٢) ويروى عن الشاعر ابي الحسن علي بن مأمون المصيصي انه قال : « لقيتُ بمعرة النعمان عجباً من العجب : رأيتُ أعمى شاعراً ظريفاً ، يلعبُ بالشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فنٍ من الجد والهزل ، يكنى ابا العلاء »(١١٠٣)

كان ابو العلاء موهوباً منذ الصغر ، يروى انه نظم الشعر وهو في الحادية عشرة من عمره ونيف على الثمانين وماسلاه ، وقد توزّع شعره في « سقط الزند » و « اللزوميات » و « الدرعيات » . ويعد سقط الزند ديوان شعره ، واللزوميات ديوان

(١٠٩٩) الانصاف والتحري ص ٥٢٠

(١١٠٠) مسالك الابصار (ضمن كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء) ص ٢١٨

(١١٠١) كشاف مصادر دراسة ابي العلاء المعري ٢٩٧ ـ ٣٠٥ .

(١١٠٢) الانصاف والتحري ص ٥٥١

(١١٠٣) لتمة يتيمة الدهر ١ : ٤

فلسفته وحكمته . أما الدرعيات فهي قصائد في وصف الدرع . ولعله رمز بها الى ماكان يترتب على قومه من وقاية انفسهم من الاعداء (١١٠٤) .

انّ شعره في سقط الزند يمثل نتاجه في سني شبابه وأيام قوته وفيه قصائد مما نظمه ايام اعتكافه في منزله بمعرة النعمان وأرسل به الى بعض اصدقائه ببغداد . وقد سمّاه بسقط الزند تشبيهاً بالشرر الذي يتطاير من الزند . وفي هذا الديوان اغلب موضوعات الشعر المعروفة ماعدا الهجاء والعبث والمجون والخمر والغزل بالمذكر . وهي أغراض كانت شائعة في عصره . ولكن أخلاقه وسلوكه وتربيته منعته من النظم فيها .

أما لزومياته فأكثرها مقطوعات نظمها بعد عودته من بغداد .(١١٠٥) تناول فيها الحديث عن مشكلات الحياة وانتقادها . وبث فيها آراءه الخاصة . وانطباعاته الشخصية . وتأملاته الذاتية . ونظراته الفلسفية في الكون والعمران . وقد سميت باللزوميات لأنه ألزم نفسه بأربع كلف ، التزم في قوافيها حرفاً لا يلزم قبل حرف الروي . ونظم حروف المعجم كلها مرتبة . واستوفى في كل حرف الحركات الثلاث والوقف . ورتّب الاوزان في كل فصل من فصولها على ترتيب الدوائر والبحور عند العروضيين .

ان القاريء في ديوانه « سقط الزند » يجدُ شعراً في المديح . وهو قليل لا يشكل غرضاً بارزاً . لم يسخره للتكسب وطلب الجاه . بل المكس من ذلك . فانه انتقد الشعراء المتكسبين الذين يلهثون وراء المنفعة . وعدّ مديحهم كذباً ورياءً . فقال :(١١٠٦)

لاخير في جزل العطاءِ . أتى رجلاً بأنّ كلامـــــــه جزلُ
يرجو . فيمدح غير مرتقـبٍ ربأ . وكلّ مقاله ازلُ(١١٠٧)
شـهرت سـيوف القول طائـفة كذبٌ . وأفـضل منـهم العزلُ

ويحتل الرثاء مكانةً بارزة في شعره . وهو يتسم بالصدق والحزن العميق . كما نلاحظ ذلك في رثاء والدته . كانت توفيت قبل قدومه من العراق بمدة يسيرة . فانه

(١١٠٤) ينظر : النقد الاجتماعي في آثار ابي العلاء المعري ص ١٩٨ ــ ٢٠٧ .

(١١٠٥) ينظر : المعري وجوانب من اللزوميات ص ٦٤ ، المعري ذلك المجهول ص ٨٩ ــ ١٠٤ .

(١١٠٦) اللزوميات ٢ : ٢٧٨ وينظر الى نقده للمتكسبين من الشعراء في : رسالة الغفران ص ٤١١ .

(١١٠٧) الازل : الكذب .

يشعر بحاجة اليها . ويرى نفسه كالرضيع لم يصحبها ولم يتمتع بحياتها على الرغم من انها مضت وهو كهل . ويتمنى لقاءها . ويتساءل عن ذلك اللقاء . ومتى يتم : (١١٠٨)

مضت وقد اكتهلت فخلتُ أني   رضيع مابلغتُ مدى الفطام
فياركب المنون . أما رسولٌ   يبلغ روحها أرجَ السّلام
سألتُ : متى اللقاءُ ؟ فقيل حتى   يقومَ الهامدون من الرّجام (١١٠٩)
فليت أذينَ يومِ الحشر نادى   فأجهشتِ الرِّمامُ الى الرمام (١١١٠)

وقد سبق لأبي العلاء أن فجع بوفاة والده . فرثاه بقصيدة تطفح بالأسى والأنين . مثل قوله . وهو يحمل الحزن في فؤاده ويطوى المسرة جانباً : (١١١١)

فهل أنتَ . ان ناديتُ رمسك سامع   نداء ابنك المفجوع . بل عبدكَ القن (١١١٢)
سأبكي اذا غنّى ابن ورقاءَ بهجةً   وان كان مايعنيه ضد الذي أعني
وأحمل فيك الحزن حياً . فان أمتْ   وألقكَ . لم أسلك طريقاً الى الحزن
وبعدك لا يهوى الفؤادُ مسرةً   وانْ خان في وصل السرور فلا يهني (١١١٣)

ونجد في شعره فخراً . ولاسيما بنفسه وبمواهبه العلمية . وخير شاهد على ذلك قصيدته اللامية المشهورة التي يقول في مطلعها : (١١١٤)

ألا في سبيلِ المجد ما أنا فاعلٌ   عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

وفيها يقول مفاخراً متحدياً

وقد سار ذكري في البلادِ فمنْ لهم   بإخفاء شمسٍ ضوؤها متكاملُ ؟
يُهمُ الليالي بعضُ ما أنا مضمرٌ   ويثقلُ رضوى دونَ ما أنا حاملُ
وإنّي ، وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ   لآتٍ ، بما لم تستطِعْهُ الأوائلُ
وأغدو ، ولو أنّ الصباحَ صوارمٌ   وأسري ولو أنّ الظلامَ جحافلُ

(١١٠٨) سقط الزند ص ٣٩

(١١٠٩) الرجام : القبور

(١١١٠) الأذين : المؤذن ، أجهشت : فزعت الى غيرها ، أي اجتمعت العظام البالية وتلاقت

(١١١١) سقط الزند ص ١٧

(١١١٢) عبد القن : العبد الخالص العبودية

(١١١٣) يهني : يدعو عنيه بعدم الهناء والسرور .

(١١١٤) سقط الزند ص ١٩٢ .

وإنّـي جوادٌ لـم يُـحـلّ لـجامُـهُ ونـضوٌ يـمانٍ أغـفـلـتْـهُ الـصياقـلُ
وإنْ كان في لبسِ الفتى شرفٌ له فما السَّيفُ إلاّ غمدُهُ والحمائلُ
ولي منطقٌ لم يرضَ لي كُنْهَ منزلي على أنني بينَ السّماكينِ نازلُ
لدى موطنٍ يشتاقُه كلُّ سيدٍ ويـقـصـرُ عـن إدراكـهِ المـتـناولِ

ولم يتخلّف أبو العلاء ـ وإن كان ضريراً ـ عن الوصف فله شعر رائق يشاركُ فيه بأحاسيسه بعض مظاهر الطبيعة الجميلة. ويتعاطف معها بكل جوارحه، ويبرزها في صور مرئية تبهر الناظر وتعجبه. مثل قوله وهو يشدو بذكريات ليلةٍ طريفة:(١١١٥)

رُبَّ ليلٍ كأنه الصُّبحُ في الحسـ ـنِ. وإنْ كانَ أسودَ الطيلسانِ
قد ركضنا فيه إلى اللهو لما وقـفَ الـنـجـمُ وقِـفـةَ الـحـيرانِ
وكأني ما قلتُ والبدرُ طفلٌ وشـبـابُ الـظـلـماءِ في عـنـفوانِ:
ليلتي هذه عروسٌ من الزنـ ـج عـلـيـهـا قلائدٌ مـن جُـمـانِ
هربَ النومُ عن جفوني فيها هَرَبَ الأمنِ عن فؤادِ الجبانِ
وكأنّ الـهلالَ يـهوي الـثُّريا فـهـمـا لـلـوداع مـعـتـنـقـانِ
وسهيلٌ كوجنةِ الحِبِّ في اللو نِ وقلبِ المحبِّ في الخفقانِ
يُسرعُ اللمحَ في احمرارٍ كما تُسْـ ـرعُ في الـلـمـح مـقـلةُ الـغـضبانِ

وشاركَ أبو العلاء في شعرِ الغزل. وقد استأثر بعضه بقصائد كاملة. ولا نعلمُ من أخباره، ما ينم عن حبه لامرأة ما. وليس في اثاره اشارة من قربٍ أو بعدٍ، الى انه عانى التجربة حسياً في الواقع المادي. ولعل أن يكون غزله من الشعر الرمزي الذي يُخفي وراء ظاهر لفظه دلالةً مستورة على أمنيات تعلق بها في شبابه الطامح، كأن تكون هذه الحبيبة رمزاً إلى الدنيا، أو إلى المجد. أو إلى نعمة البصر التي حرم منها(١١١٦)... مثل قوله(١١١٧):

حيِّ من أجلِ أهلهنَّ الديارا وابكِ هنداً. لا النُّؤيَ والأحجارا
هي قالتْ لما رأتْ شيبَ رأسي وأرادتْ تـنـكـراً وازورارا:
أنا بدرٌ. وقد بدا الصُّبحُ في رأ سِـكَ. والـصُّـبـحُ يـطردُ الأقـمارا
لستِ بدراً، وإنما أنتِ شمسٌ لا تُرى في الدُّجى. وتبدو نهارا

(١١١٥) سقط الزند ص ٩٤.
(١١١٦) ينظر: مع أبي العلاء في رحلة حياته ص ٦٧ ـ ٧١.
(١١١٧) سقط الزند ص ٢٠٧.

ولا بدّ من الاشارة الى ان شيخ المعرّة نظر في شؤون الناس وأمر المجتمع آنذاك . وقد أقضَّ مضجعه كما أقضَّ مضجع المتنبي من قبلُ الوضعُ السياسيُّ المتدهورُ وغيابُ السلطة عن أصحابها الشرعيين . وقد ربط أحد الباحثين بين آمال المتنبي وآمال المعري في قوله : « والمتنبي كان جباراً تام الرجولة . وأبو العلاء كان كفيف البصر . فأقعدته هذه العلّة عن السير في السبيل الذي طرقه المتنبي لبلوغ أمانيه . وإن كانت المرامي البعيدة والأوطار الكبيرة هي هي عند كليهما . وليس ذلكَ بغريب في عصر كان الناس فيه في حاجةٍ إلى « رجل » . بل الأصح إلى « رجل عربي » صحيح العروبة . يدرأ عن الإسلام الفرسَ والرومَ والديلمَ »(١١١٨) .

لقد كانت لأبي العلاء رغبة صادقة في إصلاح المجتمع وقيام حكم عادل مطهر من الظلم، والعدوان . يتصرف القائمون على شؤون الرعية بعقل راجح . وها هو ذا يتساءل(١١١٩) :

متى يقومُ إمامٌ يستقيدُ لنا فتعرفَ العدلَ أجيالٌ وغيطانُ ؟

ويقول(١١٢٠) :

يرتجي الناسُ أنْ يقومَ إمامٌ ناطقٌ في الكتيبة الخرساء(١١٢١)
كذبَ الظنُّ لا إمامَ سوى الـ ـعقلِ مشيراً في صبحهِ والمساء

ويغضب من أولئك الذين يسوسون الناس بغير عقل(١١٢٢) :

يسوسون الأمورَ بغير عقلٍ فينفذُ أمرهُم ويقال : ساسَهْ
فأفٍّ من الحياةِ وأفٍّ مني ومن زمنٍ رئاسته خساسَهْ

لقد كان أبو العلاء يعتزُّ بالعقل . ويُحكِّمه في كل مشكلةٍ . ويرجع إليه في كل معضلة . ويتمنّى أنْ يعيش الناس سعداء بعيدين عن الأذى(١١٢٣) :

ما أحسنَ الأرضَ لو كانت بغير أذى ونحنُ فيها . لذكرِ اللهِ . سكّانُ

(١١١٨) المتنبي والمعري ، ابراهيم ناجي ، الهلال لسنة ١٩٢٨ ، ص ٩٢٩ .

(١١١٩) اللزوميات ٢ : ٥٠٢ .

(١١٢٠) اللزوميات ١ : ٦٩ .

(١١٢١) الكتيبة الخرساء : التي لا يسمع فيها صوت لكثرة الجلبة

(١١٢٢) اللزوميات ٢ : ٣٥ .

(١١٢٣) اللزوميات ٢ : ٥٠٠ .

إنه أراد لمجتمعه الخير والسعادة . والعدل والأمان . والبعد عن الجهل والضلال . ولذلك كثر شعره في النقد الاجتماعي الذي سبق إليه أبو الطيب المتنبي(١١٢٤) .

وكلمة أخيرة نقولها : إنَّ نظمه صورة واضحة لحياته وتأملاته . رسمها بصدقٍ وأمانةٍ وصراحة . وشعره قبل العُزلة المتمثل بسقط الزند قريب من شعر الشعراء السابقين المجوّدين في الصياغة والتنسيق والصورة الشعرية . ولا عجب حين يقول ابن حجر : « وأشعاره في المدح والغزل والرثاء التي في سقط الزند في نهاية الجودة . وأمّا في لزوم مالا يلزم فمتوسط »(١١٢٥)

أما شعره في عُزلته المتمثل باللزوميات الذي تناول فيه موضوعات عامة شغلت عقول الناس آنذاك فيغلب عليه التصنيع ويفتقر إلى البهجة الفنية . وهو صعبُ الأسلوب . كثيرُ الغريب والشاذ مِن الألفاظ . محشوٌ بالمصطلحات العلمية والاشارة إلى اشخاص أو أحداث تاريخية .. وقد انتقد طريقته عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي . فقال : « وليس يغتفر للشاعر اذا نظم على هذا الفن لأجل ما ألزم نفسه ما لايلزمه شيء من عيوبِ القوافي . لأنه إنما فعل ذلكَ طوعاً واختياراً من غير إلجاء ولا إكراه . ونحن نريد الكلام الحسنَ على أسهل الطرق وأقرب السبل . وليس بنا حاجة إلى المتكلّف المطّرَح . وإن ادعى علينا قائله انَّ مشقةً نالته وتعباً مرَّ به في نظمه »(١١٢٦) . ومن الدارسين المحدثين الذين وجهوا نقداً للزوميات الدكتور شوقي ضيف . اذ يقول : « إن أبا العلاء لم يكن يعني بتجويد شعره وتحبيره في اللزوميات. فهو لا يعطيه المهلة الكافية للصقل والانتخاب والتنقيح . ثم التأليف والتنسيق . فخرج شعره مهلهلاً ضعيف النسج ليس فيه شيء من حَبْكة التعبير ولا جمال التصوير إلا في القليل الأقل . وليس هذا فقط هو كل الأسباب . فهناك سبب آخر ربما كان أهم من السبب السابق . وهو الطريقة التي أخرج بها أبو العلاء لزومياته . أو بعبارة أدق الغاية التي أرادها للزومياته . فقد كان ــ فيما يظهر ــ يريد ان يخرجها في شكل خُطَب وعظٍ وإرشاد : يقول في مقدمتها : « إنها تمجيد لله الذي شَرُفَ عن التمجيد ووضعَ المنَنَ في كل جيد . وبعضها تذكير للناسين وتنبيه للرقدَةِ الغافلين وتحذيرٌ من الدنيا » . فهو يقصد بها إلى الوعظ . وهي لذلك تمتليءُ بما تمتليءُ به أساليب الوعظ من التكرار الممل . ومن أجل ذلكَ كنا نشعر

(١١٢٤) ينظر مع أبي العلاء في سجنه ص ١٥١ .

(١١٢٥) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٢١٨ .

(١١٢٦) سر الفصاحة ص ١٧٢ .

حين قراءتنا اللزوميات بملل وسأم شديد . لأن الشاعر يتنقل بين أفكار يبدئ فيها ويعيد . وقد أخرجها في أسلوب واه . ليس فيه جمال فني ولا طرافة فنية إلاّ قليلاً »(١١٢٧) .

(١١٢٧) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٩٥ .

سبط ابن التعاويذي

٥١٩ ـ ٥٨٤ هـ

عادت للخلافة العباسية هيبتها وعزّتها بعد انتهاء الحكم السلجوقي في العراق سنة ٤٤٧ للهجرة . وظهر خلفاء عظام انتعش الأدبُ في ظلهم وراج سوقه في عهدهم . وبرز شعراء كثيرون أجادوا في النظم . ولعل من أشعرهم أبو الفوارس سعد بن محمد المعروف بحيص بيص . وأبو عبدالله محمد بن بختيار المعروف بالأبلة البغدادي . وأبو الغنائم محمد بن علي المعروف بابن المعلم الواسطي الهرثي . وأبو الفتح محمد ابن عبيدالله بن عبدالله المشهور بسبط ابن التعاويذي .

سيرته :

أبو الفتح . محمد بن عُبيدالله بن عبدالله . عُرف بسبط ابن التعاويذي نسبة إلى جدّه لأمه أبي محمد المباركِ بن المبارك بن علي بن نصر السراج الجوهري الزاهد المعروف بابن التعاويذي(١١٢٨) . والتعاويذ : الحروز . ولعل أباه كان يَرْقي ويكتب التعاويذ .

ولد في بغداد يوم العاشر من رجب سنة ٥١٩ للهجرة . ونشأ في حجر جدّه المذكور وتكفّله بالرعاية والتنشئه على حُبّ العلم والمعرفة . فأرسله إلى الكتّاب . ولما أصبح يافعاً أخذ يتردّدُ على علماء عصره ليتزود بعلوم اللغة العربية وآدابها . حتى استطاع أن يجمع بين الكتابة والشعر .

وصل أسبابه بالخفاء والوزراء والأكابر الأماثل . أمثال الخليفة المستنجد بالله . وابنه الخليفة المستضيء بأمر الله . وحفيده الخليفة الناصر لدين الله ـ ومن الوزراء الذين اتصل بهم ومدحهم . أبو المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة . وعضد الدين أبو الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء .. وله مديح في البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي ووزيره المشهور القاضي الفاضل .

اشتغل سبط ابن التعاويذي كاتباً في ديوان المقاطعات في بغداد والحِلّة . ويبدو ان هذه الوظيفة كانت تُرهقه وتُتعبه إذ نراه يتشكّى منها كما جاء في قوله(١١٢٩) :

(١١٢٨) ينظر : الخريدة ، قسم العراق ، ٢ / ٢ : ٧ ، وفيات الأعيان ٤ : ٤٦٦ .
(١١٢٩) ديوانه ص ٢٢٣ .

كم أنفقُ الأيامَ في خدمةٍ　　أحرزتُ فيها صفةَ المُخسِرِ
وليلُ حظي ما انجلى صبحُهُ　　وغرسُ مدحي بعدُ لم يُثمِرِ
في كلِّ يومٍ سفرٌ راتبٌ　　إلى مــكانٍ شاسـعٍ مُـقـفـرِ
كأنَّـــنــي مـــن حَرِّهِ واضــعٌ　　أخمص رجليَّ على مِجمَرِ

ولما وجد نفسه في ظنكٍ من العيش، وانَّ مهنته لاتسدُّ متطلبات الحياة، اتصل بديوان الخلافة وأصبح أحد شعرائه الرسميين(١١٣٠) له راتب شهري حاله كحال مجموعة من الشعراء آنذاك عرفوا باسم « شعراء الديوان العزيز » أو شعراء « ديوان الخلافة ». كانوا يحضرون في الأعياد والمآتم وأيام الفتوح إلى الديوان المذكور فينشدون قصائدهم بحسب مراتبهم(١١٣١). وبقي راتبه يجري عليه ثم التمس ان ينقل باسم أولاده. ولما وجدهم قد استأثروا به. سأَلَ الخليفةَ الناصر لدين الله ان يُحدِّدَ له مبلغاً آخر يتقاضاه مدّة حياته. وشرح الأسباب في قصيدة له. منها الأبيات الآتية(١١٣٢)

نـقـلـتُ رسـمـي جـهْلاً إلى وُلْـد　　لـستُ بـهـم ما حييتُ أنـتـفـعُ
نظرتُ في نفعهم وما أنا في اجتـ　　ـلابِ نـفـعِ الأولادِ مُـنـتـفـعُ
وقلتُ هذا بعدي يكونُ لكم　　فما أطاعوا أمري ولا سمعوا
واختـلـسوه مـنّـي فما تركوا　　عـيـنـي عـلـيـه ولا يدي تقعُ
فبئس واللهِ ما صنعتُ فأضـ　　ـررتُ بنفسي وبئس ما صنعوا
فإن أردتـم أمرا يزولُ بـه　　الـخـصامُ مـن بـيـنـنا ويرتـفـعُ
فاستأنفوا لي رسماً أعوذُ على　　ضـنـكِ مـعـاشـي بـه فأتّـسـعُ

استجاب الخليفةُ إلى طلبه، وأنعم عليه بالمال الكافي لعيشــه. وفي السنوات الأخيرة من حياته فقد بصره وعمي ولزم داره إلى ان أدركته المَنيّة سنة ٥٨٤ للهجرة.

شعره :

ترك سبط ابن التعاويذي بعد وفاته كتاباً بعنوان « الحُجبة والحُجّاب » لم يصل الينا. وديواناً شعرياً جمعه بنفسه قبل أنْ يضرَّ. وافتتحه بمقدمة لطيفة يستشف منها أسلوبه في الكتابة. ورتّبه على أربعة أبواب. وما نظمه بعد العمى سمَّاه « الزيادات » وطلب من ناسخي الديوان ان يلحقوه به. وقد حقّق هذا

(١١٣٠) ينظر أسماء الكثيرين منهم في : الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ٨٩ ـ ٩١. وينظر : الشعر العراقي في القرن السادس الهجري ص ٨٩.
(١١٣١) سبط ابن التعاويذي (مسكوني) ص ٥٠.
(١١٣٢) ديوانه ص ٢٧٣.

الديوان المستشرق الانكليزي مرجليوث وطبعه عام ١٩٠٣ عن نسختين جمع بينهما . ولم يكن أميناً في عمله . فتصرَّف فيه حذفاً وتقديماً وتأخيراً . وأغفل ذكر اختلاف الروايات . ووقع له شيء غير قليل من التحريف والتصحيف .(١١٣٣)

كان سبط ابن التعاويذي شاعراً مُجيداً في سبك الشعر وحبكه . وقد أقرَّ له القدامى بالفضل والتقدم(١١٣٤) . قال ابن خلكان : كان شاعر وقته . لم يكن فيه مثله . جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها . ورقَّة المعاني ودقَّتها . وهو في غاية الحسن والحلاوة . وفيما أعتقده لم يكن قبله بمئتي سنة مَنْ يُضاهيه . ولا يؤاخذني مَنْ يقف على هذا الفصل . فإن ذلك يختلف بميل الطبائع . ولله القائل .

وللناس فيما يعتقدونَ مذاهب(١١٣٥)

وهذا الحكم ـ وإن كان فيه شيء من المبالغة ـ جيدٌ . فإنَّ سبط ابن التعاويذي شاعر متمكن من ناصية القريض . وشعره رصين الأسلوب . متين الديباجة . واضح المعنى . غير مفرط في الصنعة . قال محقق ديوانه : « والمرجو من القاريء الكريم ألَّا يمعن النظر في الزلات . بل يلتفت إلى ما في الشعر من السحر . وكم في هذا الديوان من مدحة رافعة للقدر . وأرجوزة شارحة للصدر . ومن أهجية جارحة للأعراض . وشكاية مصيبة للأغراض . ومرثية مبكية للعيون . وقطعة مختلفة الفنون . فإنَّ القصائد كأنها مرايا تظهرُ فيها أسرار القلوب وخفايا الخطوب . وتكاد تعيدُ الأموات وتجعلهم ذوي حياة وتُظهر مَنْ غبر وسلف نُصبَ عين مَنْ خلف حتى يشترك فيما كان يداخلهم من المقة والمقت عند قديم الوقت . ويشاهدهم في السَّراء والضَّراء عند اختلاف الشؤون ويسمع حديثهم ذا الشجون »(١١٣٦) .

طرق سبط ابن التعاويذي أغلب موضوعات الشعر المعروفة من مديح وهجاء ورثاء وغزل وشكوى ووصف واخوانيات .. وقد أخذ المديح القسط الأوفر من شعره . صبَّ فيه جلَّ اهتمامه فجاء رصيناً متيناً في الفاظه ومعانيه . وأول خليفة مدحه كان المستنجد بالله . إذ نراه يُضفي عليه هالة من العظمة والجلالة . ويبالغ في كرمه وسخائه . فيقول(١١٣٧) :

(١١٣٣) تنظر : خريدة العراق ٢ / ٧٠٢ .

(١١٣٤) مضمار الحقائق ص ٦ ، معجم الأدباء ٧ : ٢٠ ، تاريخ دول الإسلام ٤ : ١٢٥ ، شذرات الذهب ٤ : ٢٨١ .

(١١٣٥) وفيات الأعيان ٤ : ٤٦٦ .

(١١٣٦) مقدمة الديوان ص ٤ .

(١١٣٧) ديوانه ص ١٧٨ .

كريمُ المغارس من هاشمٍ   يُجيرُ العبديَ ويُقيلُ العثارا
جوادٌ إذا لم يكن يبتديكَ   قبلَ السؤال رأى الجود عارا
أماتَ السؤالَ وأحيا النوالَ   وراضَ الجماحَ وخاضَ الغمارا
هنيءُ الموارد جمُّ الحياضِ   يدنو قطوفاً ويحلو ثمارا

وبعد وفاة الخليفة المستنجد بالله (ت ٥٦٦ هـ) تقرّب من ابنه الخليفة المستضيء بأمر الله ووثّق علاقته به . وقدّم بين يديه مجموعة من القصائد أشاد فيها بشجاعته وشهامته وقدرته على ضبط الأمور . وما يسّر الله في زمانه من فتوح . وعودة مصر إلى حضن الخلافة العباسية . وقد تمنّى في إحدى القصائد ان تصل جيوشه إلى أقصى الشرق(١١٣٨) :

أُقسم النصرُ لا يفارقُ جيشاً   لـهـمُ فـيـه رايةٌ سوداءُ
ويمينا لتملكنّ وشيكـاً   ما أظلّتْهُ تحتها الخضراءُ
وليوفي على أقاصي خراسا   ن غدا منك غارةٌ شعواء
بجيوش تصمُّ مسمع أهل الـ   صين منها كتيبةٌ خرساءُ

وجاء بعد المستضيء بالله (ت ٥٧٥ هـ) ابنه الناصر لدين الله . وهو أعظم خلفاء الدولة العباسية في أواخر عصورها . أعاد للخلافة مكانتها وسلطتها وجدد شباب الأمة بتجديد الفتوة(١١٣٩) . وقد خصّه سبط ابن التعاويذي بأكبر عدد من غرر مدائحه وقد صرّح بذلك فقال(١١٤٠) :

أصوغُ لهُ حلْيَ المديح ولم تكنْ   لتُحسن إلاّ في عُلاهُ جواهرُهْ

ويكثر في مديحه له من بيان حُسن منطقه . وصواب رأيه . وجودة تفكيره إلى جانب صلابة عزيمته . وقوّة إرادته . وتمكُّنه الكبير في تنظيم الجيش وتعبئته وتسييره لمقاتلة الخصوم وضرب المعاقل وفتحها مثل قوله من قصيدة طويلة(١١٤١) :

(١١٣٨) ديوانه ص ٤ .

(١١٣٩) ينظر بحث الدكتور مصطفى جواد (الناصر لدين الله) في كتاب « في التراث العربي » ١ : ١٥ .

(١١٤٠) ديوانه ص ١٧٢ .

(١١٤١) ديوانه ص ١٦٤ .

هاشـــــميّ مؤيّدُ الرأي والـــنُبـــط ـقِ جـمـيـعاً والـعزم والـتـفـكـير
مُوردُ الـبـيـضِ والأسـنـةِ في الـ ـرّوْعِ ظِماءً ماءَ الطُّلى والنحُورِ
طاعِـنُ الـفارس المدجَّـج بالـ ـرأي ومُردي الـكـمـيّ بالـتدبـير
ورأينا ما كان من جدِّهِ المنـ ـصورِ يُروى عن جدِّهِ المنصورِ
مِـن فـتوح المعاقـلِ المشمخـ ـراتِ ببيضِ الظُّبى وسدِّ الثغورِ
واقــتـــناصِ الأعداءِ بالأعوجـيــا تِ المذاكـــي والمرهـــفاتِ الذُّكورِ

وكانت معاركُ النضال ضد الفرنج في عهد هذا الخليفة على أشدّها في ديار الشام بقيادة المجاهد صلاح الدين الأيوبي . وكان لسبط ابن التعاويذي موقف مشرف في مؤازرة هذا البطل بقصائد حماسية يدعوه فيها إلى استئصال شأفة الأعداء المارقين وطردهم من بقاع المسلمين العزيزة ولاسيما القدس الشريف . وقد تحقَّق في حياته فتح هذه المدينة وعودتها إلى أصحابها الشرعيين سنة ٥٨٣ للهجرة . واليكَ الأبيات الآتية من قصيدة له :(١١٤٢) :

غادرتَ أهلَ البغي بين مجدَّلٍ لـقـيَ الـحـمامَ وخائـفٍ يـترقَّبُ
أو هاربٍ ضاقتْ عليه برحبها الـ أرضُ الفضاءُ وأين منكَ المهربُ ؟
فأصبحْ بلادَ الرُّومِ منكَ بغارةٍ لـلـنـصرِ فـيـهـا رائدٌ لا يـكـذِبُ
واحسِمْ بحدِّ ظُباكَ داءً حسمُهُ ودواؤهُ بـعدَ الـتـفاقـمِ يـصـعـبُ
حتى يُرى للمشرفيةِ مطعمٌ بالفتكِ من تلكَ الدّماءِ ومشربُ
لاتـعـفونَّ إذا ظـفـرتَ بـمـجـرمٍ مـنـهـم فربَّ جريـمـةٍ لاتوهـبُ
فـلـتـشـكُرنَّـكَ أمةٌ تـحـنـو على ضعفائها حدباً كما يحنو الأبُ

وكان عماد الدين الكاتب صديقاً وصاحباً مخلصاً لسبط ابن التعاويذي . تعرف عليه حينما كان يعمل في العراق . ولما انتقل إلى الشام واشتغل في دولة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ثم في دولة صلاح الدين الأيوبي لم ينس هذه الصداقة والصحبة . وبقي يراسله . وقيَّد له ترجمة في كتابه النفيس « خريدة القصر وجريدة العصر » . وعن طريقة عُرف شعره عند صلاح الدين والقاضي الفاضل . فمن مديحه للقاضي الفاضل والتنويه بقلمه الرفيع في تدبيج الكتابة قوله(١١٤٣) :

(١١٤٢) ديوانه ص ٢٥
(١١٤٣) ديوانه ص ١٩٣ .

وكاتبٍ ما فتئتْ كُتبُهُ ... طلائعاً للفتح والنَّصرِ
تنوبُ يوم الرَّوعِ أقلامُهُ ... عن قُضُبِ الهندية البُترِ
رسائلٌ كالسُّحبِ شِمْ برقها الـ ... ـسَّاري وبتْ منها على ذُعرِ
سوارباً في الحزنِ والسَّهلِ أو ... شوارداً في البرِ والبحرِ
يسيرُ في الآفاقِ أنباؤها ... كأنَّها الليلُ اذا يسري

إن ممدوحي سبط ابن التعاويذي كثيرون ، قدم بين أيديهم ، أو بعث إليهم ، أجود شعره ، ولا يتسع المجال هنا لذكرهم جميعاً(١١٤٤) .

ولم يسلم لسان سبط ابن التعاويذي من الهجاء ، مع إنه نشأ في بيت يسوده الزهد والعبادة والتقوى ، فإنَّه كان يكره الشعراء المتخاذلين الذين يبيعون ماء وجههم رخيصاً في أبواب الممدوحين ، ويتهجم عليهم لسكوتهم على المفاسد والمقابح كما جاء في قصيدته التي يقول في أولها :(١١٤٥) :

ياقالة الشِّعر اما ... فيكم فتىً ذو مخمية
يأنف ان يغشى مقا ... مات السؤال المخزية
الى متى جفونكم ... على قذاها مغضية
وكم تموتون بأد ... واء الهموم المدوية

من الشعراء الذين هجاهم ، الابله البغدادي ، وابن المعلم الهرثي ومن الوزراء شرف الدين ابو جعفر محمد بن ابي الفتح المعروف بابن البلدي ، وهجاؤه احيانا يكون لاذعا وساخرا كما نرى في هجاء رجل يدعى ابن الزريش ويشبهه باليهود في خبثهم ولؤمهم وغدرهم :(١١٤٦)

وأنت مثل اليهود خبثاً ... خلقت من ريبة وفحش
مجتمع فيك كلُّ شؤمٍ ... وكلُّ لؤمٍ وكلُّ غشِّ
غيرُ لبيبٍ ولا أريبٍ ... ولا مليح الكلام هشِّ
مافيه خيرٌ ولا حياءٌ ... فلا يُغذي ولا يُعشي

(١١٤٤) ينظر ، سبط ابن التعاويذي (مسكوني) ص ٤٩ ـ ٥٠ ، وسبط ابن التعاويذي (الآلوسي) ص ١٤٣ ـ ١٤٦ .

(١١٤٥) ديوانه ص ٤٦١

(١١٤٦) ديوانه ص ٢٤٩

ولسبط ابن التعاويذي قصائد ومقطوعات في الرثاء تنم على حزنٍ عميقٍ ولا سيما المراثي التي قالها في اهله وذويه واقاربه . فمن مراثيه الجيدة قصيدته في رثاء جده لامه الشيخ الزاهد ابي محمد المبارك بن المبارك . وقد افتتحها بمطلع فيه شيء من الحكمة (١١٤٧) :

لكلِّ ماطالَ بِهِ الدَّهرُ أمدْ ‎ ‎ ‎ ‎ لا والداً يُبقي الرَّدى ولا وَلَدْ

ومنها :

ان كنتَ في ثوبِ العُلى فانني ‎ ‎ ‎ ‎ بعدكَ في ثوبِ نحولٍ وكَمَدْ
أوحدتني وفي الرجالِ كثرةٌ ‎ ‎ ‎ ‎ ياقـلّـةَ الـجارِ وقـلّـةَ الـعِددْ
مالكَ لاترحمُ ذلَّ موقفي ‎ ‎ ‎ ‎ وكنتَ احنى والدٍ على ولَدْ

ومن مراثيه التي تفيض بالحسره والاسى قصيدته في رثاء ابن ابنه . وكان يحبه ويأنس بمداعبته . منها قوله (١١٤٨) :

كأنَّهُ الوردُ اتى زائراً ‎ ‎ ‎ ‎ ثم انقضتْ أيامُهُ عن كَثَبْ
أشرق كالنجمِ مُضيئاً فما ‎ ‎ ‎ ‎ ملأتْ عيني منه حتى غربْ
كما تجلّى البدرُ من دونهِ ‎ ‎ ‎ ‎ سحابةٌ غرّاءُ ثمَّ احتجب
ويلي عليه ما بلغتُ المنى ‎ ‎ ‎ ‎ منه ولا قضيتُ منه أربْ
أبا علي كنتَ لي مؤنساً ‎ ‎ ‎ ‎ فخالسَتْني فيكَ أيدي الريبْ

وتغنّى سبط ابن التعاويذي بشعر رقيق للحب . اظهر لواعجه واشواقه لمن أحبَّ من الجميلات في اشكالهن وحركاتهنَّ . وقد جعل هذا الشعر مستقلاً قائماً بذاته . او في مقدمات القصائد . مثل قوله من ارجوزة تجاوزت ثمانين بيتاً (١١٤٩) :

مُشـبـعةِ الـخـلـخالِ والـسّوارِ ‎ ‎ ‎ ‎ كأنّـهـا بدرُ الـسـمـاءِ الـسّاري
جـلـتْ عـن الـمحاقِ والـسّرارِ ‎ ‎ ‎ ‎ تـشرقُ مـن مـطالـعِ الأزرارِ
عـلـقـتـها في حانةِ الـخَـمّارِ ‎ ‎ ‎ ‎ خلعتُ في الحبِّ بها عِذاري
مالأخـي الـصَّـبوةِ والوقارِ ‎ ‎ ‎ ‎ ولـم أزلْ مـنـهـتـكَ الأسـتارِ

(١١٤٧) ديوانه ص ١٢٥
(١١٤٨) ديوانه ص ٤٨
(١١٤٩) ديوانه ص ٢٢٦

وفي شعره شكوى ممزوجة بالألم . ولا سيما بعد ان تجاوز الخمسين من العمر وفقد نور عينيه ولازم داره . مثل قوله يصف حالته التي آل اليها . ويتحسّرُ على ايام شبابه التي قضاها في لهو ومرح وانشراح (١١٥٠) :

يالـكَ مـن لـيـلٍ حـجا — بِ جُـنْـحـةٍ مـعـتـكرْ
ظلامـةُ لا ينجلـي — وصبحـهُ لا يسفرْ
مـا فـي حـياةٍ مـعه — لـذي حـصاةٍ وَطـرْ
غادرنـي كـأنَّنـي — في كِسْرِ بيتٍ حَجَرْ
لا أهتـدي لحـاجتـي — وفـي الليـالـي عِبـرْ
أيـنَ الشـبابُ والمـراحُ — والـهـوى والأشـرْ ؟
أخـنـتْ عـلـى أيامهـا — أيـامُ دهـرٍ غـدرْ
لـم يبقَ لـي الاّ الأسـى — مـنهـنَّ والتـذكُّـرْ

وكثر عنده العتاب ممتزجا بالشكوى . ولعل أثر العمى كان شديداً على مزاجه وسلوكه . اذ أنَّ « كف البصر في حد ذاته يخلق مشكله لصاحبه ترمي به في حومة من ركام العُقدالنفسية والحسية لا يستطيع ان يتغلّب عليها الاّ كل مؤمن شجاع . وهي عند الذين ولدوا مكفوفين اشد منها عند هؤلاء الذين ضروا وهم كبار . فهؤلاء الاخيرون تكون للحياة في اذهانهم وعقولهم صورٌ باقية يتحسسونها ويلتمسون منها الوحي الصادق الدقيق في اكثر الاحيان . وقد عرف التاريخ عدداً من الشعراء العظماء المكفوفين »(١١٥١) . وكان سبط ابن التعاويذي من الشعراءالذين حرموا البصر في اخريات اعمارهم وظهر اثره في شعرهم .فهاهو ذا يُعاتب بشعر يسيل رقةً وعذوبةً صديقَهُ ابا الفتوح ابن علي القارىء على التأخر عن الزيارة التي اعتاد ان يؤديها بين حين وآخر (١١٥٢) :

قد فاتني منك حظُّ عيني — فلا تدعني في حظ سمعي
كنتُ اذا ملَّني حبيبٌ — أنجدني بالبكاء دمعي
مَنْ لي بهطالةٍ هتونٍ — أبكي بها طاقتي ووسعي
على أناسٍ بانوا وكانوا — ذخري ليومَيْ ضرّي ونفعي

(١١٥٠) ديوانه ص ٤٨٢
(١١٥١) الشعر والشعراء للدكتور مصطفى الشكعة ص ١٠٣ .
(١١٥٢) ديوانه ص ٢٧١ .

فليت شعري بأيّ حكمٍ ... ياابن علي وأيّ شرع
سوّغتَ بعد الوصالِ هجري ... عمداً وبعدَ العطاء منعي
فارعَ عهودَ الإخاءِ واكرمْ ... أخاكَ عن جفوة وقطع
واشفِ بلقياك مابقلبي ... للشوقِ من حرقةٍ ولذع
فما أراهُ يزورُ قبري ... منْ لم يزرْ في الحياةِ ربعي

وظهرت في شعره مسحة من الحزن واليأس. بعد أن دبَّ الهزال في بدنه. وسرى الضعف في أعضائه. وأخذت الأعوام تنقص من سعيه ونشاطه. وبدا ذلك جلياً في الشعر الذي نظمه في الزهد والوعظ والارشاد الذي وجهه للناس لعلهم يتخذون العبرة والعظة قبل فوات الأوان واقتراب ساعة الرحيل من دنيا الفناء. مثل قوله (١١٥٣):

سلْ عن الماضين إنْ نطقتْ ... عنهمُ الأجداثُ والبركُ
أيّ دار للبلى نزلوا ... أو سبيل للرَدى سلكوا
ملكوا الدُنيا فما دفع ال ... موت ماحازوا وما ملكوا
فتكتْ منهم نوائبها ... برجال طالما فتكوا
ضحكوا حينا فعاد أسى ... وبكاء ذلك الضحكُ
وبرتْها للزمان يدٌ ... ماعليها في دم دركُ
ياأخا الخمسين باهرها ... وهو في دنياهُ منهمكُ
بات مغرورا تُمدُّ له ... من حبالات الرَدى شبكُ
لاهيا والعمرُ منتهبٌ ... بيد الأيام منهتكُ
قفْ قليلا قد بلغت مدى ... للمنايا فيه مُعتركُ

ان شعره – كما لاحظنا – قريب المأخذ. في بناء سليم مترابط. ولغة فصيحة. وموسيقى مستساغة. وقد أدرك العمفدي ذلك فقال: « كان شاعرا منطبقا. سهل الألفاظ. عذب الكلام. منسجم التراكيب. ولم يكن غواصا على المعاني »(١١٥٤).

(١١٥٣) ديوانه ص ٢٦٠.

(١١٥٤) نكت الهميان ص ٢٥٩.

عمر بن الفارض
٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ

اندفع الفرنج نحو الشرق طمعاً في خيراته ووافر ثرواته بموجات متتابعة وفترات متقاربة منذ قرنين من الزمان ابتداءً من سنة ٤٩٢ للهجرة واحتلوا اجزاء عزيزة من الوطن الغالي . ولا سيما القدس الشريف . وفرّ الناجون الى الله من الحرب الضروس التي وقعت آنذاك . وتضرّعوا اليه انْ يدفع عنهم الكروب الشديدة . ويحسر اسجاف البلايا الصفيقة . وتوزّع الشعراء الى فريقين . ذهب فريق الى الاعراب عن دخائلَ النفوس وكوامن الافئدة والى الافصاح عن ضراوة الاحداث وجسامة الاهوال والكوارث بقصائد عامرة . منها قصيدة الامام الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) التي مطلعها (١١٥٥):

الشدّةُ أودتْ بالمهج   ياربُ فعجلْ بالفَرَج

وقصيدة يوسف بن محمد التوزريّ المعروف بابن النحوي (ت ٥١٣ هـ) المشهورة بالمنفرجة ومطلعها (١١٥٦):

اشتدّي أزمةُ تنفرجي   قد آذنَ ليلُكِ بالبلج

وذهب فريق اخر الى التضرُّع بالرسول الكريم . صلى الله عليه وسلم . والتوسل لديه . والتعلق باعتابه ان يزيل عنهم الاحزان الجاثمة . ويردَ الامن والدعة الى نفوسهم الهائمة . ويلج بهم ابواب الرحمة الواسعة الى ساحات الرضا السرمدي .

وقد كانت الحالة الاقتصادية السيئة في الطبقات الدنيا من المجتمع والويلات التي رافقت الحروب الصليبية التي وقعت على ارض الشام ومصر ثم الهجمات التترية التي اجتاحت العراق دافعاً كبيراً لالتجاء الكثيرين الى الله والملاذ به والانضواء تحت رحمته . وذهب بعضهم الى اعتزال الحياة بما فيها من لذّة ونعيم والتزهُّد فيما انعم الله به على عبادة .

وقويت الحركة الصوفية والدعوة اليها . وظهر فيها رجال كبار امثال الشيخ عبدالقادر الجيلي (ت ٥٦١ هـ) وابي الفتوح يحيى بن حبش السُهروردي (ت ٥٨٦ هـ) وشهاب الدين ابي حفص عمر بن محمد السهروردي (ت ٦٣٨ هـ) وابي الحسن

(١١٥٥) الدرر الغوالي من اشعار الامام الغزالي ص ٩ .

(١١٥٦) مفتاح السعادة ٢ ، ١٤٤

علي بن عبدالله الشاذلي (ت ٦٥٦ هـ) وجلال الدين محمد بن الحسين الرومي (ت ٦٧٢ هـ) ... وكان ابو حفص عمر بن الفارض واحداً من هؤلاء المشهورين .

سيرته :

هو الشاعر الصوفي الشهير عمر بن علي بن مرشد . الحموي الاصل . المصري المولد والنشأة والوفاة . المشهور بابن الفارض . يكنّى ابا القاسم وأبا حفص . ويلقب شرف الدين .وسلطان العاشقين . وسلطان المحبين .

ولد في القاهرة في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦ للهجرة(١١٥٧) . في بيت دين وورع وخلق وعلم . كان ابوه عالماً درس على ابن عساكر وغيره . وقدم من حماة الى القاهرة . واقام بها . وصار يثبت الفروض للنساء على الرجال بين ايدي الحكام . ومن هنا كانت تسمية الفارض. ثم ولي نيابة الحكم للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي . وعرض عليه منصب قاضي القضاة فامتنع . واستقال عن نيابة الحكم . وآثر العزلة والانقطاع الى العبادة في الجامع الازهر .

درس ابن الفارض علوم اللغة العربية والشريعة على ابيه وعلى العلماء الذين كانوا يعقدون حلقات الدرس في الجامع الازهر . وكانت تغمر عصره موجة من التصوف . فتأثر بها وتزهّد وسلك مسلك الصوفية في التقشُّف ومجاهدة النفس والخلوة للتهجد والتعبد .

زار الحجاز واتصل بمنابع الوحي والالهام . وجاور مكة زهاء خمسة عشر عاماً . تجرَّد فيها للذكر والتضرع والابتهال . ثم عاد الى القاهرة . واقام بقاعة الخطابة في الجامع الازهر . وهي القاعة التي اقام فيها ابوه من قبل . وكان الجميع يقدرونه ويجلّونه حتى صاحب مصر الملك الكامل محمد بن ابي بكر العادل . اذ كان ينزل لزيارته والاستئناس بمجالسته والاستماع الى شعره . وساعده على الظفر بمحبة الناس مامنحه الله من جمال الخِلْقَة والخُلُق وما سار على السنة الناس من شعره .

وعاد مرة ثانية الى الحجاز ولكنه لم يمكث فيها كثيراً . فانه ادى مناسك الحج واجتمع بالشيخ ابي حفص عمر بن محمد السُّهروردي من اقطاب التصوف بالعراق في زمانه . ثم عاد الى القاهرة وجلس في مكانة بالجامع الازهر مكرماً مُعزَّزاً من

(١١٥٧) وفيات الاعيان ، ٣ : ٤٥٤ ، النجوم الزاهدة ٦ : ٢٨٨ ، حسن المحاضرة ١ : ٥١٨

الناس عامة . وكان يقصده الفقهاء والصوفيون واكابر الدولة . وبقي على هذه الحالة الى ان توفي بالجامع الازهر بقاعة الخطابة في اليوم الثاني من جمادى الاولى سنة ٦٣٢ للهجرة ودفن بالقرافة بسفح جبل المقطم(١١٥٨)

شعره :

حظي ديوان ابن الفارض باهتمام النساخ والشراح والمفسرين والدارسين لما له من مكانة مرموقة في مجال الشعر الصوفي . ولعل من اشهر شراح هذا الديوان الشيخ حسن البوريني المتوفى سنة ١٠٢٤ للهجرة . وقد تناول في شرحه ظاهر الالفاظ وما يؤخذ منها من المعاني . والشيخ عبدالغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣ للهجرة الذي شرح الديوان على ضوء المصطلحات الصوفية .

يحوي الديوان الى جانب القصائد والمقطوعات المنظومة على الاوزان العربية المعروفة واحداً وثلاثين دوبيتاً . ومواليا واحدة .

برع ابن الفارض في نظم الشعر براعة كبيرة وفائقة . جعلت الناس يطلبونه ويتهافتون عليه . ومصدر هذه البراعة والجودة شاعريته وخفة طبعه وحسن صياغته واغلب هذا الشعر في الحب الالهي . استخدم فيه لغة العشق والغرام والهيام : " وهي لغة استمدها من اساليب الشعر العذري الذي عني بتصوير العفة في الحب . ومعنى ذلك ان ابن الفارض عبر عن حبه الالهي بلغة الحب الانساني جارياً في ذلك على طريقة الصوفية في الاشارة الى مواجيدهم والتلويح لاذواقهم ومعانيهم من خلال اساليب مستعارة من الشعر الغرامي "(١١٥٩) . وتكشف هذه النزعة الغنائية الابيات الاتية التي اخذت حظاً كبيراً من الرقة والأسر(١١٦٠) :

قلبي يحدثني بانك متلفي روحي فداك عرفت ام لم تعرف
لم أقض حق هواك ان كنت الذي لم أقض فيه أسى ومثلي من يفي(١١٦١)
مالي سوى روحي وباذل نفسه في حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتني ياخيبة المسعي اذا لم تسعف :
يامانعي طيب المنام ومانحي ثوب السقام به ووجدي المتلف

(١١٥٨) ينظر : الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ص ٣٠٠ . تحفة الاحباب وبغية الطلاب ص ٢٨٢ .

(١١٥٩) شعر عمر بن الفارض ، دراسة في فن الشعر الصوفي، ص ١١٢

(١١٦٠) ديوانه ص ١٥١

(١١٦١) القضي الاولى : الهي ، الثانية : اموت

عطفاً على رمقي . وما أبقيتَ لي   من جسمي المُضنى وقلبي المدنفِ
فالوجدُ باقٍ والوصالُ مماطلي   والصبرُ فانٍ واللقاءُ مسوّفي
واسألْ نجومَ الليل : هل زارَ الكرى   جفني وكيف يزور مَنْ لم يَعرفِ ؟
لاغرْوَ إنْ شَحُتْ بغمضِ جفونها   عيني وسَحُتْ بالدموع الذُرَّفِ
ياأهلَ ودّي انتم املي ومَنْ   ناداكمْ ياأهل ودّي قد كُفي
عودوا لما كنتم عليه مِن الوفا   كَرماً فانّي ذلك الخِلُ الوفي
لاتحسبوني في الهوى مُتصنّعاً   كلفي بكم خُلُقٌ بغيرِ تكلُّفِ

والقصيدة طويلة يسير فيها على هذا النهج في اظهار اللوعة والمعاناة والشوق الى الحبيب بلغة رقيقة تنساب الى القلوب بيسر وسهولة استمدها من وحي الحب العذري .

وتحولت الخمرة في الشعر الصوفي كما تحول الغزل العذري الى رمز عرفاني على ماكان الصوفية ينازلون من وجد باطن . والخمرة في شعر ابن الفارض « رمز على المحبة الالهية بوصفها ازلية قديمة منزهة عن العلل مجردة عن حدود الزمان والمكان . وهذه المحبّة في الاسرار العرفانية هي التي بواسطتها ظهرت الاشياء ,وتجلّت الحقائق وأشرقت الاكوان . وهي الخمرة الازلية التي شربتها الارواح المجردة فانتشتْ واخذها السكرُ واستخفها الطرب قبل انْ يخلق العالم »(١١٦٢) على حد قوله في ميميته(١١٦٣) :

شربنا على ذكرِ الحبيبِ مدامةً   سكرنا بها من قبلِ انْ يُخلقَ الكرمُ
لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يديرها   هلالٌ وكم يبدو اذا مزجتْ نجمُ(١١٦٤)
ولولا شذاها مااهتديتُ لحانها   ولولا سناها ماتصوَّرَها الوهمُ(١١٦٥)
ولم يُبقِ منها الدهرُ غير حشاشةٍ   كأنَّ خفاها في صدور النُّهى كتمُ(١١٦٦)
فانْ ذكرتْ في الحيِّ اصبحَ اهله   نشاوى ولا عارٌ عليهم ولا إثمُ

(١١٦٢) الرمز الشعري عند الصوفية ص ٣٦٦ .

(١١٦٣) ديوانه ص ١٤٠

(١١٦٤) لها البدر كأس ، يريد ان اناءها مستدير كالبدر ، وهي شمس ، اي صافية كالشمس . هلال : اي غلام كالهلال في رشاقته . كم يبدو اذا مزجت نجم : اي يبدو من الفقاقيع التي تشبه النجوم .

(١١٦٥) شذاها : طيب رائحتها . سناها : نورها . ماتصورها الوهم : ماخطرت على بال .

(١١٦٦) حشاشة : بقية روح . خفاها : مسهل خفائها . في صدور النهى ، اي في صدور اهل العقول .

ومن بين أحشاءِ الدِّنانِ تصاعدتْ ولم يبقَ منها في الحقيقة الا اسمُ
وأن خطرتْ يوماً على خاطرِ امريءٍ اقامتْ به الافراح .وارتحل الهمُّ

لقد عبَّرَ عن حبه وولهه وهيامه بصور شتى من التعبيرات التي استعارها من شعراء الحب العذري وشعراء الخمرة المشهورين . وقد لقب بسلطان العاشقين لقوله (١١٦٧):

يُحشرُ العاشقونَ تحت لوائي وجميعُ المِلاحِ تحتَ لواكا

وقوله :(١١٦٨)

نسختُ بحبِّي آيةَ العِشقِ من قبلي فأهل الهوى جُندي وحكمي على الكلّْ
وكلُّ فتىً يهوى فانِي امامه وانِي بريٌّ من فتىً سامعِ العَذْلِ
ولِي في الهوى عِلمٌ تَجلُّ صِفاتُهُ ومن لم يُفقِّهه الهوى فهو في جهلِ

ان حب ابن الفارض « يتخطَّى دائرة الحس . فهو حب صافٍ من قيود المادة . قد خلص نفسه من كل شوائبها واقبل على حبيبه الذي يحلبة الجمال المطلق . في اسمى صوره المعنوية . ومن اخص خصائص هذا الحبيب كل ما في الكون من ايات الحق والخير والجمال »(١١٦٩) . والرسول محمد . صلى الله عليه وسلّم . اية من ايات الحق والخير والجمال. يتصف بكل كمال. ويفوق العالمين بحسن خُلقه وخِلقته. ولذلك تشوَّق اليه ابن الفارض وحنَّ اليه وخاطبه بلغة الهائمين المولهين بمعشوقاتهم . مثل قوله :(١١٧٠)

الا في سبيل الحبِّ حالي وما عسى بكم ان الاقي لو دريتم احبتي(١١٧١)
أخذتم فؤادي . وهو بعضي فما الذي يضرُّكم أنْ تتبعوه بجملتي ؟
وجدت بكم وجداً . قُوى كُلِّ عاشقٍ لو احتملتْ من عبئِه البعضَ كلَّتِ(١١٧٢)
برى اعظمي من أعظم الشوقِ ضعفَ ما بجفني لنومي او بضعفي لقوَّتي(١١٧٣)

(١١٦٧) ديوانه ص ١٥٩
(١١٦٨) ديوانه ص ١٧٤ .
(١١٦٩) الادب في العصر الايوبي ص ٢٤٠ .
(١١٧٠) ديوانه ص ٣٦
(١١٧١) يقول : لو دريتم بحالي وما عسى ان الاقيه من الشقاء في حبكم لرحمتموني
(١١٧٢) يقول : ان وجده ، اي حبه الشديد ، تكل : اي تضعف . قوى كل عاشق عن تحمل ثقل بعضه .
(١١٧٣) يقول : ان اعظمه انحلها شوق عظيم هو ضعف مافي جفنه من الشوق الى النوم وما في ضعفه من الاشتياق الى القوة .

وقد اتهم ابن الفارض بمشايعة مبدأ الحلول والاتحاد . او وحدة الوجود . وكلاهما شيئان متقاربان . واحتدم الجدل والنقاش بين المؤيدين له والمتعصبين عليه(١١٧٤) . فمن اقواله التي انكروها عليه .

واذا سألتُكَ أنْ أراكَ حقيقةً فاسمحْ . ولا تجعلْ جوابي : لن ترى

دافع البوريني عنه في هذا البيت قال : « ان في هذا البيت تلميحاً الى قصة موسى حيث طلب من ربه الرؤية . فأجيب : بلن تراني . وان مراد الشاعر الرؤية في الاخرة بدليل قوله : واذا . فان اذا تدل على الزمان المستقبل »(١١٧٥) . ومن اكثر قصائده التي دار حولها الجدلُ التائية الكبرى التي تُعرف بـ (نظمِ السُلوك) وهي في واحد وستين وسبع مئة بيت . قال احد الباحثين : « وقد تصفحتُ ديوان عمر بن الفارض وانعمت النظر في تائيته الكبرى على وجه الخصوص فلم اجد بيتاً يعطي معنى الحلول او الاتحاد أو وحدة الوجود صراحة »(١١٧٦) .

ومما يثير الانتباه ان يجد القارئ في ديوانه تسعة عشر لغزاً شعرياً الى جانب شعره الصوفي . ويبدو انه لم ينسَ نصيبه من التسلية البريئة والرياضة الذهنية مع جلسائه احياناً في نظم الالغاز والاحاجي . وهي – في الغالب – تعتمد على التصحيف والتحريف والتقديم والتأخير والحذف والقلب في حروف الكلمات . مثل قوله مُلغزاً في صقر :(١١٧٧)

ماأسمُ طيرٍ اذا نطقتَ بحرفٍ منه . مبداهْ كانَ ماضيَ فِعْلَهْ(١١٧٨)
واذا ماقلبته . فهو فِعْلي . طرباً . ان اخذتَ لُغْزي بحلَّهْ(١١٧٩)

وقوله ملغزاً في ليف :(١١٨٠)

ما اسمُ شيء من النباتِ . اذ ما قلبوهْ وجدتَهْ حيوانا(١١٨١)
واذا ماصحَّفت ثلثيهِ . حاشا بَدأهْ . كنتَ واصفاً انساناً(١١٨٢)

(١١٧٤) ينظر بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢ : ١١٨ .

(١١٧٥) ديوانه ص ٥٨

(١١٧٦) الادب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ١٠٥

(١١٧٧) ديوانه ص ٢٠٢

(١١٧٨) اراد ان اول حرف من صقر هو الصاد ، وصاد فعل ماضٍ من الصيد

(١١٧٩) اي اذا قلبت صقر حصل منه رقص ، وهو مايفعله حين الطرب

(١١٨٠) ديوانه ص ٢٠٣

(١١٨١) اي اذا قلبت ليف حصل منه فيل .

(١١٨٢) اي جعلت ثلثيه وهما الياء والفاء باء وقافا صار لبقا ، وهو وصف للانسان معناه حاذق

ان شعر ابن الفارض ـ وان لم يخل من الصنعة ـ محبَبٌ مستساغ في الاسماع ، فيه نزوع الى التنميق والزينة وشغف بالصور البيانية والمحسنات البديعية . ولا ننكر انه يوفق كثيراً بفضل هذه الصور والمحسنات الى سكب شعره في صيغة رشيقة جذابة . مثل قوله في الابيات الاتية(١١٨٣) :

أدِرْ ذكرى مَنْ أهوى ولو بملامِ ... فانَّ احاديث الحبيب مُدامي
ليشهدَ سمعي مَنْ أحبُ وان نأى ... بطيف ملامٍ لا بطيفِ منام
بروحي من اتلفتُ روحي بحبها ... فحان حِمامي قبل يومِ حِمامي
أصلّي فأشدو حين اتلو بذكرها ... وأطربُ في المحرابِ وهي امامي
اروح بقلبٍ بالصَّبابةِ هائمٌ ... وأغدو بطرفٍ بالكآبة هام

وهناك وسائل أخرى يعمد اليها في سبيل ابداع شعره واخراجه بصورة مثيرة ومؤثرة منها « حسن انتخاب الكلام الرقيق المنسجم ، والجمع بين الألفاظ التي ينسرح معها النطق . اذ تتآلف فيها أصوات مخارج الحروف ، ومنها اختيار الأوزان التي تتلاءم مع العواطف والمعاني ، فتنساب الى النفس انسياباً(١١٨٤) » مثل قوله(١١٨٥) :

ياأهلَ ودي هل لراجي وصلكمْ ... طمعٌ فينعمَ بالهُ استرواحا ؟
مُذْ غبتمْ عن ناظري لي أنّةٌ ... ملأتْ نواحي أرضِ مصرَ نُواحا
واذا ذكرتكمُ أميلُ كأنني ... من طيبِ ذكركمْ سُقيتُ الراحا
واذا دعيتُ الى تناسي عهدكمْ ... ألفيتُ أحشائي بذاك شحاحا
سقياً لأيامٍ مضتْ مع جيرةٍ ... كانت لياليـنا بهمْ أفراحا
حيثُ الحِمى وطني وسكّانُ الغضا ... سكني ووردي الماء فيه مُباحاً
وأهيلهُ أربي وظلُّ نخيلهِ ... طربي ورملةُ واديهِ مَراحا
واهاً على ذاك الزّمانِ وطيبِهِ ... أيامَ كنتُ مِن اللغوب مُراحا
قسماً بمكّةَ والمقامِ ومن أتى الـ ... ـبيتَ الحرامَ ملبياً سَيّاحا
ما رنحتْ ريحُ الصَّبا شيحَ الرُّبى ... إلاّ وأهدتْ منكمُ أرواحا

ولعل هذا الشعر وأمثاله في ديوانه دفع الدارسين القُدامى الى نعته بسيد شعراء عصره . ووصف نظمه باللطافة والظرافة(١١٨٦) .

(١١٨٣) ديوانه ص ١٦٢
(١١٨٤) عمر بن الفارض من خلال شعره ص ١٤١ .
(١١٨٥) ديوانه ص ١٢٤ .
(١١٨٦) ينظر : الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ص ٩١ .

القسم الثاني

النثر

تمهيد :

كانت الكتابة في العصر العباسي الأول ـ كما مرّ بنا سابقاً ـ تتبع أسلوب الصفاء واليسر والسهولة والبعد عن الصنعة واختيار الألفاظ العذبة المونقة كما يلاحظ في كتابات ابن المقفع . وسهل بن هارون . وعمرو بن مسعدة . وأحمد بن يوسف الكاتب . ومحمد بن عبدالملك الزيات . وابراهيم بن العباس الوصلي وسواهم . ثم جاء أُسلوب الجاحظ . وهو لطيف مُشرق . يحتفظ بجمال العبارة وبلاغتها ورصانتها . ويُعنى بتقطيع الكلام الى فقر كثيرة مرسلة أو مسجوعة . ويميل الى الاستطراد واستيفاء المعني واستقصاء أجزائه . ومن أشياع هذه الطريقة فيما بعد أبو حيان التوحيدي . وأبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني . وأبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني .

ومانكاد نصل الى القرن الرابع للهجرة حتى نرى ميل الكتابة عند فريق من الكتّاب الى ايثار جانب اللفظ على جانب المعنى . والانحياز الى الصنعة . والرغبة في التزويق . والاستعانة بالمحسنات اللفظية والمعنوية . والاكثار من الاستشهاد بالقرآن والحديث وأطايب الشعر ومختار الأمثال . والتوسع في الشرح والاستدلال . والاستكثار من الأخيلة والتشبيهات والاستعارات . ومن أشهر رجال هذه الطريقة : ابن العميد . والصاحب بن عباد . وأبو اسحاق الصابي . وبديع الزمان الهمذاني . وأبو بكر الخوارزمي . وقابوس بن وشمكير . وقاسم بن علي الحريري . ويحيى بن سلامة الحصكفي ...

وأخذت الكتابة في القرن الخامس ثم السادس تغرق في الصنعة . وتستكثر من التنميق . وتستأثر بقسط أوفر من المحسنات البديعية . ولاسيما التورية والجناس . وتستوفي مافي المعجم العربي من الألفاظ الصعبة . وكان على رأس هذه الطريقة سعد ابن علي الحظيري . والقاضي الفاضل . وعماد الدين الكاتب الأصبهاني .

اتجاه الصنعة :

تطور المجتمع في العصر العباسي الثاني تطوراً كبيراً . فأخذ بأسباب الزينة والأناقة . والترف في أطُر الحياة المختلفة . وقد تحدّث المؤرخون عن بذخ الكثيرين آنذاك . والإقبال الشديد على التجمُّل . من ذلك مايرويه أبو الفرج الأصبهاني في ترجمة « فريدة » المغنية عن محمد بن الحارث أنه قال حين استدعاه الخليفة الواثق الى قصره : « أفضيت الى دار مفروشة الصحن ، مُلْبَسة الحيطان بالوشي المنسوج بالذهب . ثم أفضيت الى رِواقٍ أرضُهُ وحيطانُه مُلْبَسَةٌ بمثل ذلك . واذا الواثق في صدره على سرير مرصَّع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب . والى جانبه فريدة جاريته . عليهامثل ثيابه وفي حجرها (١١٨٨) عودٌ» ويُرْوَى أن الخليفة المقتدر بالله كان بقصره شجرة من الفضة زنتها ألف درهم . وكانت تقوم وسط بركة مدورة صافية الماء . وكان لها ثمانية عشر غصناً . على كل غصن الطيور والعصافير من كل نوع مذهَّبة ومفضضة . وكان بها ورق مختلف الألوان . وكانت تتمايل في أوقات لها فيتحرك هذا الورق وتصفر الطيور وتهدر (١١٨٩) .

ودخل التأنق والتزيُّن الأدب شعراً ونثراً . فجعل الشعراء شعرهم « كبرود العَصْب ، وكالحلل والمعاطف . والديباج والوشي . وأشباه ذلك » (١١٩٠) . وكذلك الكتَّاب ، ولا سيما الذين يعملون في الدواوين . فإنهم زَيَّنوا نثرهم وجَمَّلوه بحلي البديع ، حتى أصبحنا لانرى منهم - إلا ماندر - من لايتخذ السجع وسيلة في تدبيج كتابته وتبهيجه .

وكان للقائمين على الإمارات والدويلات آنذاك دور فعّال في تنشيط الكتابة واجتذاب كبار الكتاب الى مجالسهم ومحافلهم ودواوينهم واعطائهم سلطات واسعة . فنجد عند البويهيين ابن العميد والصاحب بن عباد . وعند السامانيين علي بن محمد الإسكافي . وعند الزياريين نجد أميراً من أمرائها وهو قابوس بن وشمكير . وعند الخوارزميين أبا بكر الخوارزمي . وعند الغزنويين أبا الفتح علي بن محمد البستي . وكان هؤلاء الكتَّاب يتنافسون في ابراز كتاباتهم بأجمل مظهر . وأحسن ديباجة . وأبدع صياغة . وألطف صورة موشاة بفنون البديع وضروب البيان .

(١١٨٨) الأغاني ٤ : ١١٦ .

(١١٨٩) ينظر تاريخ بغداد ١ : ١٠٠ .

(١١٩٠) البيان والتبيين ١ : ٢٢٢ .

وكلما يتقدّم الزمن نجد النثر يزداد ولوعاً بقيود الصنعة وأغلال التعقيد، كما نشاهد في كتابات أبي العلاء المعري. ولاسيما في رسالة الغفران وكتاب الفصول والغايات. ويزداد التعقيد على يد القاسم بن علي الحريري (ت ٥١٦ هـ) صاحب المقامات المشهورة التي يقول في مقدمتها: «أنشأتُ على ماأعانيه من قريحةٍ جامدة، وفطنةٍ خامدة، وروية ناضبة، وهموم ناصبة. خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله، ورقيق اللفظ وجزله، وغرر البيان ودرره، ومُلح الأدب ونوادره. الى ما وشحتها به من الآيات، ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية، واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية، والفتاوي اللغوية ...»(١١٩١)».

وبلغ التصنيع والتعقيد غايته في القرن السادس للهجرة. ولعلَّ من أشهر الموغلين في ذلك يحيى بن سلامة الحُصكفي (ت ٥٥١ هـ) الذي أكثر من الجناس بأنواعه المختلفة الى جانب الصور المعقَّدة. مثل قوله في التجنيس المنعكس وكل كلمة مشتقة من أختها: «النفسُ بعقود التذرُّع حالية. ولقعود التعذُّر حائلة. ومن الودائع المعجزة مالية والي الدواعي المُزعجة مائلة. وفي بحار الحمد راسية. وفي رحاب المدح سائرة، تجمح الى مواصلة القمر. وتُحجم عن مصاولة القَرْم. لتكفَّ بإظفار الأمل. وتفكَّ بأظفار الألم. فهل كاملٌ يُعني. ومالك يُعين. ومقتصد يدني. ومتصدِّق يُدين. فالرغبة من الشُّهب. من الغُربة في الشُّبه. رغبةُ مَنْ قصد بالالهام. مواقعَ السُّحاب الهام. وورد شريعة الإفهام. لِظلما الإبهام. وتعرُّض لمعانٍ دقَّتْ عن الأفهام. ورقَّت فترقَّت عن الأوهام»(١١٩٢)

وممن اهتم بالصنعة وبالغ فيها في القرن السادس للهجرة أيضاً القاضي الفاضل وعمادالدين الكاتب الأصبهاني. وكانا يتباريان في مضمار الانشاء الديواني في دولة صلاح الدين الأيوبي. وسوف نُفرد لكل واحد منهما ترجمةً لسيرته وطريقة كتابته.

اتجاه الترسُّل:

في الصفحات السابقة بينا طريقة الصنعة والتعقيد في الكتابة. أبعدت الإنشاء العربي عن أصالته وجماله الفني. وقد شاعت بين الكثيرين من كتاب العراق والمشرق ووصل تأثيرها الى الشام ومصر والمغرب العربي.

(١١٩١) مقامات الحريري ص ١٢.

(١١٩٢) خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شعراء الشام، ٢: ٤٩٧.

وتعدّى طريقة الصنعة والتعقيد ومالَ عنها فريقٌ من الكتّاب، عُرفت طريقتهم بالأسلوب المرسل الذي يُعنى باللفظ والمعنى على السواء ولا يُفرط بأحد الطرفين على حساب الطرف الآخر ، ويأخذ ضروباً من البيان والبديع على سبيل الاتفاق لا سبيل التعمل والتكلف والتقصد . وقد أرسى قواعد هذه الطريقة وأشاعها الكاتب العربي الكبير أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وجاء بعده كتّاب آخرون ساروا على هديه ، واقتدوا بآثاره . ولعلَّ من أشهرهم ، ابن قتيبة ، وأبا هلال العسكري ، وأبا بكر محمد بن الطيب المعروف بالباقلاني ، وأبا حيان التوحيدي وهو أشهرهم وعبد القاهر الجرجاني .. ومن أبرز مزايا طريقة هؤلاء الكتاب وضوحُ الألفاظِ وسهولتُها ، وفصاحةُ العبارات ورصانتُها وبُعدها عن الركّة والابتذال ، والموازنة بين الألفاظ والمعاني ، وربط الأفكار وتنظيمها في سياق جميل ، وديباجة مشرقة بلا حشو ولا فضول . والاستناد الى القواعد المنهجية « كصحة التقسيم ، وتخير اللفظ ، وترتيب النظم ، وتقريب المراد ، ومعرفة الوصل والفصل ، وتوخي الزمان والمكان ، ومجانبة العسف والاستكراه(١١٨٧) » .

(١١٨٧) المقابسات ١٤٥ .

أبو الفضل بن العميد

؟ ـ ٣٦٠ هـ

كان القرن الرابع للهجرة ـ على الرغم من اضطراب الأحوال السياسية ـ عصراً حافلاً بالحركات العلمية في شتى نواحي المعرفة . زاخراً بطائفة كبيرة من العلماء والأدباء والفقهاء ورجال اللغة والبيان . وكان ابن العميد واحداً من مشهوري الإنشاء العربي آنذاك . وقد عدّة الدكتور زكي مبارك سيد كتّاب اللغة العربية في القرن الرابع(١١٩٣) .

سيرته :

هو أبو الفضل . محمد بن الحسين . الملقّب بابن العميد . من بيت فضل وصدارة . كان أبوه أبو عبدالله الحسين بن محمد كاتباً مشهوراً في خرسان . تقلّد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر . وكانت له رسائل « لاتقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل »(١١٩٤) . ولقب بالشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان . ولقب بالعميد على عادة أهل خراسان في اجرائه مجرى التعظيم .

ولد ابن العميد في أواخر القرن الثالث للهجرة . وتربّى في جو علمي وأدبي . تتلمذ على الكثيرين من علماء عصره أحدهم اسمه محمد بن علي بن سعيد(١١٩٥) . وقيل انه أخذ العلم في بغداد . ولذلك كان يحبها ويعجب برجالها وحضارتها(١١٩٦) . وأصبح « أكتب أهل عصره . وأحفظهم للغة والغريب . وأكثرهم توسعاً في النحو والعروض واهتداء الى الاشتقاق والاستعارات . وأعرفهم بشعراء الجاهلية والاسلام . وأدراهم بتأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه . وأبصرهم باختلاف فقهاء الأمصار . وأنفذهم سهماً في الهندسة والمنطق وعلوم النفس والالهيات(١١٩٧) » .

(١١٩٣) النثر الفني في القرن الرابع ٢ : ٢٢٥ .

(١١٩٤) يتيمة الدهر ٣ : ١٥٩ .

(١١٩٥) الفهرست ص ٢٠٠ .

(١١٩٦) أمراء البيان ص ٥٠٢ .

(١١٩٧) النثر الفني في القرن الرابع ٢ : ٢٢٥ .

تقلّد ابن العميد وزارة ركن الدولة سنة ٣٢٨ للهجرة . وكان جديراً بها اذ استطاع بسياسته وكياسته أنْ يضبط الأعمال وينال تقدير الناس من الخاصة والعامة . وأصبح مجلسه عامراً بالمقيمين والوافدين . وكان معاصروه يسمونه « الجاحظ الثاني » لسعة ثقافته وكثرة معارفه . ودُعي بالأُستاذ الرئيس لجمعه بين الامارة والأدب . ولقب أيضاً بلسان المشرق(١١٩٨) . وقد أشاد به المؤرخ المشهور أبو علي بن مسكويه وكان قيّماً على خزانة كتبه ووصفه بقوله : « قليل الكلام . نزر الحديث . الا اذا سئل ووجد من يفهم عنه : فإنه حينئذ ينشط فيسمع منه مالا يوجد عند غيره . مع عبارة فصيحة ؛ وألفاظ متخيرة . ومعان دقيقة . لا يتحبس فيها ولا يتلعثم ... وكان رحمه الله لحسن عشرته . وطهارة أخلاقه . ونزاهة نفسه . اذا دخل اليه أديب أو عالم متفرد بفن سكت له وأصغى اليه . واستحسن كل مايسمعه منه استحسان من لايعرف منه الاّ قدر مايفهم به مايورد عليه »(١١٩٩)

وكان ابن العميد يحتفي ؛ بالشعراء ويكرمهم . وحَسْبُه فخراً أن يكون المتنبي واحداً من هؤلاء الشعراء . يقول فيه(١٢٠٠) :

مَنْ مبلغُ الأعرابِ أنّي بعدها ... شاهدتُ رسطاليسَ والاسكندرا
وسمعتُ بطليموسَ دارسَ كتبِهِ ... متملّكاً متبدّياً متحضّرا
ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنّما ... ردَّ الإلهُ نفوسَهم والأعْصُرا

ومدحه الشاعر بن نُباتة السعدي بقصيدة طويلة حين ورد عليه بالري منها قوله :(١٢٠١)

خِرقٌ صَفَتْ أخلاقُهُ ... صفوَ السَّبيكِ من النُّضارِ
فكأنّما رُفِدتْ موا ... هبُهُ بأمواجِ البحارِ
وكأنَّ نَشرَ حديثِهِ ... نشرَ الخُزامي والعَرارِ
مُتَهلّلا للزائريـ ... ـنَ مُرحّباً بالمُستزارِ

لقد كان هو والصاحب بن عباد والوزير الحسن بن محمد المهلبي يتنافسون في اجتذاب الأُدباء ومنادمتهم في مجالسهم . ومكاتبتهم في غيابهم . قال ابن خلكان عن

(١١٩٨) أمراء البيان ص ٥٠٣ .

(١١٩٩) تجارب الأمم ٢ : ٢٧٧ .

(١٢٠٠) شرح ديوان المتنبي ١ : ٣٦٩ .

(١٢٠١) ديوان ابن نباتة السعدي ٢ : ٥٩٩ .

ابن العميد « وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة ، ومدحوه بأحسن المدائح »(١٢٠٢)

ظلَّ ابن العميد وزيراً ثلاثاً وثلاثين سنة ، وتوفي سنة ٣٦٠ بالري ، وقيل ببغداد . « وكان يعتاده القولنج تارة والنقرس أخرى ، تسلمه هذه الى هذه ، وقال لسائل سأله : أيهما أصعبُ عليكَ وأشقُّ ؟ قال : اذا عارضني النقرسُ فكأني بين فكَّي سبع يمضغني ، واذا اعتراني القولنج وددتُ لو استبدلتُ النقرس عنه ، ويقال : انه رأى أكّاراً في بستان يأكل خبزاً ببصل ولبن ، وقد أمعن منه ، فقال : وددتُ لو كنت كهذا الأكّار ، آكلُ ماأشتهي(١٢٠٣) » .

ذكر الذين ترجموا لابن العميد من المؤلفات : ديوان رسائله ، وكتاب المذهب في البلاغات ، ومجموع شعره .

فنه الإنشائي :

أشاد كل من ترجم لابن العميد ببلاغته ، فمن القدامى أبو منصور الثعالبي ، قال : « أوحد العصر في الكتابة ... يُضربُ به المثلُ في البلاغة ، وينتهي اليه في الاشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حُسْنِ الترسُّل وجزالة الألفاظ وسلاستها ، الى براعة المعاني ونفاستها(١٢٠٤) ، ومن الدارسين الحديثين الدكتور زكي مبارك ، قال : « كان ابن العميد اماماً لكتاب القرن الرابع ، ومانظنُّ أنه أدخل في فنون الكتابة ماأدخله عبدالحميد ، ولكنه يمتاز بميزة عجيبة ، هي اعزاز القلم ورفعه الى أشرف الدرجات ، فاننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين ، وهو حين يكتب لايطالعكَ بفنه ، كما كان يفعل معاصروه ، وانما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كلُّ كلمة من كلماته وكأنَّها قلب يخفقُ أو روح يثورُ ، فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً براقاً يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتَّاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمي بها كما يرمي البركان بأقباس الهلاك ، وقد يرقُّ فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل ، وهو في رقته وجزالته ، وغضبه وحنانه ، عبقري لايعبث برجع الحديث المعاد ، وانما يجدّ بإبداع الرأي الصائب والقول الرصين »(١٢٠٥)

(١٢٠٢) وفيات الأعيان ٥ : ١٠٤ .
(١٢٠٣) وفيات الأعيان ٥ : ١٠٩ .
(١٢٠٤) يتيمة الدهر ٣ : ١٥٨ .
(١٢٠٥) النثر الفني في القرن الرابع ٢ : ٢٤٥ .

ان القولين السابقين لا يخلوان ـ كما نرى ـ من شيء من الاطراء والاعجاب . فالمتأمل في كتابات ابن العميد التي وصلت الينا يجدها قد أخذت بقسط وافر من الصنعة التي أثقلت كاهل الانشاء العربي . يقول الدكتور شوقي ضيف : « كان ابن العميد يسجع في كتاباته . ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده . انما الذي يلفتنا حقاً هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه في الصورة التي كانت تنتظره منذ القرن الثاني . ونقصد السجع من جهة والاحتكام الى البديع فيما يُنشيء الكاتب من جهة أخرى . ومن أجل ذلك اذا قلنا : ان ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم نُبعد ، لأنه أول كاتب ـ فيما نعرف ـ احتكم الى السجع في كتابته . كما احتكم الى البديع من جناس وطباق وتصوير . وقد هيأه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية . بل لقد كان ذا شَغف بفن التصوير نفسه »(١٢٠٦) . وخير رسالة له نستدل منها على ولعه بالسجع وعنايته بالبديع . التي كتبها الى ابن بُلكا عند استعصائه على ركن الدولة : « كتابي وأنا مترجِّحٌ بين طمعٍ فيكَ . وبأسٍ منكَ . واقبالٍ عليكَ . واعراضٍ عنكَ . فانَّكَ تُدِلُّ بسابقِ حُرمةٍ . وتمتُّ بسالفِ خدمةٍ . أيسرُهما يُوجبُ رعايةً . ويقتضي محافظةً وعنايةً . ثم تَشفعهما بحادثِ غُلولٍ وخيانةٍ(١٢٠٧) . وتتبعهما بآنفِ خلافٍ ومعصيةٍ . وأدنى ذلكَ يُحبطُ أعمالكَ . ويمحقُ كلَّ مايُرعى لكَ . لا جرمَ أني وقفتُ بين ميلٍ اليكَ . وميلٍ عليكَ : أُقدِّمُ رجلاً لصدِّكَ . وأؤخرُ أخرى عن قصدِكَ . وأبسُطُ يداً لاصطلامكَ(١٢٠٨) واجتياحكَ . وأُثني ثانيةً لاستيفائكَ واستصلاحكَ . وأتوقفُ عن امتثالِ بعضِ المأمورِ فيكَ . ضنّاً(١٢٠٩) بالنعمة عندكَ . ومنافسةً في الصنيعةِ لديكَ . وتأميلاً لفيأتكَ(١٢١٠) وانصرافكَ . ورجاءً لمراجعتكَ وانعطافكَ . فقد يعزبُ(١٢١١) العقلُ ثم يؤوبُ . ويعزبُ(١٢١٢) اللبُّ ثم يثوبُ . ويذهبُ الحزمُ ثم يعودُ . ويفسدُ العزمُ ثم يصلح . ويضاعُ الرأيُ ثم يُستدركُ . ويسكرُ المرءُ ثم يصحو . ويكدرُ الماءُ ثم يصفو . وكلُّ ضيقةٍ الى رخاء . وكلُّ غمرةٍ فإلى انجلاء ... »(١٢١٣)

(١٢٠٦) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٠٩ .

(١٢٠٧) الغلول : الخيانة في المال وغيره .

(١٢٠٨) اصطلامك : استئصالك .

(١٢٠٩) ضناً : بخلاً .

(١٢١٠) الفيأة : الرجوع .

(١٢١١) يغرب : يذهب ، ينأى .

(١٢١٢) يعزب : يبعد ، يغيب .

(١٢١٣) يتيمة الدهر ٣ : ١٦٧ .

والرسالة تسير الى نهايتها على هذا النمط. تتحلّى بالجناس والطباق. وتتكيء على السجع في نهايات فقراتها. وتوازن بين كل لفظة وقرينتها في العبارتين المتجاورتين.

ونرى ابن العميد أحياناً معتدلاً في صنعته. يمزج السجع بغير السجع. فيأتي أسلوبه لطيفاً مقبولاً. مثل قوله في شهر رمضان: «أسأل الله أن يعرّفني بركته. ويلقّيني الخيرَ في باقي أيامه وخاتمته. وأرغبُ اليه في أنْ يقربَ على الفَلَكِ دَوْرَه. ويقصّر سيرَه. ويخفّفَ حركته. ويعجّلَ نهصته. وينقصَ مسافة فلكه ودائرته. ويُزيل الطول عن ساعاته، ويَرُدَّ عليَّ غرّة شوال، فهي أسنى الغُرر عندي. وأقرُها لعيني ويَطلعَ بدرَهُ. ويُريني الأيدي مُتطلبةً هلالَهُ ببشر. ويسمعني النعيَ لشهر رمضان. ويعرض عليَّ هلاله أخفى من السّحر. وأظلمَ من الكُفرِ. وأنحفَ من مجنون بني عامر. وأبلى من أسير الهَجْرِ؛ واستغفرُ الله جلَّ وجهه مما قلتُ ان كَرِهه. واستعفيه من توفيقي لما يذمُّه. وأسأله صفحاً يُفيضه. وعفواً يُوسعه. انه يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور»(١٢١٤).

ولابن العميد حكم وأمثال استخرجها العارفون من رسائله. منها: الرُتبُ لاتبلغ الاّ بتدرج وتدرب. ولا تدركُ إلاّ بتجشم كُلفة ونصب. رأس المال خيرٌ من الربح. والأصل أولى بالعناية من الفرع. المرء أشبه شيء بزمانه. وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه. قد يبذل المرء ماله في اصلاح أعدائه. فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه؟ المزح والهزل بابان اذا فُتحا لم يغلقا الاّ بعد العسر. من أسر داءه. وكتم ظمأه. بعد عليه أن يَبُلَّ من غللِهِ. ويُبلَ من عِلله. خير القول ماأغناك جِدُّهُ. وألهاكَ هزله. اجتنب سلطان الهوى. وشيطان الميل(١٢١٥).

من كل ماسبق يتبين أن كتابات ابن العميد تقوم على أساسين كبيرين: أولهما السجع. وكان السجع معروفاً من قبله في الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع للهجرة. والأساس الثاني لم يكن متبعاً قبله. وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع. فالسجع وحده لا يكفي. بل لابدّ أن تضاف اليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما الى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه(١٢١٦).

(١٢١٤) زهر الآداب ١: ٥٣٨.
(١٢١٥) ينظر: يتيمة الدهر ٣: ١٧٠، معاهد التنصيص ١: ١٢٠، أمراء البيان ص ٥٢٠.
(١٢١٦) ينظر: عصر الدول والإمارات ص ٦٥٦.

أبو حيان التوحيدي
؟ ـ ٤١٤ هـ

نوابغ الفكر العربي كثيرون . من علماء وادباء وفلاسفة وفقهاء ومفسرين ومحدثين ... وقد كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية من أكثر المدن الاسلامية ازدحاماً بالمفكرين والمبدعين في صنوف المعرفة المختلفة . وقد صدق آدم متز في قوله : « إن جميع الحركات الروحية في مملكة الاسلام كانت تتلاطم أمواجها في بغداد. وكان فيها لجميع المذاهب أنصار».(١٢١٧) ويعدأبو حيان التوحيدي ممثلاً جيداً لأولئك المفكرين والمبدعين الذين رفدوا المكتبة العربية بتآليف قيمة ونافعة للأجيال اللاحقة .

سيرته :

لم يترجم القدامى لأبي حيان ترجمة وافية لسيرته . وقد أكد ذلك ياقوت الحمري فقال : « ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجه في ضمن خطاب . وهذا من العجب العجاب » (١٢١٨) .

ولد علي بن محمد بن العباس التوحيدي في بغداد حوالي سنة ٣١٠ أو ٣١١ للهجرة على وجه التقريب(١٢١٩) ويكنّى أبا حيّان . ويلقّب بالتوحيدي . نسبة الى نوع من التمر المعروف باسم « التوحيد » كان أبوه يبيعه(١٢٢٠) . وقيل التوحيدي . نسبة الى المعتزلة لأنهم يسمون انفسهم أهل العدل والتوحيد . (١٢٢١)

تعلّم القراءة والكتابة في صغره ولما شبّ أقبل على العلم يعب منه عبًا . واتصل بكبار العلماء ودرس بين أيديهم . من أشهرهم العالم الكبير والنحوي المشهور ابو سعيد السيرافي . وعلى بن عيسى الرمّاني . وهو من أئمة اللغة والادب . والقاضي أبو حامد أحمد بن بشر المرورُوذي أحد أئمة الفقه آنذاك . وأبو بكر محمد بن

(١٢١٧) **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ١١٠ .**

(١٢١٨) **معجم الأدباء ٥ : ٣٨١ .**

(١٢١٩) **ينظر : أبو حيان التوحيدي اديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء ص ١٦ . أبو حيان التوحيد للدكتور أحمد محمد الحوفي ١ : ٢٢ . أبو حيان التوحيدي للدكتور ابراهيم الكيلاني ص ١٢ .**

(١٢٢٠) **وفيات الأعيان ٥ : ١١٢ . بغية الوعاة ٢ : ١٩٠ .**

(١٢٢١) لسان الميزان ٦ : ٣٦٠ .

علي القفّال الشاشي . وهو مُحدّث ولغوي وشاعر . والقاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني الفقيه الأديب الشاعر . وأبو محمد جعفر الخلدي احد رؤساء الصوفية . وأبو الحسين محمد بن أحمد بن أسماعيل المشهور بعلم الكلام والوعظ ودرس الفلسفة والمنطق على عالمين كبيرين هما : أبو بكر يحيى بن عدي . وأبو سليمان محمد بن طاهر المنطقي السجستاني وهكذا اكتسب ثقافة موسوعية من علماء عصره المشهورين .

وكانت حِرفة الوراقة التي مارسها . وهي تقوم على النسخ والنقل والتصحيح . قد عَرَّفته على أمهات الكتب في مختلف فنون المعرفة . ويبدو أنّ جدواها آنذاك كانت قليلة . ولذلك قال : « لقد استولى عليَّ الحرف . وتمكّن منّي نكدُ الزمان . الى الحد الذي لااسترزقُ مع صحة نقلي . وتقييد خطي . وتزويق نسخي . وسلامته من التصحيف والتحريف . بمثلْ ما يسترزقُ البليدُ. الذي يمسخُ النسخَ ويفسخُ الأصل والفرع »(١٢٢٢)

لم يكن أبو حيان محظوظاً في صلاته مع كبار رجال عصره . ولعلّ السبب في ذلك اعتداده بعلمه وأدبه وصراحته واختلافه معهم في العقيدة والرأي . فقد نفاه الوزير أبو محمد الحسن بن محمد المهلبي من بغداد متهماً إياه بالزندقة وذهب الى خرسان واتصل بابن العميد ولكنه لم يجد عنده ما يُرضيه ويُريحه . ففارقه الى الري حيث التقى بالصاحب بن عباد . ولم ينل حظوه لديه فغادره بعد مكوث دام ثلاثة أعوام الى بغداد . وأشار الى ذلك بقوله : « إنِي فارقتُ بابه سنة سبعين وثلاث مئة راجعاً الى مدينة السلام بغير زاد . ولا راحلة . ولم يُعطني في مدّة ثلاث سنين درهماً واحداً ولاماقيمته درهم واحد »(١٢٢٣) . وعلى أثر ذلك ألف كتابه « مثالب الوزيرين » . ثار فيه أعنف ثورة على ابن العميد والصاحب بن عباد .

وكان حظُه مواتياً مع أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة (ت ٣٧٥ هـ) إذ نال اكرامه وعطفه . وأطلق لسانه في مدحه والثناء عليه . وأصبح نديمه وسميره يلتقي معه في الليل فيقصّ عليه مايطيب له . أو يسأله الوزير عما يبدو له من فكرة فيجيبه بعلم جم غزير . فألف منها كتابه «الامتاع والمؤانسة» قال في وصفه: «قد شاهدتُ ناساً في السَفر والحَضر. صِغاراً وكباراً وأوساطاً . فما شاهدت مَنْ يَدينُ بالمجد . ويتحلّى بالجود . ويرتدي بالعفو .

(١٢٢٢) معجم الادباء ٥ : ٣٨٤ .

(١٢٢٣) معجم الادباء ٥ : ٢٩٥ .

ويتأزَّرُ بالحِلم، ويُعطي بالجُزاف، ويفرحُ بالأضياف، ويَصلُ الإسعافَ بالاسعافِ، والاتحافَ بالاتحاف، غيرك، والله انك لتَهبُ الدرهم والدينار، وكأنك غضبان عليهما، وتطعمُ الصادر والوارد كأن الله قد استخفلك على رزقهما، ثم تتجاوزُ الذهب والفضة الى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة، والخيل العِتاق، والمراكب الثقال، والغلمان والجواري حتى الكتب والدفاتر وما يَضنُّ به كلُّ جواد »(١٣٢٤). ولم تدم الراحة النفسية لأبي حيان في ظل هذا الوزير، فإنه قُتل سنة ٣٧٥ للهجرة وفَقَدَ بذلك معيناً له، وخشي أن يلاحقه أعوان الوزير الجديد أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف، فآثر الاختفاء عن الأنظار، وهرب الى شيراز حيث راح يتردَّدُ على المتصوِّفة ويعيش معهم، ويبدو أنه عاش في فقر شديد خاصة بعد شيخوخته بدليل قوله: « فقد أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت ملازماً للحيرة، محتملاً للاذى يائساً من جميع من ترى، متوقعاً لما لا بدَّ من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة الى نضوب، ونجم العيش الى أفول، وظل التلبث الى قلوص »(١٣٢٥) وأصابه اليأس وخيَّمَ عليه القنوط فقال: « فقد كلَّ البصرُ، وانعقد اللسانُ، وجمدَ الخاطرُ، وذهبَ البيانُ، وملكَ الوسواسُ، وغلبَ اليأس من جميع الناس »(١٣٢٦)

واشتدَّت عليه قسوة الحياة، ولم تغْدُ كُتبه التي أفنى العمر من أجلها تنفعهُ وتردُّ عنه شظف العيش ونكد الأيام، فأقبل عليها في سَوْرَة غضبٍ ومزَّقها ثم أحرقها، وقد كتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد رسالة يُعاتبه على صنيعه، ويُعرِّفُه قبحَ ما اعتمد من الفعل وشنيعه، فكتب إليه أبو حيان رسالةً ضافيةً يعتذر فيها عن فعلته ويبرر في الوقت نفسه سببَ اقدامه على إتلاف كتبه وحرقها، منها قوله:

« وهل بعد الكبرة والعجز أملٌ في حياةٍ لذيذةٍ، أو رجاءٌ لحالٍ جديدة... على أني لو علمتَ في أي حالٍ، غلب عليَّ مافعلته، وعند أيّ مرض، وعلى أيَّة عُسرة وفاقة، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر مانشرته وطويته »(١٣٢٧)

(١٣٢٤) الامتاع والمؤانسة ٣ : ٢٢٢.

(١٣٢٥) الصداقة والصديق ص ٧.

(١٣٢٦) معجم الأدباء ٥ : ٣٩١.

(١٣٢٧) معجم الأدباء ٥ : ٣٨٨ ــ ٣٩١.

كان التوحيدي معتزلياً يأخذ نفسه بسلوك الصوفية . والغريب أنه لم يتزوج ويكوّن أسرةً لنفسه يعيش في ظلالها . فبقي وحيداً تتنازعه الوحدة والغربة الى جانب البؤس والشقاء والعجز والمرض الى أن أدركته المنية سنة ٤١٤ للهجرة بشيراز (١٢٢٨) .

كتبه :

إن آثار أبي حيان كثيرة . وقد جعلها طعمة للنار في أواخر حياته . وماسلم منها كان بأيدي الناس . قال السيوطي : « فلعلَّ النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبتْ عنه في حياته . وخرجتْ عنه قبل حرقها »(١٢٢٩) . وكتبه نافعة ومفيدة وقد عَبَّرَ آدم متز عن اعجابه بها فقال : « لم يكتب في النثر العربي بعد أبي حيان ماهو اسهل وأقوى وأشد تعبيراً عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان »(١٢٣٠) . واليك كتبه ورسائله المطبوعة فقط :

١ ـ الاشارات الالهية والانفاس الروحانية : وهو كتاب صوفي . يضم مجموعة من المواعظ والاوراد الصوفية .
٢ ـ بصائر القدماء وسرائر الحكماء (البصائر والذخائر) : وهو كتاب ضخم يحوي كثيراً من العلوم والآداب سلك فيه طريقة الجاحظ في الاستقصاء والاستطراد ومزج الجد بالهزل .
٣ ـ الامتاع والموانسة : وهو كتاب كبير يتضمن أحاديث شتى في قضايا أدبية ولغوية وفلسفية وعلمية وزَّعها على أربعين ليلة .
٤ ـ ثلاث رسائل ، وهي : رسالة الامامة . ورسالة الحياة . ورسالة في علم الكتابة .
٥ ـ رسالة في بيان ثمرات العلوم : وهي في سبع صفحات ملحقة بذيل كتاب الصداقة والصديق المطبوع في القاهرة .
٦ ـ رسالة في أخبار الصوفية : ذكرها ياقوت الحموي في معجم الأدباء .
٧ ـ الصداقة والصديق : جمع فيه ماقيل شعراً ونثراً في العشرة والمؤاخاة والالفة وما يلحق بها . وهو كتاب لطيف يدل على اختيار موفق وذوق أدبي رائع .
٨ ـ مثالب الوزيرين (اخلاق الوزيرين) : أظهر فيه مثالب ومعايب الوزيرين أبي الفضل بن العميد والصاحب بن عباد . وتناول فيه أيضاً قضايا هامة

(١٢٢٨) ينظر ابو حيان التوحيدي لابراهيم الكيلاني ص ٢٤ ـ ٣٦ .

(١٢٢٩) بغية الوعاة ٢ : ١٩٠ .

(١٢٣٠) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٤١٦ .

ومثيرة عن الحياة الثقافية والفكرية في القرن الرابع للهجرة .

٩ ـ المقابسات : يحتوي على ١٠٦ مقابسات . تبحث كلُ مقابسةٍ في موضوع مستقل . وأغلبها تتصل بالفلسفة والتصوف .

١٠ ـ الهوامل والشوامل : ويدور في موضوعات أدبية واجتماعية وفلسفية وأخلاقية ونفسية ولغوية .

أسلوبه في الكتابة :

أبو حيان التوحيدي كاتب كبير وموسوعي . تناول أغلب علوم عصره وآدابه . درساً وتحليلاً وشرحاً ونقداً وتعليقاً . وهي ـ في عمومها ـ تعطي انطباعاً جيداً عن ثقافة الكاتب الحاذق والأديب الألمعي . وقد لخص التوحيدي بنفسه هذه الثقافة فقال : « يجب على الكاتب أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى لينتزع من آياته . وأن يعرف كثيراً من السنّة والأخبار والسير . حافظاً لكثير من الرسائل والكتب . وأن يكون متناسب الألفاظ . متشاكل المعاني . متشابه الخط . ذكياً . عارفاً بما يحتاج اليه . خبيراً بالحلي والشيات . مضطلعاً بعبء الكتابة . له يد في السواد . وعمل الحساب . وأن يكون له يد في عمل الشعر . نظيف الثوب . لطيف المركب . ظريف الغلام . لقيق الدواة . حاد السكين . صقيل الكاغد . صلب الاقلام . متوذداً الى الناس مخالطهم . غير متكبر عليهم ولا منتقص منهم . دمث الأخلاق . رقيق الحواشي . ترف الاطراف . عذب السجايا . حسن المحاضرة . مليح النادرة . غير قنف . ولا متعجرف . ولا متكلف للألفاظ الغريبة . ولا متعسف للغة العويصة (١٢٢١) .

إن أهم ما يلاحظه القاريء في النص السابق أنه يريد من الكاتب أن يكون عالي الثقافة . واسع المعرفة . حافظاً لكثير من العلوم والآداب . خبيراً بوسائل الكتابة وطرائق التعبير الجيدة والميسورة . عالماً بدقائق الأساليب الرائعة وقادراً عليها .

كان أبو حيان يخطو خطو الجاحظ في أسلوبه . ويتتلمذ على مدرسته البيانية التي أقام قواعدها في القرنين الثاني والثالث للهجرة . ولقد أطراه في مؤلفاته جميعاً . فقال عن كتبه : إنها الدر النثير . واللؤلؤ المطير . وعن رسائله : إنها الأفنان المثمرة .

(١٢٢١) مطالع البدور ٢ : ١١٧ .

والرياض الزاهرة . وعن كلامه : انه الخمر الصرف والسحر الحلال . وعن ذاته : إنه حبيب القلوب ، ومزاج الأرواح ، وشيخ الأدب ، وحجة العرب .(١٣٣٢).

انّ أميز خصائص أسلوب أبي حيان في الكتابة : التناسب بين الألفاظ والمعاني ، وحسن الربط بين الأفكار ، والبعد عن التعقيد والتصنيع ، وخير ما يمثل مذهبه قوله :

« علينا بالطبع اللطيف ، والمأخذ القريب ، والسَّمع الملائم ، واللفظ المؤنق ، والتأليف الحُلْو ، والسُّبوطة الغالبة ، والموالاة المقبولة في السَّمع ، الخالبة للقلب ، العابثة بالروح ، الزائدة في العقل ، المشعلة للقريحة ، الموقوفة على فضل الأدب ، الدالة على غزارة المغترف(١٣٣٣) . وقال أيضاً : « والسرُّ كلُّه أن تكون ملاطفاً لطبعك الجيد ، ومسترسلاً في يد العقل البارع ، ومعتمداً على رقيق الألفاظ ، وشريف الأغراض مع جزْولة في معرض سهولة ، ورقّة في حلاوة بيان ، مع مجانبة المُجتلَب ، وكراهة المستكره ، وركنه الذي يُعوَّل عليه ، وكهفه الذي يأوي اليه أن يكون السجعُ في الكلام كالملح في الطعام ، فإنه متى ظفر منه بمقدار الرُّتبة ، وحسب الكفاية ، حلا منظرهُ ، وبهرَ بهاؤه ، وسطع نوُره ، ومتى زاد على المقدار ضارع كلام النساء والكهنة من العرب ، أو كلام المستعربين من العجم ... فاقصد أيَّدك الله تعالى أن تكون كالصائغ الذي يصبُّ التبرَ فيسكبه ، ثم يصوغه ، ثم بنقشه ، ثم يسوقه ، ثم يزينه ، ثم يعرضه »(١٣٣٤)

لقد عَني أبو حيان بالمعاني كما عُني بالالفاظ ولم يفرط بالبلاغة العربية التي تطلب جمال العبارة ووضوح الدلالة . وقد أصاب الدكتور شوقي ضيف اذ قال فيه : « وكانت المكتبة العربية قد ألقت بكنوزها بين يديه في أثناء وراقته ونسخه ، فراعه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني ، مستخدماً أسلوب الازدواج الذي عُرف به ، وقد يتخلَّله في الحين البعيد بعد الحين السجع ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقرَّ هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته ، ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتي لعلها لا تقل جمالاً وروعةً عن نظيرتها عند الجاحظ ، وهو يتسع اتساعاً واضحاً في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي » .(١٣٣٥).

(١٣٣٢) ينظر : ابو حيان التوحيدي ، للدكتور عبد الرزاق محيي الدين ص ٢٤٨

(١٣٣٣) الامتاع والمؤانسة ١ : ٦٤ .

(١٣٣٤) البصائر والذخائر ١ : ٣٦٩

(١٣٣٥) تاريخ الادب العربي ، عصر الدول والامارات ص ٤٦٢ .

إنَّ لأبي حيان طبعاً دافقاً وفكراً سابقاً. لم يتخذ السجع أسلوباً الا في كتاب واحد من كتبه وهو الاشارات الالهية. أما في سائر ترسله فقد لزم الأسلوب المتوازن على طريقة الجاحظ.(١٢٣٦). فمن الأسلوب المسجوع إليك الفقرات الآتية من مناجاة صوفية: «ياحافظَ الأسرارِ. يامُسبلَ الأستارِ. وياواهبَ الأعمارِ. ويامنشيءَ الأخبارِ. ويا مُولجَ الليلِ في النهارِ. ويامعافِيَ الأخيارِ. ويامُداريَ الأشرارِ. ويا منقذَ الأبرارِ من النارِ والعارِ. عُدْ علينا بصفحك عن زَلاّتنا. وأنعشْنا عند تتابع صَرَعاتنا. وحُط رحالنا معكَ في اختلافِ سكراتنا وصحواتنا وكـن. لـنا وانْ لـم نكنْ لأنفسنا. لأنكَ أولى بنا. وإذا خِفنا منكَ. فامزجْ خوفنا منكَ برجائنا فيكَ. وإذا غلبَ علينا بأسنا منك فتلقَّهُ بالأملِ فيكَ. بَشِّرْنا عند توجهنا نحوكَ بالوصول إليكَ. مَتِّعْنا بالنظرِ إلى نورِ وجهكَ. أسبغْ علينا نعمتكَ بما وهبتَ لنا من توحيدكَ. ولا تهجرنا بعد وصلكَ. ولا تُبعدنا بعدَ قُربكَ. ولا تكْربْنا بعد رَوْحكَ. قد عادينا أعداءَكَ فيكَ. فلا تُشْمِتْهم بنا لتقصيرنا في حقكَ. ووالَيْنا أصفياءَكَ لكَ فلا تُوحشنا منهم لسهونا عن واجبكَ(١٢٣٧)».

ومن أسلوبه الذي لم يتقيد بالسجع نأخذ جزءاً من الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع والمؤانسة: «قال ابنُ سعدان: فصل حديثك... بحديث أصحابنا الشعراء. صِفْ لي جماعتهم، واذكرْ لي بضاعتهم، وما خصَّ كل واحد منهم.

قلتُ: لستُ من الشعر والشعراء في شيء، وأكره أنْ أخطو على دحض(١٢٣٨) واحتسي غير محض.

قال: دعْ هذا القولَ. فما خُضنا في شيء الى هذا الوقت إلاّ على غاية ما كان في النفس، ونهاية ما أفاد من الأنس. فكان من الوصف:

أما السّلاميُّ(١٢٣٩): فهو حلو الكلام، مُتَّسق النظام، كأنّما يَبسمُ عن ثغر الغمام، خفيُّ السَّرقة، لطيفُ الأخذ، واسع المذهب، لطيفُ المغارس، جميلُ الملابس، لكلامه لَيطَةٌ(١٢٤٠) بالقلب، وعبثٌ بالروح، وبَرْدٌ على الكبدِ.

(١٢٣٦) ينظر: ملامح النثر العباسي ص ٢٤٢ ـ ٢٥٥.
(١٢٣٧) الاشارات الالهية ١: ١.
(١٢٣٨) دحض: مزلة ومزلقة للاقدام.
(١٢٣٩) السلامي: أبو الحسن محمد بن عبد الله، شاعر من اهل العراق، عربي الأصل، ولد ببغداد سنة ٣٣٦ هـ وتوفي سنة ٣٩٤ هـ.
(١٢٤٠) ليطة: تعلق والتصاق.

وأما الحاتميُّ(١٢٤١) : فغليظُ اللفظ . كثيرُ العُقَد . يحبُّ أن يكون بدوياً قُحّاً . وهو لم يَتِمّ حَضَرياً ، غزيرُ المحفوظ . جامعٌ بين النظم والنثر . على تشابهٍ بينهما في الجفوة . وقلة السُّلامة . والبعدِ عن المَسْلوك . بادي العورة فيما يقول . لكأنَّما يُبرزُ ما يُخفي . ويكدِّرُ ما يُصفي . له سَكْرة في القول إذا أفاق منها خُمِرَ(١٢٤٢) . وإذا خُمِرَ سَدِرَ(١٢٤٣) . يتطاول شاخصاً . فيتضاءل متقاعِساً . اذا صَدَق فهو مَهِين . وإذا كذب فهو مَشين .

وأما ابن جَلَبات(١٢٤٤) : فمجنون الشِّعر . متفاوت اللفظ . قليل البديع . واسع الحيلة . كثير الزِّوق(١٢٤٥) . قصير الرِّشاء(١٢٤٦) . كثير الغُثاء . عَزّةُ نَفاقُه(١٢٤٧) . ونَفَقَةُ نِعاقُه .

وأما الخالع(١٢٤٨) : فأديبُ الشِّعرِ . صحيحُ النَّحت . كثيرُ البديع . مستوي الطريقةِ . متشابهُ الصناعةِ . بعيدٌ من طَفْرة المتحيِّرِ قريبٌ من فرصة المتخيِّر ؛ كان ذو الكفايتين(١٢٤٩) يُقدِّمُه بالرَّأي . ويَقبله على النشر والطيِّ .

وأما مَسْكويه(١٢٥٠) : فلطيفُ اللفظِ . رطبُ الأطرافِ . رقيقُ الحواشي . سهلُ المأخذِ . قليلُ السكبِ . بطيءُ السَّبْكِ . مشهورُ المعاني . كثيرُ التواني . شديدُ التوقي . ضعيفُ الترقي . يَرِدُ أكثرَ مما يَصدرُ . ويتطاولُ جُهدهُ ثم يَقْصرُ . ويطيرُ بعيداً ويقعُ قريباً ويسقي من قبل أن يغرس . ويمتحُ من قبل أن يُمِيه . وله بعد ذلك مآخذُ كشَدْوٍ من الفلسفة . وتأتٍ في الخدمة . وقيامٍ برسوم النِّدامة . وسُنَّة في البخل . وغرائبُ من الكذب . وهو حائل العقل لشغفه بالكيمياء .

(١٢٤١) الحاتمي : أبو علي محمد بن الحسين . الكاتب اللغوي البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ .

(١٢٤٢) خمر : أصيب بالخمار . وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر . والكلام هنا على طريق الاستعارة .

(١٢٤٣) سدر : تحير أو لم يبال ما صنع ولم يهتم .

(١٢٤٤) أبو القاسم علي بن جلبات من شعراء اليتيمة ٢ : ١٠٤ .

(١٢٤٥) الزوق : الزينة .

(١٢٤٦) الرشاء : الحبل الذي يصل الدلو اذ يلقى به في البئر .

(١٢٤٧) النفاق : بفتح النون : الرواج .

(١٢٤٨) الخالع : أبو علي الحسن بن علي من شعراء المشرق . ذكره الثعالبي في يتيمة الدهر ٣ : ١٢٦ .

(١٢٤٩) ذو الكفايتين : أبو الفضل محمد بن الحسين . الملقب بابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ للهجرة . وقد سبقت ترجمته في هذا الكتاب .

(١٢٥٠) أبو علي احمد بن محمد مسكويه . أديب ومؤرخ . كان قيما على خزانة كتب ابن العميد ثم على خزانة كتب عضد الدولة . ثم اختص ببهاء الدولة وعظم عنده . توفي سنة ٤٢١ هـ .

وأما ابن نُباتة(١٢٥١) : فشاعرُ الوقتِ . لا يَدْفَعُ ما أقول إلاّ حاسد أو جاهل ؛ أو معاند . قد لحق عصابةَ سيف الدولة . وغَدا معهم ووراءَهم . حَسَنُ الحَذْوِ على مثال سكّان البادية . لطيفُ الائتمامِ بهم . خفيُّ المغاص في واديهم . ظاهرُ الإطلال على ناديهم ؛ هذا مع شُعْبة من الجنون وطائفٍ من الوَسْواس .

وأما ابن الحجاج(١٢٥٢) : فليس من هذه الزُمرة بشيء ؛ لأنه سخيفُ الطريقة . بعيدٌ من الجد . قريعٌ في الهزل ؛ ليس للعقل من شعره منال . ولا له في قرضه مِثال . على أنه قويم اللفظ . سهلُ الكلام . وشمائلهُ نائيةٌ بالوَقار عن عادته الجارية في الخَسار . وهو شريك ابن سُكّرة في هذه الغَرامة . واذا جدَّ أقعى . وإذا هَزَل حَكَى الأفعى(١٢٥٣) » .

من النص السابق نستدلُ أنّ أبا حيان كان مطلعاً على الحركة الأدبية في زمانه اطلاعاً واسعاً . عارفاً باقدار الأدباء ومنازلهم . ولذلك وضع نتاج الكثيرين منهم في ميزان نقده بلغة واضحة وأسلوب مشرق جذاب . قال حسن السندوبي في مقدمة كتاب المقابسات : « وكان من خصائصه احتذاء الجاحظ في التفنن في كل شيء . مطبوعاً على ذلك الى الحد الأقصى . غير أنه أولع بوضع الأحاديث والأسمار . ووقائع التاريخ في الصورة الروائية . فلا يكتفي بايراد الحادث على ما عُرف وتناقله الرواة . بل يعرض له ويرسل صَيّباً مدراراً من فائض بلاغته . وزاخر بيانه . فاذا هو قصة ذات وقائع وأشخاص وأبطال . تروع اذا مثّلت . وتروق اذا قُرئت . وتملك المشاعر والقلوب اذا استمعت . ومع ما يدخله عليها من أصباغ . وما يطليها به من ألوان . فهو لا يعدو في النتيجة أن يمثّل الحقيقة في أصدق مظاهرها . فهو الكاتب القصصي الماهر الذي أهدته الينا الأعصار الأول(١٢٥٤) » .

ونختتم ترجمته بقول ياقوت الحموي : « كان متفنناً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة . وكان جاحظياً يسلك في تصانيفه مسلكه . ويشتهي أن ينتظم في سلكه . فهو شيخ في الصوفية . وفيلسوف الأدباء . وأديب الفلاسفة(١٢٥٥) »

(١٢٥١) ابن نباته السعدي ، عبد العزيز بن محمد بن نباته ، شاعر عراقي ، له مدائح في سيف الدولة الحمداني ، توفي سنة ٤٠٥ هـ وله ديوان مطبوع .

(١٢٥٢) ابن الحجاج ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، شاعر ، ماجن من شعراء بغداد في القرن الرابع للهجرة ، يضرب به المثل في السخف والمداعبة والأهاجي .توفي سنة ٣٩١ للهجرة .

(١٢٥٣) الامتاع والمؤانسة ١ : ١٣٤ ـ ١٣٧ .

(١٢٥٤) المقابسات ص ١٧ .

(١٢٥٥) معجم الأدباء ٥ : ٣٨٠ .

المقامات

المعنى اللغوي والاصطلاحي :

قال ابن منظور : المقامة ، بالفتح ، المجلس ، والجماعة من الناس(١٢٥٦) . وكلا المعنيين نجدهما في شعر ماقبل الاسلام ، اذ جاءت بمعنى المجلس في قول زهير بن ابي سلمى :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم وأنديةٌ ينتابُها القولُ والفعلُ(١٢٥٧)

ووردت بمعنى الجماعة من الناس التي يضمُّها المجلس في قول لبيد :

ومقامةٍ غُلبِ الرِّقابِ كأنَّهمْ جِنٌّ لدى طَرَفِ الحَصيرِ قيام(١٢٥٨)

والمجلس في الغالب تدور فيه احاديث للمسامرة . وقد كانت للعرب قبل الاسلام مجالس سمر يتحدَّثون فيها بقصص الجن والحيوان ويتحدَّثون بالمواعظ والامثال (١٢٥٩) .« وننتقدم في العصر الاسلامي فنجد الكلمة تستعمل بمعنى المجلس يقوم فيه شخص بين يدي خليفة او غيره ويتحدَّث واعظاً . وبذلك يدخل في معناها الحديث الذي يصاحبها ، ثم نتقدم اكثر من ذلك فنجدها تستعمل بمعنى المحاضرة(١٢٦٠) » وقد عقد ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) فصلاً في كتابه عيون الاخبار بعنوان « مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك » اورد فيها عشر مقامات . وهي مواعظ يقف فيها الراوي امام الخليفة لنصحه وارشاده ، من ابرزها مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبدالعزيز ، ومقام الاوزراعي بين يدي المنصور ، ومقام

(١٢٥٦) لسان العرب ١٢ : ٤٩٨ .

(١٢٥٧) قال الاعلم الشنتمري : المقامات المجالس ، سميت بذلك لان الرجل كان يقوم في المجلس فيحضُ على الخير ويصلح بين الناس ، واراد بالمقامات اهلها ولذلك قال « حسان وجوههم » . والاندية : جمع نديّ ، وهو المجلس والمتحدث ، وقوله « ينتابها القول والفعل » اي ، يثبت فيها الجميل من القول ويعمل به (شعر زهير بن ابي سلمى ص ٣٨) .

(١٢٥٨) شرح ديوان لبيد ص ٢٩٠ . الحصير : الملك

(١٢٥٩) ينظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ٦

(١٢٦٠) المقامة ، للدكتور شوقي حنيف ص ٧

صالح بن عبدالجليل بين يدي المهدي(١٢٦١) . وورد ذكرها عند ابن عبد ربه (ت ٣٢٨ هـ) في كتابه العقد الفريد بعنوان « مقامات العباد عند الخلفاء » . من أبرزها مقام ابن السَّمَّاك عند الرشيد .(١٢٦٢)

نخلص مما تقدم ان المقامات كانت تُعنى ـ قبل ان تتخذ مدلولها الاصطلاحي ـ بأحاديث بالنصح والارشاد والوعظ والتقويم الخلقي ؛ وللاستدلال على ذلك نأخذ جزءاً قصيراً من مقام رجل من الزهاد بين يدي المنصور : « بينما المنصور يطوف ليلاً اذ سمع قائلاً يقول : اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض ، وما يحول بين الحقّ واهله من الطمع ؛ فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد . وارسل الى الرجل يدعوه ، فصلّى الرجلُ ركعتين ، واستلم الركن ، واقبل مع الرسول ، فسلّم عليه بالخلافة . فقال المنصور : ماالذي سمعتكَ تذكُرُ من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الطمع ؟ فو الله لقد حشوت مسامعي مأأرمضني(١٢٦٣) ؛ قال : ياأمير المؤمنين ان امّنتني على نفسي انبأتك بالامور من اصولها ، والا احتجزتُ منكَ واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغِلٌ . فقال : انت آمنٌ على نفسك فقْل ؛ فقال : انَّ الذي دخله الطمعُ حتى حال بينه وبين ماظهر من البغي والفساد لأنت ؛ قال : ويحكَ وكيف يدخلني الطمع ، والصفراءُ والبيضاء في قبضتي ، والحلو والحامض عندي ! قال : وهل دخل احدٌ من الطمع مادخلك ! ان الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين واموالهم . فأغفلت امورهم ، واهتممت بجمع اموالهم . وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجَصِ والآجرّ وأبواباً من الحديد وحَجَبةً معهم السلاحُ ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثتَ عُمالكَ في جباية الاموال وجمعها وقويتهم بالرجال والسلاح والكُراع(١٢٦٤) ، وامرت بالاّ يدخل عليك من الناس الاّ فلان وفلان نفرٌ سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم والا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ... فكيف تصنع بالملك الذي خولك مُلكَ الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود في العذاب الاليم ... هل يغني عنك ماشححت عليه من ملك الدنيا اذا انتزعه من يديك ودعاك الى الحساب . فبكى المنصور وقال : ياليتني لم أُخلق ... »(١٢٦٥) .

(١٢٦١) عيون الاخبار ٢ : ٣٣٣ ـ ٣٤٣ .

(١٢٦٢) العقد الفريد ٣ : ١٥٨ ـ ١٦٤

(١٢٦٣) ارمضني : اوجعني وآلمني

(١٢٦٤) الكراع : الخيل

(١٢٦٥) عيون الاخبار ٢ : ٣٣٢ ، العقد الفريد ٣ : ١٥٩

واصبحت المقامة فيما بعد مصطلحاً اديباً تطلق على نوع من الكتابة الفنية على شكل اقصوصة منمقة في الفاظها واسلوبها . فيها شيء من الحوار . وتعتمد في الغالب على راوٍ واحد وبطل اديب متحايل . يراد بها وصف حالة نفسية . او مفارقة ادبية . او مسألة دينية . او قضية علمية .. وتنطوي على لون من الوان النقد . او التهكم والسخرية . او التصحيح والتقويم . او الثورة ... ويعد بديع الزمان اول من اعطى كلمة مقامة معناها الاصطلاحي بين الادباء .

نشأتها :

اختلف الذين أرخوا للادب من المحدثين وتضاربت آراؤهم في تعيين مبتدع المقامات إذا نجد رأياً يقول : إن أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) هو المنشيء الأول للمقامات في رسالته « التربيع التدوير » أو في رسالته « صناعات القواد » . ويذهب رأي ثانٍ الى أن أبا بكر محمد بن الحسين الأزدي (ت ٣٢١ هـ) هو مبتكرها والسابق لها . استناداً الى نص أورده الحصري القيرواني في زهر الآداب يُشير فيه الى أن بديع الزمان عارضَ ابن دريد في أحاديثه الأربعين .. وثالث الآراء يقول : إن المبتكر الأول لها هو أحمد بن فارس اللغوي (ت ٣٩٠ هـ) أستاذ بديع الزمان . ورابع الآراء يرى أنا أبا حيان التوحيدي (ت ٤١٤ هـ) ابتدعها وأنشأها(١٢٦٦) ... واذا احتكمنا الى القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات المشهورة (ت ٥١٦ هـ) نجده يقول « قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدتْ في هذا العصرِ ريحُهُ . وخبتْ مصابيحهُ . ذكرُ المقامات التي ابتدعها بديعُ الزمانِ . وعَلَّامةُ همذان . رحمهُ الله تعالى . فأشار مَنْ إشارتُهُ حُكْمٌ . وطاعتُه غُنْمٌ . الى أنْ أنشيءِ مقاماتٍ أتلو فيها تلو البديعِ . وإن لم يُدرك الظالع(١٢٦٧) شأو الضليع(١٢٦٨) لبيتُ دعوته تلبيةَ المطيع . وبذلتُ في مطاوعته جهد المستطيع . وأنشأتُ على ماأعانيه من قريحة جامدة . وفطنةٍ خامدةٍ . وروية ناضبةٍ . وهموم ناصبةٍ . خمسين مقامة »(١٢٦٩) . ويقول القلقشندي : « إعلم أنَّ أول من من فتح باب عمل المقامات .

(١٢٦٦) تنظر تفاصيل هذه الآراء في بحث الدكتور محسن غياض (مقامات بديع الزمان الهمداني)المنشور في مجلة الطليعة الأدبية ، العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .

(١٢٦٧) الظالع ، المائل عن الطريق القويم ، الذي يغمز في مشيته

(١٢٦٨) الضليع : السمين القوي ، والضلاعة : قوة الاضلاع .

(١٢٦٩) مقامات الحريري ص ١١

علّامة الدهر ، وإمام الأدب ، البديع الهمذاني ، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه ، وهي في غاية من البلاغة ، وعُلوّ الرتبة في الصنعة »(١٢٧٠) .

وخلاصة القول عندنا أن بديع الزمان كان أديباً عالماً، مثقفاً بثقافة كبيرة مستوعباً أغلب الكتابات التي أنشاها السابقون ، وفكرة المقامات بصيغتها وشكلها المعروف هو صاحبها ، ويعود له الفضل في إعطائها المعنى الاصطلاحي بين الفنون النثرية في الادب العربي .

أصحاب المقامات :

انتشرت مقامات بديع الزمان انتشاراً واسعاً بين الشرق والغرب ،(١٢٧١) . وأقبل الكتّاب على قراءتها وتدبيج المقامات على هديها وإن اختلفت في الأساليب والمضامين ، وقد أشار بلاشير الى ستة وسبعين كاتباً من كتّاب المقامات ، منهم سبعة ورد ذكرهم من بديع الزمان الى الحريري(١٢٧٢) ، وهم :

١ ــ أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المتوفى سنة ٣٥٨هـ.
٢ ــ أبو الاصبع عبد العزيز بن تمام العراقي .
٣ ــ أبو نصر عبد العزيز بن عمر المعروف بابن نباتة السعدي المتوفى سنة ٤٠٥هـ.
٤ ــ أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون بن بطلان المتوفى سنة ٤٦٠ هـ .
٥ ــ أبو النصر عبدالله بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا المتوفى سنة ٤٨٥هـ.
٦ ــ أبو حميد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ .
٧ ــ أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري المتوفى سنة ٥١٦ هـ (١٢٧٣) .

(١٢٧٠) صبح الأعشى في صناعة الانشا ١٤ : ١١٠ .

(١٢٧١) ينظر : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٢٧ ــ ٢٦٩ ، تاريخ الأدب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٠٢ ــ ٣٢٦ .

(١٢٧٢) المقامة : بلاشير ــ المشرق عدد ٤٧ سنة ١٩٥٣ ، وينظر : بديعيات الزمان ص ١٢٩ ــ ١٣٧ ، رأي في المقامات ص ٣٢ ــ ٣٥

(١٢٧٣) ينظر الى اصحاب المقامات بعد الحريري في كتاب فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٣٦ ــ ١٤٦ .

موضوع المقامات :

ساءت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد القرن الثالث للهجرة ، ولاسيما بعد ضعف مركز الخليفة ، وسيطرة الأعاجم على شؤون الدولة ومرافقها العامة . وتفشي الظلم الى جانب الفقر والعوز . وأصبح الكثيرون في المجتمع آنذاك منهم علماء وأدباء في ضيق وحرج حتى اضطر بعضهم الى الاختيال والتحامق والاستجداء .(١٢٧٤) . وقد صوَّر بديع الزمان هذا الواقع المرير والوضع المزري خير تصوير بأسلوب تطغى عليه روح الدعابة والمرح والفكاهة والاضحاك على لسان راو اسمه عيسى بن هشام ومحتال ذكي في صورة شحاذ يدعى أبا الفتح الاسكندري .

والى جانب الموضوع الذي يصور المجتمع في فقره وبؤسه وحرمانه من الحرية والعيش العزيز الكريم ، نجد موضوعات تأخذ طابعاً ثقافياً من ذلك مقامات في النقد الأدبي .(١٢٧٥) مثل : العراقية . والشعرية . والقريضية . ومنها دينية وعظية في النصح والإرشاد واتباع الخلق القويم والطريق المستقيم مثل : الأهوازية . والوعظية . ومنها وصفية تتناول العادات والطبائع والمآكل والمشارب(١٢٧٦) والحيوانات والمدن ...

واذا أمعنا النظر في مقامات الحريري نجد أيضاً الكُدية تلازم بطلها أبا زيد السروجي الذي يروي اخباره الحارث بن همام . واذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الاسكندري واعظاً وناصحاً العباد الى مافيه صلاحهم في مقامتين، فان الحريري عرض أبا زيد السروجي وأعظاً في عشر مقامات ولعل أطرف مانراه في المقامة الثانية عشرة ، الأدعية التي يرجو فيها من الله أن يرحمه وينقذه من الباغين والطاغين والجائرين : « اللهم يامحيي الرُفاتِ ، ويادافع الآفاتِ ، وياوافي المخافات ، وياكريم المكافاة ، ويامونل العُفاةِ صلِّ على محمدٍ خاتمِ أنبيائك . ومبلّغ أنبائك ، وعلى مصابيح أسرته ، ومفاتيح نصرته .وأعذني من نزعات الشياطين . ونزوات السلاطين ، وإعناتِ الباغين ، ومعاناةِ الطاغين ، ومعاداةِ العادين ، وعدوانِ المعادين ، وغُلب الغالبين ، وسلب السالبين ، وحيل المحتالين ،

(١٢٧٤) ينظر بحث الدكتور صفاء خلوصي (أدب المقامات أو الفن الأقصوصي المسجع) مجلة المعلم الجديد العدد الاول لسنة ١٩٦٢ .

(١٢٧٥) ينظر بحث الدكتور محمد قاسم مصطفى (النقد الأدبي في مقامات بديع الزمان الهمذاني) مجلة المورد العدد ٣ ، سنة ١٩٨٤ .

(١٢٧٦) ينظر بحث صبيح صادق (بغداد من خلال المقامات) مجلة المورد ، العدد ٤ سنة ١٩٧٩ .

وغِيلِ المغتالين، وأجرني اللهمّ من جور المجاورين، ومجاورة الجائرين، وكفّ عني أكفّ الضائمين، وأخرجني من ظلمات الظالمين، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ... اللهم أحرسني بعينك، ودعوتك، واخصصني بأمنك، ومنّك، وتولني باختيارك وخيرك، ولاتكلني الى كلاءة غيرك(١٣٧٧)وهَبْ لي عافيةً غير عافية(١٣٧٨)، وارزقني رفاهيةً غير واهية واكفني مخاشيَ اللأواء(١٣٧٩)، واكنفني بغواشي الآلاء(١٣٨٠)، ولاتظفر بي أظفارَ الأعداء، إنك سميعُ الدعاء»(١٣٨١).

ان الطابع الديني القائم على التوجيه والارشاد [illegible]صلاح النفوس من الشرور والآثام، قد اصبح [illegible] بارزة عند الكثيرين الذين جا[illegible] [illegible] الحريري، مثل الامام محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، [illegible] عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ... وتجدر الاشارة الى ان المقامات عند بعض الكتاب تغيرت طريقة التناول والعرض فيها عما وضعه السابقون، ولاسيما بديع الزمان الهمذاني والحريري اذ تخلصت من الرواية واكتفت بالحكاية وقد عبر بعض من هذه المقامات عن الاحداث الكبيرة والويلات والمصائب التي ابتليت بها الامة العربية، مثل ما فعله التتر في زحفهم على المشرق ولاسيما على العراق وديار الشام، اذ نرى الشيخ ظهير الدين علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الكازروني(ت ٦٩٧هـ) ينشيء مقامةً طويلةً بعنوان: «مقامة في قواعد بغداد في الدولة العباسية»(١٣٨٢) تصف باسلوب حزين الوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي انتابت بغداد بعد مقتل [illegible] خليفة عباسي المستعصم بالله سنة ٦٥٦ للهجرة ننقل منها الفقرات الآتية: «وأنيها بلدةٌ خاليةٌ، وأمةٌ جاليةٌ، ودمنةٌ حائلةٌ، ومحنةٌ جاثمةٌ، وقصوراً خاويةً، وعراصاً باكيةً، قد رحل عنها سكانها، وبان عنها قطّانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل واد، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها، باكية بلسان الحال على سكانها، عظام العظام بالية، تسفي

(١٣٧٧) لاتكلني الى كلاءة غيرك: لاتدعني الى حفظ غيرك

(١٣٧٨) غير عافية: غير دارسة.

(١٣٧٩) اللأواء: الشدة والضيق.

(١٣٨٠) أكنفني: احفظني في كنفك. الغواشي: مايغطي به الشيء مثل غاشية السرج.
الآلاء: النعم.

(١٣٨١) مقامات الحريري ص ١٠٥.

(١٣٨٢) حققها كوركيس عواد، وطبعها بمطبعة الارشاد ببغداد سنة ١٩٦١، ثم اعاد نشرها في مجلة المورد، العدد الرابع المجلد [illegible] ببغداد سنة ١٩٧٩

عليها الرياح السافية . « فهل ترى لهم من باقية »(١٢٨٣) فوقفتُ أبكيها ، وأندب ربوعها ومن كان فيها

وأندب اطلالـــــــها تارةً وابكي على فرقةِ الظاعنينا
فلو ذهبت مقلةٌ بالبكاءِ لفرطِ الغرامِ لكنّا عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي ، وهو يذري دمعه لسماع ارتجالي . فقلت له : ماجلاؤكَ فقد أعجبني حالك . فقال اليك عني . واذهب لسبيلك ودعني . فاني اتمتع بالبكاء ، وأسحُ الدمع على هذه الاصداءِ . واقيم مأتم العزاء . فلو رأيتَ من هذه البلدة مارأيتُ لأذريتَ معي الدمع ، ولأسمع بكاؤك الجمع » وهذه المقامة ـ كما لاحظنا ـ تتسم بوضوح القصد وصدقه وقوة التعبير وتأثيره ونجد هذا الشيء ايضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني التي ذكر فيها هجوم التتر المروع على مدن الشام ولاسيما حلب التي كثر فيها القتل والسلب والتخريب والنهب(١٢٨٤) .

اسلوب المقامات :

شاعت الصنعة في الكتابة العربية في القرن الرابع للهجرة شيوعاً كبيراً ، وتسرّب أثرها الى المقامات ، حيث نجد بديع الزمان ، الذي يعد الرائد في انشائها ، يأخذ نصيباً كبيراً من الاساليب البلاغية المصنعة ، ويدخلها بذكاء وقدرة فائقة في مقاماته ، ولاسيما السجع والجناس والتصوير . ونراه احياناً يكثر من الألفاظ الغريبة على نحو ما جاء في المقامة النهيدية . ويحشّد فيها الشعر الذي يطول احياناً كما في المقامة البشرية . ويقتبس من القرآن الكريم ، والامثال العربية المشهورة ، ويورد أطرافاً من معارف كثيرة في اللغة العربية وآدابها . انه يأتي بكل ذلك باحكامٍ وتناسقٍ وانسجامٍ وعرضٍ مشرقٍ لطيفٍ يروق السامع ويستهويه .

واذا انتقلنا الى الحريري نجده اكثر ايغالاً في استخدام فنو ن البديع وامعاناً في تناول غريب اللغة . ولا عجب حين قال عنه العماد الاصبهاني : « قد اعجز الفصحاء بصناعته ، وأبر على البلغاء ببراعته ، وبلغ السماء ببلاغته . واوجد حليّ الزمان العاطل بجودة صياغته وقد اشتهرت له المقامات شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً (١٢٨٥) .

(١٢٨٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٨ .

(١٢٨٤) ينظر : تتمة المختصر في أخبار البشر ٢ : ٢٠٨

(١٢٨٥) خريدة القصر وجريدة العصر قسم العراق ، ٤ / ٢ : ٦٠١

لقد أقرّ الحريري في مقدمة مقاماته بقوله ، انها « تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيانِ ودرره ، وملح الادب ونوادره ، الى ماوشّحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الادبية ، والأحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية »(١٢٨٦) ان هذه الامور ساقها في مقاماته بتمكن واقتدار وباسلوب محكم رصين ، فيه حيوية نافذة ، ومرد هذه الحيوية كما يرى الدكتور شوقي ضيف « الى هذا الثوب المتوهج من السجع ، الذي لانجد فيه نقصاً ، فقد فصله وقطعه ووشاه ذوق ر[illegible] كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة ، وكيف يشدّ اللفظة الى أختها [illegible] عازف قيثار »(١٢٨٧) .

وجاء بعد الحريري كتّاب كثيرون ، دبجوا مقامات في موضوعات متنوعة دينية واجتماعية وادبية ، وحاولوا ان يظهروا فيها براعتهم الاسلوبية والبلاغية ، ولكنهم لم يلحقوا به ولا برائده بديع الزمان الهمداني ، وبقوا في دائرة التقليد الاّ ما ندر منهم ، ولذلك لم تأخذ مقاماتهم الشهرة والانتشار في الأوساط الادبية وبقيت بين مخطوطة ومطبوعة بعيدة عن أيدي الدارسين (١٢٨٨) .

(١٢٨٦) مقامات الحريري ص ١٢

(١٢٨٧) المقامة للدكتور شوقي ضيف ص ٦٩

(١٢٨٨) لتنظر المقامات التي الفت بعد الحريري في كتاب : فن المقامات بين المشرق والمغرب ص ١٧٥ ـ ٢٤١ .

بديع الزمان الهمذاني

٣٥٨ – ٣٩٨ هـ

لم تنتكس الثقافة في القرن الرابع للهجرة بانتكاس الخلافة ومجدها وعزها وأبهتها، بل بقي بريقها وهاجاً، وظلت البيئات العلمية والأدبية عامرة بالعلماء والأدباء، حتى قال أحدهم: إنّ هذا العصر يستحقّ أن يُسمّى زمن النبوغ(١٢٨٩). انه حقاً عصر علم وأدب وشعر ومقامات وتأليف وفلسفة. ومن أراد التأكد من ذلك فليراجع أحد الكتب التي تناولت هذا العصر، وهو كتاب يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبي ويرى العدد الكبير من أرباب القلم، أحدهم بديع الزمان الهمذاني، رائد فن المقامات

سيرته:

هو أبو الفضل، أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد، ويُعرف ببديع الزمان. ولا نعرف كيف نال هذا اللقب(١٢٩٠). وربما يكون من صُنعِهِ أو صُنعِ أبي منصور الثعالبي الذي عاصره وترجم له(١٢٩١). فقال: «هو أحمد بن الحسين بديعُ الزمانِ، ومُعجزةُ همذان»(١٢٩٢)

ولـد فـي همذان في الثالث عشر من جمادي الآخرة، سنة ٣٥٨ للهجرة، من أسرة يصل نسبها الى بني مضر، وقد صرّح بذلك فقال: «اني عبدُ الشيخ، واسمي أحمد. وهمذانُ المولِد. وتغْلِبُ المورِد. ومُضَرُ المحتِد»(١٢٩٣). ولم يكتفِ بذكر نسبه العربيّ، بل انتصر للعرب في كتاباته، فقال في رسالة الى الشيخ الرئيس أبي عامر عدنان بن محمد: «نحن – أطال الله بقاء الشيخ – اذا تحدّثنا في فضل العرب على العجم وعلى سائرِ الأممِ، أردنا بالفضلِ ماأحاطتْ به الجدودُ، ولم ننكرْ أن تكون أمةٌ أحسن من العربِ ملابس، وأنعمَ منها مطاعم، وأكثرَ ذخائر، وأبسطَ ممالكَ، وأعمرَ مساكنَ، ولكنّا نقولُ: العربُ أوفى وأوفر، وأوقى وأوقر، وأنكى وأنكر، وأعلى وأعلم، وأحلى وأحلم، وأقوى وأقوم، وأبلى وأبلغ، وأشجى وأشجع، وأسمى وأسمح، وأعطى وأعطف، وألطى وألطف، (١٢٩٤) وأحصى وأحصف، وأنقى وأتقى، ولا ينكرُ ذلكَ إلا

(١٢٨٩) بديع الزمان الهمذاني، مارون عبود، ص ١٤.

(١٢٩٠) قال الدكتور شوقي ضيف: «ان اسمه لايعرفه الناس، وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه». الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٠.

(١٢٩١) ينظر: مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد ص ١٣.

(١٢٩٢) يتيمة الدهر ٤: ٢٥٦.

(١٢٩٣) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٤.

(١٢٩٤) ألطى: اللطاة: الجبهة. يقال: يبّض الله لطاتك أي جبهتك.

وَقِحٌ وَتِحٌ[١٢٩٥] ، ولا بجحدُه إلاّ نغلٌ نغرٌ[١٢٩٦] ... »[١٢٩٧] .

نشأ في همذان ، وتعلّم فيها القراءة والكتابة ، وكان أخوه محمد بن الحسين مفتي البلدة[١٢٩٨] ، وتتلمذ على العلماء والأدباء . منهم أبو الحسين أحمد بن فارس الأديب الكبير واللغوي المشهور ، صاحب المجمل في اللغة[١٢٩٩] ، وأبو بكر محمد بن الحسين الفراء ، وعيسى بن هشام اللغوي الاخباري . وكان بديع الزمان ذكياً ، قويّ الحافظة ، قال الثعالبي : « كان ينشدُ القصيدة التي لم يسمعها قطّ ـ وهي أكثر من خمسين بيتاً ـ فيحفظها كلّها ويؤديها من أولها الى آخرها ، لايخرم حرفاً ولا يخل بمعنى . وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرةً واحدةً خفيفةً ثم يهذُها عن ظهر قلبه هذاً ، ويسردُها سرداً ، وهذه حاله في الكتب الواردة عليه »[١٣٠٠] . ويُعلّقُ أحد الباحثين على هذا القول ، فيقول : « انها مبالغات نسبوا مثلها الى المتنبي ، والمعري ، وأبي تمام ، وهي عندي الى الحكايات أقرب منها الى التاريخ الرصين ، فليست الأذهان دفاتر ، ولا آلات تصوير شمسية ، حتى تحفظ ، وتلتقط آثار الأدباء كما هي »[١٣٠١] .

خرج بديع الزمان من همذان سنة ٣٨٠ للهجرة طلباً للمال والجاه والشهرة ، فقصد الصاحب بن عباد (ت ٣٨٥ هـ) وبقي عنده زمناً في أصبهان المشهورة بجمال طبيعتها ، وكانت آنذاك تعج بالأدباء والعلماء من أبنائها والوافدين عليها ، وقد عدّها الدكتور مصطفى جواد معقلاً للأدب العربي[١٣٠٢] ، وبعد تزوده بثمار الصاحب بن عباد وحسن آثاره ، ارتحل الى جرجان « وأقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم »[١٣٠٣] ، ثم تركها ، وشرح سبب تركها في رسالة كتبها الى أبي نصر بن المرزبان[١٣٠٤] ، فجاء الى نيسابور سنة ٣٨٢ للهجرة . « وكان لواء الرئاسة والصدارة فيها معقوداً لأسرة بني ميكال ، وهي أسرة علم وأدب وفضل ،

(١٢٩٥) وتح : خسيس .

(١٢٩٦) نغر : حقود .

(١٢٩٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ١٦٩ .

(١٢٩٨) معجم الادباء ١ : ٩٥ .

(١٢٩٩) ينظر : المقامات من ابن فارس الى بديع الزمان الهمذاني ص ٩ .

(١٣٠٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٦ .

(١٣٠١) بديع الزمان الهمذاني ، مارون عبود ، ص ١٧ .

(١٣٠٢) ينظر بحث الدكتور مصطفى جواد (أصفهان معقل الادب العربي في ايران) مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد العاشر ، ١٩٦٢ ، ص ٦٩ ـ ٩٤ .

(١٣٠٣) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٧ .

(١٣٠٤) رسائل أبي الفضل بديع الهمذاني ص ٩٣ .

وكان أفرادها يُلقَّبون بالأمراء ، وكانوا يشجعون الأدب ويصلون الشعراء (١٣٠٥) » .
والمعُ . من عاش من هذه الأسرة في القرن الرابع للهجرة الأمير أحمد بن علي بن ميكال والأمير أبو الفضل عبيدالله بن أحمد بن ميكال ، وكان هذا الأخير كاتباً شاعراً شبهه الثعالبي بابن العميد والصاحب بن عباد وأبي اسحاق الصابي وابن المعتز وأبي فراس من الشعراء (١٣٠٦) .

وكان بديع الزمان قبل وصوله الى نيسابور قد سلبه قطاع الطرق من الأعراب ماكان له من مال وأمتعة وأصبح مُعدماً . وخاطب أبا بكر الخوارزمي (ت ٣٨٣ هـ) شيخ عصره في علوم اللغة والبلاغة وأيام العرب وأمثالها بهذه الرسالة : أنا لقربِ الأستاذ أطالَ الله بقاءَه (كما طربَ النَّشْوانُ مالتْ به الخمرُ) ومن الارتياح للقائه (كما انتفضَ العصورُ بلَّلهُ القطرُ) ومن الامتزاج بولائه (كما التقتِ الصهباءُ والباردُ العذبُ) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتزَّ تحت البارح الغصنُ الرطبُ) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طَوَى اليه ما بين قصبتي العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتي نيسابور وجرجان . وكيف اهتزازه لضيف في بُردة جَمَّال ، وجلدة جَمَّال :

رثُّ الشمائل مُنْهَجُ الأثوابِ بكرتْ عليه مغيرةُ الأعرابِ

وهو أيده الله وليّ انعامة بانقاذ غلامه الى مستقري ، لأفضي اليه بسرِّي ، انْ شاء الله تعالى » (١٣٠٧) ولم يحسن الخوارزمي لقاءه . وحصلت بينهما نفرة وجفوة وقطيعة ، تحولت فيما بعد الى عداوة . وحدثت بينهما أمام جمع من الناس معركةٌ أدبيةٌ حاميةٌ ، خرج منها بديع الزمان ظافراً وانحسر الخوارزمي مخذولاً (١٣٠٨) .

ترك بديع الزمان نيسابور الى سجستان . وكان أميرها آنذاك الأديب خلف بن أحمد ، ولقي حفاوة وتقديراً منه وأهدى اليه مقاماته ومدحه بقصيدة مطلعها : (١٣٠٩)

سماء الدُّجى ، ما هذه الحدقُ النجلُ أصدر الدُّجى حالٍ وجيد الضحى عطلُ ؟
لكَ الله من عزمٍ أجوبُ جيوبه كأني في أجفان عين الرَّدى كحلُ

(١٣٠٥) بديع الزمان الهمذاني ، الدكتور مصطفى الشكعة ، ص ٥٥ .
(١٣٠٦) تنظر : يتيمة الدهر ٤ : ٣٥٤ .
(١٣٠٧) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٨٧ .
(١٣٠٨) تنظر المناظرة في رسائل البديع ص ١٧ ، ومعجم الأدباء ١ : ١٠١ .
(١٣٠٩) ديوان بديع الزمان ص ٦٥ .

وكان البديع يحبُّ السفر، ويرغبُ في الارتحال، اذ نراه يذهب شرقاً الى غزنة عاصمة السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي، الذي كان يهوى لقاء الأدباء والعلماء، ويشجعهم على البقاء عنده وبعد اقامة قصيرة في كنف هذا السلطان توجّه الى هراة وألقى فيها عصا الترحال، وتزوّجَ من ابنة أبي علي الحسين بن محمد الخُشنامي أحد فضلاء هذه المدينة، فاطمأنتْ نفسه، وحسن حاله، وطاب له المقام واقتنى مالاً وضياعاً، وعاش عيشة راضية، وأنجب أولاداً، وفي سنة ٣٩٨ للهجرة لبّى نداء ربه، وهو في الأربعين من عمره.

آثاره :

كان بديع الزمان شاعراً وناثراً على السواء، وقد ترك لنا الآثار الآتية :

١ ـ ديوان شعره، وهو مطبوع، والقارئ فيه يجده لا يتخلّى ـ كما هو الحال في نثره ـ عن الجناس والسجع والازدواج والمعميات والأحاجي ...

٢ ـ رسائله، وهي مطبوعة، تناول فيها موضوعات كثيرة من مدح، وهجاء، وعتاب، واعتذار، وعزاء وشكوى، وتهنئة، ووصف، واستعطاف ...

٣ ـ مقاماته، وهي مطبوعة، وعددها اثنتان وخمسون مقامة

نثره وأسلوبه :

جاء بديع الزمان ووجد أمامه الصنعة قد قطعتْ شوطاً كبيراً في ميدان النثر العربي، على يد كتاب كبار أمثال: ابن العميد، والصاحب بن عباد، وأبي بكر الخوارزمي، فسار على خطاهم وأبدى جدارة فائقة وقدرة عالية في هذه الصنعة بحيث فاقهم في الشهرة ولا سيما في مقاماته.

لقد تسربت الصنعةُ الى نثره، وتجاوزتْ أحياناً الحد المقبول في التزام السجع، والتشبيهات، والاستعارات، والكنايات، والمحسنات اللفظية والمعنوية، والرمز والتلميح، والاشارات ... والميل الى التصعيب والتعقيد، روى الثعالبي في يتيمته أنه «كان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلمّ جرًّا الى الأول، ويُخرجُه كأحسن شيء وأملحه ويوشحُ القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة الشريفة من انشائه، فيقرأ من النظم والنثر، ويروي من النثر والنظم، ويعطي القوافي الكثيرة فيصلُ بها الأبيات الرشيقة، ويُقترحُ عليه كلُّ عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجلُه في أسرع من الطَّرف على ريق لا يبلعه، ونفس

لا يقطعه(١٣١٠) » . وقد أقرَّ البديع في مناظرته مع أبي بكر الخوارزمي أنه يستطيع أن يقترح عليه أربع مئة صنف في الترسل ، ثم يستطرد فيصف بعض هذه الأصناف فيقول : انه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه . أو كتاباً يُقرأ من آخره الى أوله ، أو كتاباً اذا قُرِيء من أولِه الى آخره كان كتاباً . فإن عُكست سطوره مخالفة كان جواباً . أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها ، أو كتاباً خالياً من الألف واللام . أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل ، أو كتاباً أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم . أو كتاباً اذا قُرِيء معرجاً وسُرد معوجاً كان شعراً . أو كتاباً اذا فُسِّرَ على وجه كان مدحاً واذا فُسِّرَ على وجهٍ كان قدحاً(١٣١١) . ومع هذا الاعتراف بالتعقيد نجد له رسائل تتسم بلغة واضحة ذات ألفاظ موسيقية عذبة لها وقع حسن في الأذن .

ومما يلاحظ في نثره كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأمثال ، والحكم ، والأبيات الشعريه من نظمه أو من نظم شعراء آخرين . وأحياناً يمعن في هذا الاستشهاد كما نرى في رسالته الى أبي جعفر الميكالي التي ضمنها ستة وثلاثين بيتاً في الوقت الذي لم تتعد الرسالة بضعة وعشرين سطراً . والى جانب الشعر في هذه الرسالة نجد حكماً وأمثالاً ، مثل قوله : وبذل الموجود غاية الجود ، وبعض الحمية آخر المجهود، وماش خير من لاش ، ووجود ماقل خير من عدم ماجل ، وقليل في الجيب خير من كثير في الغيب ، وحمار هو خير من فرس ليس ، وكوخ في العيان خير من قصر في الوهم ، وزيت خير من ليت ، وما كان أجود من لو كان . وقد قيل عصفور في الكف خير من كركيّ في الجو . ولأن تقطف خير من أن تقف ، ومن لم يجد الحميم رعى الهشيم ، ومن لم يحسن صهيلاً نهق ، ومن لم يجد ماءً تيمم »(١٣١٢)

واشتهرت مقاماته أكثر من رسائله ، وهي قائمة على الكدية باستثناء ثلاث عشرة مقامة تتناول أغراضاً شتى في المديح والوصف والنقد والأدب والألغاز والوعظ والحجاج في المذاهب وأحوال الزمان والفكاهة .

(١٣١٠) يتيمة الدهر ٤ : ٢٥٦ .
(١٣١١) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٥٠ ، وينظر الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٤٥ .
(١٣١٢) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني ص ٦٠ ـ ٦١ .

والمقامات أرحب من رسائله معنىً، وألطف مبنًى، وأخف صنعةً، وأكثر فكاهةً وأوفر مرحاً وإضحاكاً. قال الدكتور زكي «مبارك»، «إنّ مقامات بديع الزمان تُحفة من تحف النثر الفني في القرن الرابع. وقد أردنا أنْ نُطيلَ بها الطواف ليتعرَّفَ اليها القارئ، فقد كان مفهوماً عند كثير من الناس أنها ألاعيب لفظية ليس فيها من المعاني مايستحقُّ الدرسَ، ولكنا بعد مواجهتها مرةً ومرةً رأينا فيها من أمارات العقل والذكاء وخفّةِ الروح ما يُوجبُ الاعجاب، وكنا نحفظها في الحداثة، غير انا لم نكن ندركُ خطرها كما تمثلتْ لنا في هذه الأيام »(١٣١٣)

تقوم أحداثُ المقامات على كاهل رجلين ابتدعهما بديع الزمان، الأول الراوي عيسى بن هشام والثاني البطل المغامر أبو الفتح الاسكندري، وأحياناً يغفل عن هذا البطل كما هو الحال في المقامات الثلاث: البغدادية، والنهيدية، والغيلانية.

إن أسلوب البديع في المقامات مسجوع مُنمَّق، يعتمد على الصنعة. اذ نراه يتكيءُ على التشبيهات، والاستعارات، والكنايات، وضروب المحسنات البديعية ولا سيما الجناس والطباق. ويكثر من الجمل الاعتراضية، والترادف في اللغة للمعنى الواحد. والاستشهاد بالشعر، فلا تخلو مقامة من أبيات، لاتقل عن بيتين، من نظمه أو من نظم الشعراء الأقدمين وكذلك الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف. مثال ذلك البيتان الآتيان: (١٣١٤)

حتى اذا جُزْنا بلادَ العدى الى حمى الدِّين نقضتُ الوجيبْ
فقلتُ اذ لاحَ شعارُ الهُدى (نصرٌ من اللهِ وفتحٌ قريبْ)

ومثل قوله: «أثارتني ورفقةً وليمةٌ فأجبتُ اليها للحديثِ المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دُعيتُ الى كراعٍ لأجبتُ ولو أُهدي اليَّ ذراعٌ لقبلتُ »(١٣١٥) ويلتجيء احياناً الى الأمثال اما مقتبسة واما مبتكرة مثل قوله في المقامة الجاحظية: «ياقوم لكلِّ عملٍ رجالٌ، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ، ولكلِّ دارٍ سكانٌ، ولكلِّ زمانٍ جاحظ »(١٣١٦)

(١٣١٣) النثر الفني في القرن الرابع ١، ٢٧٧.
(١٣١٤) مقامات بديع الزمان، المقامة القزوينية ص ٩٧.
(١٣١٥) مقامات بديع الزمان ص ٨٤
(١٣١٦) نفسه ص ٨٦.

والبديع اديبٌ ظريفٌ ، وكاتبٌ طريفٌ ، وفنانٌ موهوبٌ ، وقصصيٌ ملهمٌ ، يقدم مقاماته بأسلوب محكم تظلِله روح فكهة مرحة ، وقد اخترنا للقاريء المقامة البغدادية ليقف على طبيعة هذا الاسلوب في ايراد المشاهد الغريبة وربطها ببراعة مع بعضها وصولاً الى نتيجة لطيفة ترقُّ لها القلوب : « حدثني عيسى بن هشام ، قال : اشتهيتُ الأزاذَ ،(١٣١٧) وأنا ببغداذ ، وليس معي عقدٌ ، على نقدٍ(١٣١٨) ، فخرجتُ أنتهز محالهُ حتى أحلّني الكرخَ ، فاذا أنا بسواديٍّ(١٣١٩) يسوقُ بالجهدِ حمارَهُ ، ويُطرّفُ بالعقدِ ازارَهُ ، فقلتُ : ظفرنا والله بصيدٍ ، وحياكَ اللهُ أبا زيدٍ ، من أينَ أقبلتَ ؟ وأين نزلتَ ؟ ومتى وافيت ؟ وهَلُمَّ الى البيتِ ، فقال : السواديُّ ، لست بأبي زيدٍ ، ولكني أبو عبيدٍ ، فقلتُ : نعم ، لعن اللهُ الشيطانَ ، وأبعد النسيان ، أنسانيك طولُ العهد ، واتصالُ البعد ، فكيف حالُ أبيك ؟ أشابُ كعهدي ، أم شابَ بعدي ؟ فقال : قد نبتَ الربيعُ على دمنته ،(١٣٢٠) وأرجو أ ن يُصيِّرَهُ اللهُ الى جنتهِ ، فقلتُ : إنَّا للهِ وانّا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوةَ الاّ بالله العليّ العظيم ، ومددتُ يد البدارِ الى الصّدار ،(١٣٢١) اريد تمزيقهُ ، فقبضَ السواديُّ على خصري بجمعه ، وقال : نشدتُكَ اللهِ لامزَّقتَهُ ، فقلتُ : هلُمَّ الى البيتِ نُصبْ غداءً ، أو الى السوقِ نشترِ شواءً ، والسوقُ أقربُ ، وطعامه أطيبُ ، فاستفزّتْهُ حمةُ القرم ، وعطفتهُ عاطفةُ اللّقم ،(١٣٢٢) وطمعَ ، ولم يعلم أنَّه وقع ، ثم أتينا شوّاءً يتقاطرُ شِواؤه عرقاً ، وتتسايلُ جوذاباتهُ مرقاً(١٣٢٣) فقلتُ :أفرزْ لأبي زيدٍ من هذا الشواء ، ثمَّ زِنْ له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الاطباقِ ، وانضد عليها اوراقَ الرّقاقِ ، ورشَّ عليه شيئاً من ماءِ السُّمّاقِ ، ليأكله أبو زيدٍ هنيّاً ، فانحنى الشّوّاءُ بساطوره ، على زبدةِ تَنُّوره ، فجعلها كالكحلِ سحقاً ، وكالطّحنِ دقّاً ، ثم جلس وجلستُ ، ولا يئسَ ولا يئستُ ، حتى استوفينا ، وقلتُ لصاحبِ الحلوى : زِنْ لأبي زيدٍ من اللوزينج رطلين فهو أجرى في الحلوقِ ،

(١٣١٧) من اجود انواع التمر .
(١٣١٨) النقد ، المسكوك من الذهب والفضة
(١٣١٩) السوادي ، الرجل من رساتيق العراق وقراه ، نسبة الى السواد ، وسمي العراق سواداً لاكتساء ارضه بالخضرة من نبات واشجار .
(١٣٢٠) المراد بالدمنة القبر .
(١٣٢١) البدار ، المبادرة والمسارعة . الصدار ، ثوب يلبس مما يلي الجسد .
(١٣٢٢) استفزته ، استهوته وحركته بشدة. الحمة للشيء شدته ، يقال لسعته حمة البرد اي شدته . والحمة في الاصل ، ابرة العقرب التي تلسع بها . القرم ، الشهوة البالغة لأكل اللحم . اللقم ، السرعة في الاكل .
(١٣٢٣) الجوذابات ، جمع جوذابة ، وهي خبز يخبز في تنور وفوقه لحم .

وامضى في العروقِ ، وليكن ليليُّ العمر ، يوميَّ النَّشر(١٣٢٤) ، رقيق القشر ، كثيفَ الحشو ، لؤلؤيَّ الدهن ، كوكبيُّ اللون ، يذوب كالصمغ ، قبل المضغ ، ليأكله أبو زيد هنيئاً . قال : فوزنَهُ ثم قَعَدَ وقعدتُ ، وجرّدَ وجرّدتُ ، حتى استوفيناه . ثم قلتُ : ياأبا زيد ماأحوجنا الى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصّارّة .(١٣٢٥) ويفثأ(١٣٢٦) هذه اللُّقم الحارة ، اجلس ياأبا زيد حتى نأتيكَ بسقاءٍ يأتيكَ بشربةِ ماءٍ ، ثم خرجت وجلستُ بحيث أراه ولا يراني أنظر مايصنع . فلما أبطأتُ عليه ، قام السواديّ الى حماره ، فاعتلق الشِّوّاء بازاره ، وقال : اين ثمن ماأكلتَ ؟ فقال أبو زيد : أكلته ضيفاً ، فلكمه لكمةً ، وثنّى عليه بلطمةٍ ، ثم قال الشّوّاءُ : هاكَ ، ومتى دعوناكَ ؟ زِنْ ياأخا القِحَةِ عشرين(١٣٢٧) فجعل السواديّ يبكي ويحلُّ عُقدَهُ بأسنانِهِ ويقولُ : كم قلتُ لذاكَ القُرَيدِ :(١٣٢٨) أنا أبو عبيد ، وهو يقول : أنتَ ابو زيدٍ ، فأنشدتُ :

أعـمـلْ لرزقـكَ كـلَّ آلـةْ   لا تـقـعـدنَّ بـكـلِّ حالـةْ
وانـهـضْ بـكـلِّ عـظـيـمـةٍ   فالمرءُ يعجزُ لا محالة(١٣٢٩)

وتجدر الاشارة في آخر هذه الدراسة الموجزة لسيرة بديع الزمان ونثره الى أن الباحثين جميعاً أثنوا على المقامات واشادوا بمكانتها بين الفنون النثرية التي وصلت الينا ماعدا محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩ هـ) من القدامى ، والدكتور محمد مهدي البصير من المحدثين . قال ابن الطقطقا : « المقامات لايستفاد منها سوى التمرن على الانشاء ، والوقوف على مذاهب النظم والنثر . نعم وفيها حِكَمٌ وحِيَلٌ الا ان ذلك مما يصغر الهمة ، اذ هو مبني على السؤال والاستجداء والتحيل القبيح على تحصيل النزرِ الطفيف . فان نفعتْ من جانب ضَرّتْ من جانب . وبعض الناس تنبهوا على هذا من المقامات الحريرية والبديعية »(١٣٣٠) اما الدكتور محمد مهدي البصير فيقول : « أما مقامات الهمداني فانها جناية لاتغتفر على الأدب العربي ، ذلك انه خلق فيها أدب الشحاذة خلقاً وأنشأه انشاءً ، ولم يخل

(١٣٢٤) ليلي العمر : اي قد صنع بالليل . يومي النشر : اي نشر من مصنعه بالنهار فيكون قد نضج وسرت الحلاوة في جميع اجزائه .
(١٣٢٥) الصارة : العطش
(١٣٢٦) يفثأ : يسكن ، وتسكين اللقم : كسر الحدة من حرارتها .
(١٣٢٧) القحة : الوقاحة وسوء الادب . ومعنى زن عشرين : اعط وزن عشرين درهماً .
(١٣٢٨) القريد : تصغير قرد .
(١٣٢٩) مقامات بديع الزمان ص ٧١ ــ ٧٤ .
(١٣٣٠) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ص ١٥

ولكنها ظهرت الأدب العربي من الشحاذة لسوء الحظ على ألسن الشعراء المداحين . ولكنها ظهرت في هذه المرة بأبشع صورها . وأقبح أشكالها . وأخس طرقها واساليبها سامح الله الهمداني . فانه أساء الى الادب بمقاماته اكثر مما أحسن اليه بشعره ورسائله »(١٣٣١) وقد كفانا الدكتور محسن غياض بالرد على هذين القولين . فقال : « ونحن نعتقد أن ابن الطقطقا والمرحوم البصير قد تطرفا في مهاجمة المقامات تطرفاً لا مبرر له . فهي دون شك صدى لظاهرة الكدية في عصرها . ولا نرى فيها ما يصغر الهمة ويشجع على التسول . والانسان لا يكون متسولاً اذا قرأ أدب التسول . وانما هو أمر تضطره اليه ظروف الحياة وفقدان العدالة الاجتماعية . ولو كان الأمر كذلك لأصبح كلُ من قرأ أدب المجون ماجناً وكل من قرأ شعر الزهد زاهداً . وليس الامر كذلك يقيناً . كما أن البديع لم يخلق التسول والشحاذة . ولم يدع اليهما . وانما صوّر ظاهرةً موجودة في عصره . واستمد موضوع مقاماته من حياة طبقة بائسة من طبقات المجتمع آنذاك . وتلك في نظرنا ميزة يحمدُ عليها . فقد كان الادباء قبله يستمدون موضوعاتهم من حياة الطبقة الغنية . فكثرت قصصهم واحاديثهم عن الخلفاء والامراء والوزراء والمشهورين من العشاق والمغنيات والظرفاء ثم جاء البديع فخالف ذلك واستمد موضوعاته من حياة الفقراء من الناس الذين اضطرهم فساد النظام السياسي والاجتماعي الى الاستجداء والاحتيال في طلب الرزق . والبديع بهذا يقدم لنا وثيقة ادانة لفساد النظام السياسي عندما تغلبت العناصر الاعجمية ومزقت الدولة الواحدة وعاثت بها فساداً (١٣٣٢) .

(١٣٣١) في الادب العباسي ص ٩٨

(١٣٣٢) مقامات بديع الزمان الهمداني . المنشور في مجلة الطليعة الادبية . العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .

القاضي الفاضل

٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ

سيرته :

هو عبدالرحيم بن علي بن الحسن . يكنّى ابا علي ، ويعرف بالقاضي الفاضل . ينحدر من قبيلة عربية هي قبيلة لخم . ولد في الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ للهجرة ،(١٣٢٣) بمدينة عسقلان ، وهي احدى مدن فلسطين . وكان والده ويدعى القاضي الأشرف قاضياً فيها . وانتقل في طفولته الى مدينة بيسان وهي مدينة بالاردن فنسب اليها .

أخذ علوم اللغة العربية في مدينة بيسان . ولما شبَّ ظهر فيه الميل الى الادب ، فرأى والده ان يلحقه بديوان المكاتبات ليتخرَّجَ على كبار المنشئين . فأرسله الى القاهرة سنة ٥٤٣ للهجرة وهو في الخامسة عشرة من العمر . وقد روى ابن الأثير قصة قدومه الى القاهرة فقال : « حدثني عبدالرحيم بن علي البيساني ، رحمه الله ، بمدينة دمشق في سنة ٥٨٥ ، وكان اذ ذاك كاتب الدولة الصلاحية ، فقال : ... فأرسلني والدي ... وأمرني بالمصير الى ديوان المكاتبات ، وكان الذي يرأس به في تلك الايام رجلٌ يقال له : ابن الخلاّل ، فلما حضرت الديوان ، ومثلتُ بين يديه ، وعرَّفته من أنا ، وما طلبتي ، رحَّب بي وسهل ، ثم قال : مالدي اعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلتُ ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن وكتاب الحماسة . فقال : في هذا بلاغ ، ثم أمرني بملازمته . فلما ترددت اليه وتدربتُ بين يديه ، أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة . فحللته من اوله الى آخره ، ثم أمرني بأن أحلَّه مرّة ثانية . فحللته »(١٣٢٤)

ولم يقف في الدراسة عند حد الموفق يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال (ت ٥٦٦ هـ) بل تتلمذ على غيره من الكتّاب المشهورين ، منهم : ابو الفتح محمود بن اسماعيل بن قادوس (ت ٥٥١ هـ) ، وهو من مشهوري شعراء مصر آنذاك(١٣٢٥) .

(١٣٢٣) وفيات الأعيان ٣ : ١٥٨ .

(١٣٢٤) الوشي المرقوم ص ٥٤ .

(١٣٢٥) الروضتين ١ : ١٠٢ . النكت العصرية ص ٢٥ .

وبعد وقوفه على طرق الكتابة، والتدرب عليها، واجادتها، ذهب الى الاسكندرية وقصد ابن حديد قاضيها والناظر فيها. ولما عرف فضله ونبوغه، استكتبه، وقرر له مرتباً يتقاضاه. وظل في الاسكندرية زهاء ثماني سنوات برزت فيها مواهبه. وعندما سمع به الوزير العادل رزّيك بن الصالح طلائع بعث الى والي الاسكندرية ان يرسله اليه، وولاه رئاسة ديوان الجيش.(١٣٣٦) وتوثقت صلته بهذا الوزير، ويحتفظ ديوانه بشعر كثير في مدحه. منه قوله من قصيدة طويلة:(١٣٣٧)

ففي قلبه للناس وُدٌ ورحمةٌ   وفي قلوبهم منه المهابةُ والحبُّ
فعالٍ اذا مارمتَ احصاء مجدها   فحسبك قولي: لايحيطُ بهالحسبُ

وبقي القاضي الفاضل يعمل في الدولة كاتباً معتمداً. وحينما قامت الدولة الايوبية في مصر والشام لم يستغن صلاحُ الدين الايوبي عنه، بل قرّبه، وفوّض اليه الوزارة وديوان الانشاء.(١٣٣٨) وأصبح كاتبه البليغ ومراسله الامين الى الخلفاء والملوك والامراء والقواد. وصار أعزّ عنده من اهله واولاده.(١٣٣٩) يعظمه ويرجع الى قوله. ويزوره مستشيراً اذا أراد السفر لملاقاة الاعداد من الفرنج. وقد وصل احترامه وتقديره الى درجة القول فيه: «لاتظنوا ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل»(١٣٤٠) وقد سجل مؤرخوه له هذه المكانة السامية في الدولة الايوبية. قال المقريزي: «كان لا يصدر أمراً الاّ عن مشورته. ولا ينفذ شيئاً الاّ عن رأيه. ولا يحكم في قضية الاّ بتدبيره»(١٣٤١)

وظلّ القاضي الفاضل مخلصاً للدولة الايوبية. يشرف على الادارة المالية. ويعمل على تجهيز الجيش والاسطول. وفي ايام صلاح الدين الاخيرة صاحبه الى دمشق. وظلّ بالقرب منه حتى مرضه الاخير. وشاهد وفاة هذا القائد المجاهد في السابع والعشرين من صفر سنه ٥٨٩ للهجرة. ورأى ان يدفن معه سيفه الذي كان يرافقه في جهاده وحروبه النضالية.(١٣٤٢)وكتب رسالة الى ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب يعزيه فيها ويدعوه الى جمع الشمل ووحدة الكلمة: «لقد كان لكم

(١٣٣٦) القاضي الفاضل، دراسة ونماذج ص ١٥.

(١٣٣٧) ديوان القاضي الفاضل ١: ١٥٦

(١٣٣٨) صبح الأعشى ١: ٩٧

(١٣٣٩) البداية والنهاية ١٣: ٢٤.

(١٣٤٠) مرآة الزمان ٨: ٣٠٤، وينظر شذرات الذهب ٤: ٣٢٤

(١٣٤١) خطط المقريزي ٤: ١٩٨

(١٣٤٢) الروضتين ٢: ٢١٤

في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ .(١٣٤٣) انّ زلزلة الساعةِ شيءٌ عظيمٌ .(١٣٤٤) كتبتُ الى مولانا السلطان الملكِ الظاهر ، أحسن الله عزاءه وجبر مصابه ؛ وجعلَ فيه الخلفَ لمماليك المرحوم واصحابه . وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً ؛ وقد حفرت الدموعُ المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد ودّعتُ أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده ، وقد قبّلتُ وجهه عني وعنكَ ، وأسلمته الى الله تعالى مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضياً عن الله ، ولا حولَ ولا قوةَ الا بالله ؛ وبالبابِ من الجنودِالمجنّدة، والأسلحة المغمدة ؛ ما لا يدفعُ البلاء ، ولا يردّ القضاء ؛ وتدمعُ العين ويخشع القلب ، ولا نقول الاّ مايرضي الربُّ ، وانا عليك يايوسف لمحزونون وأما الوصايا فما يحتاج اليها ، والآراء فقد شغلني المصابُ عنها ، وأما لائح الأمر فانّه ان وقع اتفاقٌ فما عدمتم الاّ شخصه الكريم ، وان كان غير ذلك فالمصائبُ المستقبلة اهونها موتُه ، وهو الهول العظيم ، والسلام »(١٣٤٥)

وبقي القاضي الفاضل على صلة بالأسرة الايوبية ، وفياً لأبنائها ، لإعجابه بشجاعتهم ونبلهم وكرمهم ، وقد مدحهم بقوله :(١٣٤٦)

قالوا : رأينا الأسودَ الصبر عادتُهم ... فقلتُ : أبناءُ أيوبٍ ولا عجبُ
الـــشاربون كؤوسَ الموتِ مـــترعةً ... وللاســـنّةِ في حافاتـــها حَبَـــبُ
والمضرمون لنار الحربِ ليس لها ... الاّ الرماحَ واضلاعُ العدا حطبُ
أطلتْ على كلِّ [illegible] منهم ، واذا ... كانوا غضاباً فلا يثني الندى الغضبُ
لا تشغل الوقتَ في تسبيب مسألةٍ ... فليس كلّ عطاياهم لها سببُ
القومُ هم واصلو الأرحامِ دهرهم ... وبينَ أموالهم والمعتفي سببُ

وبعد زمن قصير من وزارته للملك الأفضل علي بن صلاح الدين صاحب دمشق ، استعفى ، وعاد الى القاهرة ، فخرج ملك مصر العزيز عثمان بن صلاح الدين الى لقائه .(١٣٤٧) ويبدو أنه تعب من العمل السياسي فآثر الراحة عاكفاً على الأدب والعلم ، وبقي محتفظاً بمكانته ومنزلته عند بني أيوب ، وأنشأ لنفسه مدرسة

(١٣٤٣) سورة الأحزاب ، الآية ٢١
(١٣٤٤) سورة الحج ، الآية ١ .
(١٣٤٥) مرآة الزمان ٨ ، ٤٢٢ ، وفيات الاعيان ٧ ، ٢٠٤ ، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ص ١٨٥ ، النجوم الزاهرة ٦ ، ٥٢ ، لتمة المختصر في أخبار البشر ٢ ، ١٦١ .
(١٣٤٦) ديوان القاضي الفاضل ١ ، ١٦٢
(١٣٤٧) السلوك ١ ، ١١٥ .

سميت باسمه . وضم اليها مكتبة كبيرة . فيها جملة عظيمة من الكتب(١٣٤٨) . وجعل فيها قاعة للاقراء. والى جانبها كُتاباً برسم الايتام (١٣٤٩) .

وظل يجمع حوله تلاميذه ومريديه من الادباء والعلماء إلى ان توفي بداره في القاهرة يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر سنة ٥٩٦ للهجرة (١٣٥٠) .

آثاره :

١ ـ ديوان شعره : وهو محقق ومطبوع بجزأين . تغلب عليه الصناعة اللفظية . فهو لا يكاد يتركها اذا تأتى له استخدامها . ولهذه الناحية من خصائص شعره أعجب رجال الصناعة به . ومثلوا لكثير من الوانها بشعره . مسجلين له أعظم تقدير واعجاب. اما أولئك الذين لاتعنيهم هذه الصناعة فلا يرتفعون في تقدير شعره الى هذا المستوى من التقدير(١٣٥١) .

٢ ـ رسائله : ترك القاضي بعده رسائل كثيرة . قيل : انها في عشرة مجلدات (١٣٥٢) . وقد انتقى منها محيي الدين عبدالله بن عبدالظاهر (ت ٦٩٢ هـ) مجموعة سمّاها « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم »(١٣٥٣) . وكذلك فعل مثل ذلك جمال الدين بن نباتة المصري (ت ٧٦٨ هـ) وسمّى مجموعته « الفاضل من كلام الفاضل »(١٣٥٤) .

٣ ـ المتجددات : وهي مذكرات يروي فيها حوادث زمنه في ايام صلاح الدين الايوبي وبعده مؤرخة . وقد نقل منها المقريزي كثيراً في كتابه .(١٣٥٥)

(١٣٤٨) قال ابن الساعي : كان له خزانة تحتوي على ثلاثين الف مجلد (الجامع المختصر ص ٢٨) وقال ابو شامة المقدسي : وأكثر اهل مصر يذكرون ان كتبه التي جمعها مقدار مئة الف مجلد (الروضتين ٢ : ٢٤٤)

(١٣٤٩) خطط المقريزي ٤ : ١٩٧

(١٣٥٠) الروضتين ٢ : ٢٤١

(١٣٥١) لننظر مقدمة ديوانه المطبوع

(١٣٥٢) مرآة الزمان ٨ : ٤٧٢

(١٣٥٣) توجد نسخة مخطوطة منها في مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٢٤٢٧ ، ومصورة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٤ أدب .

(١٣٥٤) مخطوطته في مكتبة الازهر رقم ٤٦٩ أباظة ـ ٧٠٩٥ ـ ادب . ودار الكتب المصرية رقم ٢٨٨٢ أدب

(١٣٥٥) تجد نماذجها في خطط المقريزي ١ : ٩٧ ، ١٣٩ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، و ٢ : ٢٢ ، ٢٥١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ و ٣ : ٦ ، ٣٧ ، ١٧٤ ، ٢٠١ ، ٢٢١ .

انشاؤه :

بلغ التصنيع ، والتأنق البياني ، والصبغ البديعي ، مبلغاً عظيماً في القرن السادس للهجرة ، وقد ظهر تأثير ذلك في كل العصور التالية ، ومما لاريب فيه انه كان للقاضي الفاضل يد طول في هذه الحركة حتى عُدّ شيخ الصناعة الكتابية ، وحتى صاروا يقولون الطريقة الفاضلية .(١٣٥٦) قال ابن حجة الحموي : « ولعمري انّ الانشاء الذي صدر في الايام الاموية والايام العباسية نُسيَ وألغي بانشاء الفاضل ، وما اخترعه من النكت الادبية ، والمعاني المخترعة ، والأنواع البديعية ، والذي يؤيد قولي قول العماد الكاتب في الخريدة : انه في صناعة الانشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع » .(١٣٥٧) وكان النويري معجباً بطريقته في الكتابة ايما اعجاب ، اذ قال فيه : « اليه انتهت صناعة الانشاء ووقفت ، وبفضله أقرّت ابناءُ البيان واعترفتْ ، ومن بحر علمه رويتْ ذوو الفضائل واغترفتْ ، وأمام فضله ألقت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت بها نواها ، فهو كاتبُ الشرقِ والغربِ في زمانه وعصره ، وناشرُ ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافعُ علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير اطالة »(١٣٥٨) وقد بالغ السبكي حين رفعه الى درجة عالية جداً في قوله : « أجمع اهل الادب على ان الله تعالى لم يخلق في صناعة الترسل من بعده مثله ، ولا من قبله بأكثر من مئتي عام ، وربّما زادوا ، وهو بينهم كالشافعي وابي حنيفة بين الفقهاء ، بل هم له أخضع ، لأن اصحاب الامامين قد يتنازعون في الأرجحية ، فكلّ يدعي ارجحية امامه ، واما هذا فلا تنازع بين اهل صناعته فيه » (١٣٥٩) وقد ذهب الزيّات عكس ماذهب اليه القدامى ، فقال : « استحدث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ، وسازها بالاغراق في التورية والجناس ، حتى اصبحت الكتابة في عهده طلاءً خدّاعاً من زخرف اللفظ ، على هيكل بالٍ من المعنى السقيم ، ثم بهرت هذه الطريقة العقيمة العيونَ الكليلة ، والقرائح الناضبة ، فاتنقاها عبّاد الصنعة من أشباه الكتّاب ، وورّطوا أنفسهم فيما لاغناء فيه ولا رجع منه »(١٣٦٠).لقد كان الذوق العام في العصر العباسي الأخير وما تلاه يقوم – في الغالب – على الاجادة في استخدام الوان البديع وقد بلغ فيها القاضي

(١٣٥٦) ينظر : تطور الاساليب النثرية في الادب العربي، ص ٢٩٢ .

(١٣٥٧) ثمرات الاوراق ص ١٣٢ ، وتنظر : الخريدة . قسم مصر ، ١ : ٣٥ .

(١٣٥٨) نهاية الأدب ٨ : ١

(١٣٥٩) طبقات الشافعية ٧ : ١٦٧

(١٣٦٠) تاريخ الادب العربي ص ١٩٢

الفاضل الذروة . ولا غرو اذا تحدّث الشعراء بهذه الاجادة . منهم سبط ابن التعاويذي ، يقول في وصف رسائله :(١٣٦١)

يسيرُ في الآفاقِ ابناؤها ... كأنــها الــليــلُ اذا يــسري
تزهو على الاصداف ادراجها ... لأنــــها اوعــــيةُ الدرّ
قارئـــها يــنـــظر في روضةٍ ... موشـــية الاقـــطار بالزهرِ
كأنـــه فـــضّ وقد فـــضّـــها ... لطائم العطر على العِطْرِ
تـحدثُ في أعـطافـهِ نـشوةً ... كأنـــها جاءت عــلى خــمر

أسس القاضي الفاضل طريقته على طريقة ابن العميد ، التي تلتزم السجع والطباق ، وتتوسع في المعاني الخيالية . الا أن سجعه يمتاز بالطول ، ويزيد على ذلك انه يكثر من استعمال فنون البديع الاخرى المستعملة في الشعر : من تورية ،(١٣٦٢) وجناس ، وتلميح ، واستخدام ، وتوجيه ، ومراعاة نظير ، واقتباس آيات من القرآن ، وكثيراً ما استعان بآيات من الكتاب في كثير من رسائله ،(١٣٦٣) وضمنها الأمثال ، ومأثور الاقوال ، ومصطلحات العلوم . وحل ابيات الحكمة . وبالغ في صنع الوان البيان ، حتى ازدحمت رسائله بأفانين البلاغة .(١٣٦٤) ومما يدل على طول باع الفاضل وغزارة مادته انه لم يكن يكرر في رسائله ماسبق ان استعمله ، فما « كرر دعاءً ذكره في مكاتبته ، ولا ردَّد لفظاً في مخاطبته ، بل تأتي فصوله مبتكرة مبتدعة »(١٣٦٥) وللوقوف على طبيعة كتابته نأخذ جزءاً من رسالة كتبها عن السلطان صلاح الدين الى الخليفة المستضيء بأمر الله ببغداد يبشره فيها بفتح بلد من بلاد النوبة والنصرة عليها : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي

(١٣٦١) ديوان سبط ابن التعاويذي ص ١٩٤ .

(١٣٦٢) قال ابن حجة : ان الفاضل هو الذي عصر سلافة التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها في نظمه ونثره ، فانه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها ، وانزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها (خزانة الأدب ص ٢٤١) .

(١٣٦٣) ينظر : مرآة الزمان ٨ : ٤٧٢ ، أدب الحروب الصليبية ص ١٨٥ .

(١٣٦٤) ينظر : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٣٥٩ .

(١٣٦٥) الروضتين ٢ : ٢٤٢ .

الصالحون .(١٣٦٦) سلامٌ قولاً من ربٍ رحيمٍ .(١٣٦٧) فروحٌ وريحانٌ وجنةُ نعيم .(١٣٦٨) وصلاة يتبعها تسليم ، وكأسٌ يمزجها تسنيم ، وذكرٌ من الله سبحانه في الملأ الاعلى ، ورحمةُ الله وبركاته معلومةً من النشأة الاولى على مولانا الامام المستضيء بالله ، المستضاء بأنواره ، المستضاف بناره . الداعي الى الحقّ والى طريقٍ مستقيم ، الراعي للخلق كما يرعى النسيمُ النسيم ، التامّ عدله . المطروقِ موردُ فنائه . المصدوق في مورد ثنائه . المحقوق من كل وليٍ بولائه . ابنِ السادة الغُرّ . والقادة الزُهر ، والذادةِ الحمس ، والشادةِ للحق على الأسّ . سقاةِ الكوثر وزمزم والسحاب ، وولاةِ الموسم والموقف والكتاب ، والموصول الانساب يوم اذا نفخ في الصور فلا أنساب ، والصابرون على حساب انفسهم فهم الذين يؤتون اجرهم بغير حساب » .(١٣٦٩)

ومن رسائله الاخوانية قوله من رسالة الى صديقٍ يتشوّقُ اليه ، « نسأل الله أنْ يمنّ بقربه ورحابُ الآمالِ فسائح . وركابُ الهموم طلائح . والزمنُ المناظرُ بالقربِ مسامح . هنالك تطلقُ أعنّةُ الآمالِ الحوابس ، ويهتزُّ مخضراً من السعود عود يابس :

وما أنا من أن يجمع الله شملنا بأحسن ما كنا عليه بآيس

وقد كان الواجبُ تقديم عتبه . على تأخير كتبه . ولكنّه يخافُ ان يجني ذنباً عظيماً . ويؤلم قلباً كريماً .

ولستُ براضٍ من خليلٍ بنائلٍ قليلٍ ، ولا راضٍ له بقليلِ

وحاشا جلاله من الاخلالِ بعهود الوفاء ، ومن انحلالِ عقود الصفاء . وما عهدتُ عزمةُ القويّ في حلبة الشوقِ الاّ من الضعفاء . وحاشية خلقِه الاّ أرقّ من مدامع غرماء الجفاء .

من لم يبتْ والبينُ يصدعُ قلبهُ لم يدرِ كيف تقلقلُ الاحشاءُ (١٣٧٠)

(١٣٦٦) سورة الانبياء ، الآية ١٠٥ .

(١٣٦٧) سورة يس ، الآية ٥٨ .

(١٣٦٨) سورة الواقعة ، الآية ٨٩ .

(١٣٦٩) صبح الاعشى ٦ : ٥٠٦ .

(١٣٧٠) القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج ص ١٢٨ .

عماد الدين الاصبهاني الكاتب

٥١٩ ـ ٥٩٧ هـ

شهدت مصر والشام في القرن السادس للهجرة صراعاً دامياً مع عدو غاشم استأثر باجزاء عزيزة من ديار المسلمين ولا سيما القدس الشريف . وقد هيأ الله لمقاتلة هذا العدو اللدود ابطالاً مناضلين عظام ، ورجالاً مجاهدين كرام ، من أبرزهم نور الدين محمود وصلاح الدين الايوبي « وكان هذان المنقذان العظيمان عنوانين لذلك العصر في العلم والتقوى والسياسة العادلة وتدبير الملك والجهاد في سبيل الله والسعي في تحرير الوطن من المغيرين ، ومن كان مثلهما في سمو الذات وجلال الصفات . كان خليقاً بان يختار رجاله من طراز (العماد) في الكفايات . ومقياس عقول الرجال والدول اختيارها اعوانها »(١٣٧١) .

لقد كان عماد الدين ، الكاتب الامين للدولتين النورية والصلاحية . وسنبين دوره في ظل هاتين الدولتين ، وطبيعة كتاباته في تسجيل الاحداث الكبيرة في رسائل وكتب تعدُّ من اصدق الوثائق عن الحروب مع الفرنج .

سيرته :

هو ابو عبدالله محمد بن صفي الدين ابي الفرج محمد بن نفيس الدين ابي الرجاء حامد ، المشهور بالعماد الاصبهاني(١٣٧٢) . ولد باصبهان سنة ٥١٩ للهجرة ،ونشأ بها ، وتعلّم مبادئ اللغة العربية وآدابها ، وقدم بغداد مع ابيه ، ثم دخل المدرسة « النظامية » ، وانتظم في سلك تلامذتها ، ليغترف من مناهل اساتذتها . وحينما تفتحت اكمام غرسه ، وتوسّعت دائرةُ معارفه ، بدأ في ارتياد المحافل العلمية ، والمجالس الادبية ، ومواجهة ارباب السيف والقلم . واول محفلٍ حضره ، وجاذب الحديث فيه ، كان في مدينة الموصل ، حين زارها ـ وهو في إيهاب الشباب ـ ومدح وزيرها بالكرم والسخاء جمال الدين ابا جعفر محمد بن علي الاصبهاني ، وصرّح

(١٣٧١) كاتب الدولتين النورية والصلاحية ص ٢٤ (بحث للاستاذ محمد بهية الاثري . مجلة المجمع العلمي العراقي . الجزء الاول ـ المجلد الرابع لسنة ١٩٥٦)

(١٣٧٢) معجم الادباء ٧ : ٨١ ، الجامع المختصر ص ٦١ ، وفيات الاعيان ٥ : ٤٧ ، الوافي بالوفيات ١ : ١٣٢ ، طبقات الشافعية للسبكي ٢ : ٩٧ .

بذلك . فقال : « وكنت انا في ذلك العهد ببغداد متفقهاً . واتفق حضوري بالموصل سنة اثنتين واربعين وخمس مئة . فحضرت عند جمال الدين بالجامع في جمعتين . وتكلّمتُ عنده مع الفقهاء في مسألتين . ومما مدحته به قصيدة ـ وذلك من اول نظمي ـ أولها :

أظنهُم . وقد عزموا ارتحالا ثنوا عنا جُمالاً لا جِمالا »(١٣٧٣)

ثم عاد الى بغداد . ومنها الى أصبهان . قال : « ودخلت اصبهان في سنة ثلاث واربعين وخمس مئة في زي العلماء . وحضرت المحافل في مناظرة الفضلاء . ومناضلة الكبراء . ولقيت بها مشايخ اترعت حوض النحر من الفهم من بحرهم . واستسقيتُ روض الفضل من قطرهم »(١٣٧٤)

وبعد مكوثه مدة قصيرة سافر الى الحجاز . وادى مناسك الحج . وعاد الى اصبهان فاخذ يستكمل مسيرته العلمية . وفي سنة ٥٤٩ للهجرة غادرها الى غير رجعة . واستقر في بغداد . وبدأ صعوده في سلم المجد والرفعة شاعراً وكاتباً له مكانته السامية ومنزلته العالية .

تولّى نيابة واسط والبصرة في وزارة عون الدين يحيى بن محمد بن هُبيرة . ولكنه هوى من منصـ ـار وفاة الوزير المذكور . وصدرت اوامر الخليفة المستنجد بالله باعتقاله . فبعث من سجنه الى عماد الدين بن الوزير عضد الدين محمد ـ وكان حينئذ أُستاذ الدار ـ (١٣٧٥) قصيدة طويلة(١٣٧٦) يطلب فيها ان يشفع له عند الخليفة في فك وثاقه واطلاق سراحه . وتحقق ماأراد . فاقام في بغداد مدة ـ كما يقول ابن خلكان ـ في عيش منكد . وجفن مُسهَّد(١٣٧٧) . ولما ضاقت به الحال . وخشي ان يقع في مذلّة السؤال . قرّر ان يشد الرحال صوب دمشق .

وصل العماد الى دمشق في شعبان سنة ٥٦٢ للهجرة . وسلطان الشام يومئذ الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي . فانزله قاضيه كمال الدين ابو الفضل محمد بن عبدالله الشهرزوري بالمدرسة « النورية » التي سميت فيما بعد

(١٣٧٣) تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٤ ، وينظر ديوان عماد الدين الاصبهاني ص ٢٢٣

(١٣٧٤) الخريدة ، قسم العجم ، ص ٢٥٨

(١٣٧٥) استاذ الدار : هو متولي الاخذ وقبض المال (صبح الاعشى ٥ ، ٤٥٧) .

(١٣٧٦) ينظر ديوان عماد الدين الاصبهاني ص ٩٦

(١٣٧٧) وفيات الاعيان ٥ ، ١٤٨

بالمدرسة « العمادية » نسبة اليه . وقربه من نور الدين ، وعرفه به ، وسمع قصيدته المدحيه التي يقول في مطلعها :(١٣٧٨)

لو حفظت يوم النوى عهودها   ما مطلت بوصلكم وعودها

ونال أكرام نور الدين ، وعين في نواته منشئاً الى جانب التدريس بالمدرسة التي نزل فيها . ثم اصبح مشرفاً على ديوان الانشاء مضافاً الى كتابة الانشاء .

عاش العماد في سعة من العيش ورغده . ولما توفي نور الدين سنة ٥٦٩ للهجرة ، خبا نجمه . وبدأ حساده يضايقونه . قال : « ولما توفي نور الدين ، اختل امري ، واعتل سري ، وفاض دمعي ، وغاض بحري ، وعلت حسادي ، وبلغ مرادهم اضدادي(١٣٧٩) »

واثر العماد السلامة ، فقرر مبارحة دمشق الى بغداد ، فأغذ السير . وحينما بلغ الموصل داهمه المرض ، فاضطر ان يمكث فيها ثلاثة اشهر ، قال : « اقمن بالموصل ثلاثة اشهر ملازماً البيت ، انتظر فرجاً ، وأرتقب لقصد العرق منهجا »(١٣٨٠) . وفي اثناء ذلك جاءه البشير بسيطرة صلاح الدين على مقاليد الحكم ، وكان قد تعرف عليه حينما كان يعمل في الدولة النورية ، كما له سابق معرفة بابيه نجم الدين ايوب من تكريت . فكر راجعاً الى الشام ، والامل يحدوه في ان ينال مقاماً محموداً عنده ، ويغيظ حاسديه الذين حاربوه ونغصوا حياته .

لقد تحقق حلمه ، ونال مبتغاه ، اذ استطاع ان يلتقي بالسلطان صلاح الدين في مدينة حمص ، وان ينشده قصيدته التي يقول في اولها :(١٣٨١)

أجيرانَ « جيرونَ » مالي مجيرُ   سوى عطفِكم ، فاعدلوا او فجوروا

واصبح في الدولة الايوبية كاتباً للسر ، ومسؤولاً عن ديوان الاستيفاء ، وصحبَ صلاح الدين ، وشهدَ اغلب الوقائع الحربية معه ، وكتب كثيراً من الرسائل على لسانه ، وتغنّى شعراً بمناقبه وبطولاته .

(١٣٧٨) ديوان عماد الدين الاصبهاني ص ١٤٣

(١٣٧٩) سنا البرق الشامي ١ : ١٥٩

(١٣٨٠) الخريدة ، بداية شعراء الشام ، ص ٧٢

(١٣٨١) الديوان ص ١٨٥

وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩ للهجرة ضعفت مكانةُ العمادِ، وقلَّتْ هيبتهُ بين العباد. قال ابن خلكان: «لم يزل العماد الكاتب على مكانته ورفعة منزلته، الى ان توفي السلطان صلاح الدين، رحمه الله. فاختلتْ احواله. وتعطَّلت اوصاله. ولم يجد في وجهه بابا مفتوحاً. فلازم بيته، واقبلَ على الاشتغال بالتصانيف»[١٣٨٢]

واشتغل العماد بالكتابة في دولة الملك الافضل علي بن صلاح الدين. ولكن سرعان ماطلب الاستعفاء، وانصرف الى التصنيف، والتدريس والافادة حتى وافته منيته بدمشق يوم الاثنين مستهل شهر رمضان سنة ٥٩٧ للهجرة وهو في الثامنة والسبعين من العمر.

مصنفاته:

كان العماد طالب علم ومعرفة طوال حياته. يقرأ، ويُدرِّس، ويؤلف، الى جانب اشتغاله في مراكز الدولة المهمة. وكانت له قدرة كبيرة على الحفظ. قيل «انه كان يحفظ شعر البحتري، ودواوين العرب المشهورة»[١٣٨٣]. ومصنفاته كثيرة وسأذكر ماوصل الينا منها، وهي:

١ ــ خريدة القصر وجريدة العصر[١٣٨٤]
٢ ــ الفتح القسي في الفتح القدسي[١٣٨٥]
٣ ــ نصرة الفترة وعصرة القطرة[١٣٨٦]
٤ ــ البرق الشامي[١٣٨٧]

(١٣٨٢) وفيات الاعيان ٥: ١٥٢
(١٣٨٣) مرآة الزمان ٨: ٥٠٤
(١٣٨٤) وصل الينا هذا الكتاب كاملا، وهو الشام، طبع منه قسم شعراء مصر، وشعراء الشام، وشعراء العراق، وشعراء المغرب.
(١٣٨٥) طبع مرات في اوربا والبلاد العربية.
(١٣٨٦) منه نسخة في مكتبة بودليان بأكسفورد رقم ٦٦٢ واخرى في المكتبة الوطنية بباريس رقم ٢١٤٥. لخصه الفتح بن علي البنداري سنة ٦٢٣ هـ ووصل الينا، وله عدة طبعات في اوربا والقاهرة وبيروت بعنوان «زبدة النصرة ونخبة العصرة» او بعنوان «تاريخ دولة ال سلجوق».
(١٣٨٧) وهو في سبعة مجلدات، وصل الينا منه الجزءان الثالث والخامس، وهما في مكتبة بودليان باكسفورد رقم ١١، ٤٢٥ (في مكتبتي نسخة مصورة منهما)

٥ _ البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان(١٣٨٨)

٦ _ ديوان شعر(١٣٨٩)

٧ _ رسائل متناثرة في الكتب التاريخية مثل : البرق الشامي ، والفتح القسي ، والروضتين ، ومفرج الكروب في اخبار بني أيوب ...

فنه الكتابي :

عاش العماد مع القرطاس والقلم ، مُغرماً بهما ، وفياً لهما ، الى أن ادركته المنية ، وترك تراثاً ضخماً تجاوز خمسة وأربعين مجلداً(١٣٩٠) . وقد بدا لنا من قراءة آثاره الباقية أنه كان ميالاً الى الاطالة والاستقصاء ، والشرح والتفصيل ، وتقليب المعنى على أوجهه المختلفة . واستدعتْ هذه الاطالة الى ايراد أكبر عدد من الألفاظ في الموضوع الواحد ، وهي لاتتأتى الا لمن عركَ اللغة ، وسبرَ أغوارها ، وخبرَ أسرارها . ودفعه الافراط في الاسترسال والتوسع الى الحشو والتكرار ، واتيان المترادفات ، والمشتقات ذات الأصل الواحد ، والألفاظ النادرة ، « فأثقل على قرائه ، وشقَّ عليهم في متابعة كلامه المطنب الذي يوجب عليه أن يقتصد في الكلام على حسب ماتقتضيه طبيعة الحوادث والأخبار ليكون أقرب الى التاريخ منه الى الانشاء »(١٣٩١) .

ان كتاباته قائمة على السجع ، والمجانسة ، والمشاكلة ، والتطبيق ، والترصيع ، والموازنة ، والتعقيد ... وقلما نجد في اللغة العربية كتاباً في التاريخ يعتمد على المحسنات اللفظية والمعنوية مثل كتاب العماد « الفتح القسي في الفتح القدسي » أو كتابه « البرق الشامي » أو مقدمات تراجمه للشعراء والكتاب في كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » .

كان العماد معجباً أيما إعجاب بالقاضي الفاضل زعيم الصنعة في القرن السادس للهجرة ، اسمع مايقوله في رسالة بعث بها اليه يشكره فيها على اهدائه له تسع مجلدات من أشعار أهل المغرب : « وأنا مورد رسالة جامعة مانعة . قد وَفَّيتها حقَّها

(١٣٨٨) نسخة منه في مكتبة احمد الثالث باستانبول رقم ٢٩٥٩

(١٣٨٩) اصل الديوان مفقود ، والمطبوع من صنعي ، جمعت مادته من كتب كثيرة مخطوطة ومطبوعة .

(١٣٩٠) مقدمة كتاب سنا البرق الشامي ١ : ١٥

(١٣٩١) الأدب في ظل الدولة الزنكية ص ٢٥٥ .

من التجنيس . والتطبيق . والترصيع . والمقابلة . والموازنة . والتوشيع »(١٣٩٢) . وانظر الى ولعه بالصنعة في الأبيات الاتية قالها حينما كان مع القاضي الفاضل في موكب السلطان صلاح الدين الأيوبي . وقد انتشر الغبار بكثرة من سنابك خيول الفرسان :(١٣٩٣)

أما الغبارُ فإنّهُ	مما أثارتْهُ السنابكْ
والجوُّ منه مظلمٌ	لكن أنار به السَّنابكْ
يادهرُ لي عبد الرحيـ	ـم فلستُ أخشى مسَّ نابكْ

إن الصنعة التي تكد الذهن وتتعب الفكر قد سادت في أسلوب العماد . مثل قوله في الرسالة الاتية التي كتبها الى القاضي الفاضل عندما حجَّ سنة ٥٧٤ للهجرة : « طوبى للحِجْرِ والحَجُون من ذي الحجر والحجا . منيل الجدا . ومنير الدُّجى . ولندي الكعبة من كعبة الندى . وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى وللمقام الكريم من مقام الكريم . ومن حاطم فقار القفز للحطيم . ومتى رؤي هرم في الحرم . وحاتم ماتح زمزم ؟ ومتى ركب البحر البحر . وسلك البر البر ؟ لقد عاد قُس الى عكاظه . وعاد قيس لحفاظه . ويا عجباً لكعبة يقصدها كعبة الفضل والافضال . ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والاقبال والسلام »(١٣٩٤) . إن هذا الاغراق في الصنعة كان محبباً عند العماد . ولاعجب حين يقول مُعقباً على أبيات فيها جناس : « وأنا استحلي هذا النوع من التجنيس . واستعذبه . ويحسبه زلال الماء قلبي في الرقّة والصفاء فيشربُهُ ويتشرّبُهُ »(١٣٩٥) ولكي يكون القاري على بينة أكثر من إنشاء العماد نأخذ جزءاً من الخطاب الذي كتبه عن صلاح الدين الى الخليفة الناصر لدين الله ببغداد ينبئه بفتح القدس سنة ٥٨٣ للهجرة : (ولقد كتبنا في الزَّبور من بعد الذكر أن الأرض يَرِثُها عبادي الصالحون)(١٣٩٦) الحمدُ لله على ما أنجز من هذا الوعد . على نصرته لهذا الدين الحنيفِ من قبل ومن بعد : وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما اشتمل على شبهها كرائمُ الصحائف . ولم يُجادَلْ على مثلها في المواقف ، في الايام الامامية الناصرية زادها الله غُرراً وأوضاحاً . ووالى البشائرَ فيها بالفُتوح غُدواً ورواحاً . ومكّن

(١٣٩٢) الخريدة . قسم مصر . ١ : ٤٤ .

(١٣٩٣) ديوان عماد الدين الاصبهاني ص ٣٣١ .

(١٣٩٤) وفيات الأعيان ٥ : ١٥١ .

(١٣٩٥) الخريدة . قسم العراق . ١ : ١٢٦ .

(١٣٩٦) سورة الانبياء الاية ١٠٥ .

سُيوفَها في كلِّ مازقٍ، من كلِّ كافرٍ ومارقٍ، ولا أخلاها من سيرة سريّة تجمعُ بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق . وأطال أيدي أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق، وأنجزها الحَقُّ وتِذفَ به على الباطل الزاهق ، وملّكها هوادي المغارب ومرامي المشارق ؛ ولا زالت آواؤها في الظُلماتِ مصابح وسُيوفُها للبلاد مفاتح ، وأطراف أسنّتها لدماء الاعداء نوازح .

والحمدُ الله الذي نَصر سلطان الديوان العزيز وأيّده ، وأظفر جُنده الغالبَ وأنجده ، وجلا به جلابيبَ الظلماء ، وجدَّدَ جُدُده وجعل بَعد عُسْرٍ يُسْرا ، وقد أحدث الله بعد ذلكَ أمراً . وهون الأمر الذي ماكان الاسلامُ يستطيعُ عليه صبرا ، وخُوطبَ الدينُ بقوله : (ولقد مَننّا عليك مرّة أخرى)(١٣٩٧)

فالأولى عصر النبيّ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ والصحابة ، والاخرى هذه التي عتَقَ فيها من رقّ الكآبة ؛ فهو قد أصبح حُراً فالزمانُ كهيئته استدار ،والحقُّ بمهجتهِ قد استنار ؛ والكافرُ قد ردَّ ما كان عنده من المستعار ، وغسل ثوبَ الليل بما فجَّر الفجرُ من أنهار النهار ؛ وأتى الله بُنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليلَ صُدورِ المؤمنين برقراقِ ماء المَوْردات البوارد ، أنزل ملائكةً لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تَخْفَ عن القلوب الحافظة ؛ عَزت سيما الاسلام بمَسوّمها ، وترادف نصرُه بمُرْدَفها ، وأخذت القُرى وهي ظالمةٌ فترى مُترفيها كأنْ لم تؤْوَ فيها ،فكم أقدم بها حيزوم، وركض فأتبعه سحابُ عَجاجٍ مركوم ، وضرب فاذا ضَرْبُه كتابُ جراح مرقوم ... والحمدُ لله الذي أعادَ الاسلام جديداً ثوبهُ ، بعد أن كان جديداً حَبْله(١٣٩٨) ، مبيضا نصرُه ، مخضراً نصلُه . متسعاً فضله . مجتمعاً شمله . والخادمُ يشرحُ مِن نبأ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ؛ مايشرحُ صدورَ المؤمنين ، ويمنحُ الحبور لكافة المسلمين »(١٣٩٩)

(١٣٩٦) سورة الانبياء ، الآية ١٠٥ .

(١٣٩٧) سورة طه الآية ٣٧ .

(١٣٩٨) جديداً ، مقطوعاً ، قال الشاعر :

ابى حبى لسلمى أن يبيدا وأمسى حبلها خلقاً جديداً

(١٣٩٩) صبح الأعشى ٦ : ٥١٧ ـ ٥٢٠ .

هـذه الرسـالة تُظهر بوضوح طريقـة العماد فـي الكتابة الفنيـة ، وقد لاحظنا استعانته الكبيرة بالسجع والجناس وبالقرآن الكريم ، ولايكاد يتخلَّص من هذه الطريقة في جميع كتاباته ، سواء كانت كتباً أم رسائل .

الخاتمة

تحدثنا في هذا الكتاب عن الأدب ـ شعراً ونثراً ـ ابتداءً من قيام دولة بني العباس سنة ١٣٢ للهجرة إلى زمن زوالها سنة ٦٥٦ للهجرة . ذلك الأدب الذي نما وتطور وارتقى وبلغ الغاية العظمى في عصر اختلطت فيه الثقافةُ العربيةُ الأصيلة بالثقافات الوافدة ، وامتزجتْ فيه العادات والتقاليد والقيم الموروثة بما عند الشعوب الاخرى .

لقد ارتقت الحياةُ العقلية والادبية في العصر العباسي ، وسمتْ جوانبها ، وأثمرتْ شجرةُ غرسها نتاجاً جنياً طيباً كثيراً . أغنت المكتبة العربية بتراث قيمٍ وثروة نفيسة من الكتب والمصنفات في مختلف جوانب المعرفة لاتزال الى وقتنا الحاضر تعدُّ المصادر الرئيسة للباحثين والدارسين ، تلك الثروة الغالية التي حمل لواءها وتضافر على نمائها أعلام نابهون ومفكرون نابغون من نحاة، ولغويين وعروضيين ومحدثين ومفسرين ، ومقرئين ، ومتكلمين ورجال أدب ، وبلاغة وتاريخ وجغرافية ، وفلسفة ومنطق ، وطب ، وفلك ، ورياضة ، وموسيقى ... وقد سلطنا الضوء في هذا الكتاب على فريق من هؤلاء الرواد في مجالي الشعر والنثر ، وأظهرنا مكانتهم في مسيرة الحركة الفكرية المتوهجة ، ومنزلتهم في الابداع والتوليد في ميدان الرقي الحضاري .

وتجدر الاشارة الى أن العلم والأدب ـ كما لاحظنا ـ بقيا في تألقهما في العصر العباسي الثاني حينما تحولت الديار الاسلامية خارج حكم الخلفاء العباسيين الى امارات تتنازعها ملوك وأمراء من عرب وأعاجم ، ونستطيع القول إن المدارس والمجالس الأدبية والعلمية كثرت وتوسعت في ظل هذه الامارات وأصبحت تزهو بالرواد من أرباب القلم . وحسبُ القاريء الأسفار الكثيرة التي تناولت تراجم النابهين من الشعراء والكتاب آنذاك ، مثل يتيمة الدهر للثعالبي ، ودمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي، وخريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين الاصبهاني الكاتب وعقود الجمان لابن الشعار الموصلي ...

إن العصر العباسي سيبقى في الذاكرة بأنه من أزهى العصور التي مضت في المدنية والتقدم الفكري ، والصفحات الماضية ماهي الآ ومضات عن هذا العصر الطويل الذي لايدرك القارىء ساحله في عجالة ووقت قصير ، ولعله يستكمل معرفته عنه بالعودة الى المصادر والمراجع التي ألفت عنه . والله الموفق ، والهادي الى سواء السبيل .

المصادر والمراجع

١ ـ ابن الرومي ، حياته من شعره : عباس محمود العقاد . دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٨ .
٢ ـ ابن الرومي ، حياته وشعره : روفون جست . ترجمة الدكتور حسين نصار دار الثقافة . بيروت .
٣ ـ ابن الرومي في الصورة والوجود : د . علي شلق . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت ١٩٨٢ .
٤ ـ ابن المعتز العباسي صورة لعصره : د . سعد شلبي ، دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٧٧ .
٥ ـ ابن وكيع التنيسي ، شاعر الزهر والخمر : د . حسين نصار . دار مصر للطباعة ـ القاهرة ١٩٥٣ .
٦ ـ أبو تمام شاعر الخليفة محمد المعتصم بالله : د . عمر فروخ . المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت ١٩٦٤ .
٧ ـ أبو حيان التوحيدي : د . ابراهيم الكيلاني . مط دار المعارف ـ القاهرة د . ت .
٨ ـ أبو حيان التوحيدي : د . أحمد محمد الحوفي . مط الرسالة ـ القاهرة ١٩٥٧ .
٩ ـ أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء : د . زكريا ابراهيم . الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة د . ت .
١٠ ـ أبو حيان التوحيدي ، سيرته وآثاره : د . عبد الرزاق محيي الدين . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٧٩
١١ ـ أبو دلامة الرجل الشاعر والناقد الساخر : علي عبد عيدان الخزاعي . مط الآداب ـ النجف ١٩٦٥ .
١٢ ـ أبو الطيب ماله وما عليه : أبو منصور الثعالبي . تحـ : محمد محيي الدين عبد الحميد . مط حجازي القاهرة د . ت .
١٣ ـ أبو الطيب المتنبي : محمد كمال حلمي . مط الشباب ١٩٣١ .
١٤ ـ أبو العتاهية : محمد أحمد برانق . ط القاهرة ١٩٤٧ .
١٥ ـ ابو العتاهية حياته وشعره : د . محمد محمود الدش . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ .
١٦ ـ أبو فراس الحمداني ، حياته وشعره : د . عبد الجليل حسن عبد المهدي . مكتبة الأقصى ـ عمان ١٩٧١ .

١٧ ـ أبو فراس الحمداني ، الموقف والتشكيل والجمال ؛ د . النعمان القاضي . دار التوفيق النموذجية للطباعة القاهرة ١٩٨٢ .
١٨ ـ أبو نواس زعيم شعراء الخمرة ؛ جورج غريب . دار الاندلس ـ بيروت ١٩٦١ .
١٩ ـ أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه ؛ ابن منظور . قدم له عمر أبوالنصر . مكتب التأليف والترجمة والنشر ـ بيروت ١٩٦٩ .
٢٠ ـ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري د . نبيل خليل أبو حلتم . دار الثقافة بيروت ١٩٨٥ .
٢١ ـ اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري ؛ يوسف حسين بكار . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١ .
٢٢ ـ احياء علوم الدين ؛ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي . ط مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ القاهرة .
٢٣ ـ أخبار أبي تمام ؛ أبو بكر الصولي . ط لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٣٧ .
٢٤ ـ أخبار الدولة العباسية ؛ لمؤلف مجهول . تح : د . عبد العزيز الدوري ، د . عبد الجبار المطلبي دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٧١ .
٢٥ ـ أخبار الراضي بالله والمتقي لله (كتاب الأوراق) ؛ أبو بكر الصولي . دار المسيرة ـ بيروت ١٩٧٩ .
٢٦ ـ أخبار الشعراء المحدثين (كتاب الاوراق) ؛ أبو بكر الصولي . دار المسيرة بيروت ١٩٧٩ .
٢٧ ـ الأخبار الطوال ؛ أبو حنيفة الدينوري . تح ؛ عبدالمنعم عامر . القاهرة ١٩٦٠
٢٨ ـ الأخطل الكبير ، حياته وشخصيته وقيمته الفنية ؛ د . فخر الدين قباوة . دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٧٦ .
٢٩ ـ أدباء حليون ؛ د . جواد علوش . دار منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٧٨ .
٣٠ ـ الأدباء العشر ؛ سعد طلس ، ابراهيم الكيلاني . مط الشباب ـ دمشق ١٩٤٠ .
٣١ ـ أدب الحروب الصليبية ؛ د . عبد اللطيف حمزة . دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٤٩ .
٣٢ ـ الادب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ؛ د . على صافي حسين . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤ .
٣٣ ـ الأدب العربي في اقليم خوارزم ؛ هند حسين طه . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٦ .

٣٤ _ الأدب العربي في مصر من الفتح الى نهاية العصر الايوبي : محمود مصطفى . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر _ القاهرة ١٩٦٧ .
٣٥ _ الأدب في ظل بني بويه : د . محمود غناوي الزهيري . مط الأمانة _ القاهرة ١٩٤٩ .
٣٦ _ الأدب في ظل الدولة الزنكية : عبد الوهاب محمد علي العدواني . رسالة ماجستير مكتوبة على آلة الرونيو بغداد ١٩٦٧ .
٣٧ _ الأدب في العصر الايوبي : د . محمد زغلول سلام . مط دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ .
٣٨ _ أدب الكاتب : ابن قتيبة تحـ محمد محيي الدين عبد الحميد . مط السعادة _ القاهرة ١٩٦٣ .
٣٩ _ أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة بين الأعشى والجاهليين : د . محمد محمد حسني مط دار المعارف الاسكندرية ١٩٦٠ .
٤٠ _ أسطورة الزهد عند أبي العتاهية : د . محمد عبد العزيز الكفراوي . دار نهضة مصر للطبع والنشر _ القاهرة ١٩٧٢ .
٤١ _ الاشارات الالهية : أبو حيان التوحيدي . تـ : عبد الرحمن بدوي . مط جامعة فؤاد الأول القاهرة ١٩٥٠ .
٤٢ _ أشجع السلمي ، حياته وشعره : د . خليل بنيان الحسون . دار المسيرة _ بيروت ١٩٨١ .
٤٣ _ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم (كتاب الاوراق) : أبو بكر الصولي . دار المسيرة _ بيروت ١٩٧٩ .
٤٤ _ أعلام الكلام : ابن شرف القيرواني . مكتبة الخانجي _ القاهرة ١٩٢٦ .
٤٥ _ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمد بن راغب الطباخ . المط العلمية _ حلب ١٩٢٤ .
٤٦ _ اعيان الشيعة : محسن الأمين . مط الترقي _ دمشق ١٩٤٦ .
٤٧ _ الأغاني : أبو الفرج الأصبهاني . مط دار الكتب المصرية _ القاهرة ١٩٢٧ .
٤٨ _ الاغتراب في حياة وشعر الشريف الرضي : عزيز السيد جاسم . مط دار الشؤون الثقافية العامة _ بغداد ١٩٨٧ .
٤٩ _ أمالي المرتضى : تحـ : محمد أبو الفضل ابراهيم . دار الكتاب العربي _ بيروت ١٩٦٧ .
٥٠ _ الامتاع والمؤانسة : ابو حيان التوحيدي . تحـ : أحمد أمين ، وأحمد الزيني مط لجنة التأليف والترجمة والنشر _ القاهرة ١٩٣٩ .

٥١ ـ أمراء البيان : محمد كرد علي . مطابع دار الكتب ـ بيروت ١٩٦٩ .
٥٢ ـ إنباه الرواة : علي بن يوسف القفطي .تح: محمد أبو الفضل ابراهيم . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ .
٥٣ ـ الأندية الأدبية في العصر العباسي : علي محمد هاشم . دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٧٨ .
٥٤ ـ الانصاف والتحري : ابن العديم . ضمن كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء . الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ .
٥٥ ـ أوج التحري عن حيثية أبي العلاء المعري : يوسف البديعي . د : ابراهيم الكيلاني . مط الترقي ـ دمشق ١٩٤٤
٥٦ ـ البحتري بين نقاد عصره : صالح حسن اليظي . دار الأندلس ـ بيروت ١٩٨٢ .
٥٧ ـ البحتري في سامراء : يونس احمد السامرائي . مط الارشاد ـ بغداد ١٩٧٠ .
٥٨ ـ البخلاء : الجاحظ . مط فتى العرب ـ دمشق ١٩٦٣ .
٥٩ ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور : محمد بن أحمد بن اياس . المط الكبرى الأميرية ـ القاهرة ١٣١١ هـ .
٦٠ ـ بديع الزمان الهمداني : مارون عبود . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ .
٦١ ـ بديع الزمان الهمداني : د . مصطفى الشكعة . دار الرائد العربي ـ بيروت ١٩٧١ .
٦٢ ـ بديعيات الزمان : فكتور الكك . المط الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٠ .
٦٣ ـ البصائر والذخائر : ابو حيان التوحيدي ـ دمشق ١٩٦٤ ـ ١٩٦٦ .
٦٤ ـ بغداد مدينة السلام : ابن الفقيه الهمداني . دار الطليعة للطباعة والنشر . باريس ١٩٧٧ .
٦٥ ـ بغية الوعاة : جلال الدين السيوطي . تح : محمد أبو الفضل ابراهيم . مط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٤ .
٦٦ ـ البيان والتبيين : الجاحظ . تح : عبد السلام هرون . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٠ .
٦٧ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان . دار الهلال ـ القاهرة د . ت .
٦٨ ـ تاريخ الأدب الأندلسي . عصر الطوائف والمرابطين : د احسان عباس . مط دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧١ .
٦٩ ـ تاريخ الأدب العربي : د . شوقي ضيف . العصر العباسي الأول ١٩٦٦ . العصر العباسي الثاني ١٩٧٥ . عصر الدول والامارات ١٩٨٠ . مطابع دار المعارف بمصر .

٧٠ ـ تاريخ الأدب العربي : كارل بروكلمان . ترجمة د . رمضان عبد التواب . جـ ٥ . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٥ .
٧١ ـ تاريخ اربل : ابن المستوفي . تحـ : سامي الصقار . المركز العربي للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٨٠
٧٢ ـ تاريخ بغداد . أحمد بن علي الخطيب البغدادي . مط السعادة ـ القاهرة ١٩٣١ .
٧٣ ـ تاريخ الخلفاء : جلال الدين السيوطي . تحـ : محمد محيي الدين عبد الحميد . مط منير ـ بغداد ١٩٨٣ .
٧٤ ـ تاريخ دول الاسلام : الذهبي . ط حيدر اباد ١٣٣٣ هـ .
٧٥ ـ تاريخ دولة آل سلجوق : الفتح بن علي البنداري . دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠ .
٧٦ ـ تاريخ الرسل والملوك : الطبري . تحـ : محمد أبو الفضل ابراهيم . مط دار المعارف ـ القاهرة .
٧٧ ـ تاريخ الشعر العربي : د . محمد عبد العزيز الكفراوي . مط نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٦٧ .
٧٨ ـ تاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري : نجيب محمد البهبيتي . مط السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٦١ .
٧٩ ـ تاريخ متصوفة بغداد : جميل ابراهيم حبيب . مط أسعد ـ بغداد ١٩٨٨ .
٨٠ ـ تاويل مختلف الحديث : ابن قتيبة . مط كردستان العلمية ـ القاهرة ١٣٢٦ هـ .
٨١ ـ تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة . تحـ : سيد صقر . دار التراث ١٩٧٣ .
٨٢ ـ تتمة المختصر في اخبار البشر : زين الدين عمر بن الوردي . مط دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٠
٨٣ ـ تتمة يتيمة الدهر : أبو منصور الثعالبي . نشر عباس إقبال ـ طهران ١٣٥٣ هـ .
٨٤ ـ تجارب الأمم : أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . مط شركة التمدن الصناعية ـ القاهرة ١٩١٤ .
٨٥ ـ تحفة الألباب وبغية الطلاب : محمد بن أبي بكر عثمان المعروف بالسخاوي المصري . ط القاهرة ١٣٥٦ هـ .
٨٦ ـ ترجمان الأشواق : محيي الدين بن عربي . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٦ .

٨٧ ـ تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : أنيس المقدسي . دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٤ .
٨٨ ـ تطور الخمريات في الشعر العربي من الجاهلية الى أبي نواس : د . جميل سعيد . مط الاعتماد ـ القاهرة ١٩٤٥ .
٨٩ ـ التطور والتجديد في الشعر الأموي : د . شوقي ضيف . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٥ .
٩٠ ـ تعريف القدماء بأبي العلاء : الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ .
٩١ ـ تفسير سورة الاخلاص : ابن تيمية . المط المنيرية القاهرة ١٣٥٢ هـ .
٩٢ ـ تهذيب التاريخ الكبير : ابن عساكر تحقيق عبدالقادر بدران . مط روضة الشام ١٣٣٠ هـ .
٩٣ ـ التيار الاسلامي في شعر العصر العباسي الأول : د . مجاهد مصطفى بهجت . منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـ بغداد ١٩٨٢ .
٩٤ ـ ثمرات الأوراق : ابن حجة الحموي . تحـ : محمد أبو الفضل ابراهيم . مط السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٧١ .
٩٥ ـ الجاحظ ، حياته وآثاره : د . طه الحاجري . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ .
٩٦ ـ الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : جميل جبر ـ بيروت ١٩٥٩ .
٩٧ ـ الجامع الكبير : ضياء الدين ابن الأثير . تحـ . د . مصطفى جواد ، د . جميل سعيد . مط المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٥٦ .
٩٨ ـ الجامع المختصر : ابن الساعي . تحـ . د . مصطفى جواد . المط السريانية الكاثوليكية ـ بغداد ١٩٣٤ .
٩٩ ـ جحظة البرمكي الأديب الشاعر : د . مزهر السوداني . مط النعمان ـ النجف ١٩٧٧ .
١٠٠ ـ جمع الجواهر : أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري . تحـ : علي محمد البجاوي . دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٥٣ .
١٠١ ـ جمهرة رسائل العرب : أحمد زكي صفوت . مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٢٧ .
١٠٢ ـ الجواري والشعر في العصر العباسي الأول : د . سهام عبدالوهاب فريح . شركة الربيعان للنشر والتوزيع ـ الكويت ١٩٨١ .
١٠٣ ـ حديث الأربعاء : د . طه حسين . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٠ .

١٠٤ _ الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام : د . محمود الربداوي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع _ بيروت د . ت .
١٠٥ _ الحسن بن أسد الفارقي في حياته والصبابة من شعره : جمع وتحقيق هلال ناجي . مطابع اليمامة _ الرياض ١٦٧٨ .
١٠٦ _ حسن المحاضرة : جلال الدين السيوطي . مط عيسى البابي الحلبي _ القاهرة ١٩٦٨ .
١٠٧ _ الحسين بن الضحاك . حياته وشعره : د . شوقي رياض أحمد . الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميريه _ القاهرة ١٩٧٢ .
١٠٨ _ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع : أدم متز . ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر _ القاهرة ١٩٤٧ .
١٠٩ _ الحكاية الشعبية : د . عبدالحميد يونس . دار الشؤون الثقافية العامة _ بغداد د . ت .
١١٠ _ الحلاج موضوعاً : د . كامل مصطفى الشيبي . مط المعارف _ بغداد ١٩٧٦ .
١١١ _ حلية الأولياء : الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبدالله . مط السعادة _ مصر ١٣٥١ هـ .
١١٢ _ الحماسة في شعر الشريف الرضي : محمد جميل شلش . مط وأفست الشرق _ بغداد ١٩٧٤ .
١١٣ _ الحياة الأدبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري : د . أحمد كمال زكي . مط دار المعارف _ القاهرة ١٩٧١ .
١١٤ _ الحياة الأدبية في الشام : د . عبدالجليل حسن عبدالمهدي . مكتبة الأقصى _ عمان ١٩٧٧ .
١١٥ _ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام : د . أحمد أحمد بدوي . مط نهضة مصر ١٩٥٤ .
١١٦ _ حياة البحتري وفنه : د . أحمد أحمد بدوي . مط لجنة البيان العربي _ القاهرة ١٩٥٥ .
١١٧ _ حياة الحيوان الكبرى : أبو البقاء محمد بن موسى الدميري . مط حجازي _ القاهرة .
١١٨ _ حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني الهجري : د . يوسف خليف . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر _ القاهرة ١٩٦٨ .
١١٩ _ الحيوان : الجاحظ . تحـ : عبدالسلام هارون . مط مصطفى البابي الحلبي وأولاده _ مصر ١٩٣٨ .

١٢٠ ـ خاص الخاص : أبو منصور الثعالبي ، قدم له حسن الأمير . منشورات دار مكتبة الحياة د . ت .

١٢١ ـ خريدة القصر وجريدة العصر : عمادالدين الأصبهاني . شعراء الشام . تحـ : د . شكري فيصل . المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٥٥ ـ ١٩٦٧ . شعرا مصر . تحـ : أحمد امين ، وشوقي ضيف . واحسان عباس . مطـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥١ . شعراء العراق . تحـ : محمد بهجة الأثري . جـ ١ ، ٢ مطـ المجمع العلمي العراقي ١٩٥٥ . ١٩٦٤ . جـ ٣ ، ٤ مط الحكومة ـ بغداد ١٩٧٣ ـ ١٩٧٦ .

١٢٢ ـ خزانة الأدب وغاية الأرب : ابن حجة الحموي المطـ الخيرية ـ القاهرة ١٣٠٤ هـ .

١٢٣ ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبدالقادر بن عمر البغدادي . مطـ بولاق ـ مصر ١٢٩٩ هـ .

١٢٤ ـ الخطط المقريزية : أحمد بن علي المعروف بالمقريزي . مطـ النيل ـ مصر ١٣٢٤ هـ .

١٢٥ ـ الخلافة والدولة في العصر العباسي : د. محمد حلمي محمد أحمد. مطـ الرسالة ـ القاهرة ١٩٥٩

١٢٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ترجمة محمد ثابت الفندي ، وأحمد الشنتناوي ، وأبراهيم زكي حورشيد . وعبدالحميد يونس ـ القاهرة ١٩٣٧ ـ ١٩٦٧ .

١٢٧ ـ دار السلام في حياة أبي العلاء : د . عائشة عبدالرحمن . دار الجمهورية للطباعة ـ بغداد ١٩٦٤ .

١٢٨ ـ الدارس في تاريخ المدارس : عبدالقادر بن محمد انعيمي . تحـ : جعفر الحسني . مطـ الترقي ـ دمشق ١٩٤٨ .

١٢٩ ـ دراسات في الأدب الاسلامي : محمد خلف الله . لجنة التأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٤٧ .

١٣٠ ـ دراسات في الأدب العربي : انعام الجندي . دار الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٧ .

١٣١ ـ دراسات في الأدب العربي ، العصر العباسي : محمد زغلول سلام . مطـ التقدم ـ الاسكندرية د . ت

١٣٢ ـ دراسات في النص الشعري . العصر العباسي : د . عبده بدوي . مطـ قاصد خير ـ القاهرة ١٩٧٧ .

١٣٣ ـ الدرر الغوالي من أشعار الامام الغزالي : جمع جميل ابراهيم حبيب . مط عصام ـ بغداد ١٩٨٥ .
١٣٤ ـ دولة الاسلام في الاندلس من الفتح الى نهاية مملكة غرناطة : محمد عبدالله عنان . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٣ .
١٣٥ ـ الديارات : أبو الحسن الشابشتي . تحـ : كوركيس عواد . مط المعارف ـ بغداد ١٩٦٦ .
١٣٦ ـ ديوان ابن أبي حصينة ، شرح أبي العلاء المعري . تحـ : د . محمد سعد طلس . المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٥٧ .
١٣٧ ـ ديوان ابن حيوس ، تحـ : خليل مردم . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٨٤ .
١٣٨ ـ ديـوان ابن الخياط ، تحـ : خليل مردم . المط الهاشمية ـ دمشق ١٩٥٨ .
١٣٩ ـ ديوان ابن الرومي ، تحـ : د . حسين نصار مط دار الكتب ـ القاهرة ١٩٧٣ ـ ١٩٨١
١٤٠ ـ ديوان ابن سنان الخفاجي : المط الاندلسية بيروت ١٣٠٨ هـ .
١٤١ ـ ديوان ابن الظهير الاربلي : تحـ : د . ناظم رشيد . مط جامعة الموصل ١٩٨٨
١٤٢ ـ ديوان ابن عنين : تحـ : خليل مردم . مط دمشق ١٩٤٦ .
١٤٣ ـ ديوان ابن الفارض : مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٢ .
١٤٤ ـ ديوان ابن نُباته السعدي : تحـ : عبدالأمير مهدي حبيب الطائي ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٧ .
١٤٥ ـ ديوان أبي بكر الشبلي : تحـ : د . كامل مصطفى الشيبي . مط دار التضامن ـ بغداد ١٩٦٧ .
١٤٦ ـ ديوان أبي تمام : تحـ . محمد عبده عزام . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٢ .
١٤٧ ـ ديوان ابي الحسن التهامي : منشورات المكتب الاسلامي بدمشق ١٩٦٤ .
١٤٨ ـ ديوان أبي العتاهية : مط دار صادر ـ بيروت د . ت .
١٤٩ ـ ديوان أبي فراس الحمداني : مط دار صادر بيروت د . ت .
١٥٠ ـ ديوان أبي نواس : تحـ : أحمد عبدالمجيد الغزالي . مط مصر ـ القاهرة ١٩٥٣ .
١٥١ ـ ديوان أبي الهندي : تحـ : عبدالله الجبوري مط النعمان ١٩٧٠ .
١٥٢ ـ ديوان ابراهيم بن هرمة : تحـ : محمد جبار المعيبد . مط الآداب ـ النجف ١٩٦٩
١٥٣ ـ ديوان الأبله البغدادي : تحـ : سعاد جاسم محمد . رسالة ماجستير . كلية الآداب ـ جامعة الموصل ١٩٨٥ .

١٥٤ ـ ديوان الأبيوردي : تحـ : د . عمر الأسعد . جـ ٢ . مط زيد بن ثابت ـ دمشق ١٩٧٥ .
١٥٥ ـ ديوان الأرجاني : تحـ : د . محمد قاسم مصطفى . مطبعة جامعة الموصل ١٩٧٩ ـ ١٩٨١ .
١٥٦ ـ ديوان اسحاق الموصلي : تحـ : ماجد أحمد العزي . مط الايمان ـ بغداد ١٩٧٠ .
١٥٧ ـ ديوان الأعشى الكبير : تحـ : محمد حسين ، المط النموذجية ـ القاهرة ١٩٥٠ .
١٥٨ ـ ديوان الباخرزي : أبي الحسن علي بن الحسن بن أبي الطيب . تحـ : محمد قاسم مصطفى . رسالة ماجستير . كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٠ .
١٥٩ ـ ديوان البحتري : تحـ : حسن كامل الصير في ـ مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٣ .
١٦٠ ـ ديوان بديع الزمان الهمداني : نشره محمد شكري المكي ـ مصر ١٩٠٣ .
١٦١ ـ ديوان بشار بن برد : تحـ . الطاهر بن عاشور ـ القاهرة ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤ .
١٦٢ ـ ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : تحـ : محمد حسن الأعظمي . دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٠ .
١٦٣ ـ ديوان جميل بثينة : تحـ : فوزي عطوي . الشركة اللبنانية للكتاب ـ بيروت ١٩٦٠ .
١٦٤ ـ ديوان الحاجري : حسام الدين عيسى بن سنجر تحـ : صاحب شنون ياسين الزبيدي . رسالة ماجستير ـ جامعة بغداد . كلية الآداب ١٩٨٨ .
١٦٥ ـ ديوان الحلاج : الحسين بن منصور . تحـ : د . كامل مصطفى الشيبي . مط المعارف ـ بغداد ١٩٧٤ .
١٦٦ ـ ديوان حيص بيص : شهاب الدين سعد بن محمد . تحـ . مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر ـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٤ .
١٦٧ ـ ديوان خالد الكاتب : تحـ : د . يونس أحمد السامرائي . مط الرسالة ـ بغداد ١٩٨١ .
١٦٨ ـ ديوان الخريمي : أبو يعقوب اسحاق بن حسان . تحـ : د . علي جواد الطاهر . ومحمد جبار المعيبد . مط دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧١ .
١٦٩ ـ ديوان دعبل بن علي الخزاعي : تحـ : د . محمد يوسف نجم . دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٢ .

١٧٠ ـ ديوان ديك الجن ؛ تحـ : د . أحمد مطلوب وعبدالله الجبوري . دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٤ .
١٧١ ـ ديوان سبط ابن التعاويذي ، تحـ ، مرجليوث . مطـ المقتطف ـ مصر ١٩٠٣ .
١٧٢ ـ ديوان الشريف الرضي مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦١ .
١٧٣ ـ ديوان الصنوبري ؛ تحـ : د . احسان عباس دار الثقافة ـ بيروت ١٩٧٠ .
١٧٤ ـ ديوان الطغرائي ، تحـ ، د . علي جواد الطاهر . د . يحيى الجبوري . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٦ .
١٧٥ ـ ديوان طلائع بن رزيك ؛ تحـ ، محمد هادي الأميني . مطـ النعمان ـ النجف ١٩٦٤ .
١٧٦ ـ ديوان العباس بن الأحنف ، مطـ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .
١٧٧ ـ ديوان عرقلة الكلبي ؛ تحـ : أحمد الجندي . مطـ دار الحياة ـ دمشق ١٩٧٠ .
١٧٨ ـ ديوان علي بن الجهم ؛ تحـ ، خليل مردم . لجنة التراث العربي ـ بيروت د . ت .
١٧٩ ـ ديوان عماد الدين الأصبهاني ؛ تحـ ، د . ناظم رشيد . مطـ جامعة الموصل ١٩٨٣ .
١٨٠ ـ ديوان فتيان الشاغوري ؛ تحـ ، أحمد الجندي . المطـ الهاشمية ـ دمشق ١٩٦٧ .
١٨١ ـ ديوان القاضي الفاضل ؛ تحـ ، د . أحمد أحمد بدوي . وابراهيم الأبياري . مطـ دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦١ .
١٨٢ ـ ديوان القطامي ؛ تحـ ، د . ابراهيم السامرائي ود . أحمد مطلوب . ط . بيروت ١٩٦٠ .
١٨٣ ـ ديوان كشاجم ، أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بكشاجم . تحـ ، خيرية محمد محفوظ ـ مطـ الجمهورية ـ بغداد ١٩٧٠ .
١٨٤ ـ ديوان لقيط بن يعمر الايادي ، تحـ ، خليل ابراهيم العطية . مطـ الجمهورية بغداد ١٩٧٠ .
١٨٥ ـ ديوان محمود الوراق ؛ تحـ ، راغب العبيدي . ط دار البصري ـ بغداد ١٩٦٩ .
١٨٦ ـ ديوان المعاني ؛ أبو هلال العسكري . مطـ القدس ـ القاهرة ١٣٥٢ هـ .
١٨٧ ـ ديوان الملك الأمجد : مجد الدين الأيوبي . تحـ ، د . ناظم رشيد . مطـ وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ـ بغداد ١٩٨٣ .

١٨٨ ـ ديوان النابغة الذبياني ، صنعة ابن السكيك . تحـ ، د . شكري فيصل . دار الفكر ـ بيروت ١٩٦٨ .
١٨٩ ـ ديوان النشابي ، مجدالدين أسعد ابراهيم الاربلي . تحـ ، عبدالله محمود طه رسالة ماجستير . جامعة الموصل ـ كلية الاداب ١٩٨٥ .
١٩٠ ـ ديوان الوزير محمد بن عبدالملك الزيات ، تحـ ، د . جميل سعيد . مطـ نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٤٩ .
١٩١ ـ ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، د . عبدالوهاب عزام . مطـ الجريرة ـ بغداد ١٩٣٦ .
١٩٢ ـ ذيل طبقات الحنابلة ، ابن رجب . مطـ السنة المحمدية ـ مصر ١٩٥٢ .
١٩٣ ـ رأي في المقامة ،عبدالرحمن ياغي . مطـ قدموس الجديدة ـ بيروت ١٩٦٩ .
١٩٤ ـ الرثاء ، د . شوقي ضيف . مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٥ .
١٩٥ ـ رسائل البلغاء ، محمد كرد علي . طـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٦ .
١٩٦ ـ رسائل الجاحظ ، تحـ : عبدالسلام محمد هارون . مطـ السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٦٤ .
١٩٧ ـ رسائل أبي العلاء المعري ، تحـ ، عبدالكريم خليفة . منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر ـ عمان ١٩٧٦ .
١٩٨ ـ رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمداني ، مطـ هندية ـ مصر ١٨٩٨ .
١٩٩ ـ رسالة الصداقة والصديق ، أبو حيان التوحيدي . تحـ ، د . ابراهيم الكيلاني . دار الفكر ـ دمشق ١٩٦٤ .
٢٠٠ ـ رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري ، تحـ ، د . عائشة عبدالرحمن . مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ .
٢٠١ ـ الرمز عند الصوفية ، د . عاطف جودة نصر . دار الاندلس ـ بيروت ١٩٧٨ .
٢٠٢ ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، أبو شامة المقدسي . مطـ وادي النيل ـ القاهرة ١٢٨٨ هـ .
٢٠٣ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ابن العديم . تحـ ، د . سامي الدهان . المطـ الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٨ .
٢٠٤ ـ زهر الآداب ، أبو اسحاق ابراهيم بن علي الحصري . تحـ ، علي محمد البجاوي . مطـ عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٥٣ .

٢٠٥ ـ ضبط ابن التعاويذي : نوري شاكر الآلوسي . مط الأزهر ـ بغداد ١٩٧٥ .
٢٠٦ ـ سبط ابن التعاويذي : يوسف يعقوب مسكوني . مط شفيق ـ بغداد ١٩٥٩ .
٢٠٧ ـ سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون : ابن نباتة المصري . تحـ : محمد أبو الفضل ابراهيم . مط المدني ـ القاهرة ١٩٦٤ .
٢٠٨ ـ سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجي . مط محمد علي صبيح واولاده ـ القاهرة ١٩٦٩ .
٢٠٩ ـ السري الرفاء : د . حبيب حسين الحسني . مط دار السلام ـ بغداد ١٩٧٧ .
٢١٠ ـ السري الرفاء : يوسف امين قصير . مط الشباب ـ بغداد ١٩٥٦ .
٢١١ ـ سقط الزند : ابو العلاء المعري ـ مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٣ .
٢١٢ ـ السمو الروحي في الادب الصوفي : احمد عبدالمنعم الحلواني . مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٤٩ .
٢١٣ ـ سنا البرق الشامي : الفتح بن علي البنداري . تحـ : د . رمضان ششن . مط دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٧١ .
٢١٤ ـ السهروردي : سامي الكيالي . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٦ .
٢١٥ ـ سيف الدولة الحمداني او مملكة السيف ودولة الاقلام : د . مصطفى الشكعة . عالم الكتب ـ بيروت ١٩٧٧ .
٢١٦ ـ شاعر بني حمدان : د . احمد احمد بدوي . مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٥٢ .
٢١٧ ـ شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي .نشر مكتبة القدسي ـ القاهرة ١٣٥١ هـ .

٢١٨ ـ شرح ديوان الحماسة : المرزوقي تحـ : أحمد امين . وعبدالسلام هارون. مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧ .
٢١٩ ـ شرح ديوان صريع الغواني : تحـ : د . سامي الدهان مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٠ .
٢٢٠ ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري : تحـ : د . احسان عباس . مط حكومة الكويت ١٩٦٢ .
٢٢١ ـ شرح ديوان المتنبي : عبدالرحمن البرقوقي . المط الرحمانية ـ مصر ١٩٣٠
٢٢٢ ـ شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد . تحـ : محمد ابو الفضل ابراهيم . مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٠ .

٢٢٣ ـ الشريف الرضي ، د . احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٥٩ .
٢٢٤ ـ الشريف الرضي ، وجهوده النحوية ، د . حازم سليمان الحلي . دار الشؤون الثقافية العامة ـ بغداد ١٩٨٦ .
٢٢٥ ـ الشريف الرضي ، محمد عبدالغني حسن . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٠ .
٢٢٦ ـ الشريف الرضي ، دراسات في ذاكره الالفية ، تأليف مجموعة اساتذة. دار آفاق عربية للصحافة والنشر ـ بغداد ١٩٨٥ .
٢٢٧ ـ شعراء عباسيون ، غوستاف فون غرنباوم ، ترجمة د . محمد يوسف نجم ، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٥٩ .
٢٢٨ ـ الشعراء من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية ، د . حسين عطوان . دار الجبل ـ بيروت ١٩٧٤ .
٢٢٩ ـ شعراء النصرانية بعد الاسلام ، يوسف شيخو اليسوعي . المط الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٧٦
٢٣٠ ـ شعر الحرب في ادب العرب ، د . زكي المحاسني . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦١ .
٢٣١ ـ شعر الحسين بن مطير الأسدي ، تحـ ، د . محسن غياض . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧١
٢٣٢ ـ شعر ربيعة الرقي تحـ ، د . يوسف حسين بكار، دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٨٠ .
٢٣٣ ـ شعر زهير بن أبي سلمى ، صنعة الأعلم الشنتمري ، تحـ ، د . فخرالدين قباوة . المط العربية ـ حلب ١٩٧٠ .
٢٣٤ ـ شعر الشافعي ، تحـ ، د . مجاهد مصطفى بهجت . دار الكتب للطباعة والنشر ـ الموصل ١٩٨٦ .
٢٣٥ ـ الشعر والشعراء ، ابن قتيبة . مط دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٩ .
٢٣٦ ـ الشعر والشعراء في العصر العباسي ، د . مصطفى الشكعة . دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٧٥ .
٢٣٧ ـ الشعر الصوفي حتى أُفول مدرسة بغداد وظهور الغزالي ، عدنان حسين العوادي . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٩ .
٢٣٨ ـ شعر الطبيعة في الأدب العربي ، د . سيد نوفل . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٨
٢٣٩ ـ الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور ، د . شوقي ضيف . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٧ .

٢٤٠ ـ شعر عبدالصمد بن المعذل ؛ تحـ : زهير غازي زاهد . مطـ النعمان ـ النجف ١٩٧٠ .
٢٤١ ـ الشعر العراقي في القرن السادس الهجري ؛ د . مزهر السوداني . دار الرشيد للنشر ـ بغداد ١٩٨٠ .
٢٤٢ ـ الشعر العربي بين الجمود والتطور : د . محمد عبدالعزيز الكفراوي . دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة ١٩٦٩ .
٢٤٣ ـ الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي : د . علي جواد الطاهر . جـ ١ مطـ المعارف ـ بغداد ١٩٥٨ ، جـ ٢ ، مطـ العاني ـ بغداد ١٩٦١ .
٢٤٤ ـ الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : عبدالكريم توفيق العبود . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٦ .
٢٤٥ ـ شعر ابن العلاف ؛ تحـ صبيح رديف . مطـ الجامعة ـ بغداد ١٩٧٤ .
٢٤٦ ـ شعر علي بن جبلة الملقب بالعكوك ؛ تحـ : د . حسين عطوان . مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢ .
٢٤٧ ـ شعر عمر بن الفارض في فن الشعر الصوفي : د . عاطف جودة نصر . دار الأندلس ـ بيروت ١٩٨٢ .
٢٤٨ ـ شعر مروان بن أبي حفصة ؛ تحـ : د . حسين عطوان .. مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٣ .
٢٤٩ ـ شعر ابن المعتز : تحـ : د . يونس أحمد السامرائي. دار الحرية للطباعة ـ بغداد . ١٩٧٧ .
٢٥٠ ـ شعر ابن منير الطرابلسي : تحـ : د . سعود محمود عبدالجابر . دار القلم ـ الكويت ١٩٨٢ .
٢٥١ ـ الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني : د . سعود محمود عبد الجابر . مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٨١ .
٢٥٢ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي . تحـ : ناظم رشيد . مطـ دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٩ .
٢٥٣ ـ صبح الأعشى في صناعة الانشا : أحمد بن علي القلقشندي . المطـ الأميرية . القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩٢٠ .
٢٥٤ ـ الصبح المنبي عن حيثية المتنبي : يوسف البديعي . مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٤ .

٢٥٥ ـ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني : د . محمود ابراهيم . مط دار القلم ـ بيروت ١٩٧١ .
٢٥٦ ـ الصراع الأدبي بين العرب والعجم : د . محمد نبيه حجاب . مط دار القلم ـ القاهرة ١٩٦٣ .
٢٥٧ ـ الصورة الفنية في شعر أبي تمام : د . عبد القادر الرباعي . جامعة اليرموك ـ الأردن ١٩٨٠ .
٢٥٨ ـ صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي : ميخائيل عواد . دار الطليعة للطباعة والنشر ـ بغداد ١٩٨١ .
٢٥٩ ـ ضحى الاسلام : أحمد أمين . مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة .
٢٦٠ ـ طبقات الأمم : صاعد بن أحمد الأندلسي . المط الحيدرية ـ النجف ١٩٦٧ .
٢٦١ ـ طبقات الشافعية الكبرى : عبد الوهاب بن علي السبكي . تحـ : محمود محمد الطناحي . مط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٧٠ .
٢٦٢ ـ طبقات الشعراء : ابن المعتز . تحـ : عبد الستار أحمد فراج . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٦ .
٢٦٣ ـ طبقات الصوفية : أبو عبد الرحمن السلمي . تحـ : نور الدين شريبة . ط دار التأليف ـ القاهرة ١٩٦٩ .
٢٦٤ ـ طبقات المعتزلة : أحمد بن يحيى بن المرتضى . المط الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦١ .
٢٦٥ ـ طبيعة الدعوة العباسية : د . فاروق عمر . دار الارشاد للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٧٠ .
٢٦٦ ـ الطواسين : الحسين بن منصور الحلاج . تحـ : ماسنيون . ط باريس ١٩١٣ .
٢٦٧ ـ طيف الخيال : الشريف المرتضى . تحـ : د . صلاح خالص . مط دار المعرفة ـ بغداد ١٩٥٧ .
٢٦٨ ـ العباس بن الأحنف : د . عاتكة الخزرجي . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٧ .
٢٦٩ ـ عبقرية الشريف الرضي : د . زكي مبارك . مط حجازي ـ القاهرة ١٩٥٢ .
٢٧٠ ـ العصر العباسي الأول : د . عبد العزيز الدوري . مط التفيض ـ بغداد ١٩٤٥ .
٢٧١ ـ عصر المأمون : د . أحمد فريد رفاعي . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٨ .

٢٧٢ ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه . تحـ : أحمد أمين ، أحمد الزين ، ابراهيم الابياري . مطـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ .
٢٧٣ ـ عقلاء المجانين : الحسن بن محمد النيسابوري ، قدمه وعلق عليه محمد بحر العلوم ، المكتبة الحيدرية ـ النجف ١٩٦٨ .
٢٧٤ ـ العقيدة والشريعة : كولد زيهر ، ترجمة يوسف موسى وجماعته ـ مصر ١٩٥٩ .
٢٧٥ ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه : أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني . تحـ : محمد محيي الدين عبدالحميد . مطـ السعادة ـ مصر ١٩٥٥ .
٢٧٦ ـ عمر بن الفارض من خلال شعره : ميشال فريد غريب . دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ .
٢٧٧ ـ عيون الاخبار : ابن قتيبة . مطـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٣٤٣ هـ .
٢٧٨ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن ابي أصيبعة . دار الفكر ـ بيروت ١٩٥٦ .
٢٧٩ ـ الغدير في الكتاب والسنة والأدب : عبدالحسين أحمد الأميني النجفي . دار الكتاب العربي ـ بيروت ١٩٦٧ .
٢٨٠ ـ الفخري في الآداب السلطانية : ابن الطقطقا . مطـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٣ .
٢٨١ ـ الفصول والغايات : أبو العلاء المعري . مطـ حجازي ـ القاهرة ١٩٣٨ .
٢٨٢ ـ فصول في الشعر ونقده : د . شوقي ضيف . مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١ .
٢٨٣ ـ الفكر التربوي عند ابن المقفع والجاحظ وعبدالحميد الكاتب : د . عبدالأمير شمس الدين . دار اقرأ ـ بيروت ١٩٦٩ .
٢٨٤ ـ الفكر الديني عند أبي العلاء المعري : عطا بكري . دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٨٠ .
٢٨٥ ـ الفن ومذاهبة في الشعر العربي : د . شوقي ضيف . مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩ .
٢٨٦ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي : د . شوقي ضيف . مطـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٠ .
٢٨٧ ـ فن المقامات بين المشرق والمغرب : د . يوسف عوض . دار القلم . بيروت ١٩٧٩ .
٢٨٨ ـ فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين : د . مصطفى الشكعة . عالم الكتب ـ بيروت ١٩٨١

٢٨٩ ـ الفهرست ، ابن النديم . المط الرحمانية ـ القاهرة ١٣٤٨ .
٢٩٠ ـ فهرست ماروا عن شيوخه ، ابن خير الاشبيلي ـ بيروت ١٩٦٢ .
٢٩١ ـ فوات الوفيات ، ابن شاكر الكتبي ، تحـ ، د . احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٧٣ .
٢٩٢ ـ في الادب العباسي ، د . عز الدين اسماعيل ، دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٥ .
٢٩٣ ـ في الأدب العباسي ، د . علي الزبيدي . دار المعرفة ـ القاهرة ١٩٥٩ .
٢٩٤ ـ في الأدب العباس ، د . محمد مهدي البصير . مط النعمان ـ النجف ١٩٧٠ .
٢٩٥ ـ في التصوف الاسلامي وتاريخه ، نكلسون . ترجمة أبي العلا عفيفي . مط لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٥٩ .
٢٩٦ ـ في موكب الخالدين ، عبد السميع المصري . مط دار الكتاب العربي ـ القاهرة ١٩٦٠ .
٢٩٧ ـ القاضي الفاضل ، دراسة ونماذج ، د . أحمد أحمد بدوي . مط الرسالة ـ القاهرة ١٩٥٩ .
٢٩٨ ـ قوت القلوب ، أبو طالب المكي ـ القاهرة ١٩٣٢ .
٢٩٩ ـ كافوريات أبي الطيب ، د . النعمان القاضي . شركة كتب الشرق الأوسط ـ القاهرة ١٩٧٥ .
٣٠٠ ـ الكامل ، أبو العباس المبرد . تحـ ، محمد أبو الفضل ابراهيم ، والسيد شحاتة ـ مط نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٥٦ .
٣٠١ ـ الكامل في التاريخ ، ابن الأثير . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .
٣٠٢ ـ كتاب بغداد ، أحمد بن طيفور . تحـ ، محمد زاهد الكوثري . ط عزت العطار الحسيني ـ القاهرة ١٩٤٩ .
٣٠٣ ـ الكتابة الفنية في مشرق الدولة الاسلامية في القرن الثالث الهجري ، د . حسني ناعسة . مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٨ .
٣٠٤ ـ الكشاف ، جار الله الزمخشري . مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٨ .
٣٠٥ ـ كشاف مصادر دراسة أبي العلاء المعري ، مصطفى صالح . مط العلم ـ دمشق ١٩٧٨ .
٣٠٦ ـ الكشف عن مساويء شعر المتنبي ، الصاحب بن عباد . تحـ ، الشيخ محمد حسن آل ياسين . مط المعارف ـ بغداد ١٩٦٥ .

٣٠٧ ـ الكشكول : بهاء الدين العاملي . تحـ : الطاهر أحمد الزاوي . مط دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة د . ت .
٣٠٨ ـ كليلة ودمنة : بيدبا الفيلسوف الهندي . ترجمة عبدالله بن المقفع . المط الفخرية .
٣٠٩ ـ الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ، محمد بن ناصر الدين المعروف بابن الزيات . طبع القاهرة ١٣٢٥ هـ .
٣١٠ ـ لزوم ما لا يلزم : أبو العلاء المعري ـ مط دار صادر. بيروت ١٩٦٦ .
٣١١ ـ لسان العرب : ابن منظور . مط دار صادر. بيروت ١٩٦٨ .
٣١٢ ـ لسان الميزان : ابن حجر العسقلاني ـ حيدر آباد ١٣٣١ هـ .
٣١٣ ـ المتنبي : د . زكي المحاسني . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١ .
٣١٤ ـ المثل السائر : ضياء الدين ابن الأثير . تحـ : د . أحمد الحوفي، د . بدوي طبانة . دار نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٦٠ .
٣١٥ ـ المحمدون من الشعراء : على بن يوسف القفطي . تحـ : حسن معمري . مط المتني ـ بيروت ١٩٧٠ .
٣١٦ ـ محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده ، مجموعة أساتذة . الهيئة العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٦٨ .
٣١٧ ـ مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥١ .
٣١٨ ـ المرأة في أدب العصر العباسي ، د . واجدة مجيد الاطرقجي . دار الرشيد للنشر ـ بغداد ١٩٨١ .
٣١٩ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر : المسعودي . دار الأندلس للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٦ ، وطبعة باريس باعتناء دي مينار ١٨٦١ ـ ١٨٧٧ .
٣٢٠ ـ المستطرف في كل فن مستظرف : الأبشيهي ، مط حجازي ـ القاهرة ١٩٥٣ .
٣٢١ ـ مصر الشاعرة في العصر الفاطمي : محمد عبد الغني حسن . مطابع الهيئة المصرية للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٣ .
٣٢٢ ـ مضمار الحقائق وسر الخلائق : محمد بن عمر الأيوبي . تحـ : د . حسن حبشي . دار الهنا للطباعة ـ القاهرة ١٩٦٨ .
٣٢٣ ـ معالم الشعر وأعلامه في العصر العباسي الأول : د . محمد نبيه حجاب . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٢ .
٣٢٤ ـ معاهد التنصيص : عبد الرحيم بن أحمد العباسي . تحـ : محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مط السعادة ـ مصر ١٩٤٧ .
٣٢٥ ـ مع أبي العلاء في رحلة حياته : د . عائشة عبد الرحمن . دار الكتاب

العربي ـ بيروت ١٩٧٢ .
٣٢٦ ـ مع أبي العلاء في سجنه : د . طه حسين . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٥٦ .
٣٢٧ ـ معجم الأدباء : ياقوت الحموي . تحـ : مرجليوث . المط الهندية ـ مصر ١٩٢٣ .
٣٢٨ ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٥٥ .
٣٢٩ ـ معجم الشعراء : المرزباني . دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٩٦٠ .
٣٣٠ ـ المعري ذلك المجهول : عبد الله العلايلي . الأهلية للنشر والتوزيع ـ بيروت ١٩٨١ .
٣٣١ ـ المعري وجوانب من اللزوميات : [illegible] حمادي . الدار التونسية للنشر ـ تونس ١٩٨٤ .
٣٣٢ ـ مع المتنبي : د . طه حسين . مط دار المعارف ـ القاهرة .
٣٣٣ ـ المغرب في حلى المغرب ، قسم مصر : ابن سعيد الأندلسي . مطـجامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ١٩٥٣ .
٣٣٤ ـ المقابسات : أبو حيان التوحيدي . تحـ : حسن السندوبي . المط الرحمانية ـ القاهرة ١٩٤٩ .
٣٣٥ ـ مقامات بديع الزمان الهمداني : دار التراث ـ بيروت ١٩٦٨ .
٣٣٦ ـ مقامات بديع الزمان على أحاديث ابن دريد : الدكتورة إكرام فاعور . دار إقرأ ـ بيروت ١٩[illegible] .
٣٣٧ ـ مقامات الحريري : مط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ .
٣٣٨ ـ المقامات من ابن فارس إلى بديع الزمان الهمداني : د . هادي حسن حمودي . دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٥ .
٣٣٩ ـ مقدمة ابن خلدون . مط الكشاف ـ بيروت د . ت .
٣٤٠ ـ مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول : د . حسين عطوان . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٤ .
٣٤١ ـ الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة: أحمد محمد الشحاذ. دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ١٩٨٦ .
٣٤٢ ـ الملل والنحل : الشهرستاني . تخريج محمد فتح الله بدران ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٥٦ .
٣٤٣ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : أبو الفرج ابن الجوزي . ط حيدر آباد ـ الهند ١٣٥٧ .
٣٤٤ ـ من حديث الشعر والنثر : د.طه حسين . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧٥

٣٤٥ ـ من غاب عنه المطرب : أبو منصور الثعالبي . مط المدني ـ القاهرة ١٩٨٤ .
٣٤٦ ـ من النقد والأدب (المجموعة الرابعة)؛ د. أحمدأحمد بدوي. مط الرسالة ـ القاهرة د . ت .
٣٤٧ ـ الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ؛ الآمدي ، تحـ : محمد محيي الدين عبد الحميد . دار المسيرة ـ بيروت د . ت .
٣٤٨ ـ الموازنة بين الشعراء : د . زكي مبارك . مط مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٣٦ .
٣٤٩ ـ موسيقى الشعر : د . ابراهيم أنيس . مط الأمانة ـ القاهرة ١٩٧٨ .
٣٥٠ ـ الموشح . مآخذ العلماء على الشعراء : أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني . تحـ : علي محمد البجاوي . مط دار النهضة ـ مصر ١٩٦٥ .
٣٥١ ـ الموشى أو الظرف والظرفاء: أبو الطيب الوشاء. تحـ : كمال مصطفى . مط الاعتماد ـ مصر ١٩٥٣
٣٥٢ ـ النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ؛ د . عبد الحكيم بلبع . مط الاستقلال ـ القاهرة ١٩٧٥ .
٣٥٣ ـ النثر الفني في القرن الرابع ؛ د . زكي مبارك . دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة .
٣٥٤ ـ النجوم الزاهرة ؛ ابن تغري بردي . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٦ .
٣٥٥ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء : أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن الأنباري . تحـ : د . ابراهيم السامرائي . مط المعارف ـ بغداد ١٩٥٩ .
٣٥٦ ـ نزهة الأنام في محاسن الشام ؛ أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري . المط السلفية ـ مصر ١٣٤٤ هـ .
٣٥٧ ـ نشوار المحاضرة : المحسن بن علي التنوخي . تحـ : عبود الشالجي . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٧١ ـ ١٩٧٣ .
٣٥٨ ـ نفسية أبي نواس : د . محمد النويهي . مط الدجوي ـ القاهرة ١٩٧٠ .
٣٥٩ ـ النقد الاجتماعي في آثار أبي العلاء المعري ؛ د . يسري سلامة . مط دار المعارف ـ القاهرة ١٩٧١ .
٣٦٠ ـ النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ؛ عمارة اليمني . تحـ : هر تويغ درنبرغ . طبع مدينة شالون ١٨٩٧ .
٣٦١ ـ نكت الهميان في نكت العميان : خليل بن أيبك الصفدي . المط الجمالية ـ القاهرة ١٩١١ .

٣٦٢ ـ نهاية الأرب ، النويري . مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٥ .
٣٦٣ ـ هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ، يوسف البديعي . نشر محمود مصطفى ـ القاهرة ١٩٣٤ .
٣٦٤ ـ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية ، د . محمد محمد حسين . نشر مكتبة الآدب بالجماميز ١٩٤٧ .
٣٦٥ ـ هياكل النور ، شهاب الدين السهروردي . المكتبة التجارية ـ القاهرة ١٩٥٧ .
٣٦٦ ـ الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، أبو القاسم عبد الله الأصفهاني . تحـ : محمد الطاهر بن العاشور . الدار التونسية للنشر ١٩٦٨ .
٣٦٧ ـ الوافي بالوفيات ، خليل بن أيبك الصفدي . نشر المستشرقين الألمان باستانبول ١٩٣١ .
٣٦٨ ـ الورقة ، محمد بن داود بن الجراح . تحـ ، د . عبد الوهاب عزام . وعبد الستار أحمد فراج . مط دار المعارف ـ القاهرة د . ت .
٣٦٩ ـ الوزراء والكتاب ، الجهشياري . مط عبد الحميد أحمد حنفي ـ مصر ١٩٣٨ .
٣٧٠ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه ، علي بن عبد العزيز الجرجاني . تحـ : محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي . دار القلم ـ بيروت د . ت .
٣٧١ ـ الوشي المرقوم في حل المنظوم ، ضياء الدين بن الأثير . تحـ : د . جميل سعيد . مط المجمع العلمي العراقي ـ بغداد ١٩٨٩ .
٣٧٢ ـ وفيات الأعيان ، ابن خلكان . تحـ ، د . إحسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ١٩٧٢ .
٣٧٣ ـ يتيمة الدهر ، أبو منصور الثعالبي . تحـ ، محمد محيي الدين عبدالحميد . مط السعادة ـ القاهرة ١٩٥٦ .

البحوث والمقالات

٣٧٤ ـ ابن حمدان الموصلي ، د . ناظم رشيد . مجلة الجامعة ـ الموصل . العدد ٣ سنة ١٩٨١ .
٣٧٥ ـ أدب المقامات أو الفن الأقصوصي المسجع ، د . صفاء خلوصي . مجلة المعلم الجديد ، العدد الأول . المجلد الخامس والعشرون . كانون ثاني ـ شباط ١٩٦٢ .
٣٧٦ ـ أصفهان معقل الأدب العربي ، د . مصطفى جواد . مجلة المجمع العلمي العراقي . المجلد العاشر ١٩٦٣ .

٣٧٧ ـ أغزل شعراء الكرد في العربية الملك الأمجد ، د . مصطفى جواد . مجلة الكتاب . العددان ١ ، ٢ سنة ١٩٥٨ .
٣٧٨ ـ بغداد من خلال المقامات ، صبيح صادق . مجلة المورد . العدد ٤ سنة ١٩٧٩ .
٣٧٩ ـ التعليم في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية ، د . ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين العدد ١٠ سنة ١٩٧٩ .
٣٨٠ ـ جهاد صلاح الدين الأيوبي . التاريخ والشعر ، د . ناظم رشيد . مجلة المورد . العدد ٤ سنة ١٩٨٧ .
٣٨١ ـ حسام الدين الحاجري . حياته وشعره ، د . ناظم رشيد مجلة آداب المستنصرية ـ العدد ١٠ سنة ١٩٨٤ .
٣٨٢ ـ شعر الحرب في عصر بني أيوب ، د . ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين . العدد ١٥ سنة ١٩٨٢ .
٣٨٣ ـ القدس في شعر القرن السادس للهجرة ، د . ناظم رشيد . مجلة المورد . العدد ١ سنة ١٩٨٢ .
٣٨٤ ـ كاتب الدولتين النورية والصلاحية ، محمد بهجة الأثري . مجلة المجمع العلمي العراقي . الجزء الأول . المجلد الرابع . سنة ١٩٥٦ .
٣٨٥ ـ كنوز في رموز ، د . محمد مصطفى حلمي . ضمن الكتاب التذكاري ، محيي الدين بن عربي في الذكرى المئوية الثامنة لميلاده . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٦٦ .
٣٨٦ ـ المتنبي والمعري ، ابراهيم ناجي . مجلة الهلال ١٩٣٨ .
٣٨٧ ـ محمد بن كناسة الأسدي . حياته وشعره ونصوص باقية من كتابه الأنواء ، محمد قاسم مصطفى . مجلة آداب الرافدين ، العدد ٦ سنة ١٩٧٥ .
٣٨٨ ـ المدائح النبوية في عصر الحروب الصليبية ، د . ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين العدد ١٣ سنة ١٩٨١ .
٣٨٩ ـ مقامات بديع الزمان الهمداني ، د . محسن غياض . مجلة الطليعة الأدبية . العدد ٦ سنة ١٩٧٧ .
٣٩٠ ـ المقامة ، بلاشير . مجلة المشرق . العدد ٤٧ سنة ١٩٥٣ .
٣٩١ ـ مقتطفات من كتاب النمر والثعلب ، سهل بن هارون . تحـ ، عبد القادر المهيري . حوليات الجامعة التونسية . العدد الأول سنة ١٩٦٥ .
٣٩٢ ـ ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي ، طه محسن . مجلة آداب الرافدين . العدد ٧ سنة ١٩٧٦ .

٣٩٣ _ الناصر لدين الله ؛ د . مصطفى جواد . مجلة العربي (الكويتية) . العدد ١٢٤ سنة ١٩٦٩ .
٣٩٤ _ النشاط العلمي والأدبي في عهد الأسرة الأيوبية ؛ ناظم رشيد . مجلة آداب الرافدين . العدد ٨ سنة ١٩٧٧ .
٣٩٥ _ نظرة في حماسة أبي تمام ؛ د . ناظم رشيد . مجلة بين النهرين . العدد ٢٧ سنة ١٩٧٩ .
٣٩٦ _ النقد الأدبي في مقامات بديع الزمان الهمداني ؛ د . محمد قاسم مصطفى . مجلة المورد . العدد ٣ سنة ١٩٨٤ .
٣٩٧ _ وصف الطبيعة في شعر الصنوبري ؛ فواز أحمد طوقان . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق . الجزء الثالث . المجلد الرابع والأربعون . تموز ١٩٦٩ .

المحتوى

المقدمة ٥ـ ٦
قيام الدولة العباسية ٧ـ ١١
نظام الادارة ١١ـ ١٢
بناء بغداد ١٢ـ ١٥
ثقافة العصر ١٥ـ ١٨
عوامل ازدهار الشعر ١٨ـ ٢٠
العصر العباسي الاول ....
الموضوعات ....
المديح ٢١ـ ٢٩
الهجاء ٢٩ـ ٣٤
الرثاء ٣٤ـ ٤١
الغزل ٤١ـ ٤٧
الوصف ٤٧ـ ٥١
الزهد والتصرف ٥٣ـ ٥٥
المجون ٥٥ـ ٥٨
الشعوبية والزندقة ٥٨ـ ٦٢
الخمريات ٦٢ـ ٦٦
الشعر الفكاهي ٦٦ـ ٦٩
الشعر التعليمي ٦٩ـ ٧٢
التجديد في المعاني والأفكار ٧٣ـ ٧٨
الألفاظ والأساليب ٧٨ـ ٨٣
الاوزان والقوافي ٨٣ـ ٨٧
الشعراء ....
أبو العتاهية ٨٨ـ ١٠٠
مسلم بن الوليد ١٠١ـ ١٠٥
أبو تمام الطائي ١٠٦ـ ١٢٠
أبو عبادة البحتري ١٢١ـ ١٣٠
ابن الرومي ١٣١ـ ١٣٩

عبدالله بن المعتز .... ١٤٠_ ١٤٩

النثر ....

المقدمة : عوامل تطور النثر .... ١٥٠_ ١٥٢

الفنون النثرية ....

الرسائل .... ١٥٢_ ١٥٤

الخطابة .... ١٥٤_ ١٥٧

القصص .... ١٥٧_ ١٥٨

التوقيعات .... ١٥٩_ ١٦٠

نثر المؤلفات أو المصنفات .... ١٦٠_ ١٦١

النثر المترجم .... ١٦٢_ ١٦٣

الكتاب ....

عمرو بن بحر الجاحظ .... ١٦٤_ ١٧١

سهل بن هارون .... ١٧٢_ ١٧٥

عمرو بن مسعدة .... ١٧٦_ ١٧٩

محمد بن عبدالملك الزيات .... ١٨٠_ ١٨٣

ابن قتيبة .... ١٨٤_ ١٨٦

العصر العباسي الثاني ....

توطئة .... ١٨٧_ ١٩٠

الأدب في ظل البيئات الجديدة .... ١٩٠_ ١٩٩

القسم الأول : الشعر ....

الموضوعات .... ٢٠٠_ ٢١٠

الشعر القومي .... ٢١٠_ ٢١٥

وصف الطبيعة .... ٢١٥_ ٢١٩

الشعر الصوفي .... ٢١٩_ ٢٢٥

الشعراء ....

أبو الطيب المتنبي .... ٢٢٦_ ٢٤٨

أبو فراس الحمداني .... ٢٤٩_ ٢٥٥

أبو بكر الصنوبري .... ٢٥٦_ ٢٦٣

السري الرفاء .... ٢٦٤_ ٢٧١

الشريف الرضي .... ٢٧٢ ـ ٢٨٠
أبو العلاء المعري .... ٢٨١ ـ ٢٩١
سبط ابن التعاويذي .... ٢٩١ ـ ٢٩٩
عمر بن الفارض .... ٣٠٠ ـ ٣٠٦
القسم الثاني : النثر ....
تمهيد .... ٣٠٧ ـ ٣٠٨
اتجاه الصنعة .... ٣٠٨ ـ ٣٠٩
اتجاه الترسل .... ٣٠٩ ـ ٣١٠
أبو الفضل بن العميد .... ٣١١ ـ ٣١٦
أبو حيان التوحيدي .... ٣١٧ ـ ٣٢٤
المقامات : نشأتها وتطورها .... ٣٢٥ ـ ٣٣٢
بديع الزمان الهمداني .... ٣٣٣ ـ ٣٤١
القاضي الفاضل .... ٣٤٢ ـ ٣٤٨
عماد الدين الاصبهاني الكاتب .... ٣٤٩ ـ ٣٥٦
الخاتمة ٣٥٧
المصادر والمراجع .... ٣٥٩ ـ ٣٨٢

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٨٠٦ لسنة ١٩٨٩

دار ابن الاثير للطباعة والنشر
جامعة الموصل